الاستبداد

مَظاهِرُهُ وَمُوَاجَهَتُهُ

للعلامة مفتي سلطنة عمان
الشيخ أحمد بن حمد الخليلي
-حفظه الله-

الاستبداد
مَظَاهِرُه ومُوَاجَهَتُه

أشرف على نشر هذه المادة عبر شبكة المعلومات
موقع بصيرة الالكتروني

موقع بصيرة

يأتي بناء هذا الموقع الإلكتروني على الشبكة العالمية للمعلومات «الإنترنت» من منطلق مواكبة التطورالتقني المتسارع فيما يخدم الدين الإسلامي الحنيف، ويعود بالنفع والخير على الأمة الإسلامية جمعاء. وهو يتضمن موسوعة دينية لسماحة الشيخ العلامة بدر الدين أحمد بن حمد الخليلي المفتي العام لسلطنة عُمان، تشتمل على ثلاث مكتبات مرئية وسمعية ومقروءة وتضم المكتبة المرئية دروس التفسير لسماحة الشيخ بجامع السلطان قابوس بروي، ودروس العقيدة والفكر بجامعة السلطان قابوس، وحلقات برنامج سؤال أهل الذكر الذي يتم بثه مساء كل يوم أحد على التلفزيون العُماني ويوميا خلال ليالي شهر رمضان المبارك، هذا بالإضافة إلى المحاضرات العامة وخطب الجمعة والندوات التي يشارك بها سماحته.

www.baseera.net

الاستبـداد
مَظَاهِرُه ومُوَاجَهَتُه

تـألـيف
سماحة الشيخ العلامة أحمد بن حمد الخليلي
المفتي العام لسلطنة عُمان

الطبعة الأولى
١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م



﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾

[سورة هود/ الآية ١١٣]

شكر وعرفان

إن (من لم يشكر الناس لم يشكر الله) فالشكر لمن أسدى يدا واجب شرعي وأخلاقي وعليه فإنني ألهج بشكر كل من شارك بخدمة أو ملاحظة من أجل إنجاز مشروع تأليف هذا الكتاب سواء عرفته أو لم أعرفه وأخص من بين هؤلاء بكل شكر وتقدير شيخنا العالم الرباني حمود بن حميد الصوافي ـ حفظه الله تعالى ورعاه ـ الذي تكرم مشكورا بمراجعة هذا الكتاب من أوله إلى آخره وأهداني من الملاحظات السديدة ما زاده بهاء ونورا، وكذلك أخونا الفاضل الشيخ الأديب اللبيب أحمد بن سعود السيابي الذي تكرم بقراءة الكتاب كله، ووضع عليه بصماته بما أبداه من الملاحظات، وإليه يرجع الفضل في تسميته بعد توفيق الله تعالى، كما أشكر من قام بطبعه إبان إملائه من أول حرف منه إلى آخر حرف وهو الابن العزيز الشاب الموهوب أحمد بن حمد بن راشد الذهلي الذي لم يقتصر دوره على الطباعة فحسب وإنما كان لي عينا ويدا فقد كان ـ بخبرته الواسعة في المجال الإلكتروني ـ رائدا لي في اكتشاف كثير من الفوائد العلمية من المراجع المختزنة في المكتبات الإلكترونية كما كان عونا لي في تخريج الأحاديث من مراجعها.

وأشكر كذلك الشيخ الدكتور الدراكة الولد العزيز سلطان بن محمد الحراصي الذي قام بمراجعة الكتاب والتنبيه على كثير من الملاحظات

القيمة، والشكر كذلك موصول للابن العزيز الباحث الموهوب سلطان بن مبارك الشيباني على قيامه بمراجعة الكتاب والتصحيح لكثير من أخطائه المطبعية والتنبيه على كثير من القضايا المهمة.

وأخيرا وليس آخرا أشكر جميع أبنائي البررة الذين أعانوني ـ بجهدهم وخدمتهم ـ على إنجاز هذا المشروع ولم يألوا جهدا في تنبيهي على ما كنت غافلا عنه وأخص بالذكر، من بينهم بعد عمومهم ابني سليمان الذي هيأ لي المكان المناسب للقيام بهذا العمل وفتح لي مكتبته وأتاح لي إنجاز المشروع في جو هادئ لطيف، كما أهداني من بنات فكره ما كان لي مددا في هذا العمل المبارك، وكذلك ابني أفلح الذي ما فتئ من أول خطوة في هذا العمل جاهدا في تذليل الصعاب للوصول إلى منتهاه، فقد أدنى لي المراجع البعيدة وفتح لي الأبواب المغلقة وذلل لي المسائل المستعصية بثاقب فكره وعمق درايته إلى آخر خطوة في هذا القصد.

فجزى الله الجميع خيرا ووفقني وإياهم لما يحبه ويرضاه.

وبعد إنجاز المشروع امتدت يد كريمة سخية لنشره فقد أبت همة وسماحة سليل الأمجاد ذي المحتد الأصيل والشرف الباذخ الشيخ سعود بن علي الخليلي إلا أن يكون وحده القائم على طبعه ونشره من حر ماله فجزاه الله خيرا ووفقه للمسارعة إلى البر والمنافسة في كل خير.

والله ولي التوفيق

المؤلف

المقدمة

الحمد لله الذي يأمر بالعدل والإحسـان، وينهى عـن الجور والطغيان، سبحانه أنزل كتابه بالحق ليقوم الناس بالقسط، وأرسل رسوله ليرسم منهاج العدل، وليحدد موازين البر ومعايير الإحسان، ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]، وأشـهد أن لا إلـه إلا الله هو مالك الملك، يُعِزُّ مَنْ يشاء بعزته، ويذل من يشـاء بقوته، وأشهد أن سيدنا ونبينا عبده ورسوله، أرسله رحمة للعالمين وحجة على الخلق أجمعين، أفضل من حكم فعدل، وأصدق من قال فبَرّ، وأوفى من وعد فأنجز، صلى الله وسـلم عليـه وعلى آله وصحبه البـررة الأخيار، وعلى تابعيهم بإحسـان إلى يوم وضع الموازين القسط.

أما بعد؛ فقد شهدت الساحة العربية في العامين الأخيرين أحداثا هيأها القدر وسـاقها المقـدور حتى بلغت مداهـا، فتزعزعت عـروش، وانهدّت صروح، وتسـاقطت أنظمـة، وتَمَرَّغَتْ فـي الرغام أنوف، طالما شـمخت بكبريائها وتعالت في شممها، وتحطمت رؤوس ما كانت تحسب أن صروف الدهر ستدور عليها، أو أن عوادي الزمن ستمتد يدها إليها، وقامت من تحت الأنقاض شعوبٌ كم ديست بمناسم الجور، وكبست بوطأة الظلم، فانطلقت كأنما حلت من عقالها مسـتهدفة ظالميها تطلب الإثئار ممن سقاها كؤوس الذل وجرعها غصص الهوان.

وما من شك في كون العدل المنشود والحق المبتغى مطلبا فطريا للنفس البشرية، فإن الله خلقها حرة، وكرمها بما جللها به من سوابغ الإحسان، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، وما أعظم كلمة الفاروق رضي الله عنه التي حفظها الدهر ورواها، وسجلها الزمن ووعاها: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا»[١].

نعم؛ قالها الفاروق من أعماق قلبه، لأنه كان مؤمنًا بفحواها، إذ وعى ما أنزل الله على نبيه صلوات الله وسلامه عليه، وتدرج في أطوار التربية النفسية بمدرسة النبوة الخاتمة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، حتى كان في الرعيل الأول ممن وعوا معارفها واستقوا علومها، فحرص مع إخوانه الخلفاء الراشدين على تطبيق محتواها، فكانت خلافتهم عدلا وإحسانا، ونَعِمَ الإنسان في ظلها الوارف الظليل بالحرية والكرامة والأمن والاستقرار، وكان في مأمن أن تمتد إليه يد فتسلبه حقا من حقوقه التي منحه الله إياها، أو أن يلفحه هجير من العسف والظلم.

ولكن ليت شعري؛ هل ظلت الأمة تتمتع بهذه الحقوق كاملة غير منقوصة كما كانت في أيام الخلافة الراشدة، أو أنها ابتزت منها حقوقها هذه بعدما انطوت تلك الحقبة الزاهرة، ونشبت فيها مخالب الجور وأنيابه، ومهدت الطريق لبطش الجبابرة المستكبرين وقهر الظلمة المستبدين بتذليل الرقاب وطأطأة الرؤوس للظالم، «وإنْ ضَرَبَ ظهرك وأخذ مالك»؟!!!.

(١) ينظر: **فتوح مصر وأخبارها**، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله عبد الحكم بن أعين القرشي المصري (ت: ٢٥٧هـ/ ٨٧١م)، ج١، ص٢٩٠، دار الفكر، بيروت، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد الحجيري، وينظر: **ربيع الأبرار**، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، (ت: ٥٣٨هـ)، ج١، ص٢٨٩.

إن كُلَّ مَنْ يقلب صفحات التأريخ بتدبر وإمعان يدرك أن المعايير انقلبت رأسا على عقب بعد انطواء حقبة الخلافة الراشدة، وتحول الحكم في الإسلام إلى نظام كسروي قيصري يستلهم من عسف الفراعنة وجور الأكاسرة وبطش القياصرة نهجه الذي يسير عليه، فكابدت الأمة من الظلم والعسف ما كابدته الأمم الغابرة التي عاشت تحت نير الظالمين وبطش المستبدين، وقد مالأ الفقهاء الرسميون أولئك الظلمة وساندوهم على بطشهم وظلمهم، ووطأوا لهم الأكناف وهيأوا النفوس لتقبل هذا الوضع والرضوخ له والرضى عنه، وأصدروا الفتاوى التي تَصِمُ كُلَّ مَنْ أنكر هذا الوضع ولم يتقبله بالمروق والفتنة، وعززوا ذلك بروايات اختلقوها أو تأولوها وفق هواهم وأشاعوها بين الدهماء حتى صخت منها الأسماع وعميت بها البصائر والأبصار.

وظل هذا الفكر ـ بما فيه من الزيغ ـ هو الذي يسود العقول ويهيمن على السواد الأعظم من الناس، وتتوارثه الأمة أبًا عن جد جيلا بعد جيل، وصيغ وِفْقَهُ الفقه السياسي حتى لم يعد لسواه قبول، بحيث لو أراد أحدٌ أن يعيد فيه النظر لكان عرضة لسهام التضليل والتبديع من غير مرحمة.

أَفَتَعْجَبُ بعد هذا أن تسمع عندما هبّت رياح ما عُرِفَ بـ«**الربيع العربي**» فتاوى تدين الذين يريدون أن يتحرروا من ربقة الظلم ويتخلصوا من بطش الظالمين، وتُحَرِّم حتى مجرد الاحتجاج السلمي للمطالبة برفع الظلم، وتفرض عليهم أن يطأطئوا رؤسهم للظلم ويحنوا ظهورهم للظالمين، ويستكينوا للبطش ويستمرئوا الجور، ويتقربوا إلى الله تعالى بطاعة الجائرين والذل للمستبدين، فإن هذا هو الذي فرضته العقيدة التي فرضت على الأمة فتوارثتها قرنا بعد قرن منذ انطوى الحكم الراشدي، ونشأ في الأمة حكم جاهلي يستمد شرعيته من النظام الكسروي القيصري وإن كان ينتسب زورا

إلى الإسلام ويتزيى بلبوسه ويتحلى بحليته، ويدعم وجوده باسمه ويقاوم كل من تصدى له بشعاره، فكان بخبثه ودهائه يحارب الإسلام بسيف الإسلام ويتوقى سيوف أبناء الإسلام بمجنه ودروعه.

وهذا أيضا ما فرضه الفقه السياسي الذي صيغ بعقول نشأت في هذا المحيط الذي يسوده الظلم والاستبداد تحت شعار الإسلام، وتغذت بفكره وتوجهت بإرادته، فكانت لأولي الهيمنة القابضين على أزِمَّتِهِ أتبع من الظل وأخنع من النعل.

وإذا كانت هذه الفتاوى عورضت بفتاوى أخرى فَنَّدتها وبينت للناس منافاتها لروح الإسلام الحق الذي جاء ليرفع عن الإنسانية وطأة الظلم وهيمنة الظالمين، فإنها أوهن حجتَها وأخفت صوتَها عدمُ قدرة أصحابها على التحرر من عقدة الماضي والتعلق به والدفاع عن الذين حملوا فيه لواء الظلم وسنوه في هذه الأمة، فكانوا أسوة لكل ظالم يأتي من بعدهم إلى قيام الساعة، فإن هؤلاء أنفسهم هم الذين تجردوا للدفاع عن الظالمين فنصبوا من أنفسهم محامين عنهم، يبررون ظلمهم ويدفعون في صدور الذين تصدوا لبطشهم، وحاولوا أن يخلصوا منهم الأمة، إذ إن أصحاب هذه الفتاوى أنفسهم هم الذين رشقوا الذين سعوا في التأريخ الغابر إلى تخليص الأمة من الظلم والبطش بسهام التهم، ونبزوهم بالألقاب، وكالوا لهم الذم كيلا، فأتت فتاواهم هذه تناقض ما بنوه من فكر وتعاكس ما ساروا عليه من خطى، فانقلبت عندهم الموازين وازدوجت المعايير.

ومن البدهيات التي لا تسوغ المماراة فيها أن النظرة إلى الحاضر لا تستقيم إلا باستقامة النظرة إلى الماضي، ووضع كل شيء منه في نصابه السليم وإعطائه حكمه الشرعي استهداء بكتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من

بين يديه ولا من خلفه، واتباعا لهدي رسوله ﷺ الذي ترك الأمة على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

لذلك أردتُ أن تكون هذه الدراسة مؤدية لهذا الغرض وموصلة إلى هذه البغية، وإن كانت باختصار شديد، وقد جعلتُها في قسمين:

القسم الأول: **مَظَاهِر الاستِبْدَاد.**

القسم الثاني: **مُوَاجَهَة الاسْتِبْدَاد.**

ويشتمل كل قسم على موضوعات شتى، لكل موضوع عنوانه.

القسم الأول:

مظاهر الاستبداد

انتشارُ الظُّلْمِ في الأُمَم وقَبُولُ الناس له:

إن المتأمل في أحوال الأمم يجد أن انتشار الظلم فيها ورضوخها له كان نتيجة زيغ العقول وانحراف الأفــكار عن الفطرة وانقلاب الموازين في تلك الأمم، بحيث ترى القبيح حسنا والحسن قبيحا والجور عدلا والعدل جورا، حتى تستمرئ جماهير الناس الذل وتستعذب الهوان وتتقبل كل ما تلقاه من بطش وتعانيه من حرمان، فلا تفكر في حق تطالب به أو حرية تتمتع بها في الحياة، لأنها رضيت لنفسها حياة العبودية، فلا تزال مستخذية للظالم تتقرب إليه بكل ما يريده منها.

إذ الحق فــي موازينها إنما هو للســلطة الظالمة، وما للشــعوب إلا أن تســتكين وتذل وتنقاد عن طواعية لرغبات الظالمين ونــزوات المتكبرين، وترضى أن يتحكم الجبابرة في أرواحهم وأجســادهم وأموالهم وأعراضهم، لأن لهم الأرض وما أقلت والسماء وما أظلت! وليست إرادتهم إلا من إرادة الله! وحسب الإنسان أن يسمحوا له بالحياة وأن ينعموا عليه بشظف العيش! فيكفيه أن يقتات مما يتساقط في الثرى أو يساق إلى المزابل مما يفضل عن حاجاتهم المعيشية.

فمن نال ذلك فعليه أن يشكر هذه النعمة لمن سمح له بها!! ومن حرم

منها فعليه أن يصبر وأن لا يلابســه حرج في نفســه من هذا الحرمان، إذ لا يعدو أن يكون كالخشبة المقطوعة من الشجرة توقد تارة بها النار وتشق تارة لأغراض أخرى وهي لا تملك أن تدفع عن نفسها، لأن ذلك هو قدرها!!.

تأثير القِيَادات الرُّوحية على الناس بالدّجل ليتقبلوا الظُّلم:

من المعلــوم أن للقيادات الروحية والســلطات الدينيــة دورا فاعلا في ترســيخ هذه المفاهيم فــي نفوس الناس حتــى يتقبلوهــا ويرضخوا لظلم الظالمين، فما كانت القيادات السياسية الجائرة لتصل إلى أغراضها إلا على جســور يهيؤها القادة الروحانيون، لا فرق في ذلك بين مــا كان في الأمم السابقة وما رزئت به هذه الأمة، وإليك صورا من ذلك.

١ ـ الفَرَاعِنَة:

لا يخفى على ذي بال ما نكبت به شــعوب مصر وما حولها من بطش الفراعنة وظلمهم، ناهيك ما ذكر في القرآن من فســاد فرعون موسى وعتوه وعلوه كما في قولــه تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ القصص: ٤، والمســتقرئ للتاريخ يجد أنهم إنمــا وصلوا إلى مبتغاهم مــن إذلال الناس والبطــش بهم والتحكم فــي أرواحهم وأموالهم وأعراضهم بما كان للكهنة من دور تضليلي لعقول الجماهير.

وإليك شــاهدا من ذلك مما ذكره الدكتور موســى الموسوي في بعض مؤلفاته حيث قال: «كان (سنوحي) طبيباً للفرعون (أمفسيس) الذي عاش في القرن العاشــر قبل الميلاد، وقد كتب مذكراته عن حيــاة هذا الفرعون وعن الشعب المصري الذي كان يعاني استبداد (أمفسيس). واكتشف علماء الآثار

هذه المذكرات ضمن ما خلفته السنون بين الكتب الهيروغليفية، وترجمت مذكرات هذا الطبيب التي كتبها بأسلوب رائع وبديع إلى اللغات العالمية الحية، وطبعت أكثر من مرة، وهي الآن بين أيدينا يستطيع القراء قراءتها كل بلغته واستخلاص دروس العجب منها.

يقول (سنوحي) في مذكراته: كنت أمشي في شارع من شوارع مصر، وإذا بالرجل الوجيه الشريف الثري المعروف (إِخناتون) ملقى على الأرض مضرجاً بدمائه، وقد قطعت يداه ورجلاه من خلاف وجدعت أنفه، وليس في بدنه مكان إلا وفيه طعنة رمح أو ضربة سوط وهو قاب قوسين أو أدنى من الموت، فحملته إلى دار المرضى وجاهدت جهاداً عظيماً لإنقاذه من الموت، وبعد شهرين أو أكثر وعندما أفاق من غيبوبته قص عليَّ قصته المحزنة المفجعة قائلاً:

«لقد أمرني الفرعون (أمفسيس) أن أتنازل له عن كل شبر أرض أملكه، وأن أهبه أزواجي وعبيدي وكل ما أملك من ذهب وفضة، فاستجبت لما أراد، بشرط أن يترك لي داري التي أسكن فيها ومعشار ما أملكه من الذهب والفضة لأستعين بها على أودي، فاستثقل فرعون هذا الشرط واستولى على كل ما كان عندي، ثم أمر بأن يفعل بي تلك الأفاعيل الشنيعة، وأن أطرح في الشارع عارياً لأكون عبرة لمن يخالف أوامر الإله (أمفسيس)».

ودارت الأيام، و(إخناتون) المسكين يعاني الفقر والحرمان، وكل أمله في هذه الدنيا هو القصاص من الفرعون الظالم ولو على يد غيره.

ومات الفرعون، وحضرت مراسيم الوفاة بصفتي كبير الأطباء، فكان الكهنة يلقون خطب الوداع مطرين الراحل العظيم، وكانت الكلمات التي يرددونها لا زلت أتذكرها جيداً، فقد كانوا يقولون: «يا شعب مصر، لقد

فقدت الأرض والسماء وما بينهما قلباً كبيراً كان يحب مصر وما فيها من إنسان وحيوان ونبات وجماد، كان للأيتام أباً وللفقراء عوناً وللشعب أخاً ولمصر مجداً. كان أعدل الآلهة وأرحمهم وأكثرهم حباً لشعب مصر. ذهب (أمفسيس) لكي ينضم إلى الآلهة الكبار وترك الشعب في ظلام».

ويضيف (سنوحي): «وبينما كنت أصغي إلى كلام الكهنة ودجلهم في القول، وأندب حظ مصر وشعبها المسكين الذي يرزح تحت سياط الفراعنة والكهنة معاً، وبينما كانت الجماهير المحتشدة ـ التي لقي كل فرد منهم على حدة من بطش فرعون وسياطه أذى وعذاباً ـ تجهش بالبكاء: سمعت رجلاً يبكي كما تبكي الثكلى، وصوت بكائه علا الأصوات كلها، ويردد عبارات غير مفهومة، فنظرت مليًا، وإذا صاحب البكاء هذا هو (إخناتون) المعوق العاجز الذي كان مشدوداً على ظهر حمار، وأسرعت إليه لأهدئه بعض الشيء، فقد ظننت أنه يبكي سروراً وابتهاجاً على وفاة ظالم ظلمه إلى حد الموت بالتعذيب، ولكن (إخناتون) خيب آمالي عندما وقع نظره عليَّ، وأخذ يصرخ عاليا بقوله: «يا (سنوحي) لم أكن أعلم أن (أمفسيس) كان عادلاً وعظيماً وباراً بشعبه إلى هذه المرتبة العظيمة إلا بعد أن سمعت ما قاله كهنتنا فيه. وها أنا أبكي يا (سنوحي) لأنني حملت في قلبي حقداً على هذا الإله العظيم بدلاً من الحب والإجلال طوال سنوات عديدة، حقًّاً لقد كنت في ضلال كبير».

ويقول (سنوحي): وعندما كان (إخناتون) يكرر هذه الكلمات بإيمان راسخ، كنت أنظر إلى أعضائه المقطوعة وصورته المشوهة وأنا حائر فيما أسمع، وكأنه قرأ ما يدور في خلدي، وإذا به يصرخ فيّ بملء شدقيه: «لقد كان (أمفسيس) على حق فيما فعله بي؛ لأنني لم أستجب إلى أوامر الآلهة، وهذا هو جزاء كل من يعصي الإله الذي خلقه وأحبه، وأي سعادة أعظم للمرء من أن ينال جزاء أعماله الذي يستحق على يد الإله لا على يد غيره».

من (أمفسيس) هذا؟ فرعون من فراعنة مصر، حكمها بالنار والحديد طوال عشر سنوات، دخل في حرب خاسرة مع بلاد النوبة الجارة، قتل فيها خمس شعب مصر، خرب المزارع وقطع الأشجار، وأباد شباب مصر متهماً إياهم بالهزيمة في الحرب التي شنها ضد النوبة، أحرق العاصمة في إحدى ليالي مجونه كما فعل بعده (نيرون) بسبعة قرون الذي أحرق روما عاصمة الرومان.

لقد كان عهد (أمفسيس) أسوأ عهد عرفته مصر في تاريخ الفراعنة الذين حكموها مبتدئا من الأسرة الأولى حتى الأسرة الخامسة التي كان (أمفسيس) أول أفرادها.

مات (أمفسيس) وترك خراباً شاملاً وشعباً ممزقاً، ومع كل هذا بكته الجماهير المحتشدة متأثرة برثاء الكهنة وخطبهم، ومن بين تلك الجماهير (إخناتون) المسكين»[1].

نعم؛ هكذا يفعل التضليل بعقول الناس عندما يصدر من أفواه قوم يتظاهرون بالدين ويرفعون شعاره، ويتولون قيادة الأمم إليه وحل رموزه وإيضاح مبهماته لهم، فلا تلبث العقول أن يطغى عليها التضليل، فيعمي بصائرها ويطمس شعاعها، فتنقلب عندها الموازين حتى ترى الطغيان عدلا وإحسانا وتحسب البطش بها برا ومرحمة.

وَأَقْتَلُ دَاءٍ رُؤْيَةُ العَيْنِ ظَالِماً ... يُسِيءُ وَيُتْلَى فِي الْمَحَافِلِ حَمْدُهُ

٢ ـ أباطرة الرومان.

لم يكن خافيا على من اطلع على التأريخ ما كان لأباطرة الرومان من وطأة لا تطاق على الشعوب التي وقعت تحت نير قهرهم، إذ كانت وما

(١) **يا شيعة العالم استيقظوا**، موسى الموسوي، ص٧-١٠.

تملك ملكا للأباطرة يتحكمون فيه كما شاؤوا، فكانوا يتحكمون في أرواح الناس وأعراضهم وممتلكاتهم من غير أن يكون لأحد رأي أو حرية، وعندما اعتنقوا النصرانية لم يلبث البابوات أن اتحدوا معهم؛ فروضوا لهم الجامح وذللوا لهم الصعب، طمعا في رفدهم وحبا في اقتناص ما يسنح من دنياهم.

ويصور الأستاذ سيد قطب في كتابه القيم (العدالة الاجتماعية في الإسلام) الواقع المؤلم الذي كان في أوروبا النصرانية نتيجة تلاقي مصلحتي البابوات والأباطرة واجتماعهم على إذلال الجماهير واستغلالها حتى قيل: إن الدين مسخر لإخضاع الملايين للمستبدين ورجال الدين، لأنه هكذا كان عند الأوروبيين!![١].

وقد كان للتعاليم التي تقدمها الكنيسة النصرانية دور بارز في ترسيخ استبداد الأباطرة، وتطويع الشعوب لهم، حتى غدت كقطيع من الحيوان يتحكمون فيها كما شاءوا، فقد أعطت القياصرة حقا إلهيا يفرض على عامة الناس طاعتهم على أي حال ولو حرموهم من أدنى حقوق الإنسانية.

وقد كان لهذا التحالف البابوي الإمبراطوري تأثير على عقلية الشعوب، إذ كانت تعتقد أن القيصر من نسل الآلهة وأن الله هو الذي أعطاه هذا الحق قدراً وشرعاً وأورثه لسلالته المقدسة[٢].

٣ ـ أباطرة الفرس:

لم يكن الشعب الفارسي والشعوب الأخرى التي كانت واقعة تحت

---

(١) **العدالة الاجتماعية في الإسلام**، سيد قطب، ص٩، دار الشروق، القاهرة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ط١٣.

(٢) انظر: **مقدمة في تطور الفكر الغربي والحداثة**، سفر الحوالي. بحث منشور في موقع سفر الحوالي ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

نفوذ الأباطرة الساسانيين أحسن حالا من الشعوب التي كانت تحكم من قبل أباطرة الرومان، إذ لم تكن للإنسان قيمة في حكمهم، إلا ما هو للحيوان الأعجم والجماد الميت، وكانت ثرواتهم تعتصر ليتدفق خيرها على خزائن الأباطرة، ناهيك بما ذكره الطبري عمن كان يعد أرحمهم قلبا وأرقهم شعورا حتى كان يعرف بالملك العادل وهو كسرى أنو شروان، فقد فكر أن يمسح أرض ممالكه ويفرض ضريبة ثابتة على كل ما فيها من زرع وغرس وعين ونهر كل بقدره، فعرض ذلك على فئات من طبقات الناس يستشف رأيهم فيما عزم عليه.

قال الطبري: «فلم يشر عليه أحد منهم فيه بمشورة ولم ينبس بكلمة، فكرر كسرى هذا القول عليهم ثلاث مرات، فقام رجل من عرضهم وقال لكسرى: أتضع أيها الملك ـ عمرك الله ـ الخالد من هذا الخراج على الفاني من كرم يموت وزرع يهيج ونهر يغور وعين أو قناة ينقطع ماؤها، فقال له كسرى: يا ذا الكلفة المشؤوم من أي طبقات الناس أنت؟ قال: أنا رجل من الكتاب، فقال كسرى: اضربوه بالدوى حتى يموت، فضربه بها الكتاب خاصة تبرؤا منهم إلى كسرى من رأيه وما جاء منه حتى قتلوه، وقال الناس: نحن راضون أيها الملك بما أنت ملزمنا من خراج»[(١)].

فانظر كيف يستشيرهم ثم يأمر بقتل من أشار بخلاف رأيه!! وإذا كان هذا أرقهم قلبا وألطفهم معشرا وأعدلهم حكما، فما بالك بغيره؟!.

ومع هذا؛ فقد كان الأكاسرة يعدون عنصرا مقدسا عند المجوس، حيث كانوا يرسخون في الفكر العام أن دماءهم أطهر الدماء وأزكاها، وطبائعهم

(١) تاريخ الطبري، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ)، ج١، ص٤٥١، دار الكتب العلمية، بيروت.

تتميز على سائر طباع الخلق لأنهم متسلسلون من عنصر موصول بالذات الإلهية، بل كانوا يحملون الناس على تأليههم، ويُرَدَّدُ ذلك من خلال ما يتلى من النشيد في تمجيدهم، ومن أمثلة ذلك ما كانوا يقولونه في تمجيد (خسرو) الإمبراطور الذي عاصر بعثة النبي ﷺ، حيث فرض على الناس أن يقولوا فيه:

«في الآلهة إنسان غير فان، وفي البشر إله ليس له ثان، علت كلمته وارتفع مجده، يطلع مع الشمس بضوئه، وينير الليالي المظلمة بنوره»[(١)].

وقس على ذلك ما كان عند سائر أهل الديانات من خدمة حملة الدين للسياسة القائمة، وتطويع الأمم لها وتبرير كل ما يصدر عنها من إذلال وقهر، وإضفاء صفة القداسة على رؤساء السلطة المتنفذين.

نَسْفُ الإِسْلام لهذِهِ الأفكار الخاطئة والمناهِجِ الظَّالمة:

عندما ظهر الإسلام نسف هذه الأفكار كلها، وأتى على هذه النظم، وأقام الناس على قدم المساواة، وكان على القوي حتى يأخذ الحق منه، ومع الضعيف إلى أن يأخذ الحق له، وجعل الميزة للتقوى؛ فمن كان أوفر حظا منها كان أولى بالتقدير والاحترام، فإن الناس جميعا ينحدرون من أصل واحد؛ فكلهم من (آدم) و(حواء) وهما من التراب، وكان مما اشتمل عليه الكتاب العزيز هذا الأصل الأصيل في مفاهيمه الصادقة وموازينه العادلة، فقد قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، وجعل الحكم لله

(١) السيرة النبوية، العلامة الداعية الحكيم أبو الحسن علي الحسني الندوي (ت١٤٢٠هـ)، ص٢٩٨، دار القلم، دمشق، نقلا عن إيران في عهد الساسانيين، ص٦٠٤.

وحده، وما القائم بالحكم إلا منفذ لشرع الله، وحكمه عليه أن يكون أسرع الناس انقيادا لأمر الله وخضوعا لحكمه واتباعا لشرعه، وعلى من حوله أن يعينوه ما أقام شرع الله واتبع أمره ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

وقد كان الحكم عقدا وصفقة بين الحاكم والمحكومين، وعلى كلا الطرفين الالتزام بما تحمله من عهد والخضوع والانقياد للشرع من غير أن يتطاول الحاكم على المحكوم، أو يذل المحكوم للحاكم، وعلى كل من تولى الحكم أن ينصف الجميع، من غير أن يحابي قريبا أو حبيبا، أو يبخس بعيدا أو بغيضا، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥]. وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

وقد كان النبي ﷺ أعلى مثل في اتباع ذلك وتطبيقه، على أنه أتى إلى الدنيا وهي بجميع أرجائها تئن تحت وطأة الظلم ونير الاستعباد والاستبداد:

أَتَيتَ وَالناسُ فَوضى لا تَمُرُّ بِهِم … إِلّا عَلى صَنَمٍ قَد هامَ في صَنَمِ
وَالأَرضُ مَملوءَةٌ جَوراً مُسَخَّرَةٌ … لِكُلِّ طاغِيَةٍ في الخَلقِ مُحتَكِمِ
مُسَيطِرُ الفُرسِ يَبغي في رَعِيَّتِهِ … وَقَيصَرُ الرومِ مِن كِبرٍ أَصَمُّ عَمِ

فشمر ﷺ عن ساعديه، وقاوم الجور في الحكم كما قاوم الضلال في الاعتقاد، حتى استطاع أن يقيم دولة الحق، وينصب معالم العدل، ويذيق الناس طعم الإنصاف، ويقيم بينهم موازين القسط، ويرفع عنهم وطأة الظلم

والاســتبداد، ويحرر رقابهم مــن العبودية لغير الله، فلم يقبضــه الله إليه إلا وغدت الجزيرة العربية واحة ينعم فيها الإنســان بالحرية، بعدما فكت عنها أغلال العبوديــة لغير الله، على أنها كانت قبل ذلــك كغيرها من بلاد العالم يلفحها هجير الظلم والجور، وتكبلها قيود الاستعلاء والاستكبار.

وعندما قبضــه الله إليه قامت خلافة راشــدة كان هديهــا امتدادا لهدي نبوته ﷺ، فعمرت الأرض بالعدل والإحســان، وفتحت آفاقها لتنعم أطرافها بهذه النعمة، ولتتمتع الإنسانية بحريتها وكرامتها، وليقوم الناس جميعا على قدم المساواة، لا يتقدم أحد أحدا إلا بقدر ما يقدمه عمله وإخلاصه وتقواه، وكان الخليفة كواحد من الرعية يحاســب من خاصتها وعامتها كما يحاسب الأجير ممن أتجره. ولكن لم تكد تنطوي الخلافة الراشدة حتى انطوى معها العدل، وذهبت معها حرية الإنســان وقيمته وكرامته، فقــد عادت الجاهلية بشراستها لتحكم الناس بالعسف والاستبداد، ولتسلبهم حقوقهم، ولتذيقهم من الهوان أمره، وتجرعهم من الذل أغصه، ويصــور الداعية الكبير العلامة أبو الأعلى المــودودي هذا الواقع الــذي كان حلوا أوله ومــرا آخره بقلمه الموهوب، فقد قال بعد وصف إنجاز النبي ﷺ ما أنجزه:

«كل هذا أتمه خاتم النبيين سيدنا محمد ﷺ في مدة ٢٣سنة، ثم قدر الله للأمة زعيمين عظيمين؛ أبا بكر الصديق وعمــر الفاروق رضي الله عنهما، واصلا عمله كاملاً بجميع شــعبه ونواحيه، ثم انتقل الأمر بعدهما إلى سيدنا عثمان رضي الله عنه وبقــي على ما أقامه النبي ﷺ إلى عدة من الســنين في صــدر ذلك العهد، ولكن أمر الخلافة آل إلى السعة والتقدم على مضي الأيام تبعاً لاتساع رقعة الدولة الإسلامية بسرعة، والخليفة الثالث الذي ألقي عليه عبء هذا العمل الجليل كان لا يتصف بتلك الخصائص التي أوتيها العظيمان اللذان سبقاه، ووجدت الجاهلية ســبيلها إلى النظــام الاجتماعي الإســلامي، وأن تيارها

الجارف وإن حاول عثمان سده ببذل نفسه ومهجته إلا أنه لم ينكف، ثم خلفه عليّ ـ كرم الله وجهه ـ، واستفرغ جهده لمنع هذه الفتنة، وصيانة السلطة السياسية للإسلام من تمكن الجاهلية منها، ولكنه لم يستطع أن يدفع هذا الانقلاب الرجعي المركوس حتى بذل نفسه، فانتهى بذلك عهد الخلافة على منهاج النبوَّة، وحل محلها الملك العضوض، وبدأ الحكم يقوم على قواعد الجاهلية، بدلاً من قواعد الإسلام.

ولما أصبح الحكم إلى الجاهلية جعلت عدواها تسري إلى الحياة الاجتماعية، وتدب فيها دبيب السرطان في الجسم الحي، ولا غرو فقد كانت مقاليد السلطة بيدها لا بيد الإسلام، وكان الإسلام ـ بعد أن فقد قوة الحكم ـ لا يمكن أن يمنع أثرها من النفوذ، وسلطانها من الامتداد.

وآفة الآفات أن الجاهلية لم تمثل بين يدي القوم في حقيقتها العارية المكشوفة، بل واجهت الناس لابسة قناع الإسلام، ملونة بلونه، ولو كان إزاء الإسلام قوم من الملاحدة والكفار والمشركين الصرحاء لهان الخطب وسهل الكفاح، ولكنهم كانوا قوماً كانت علانيتهم الإقرار بالتوحيد، والإيمان بالرسالة، والمحافظة على الفرائض، والاستشهاد بكتاب الله وسنة الرسول، وفي باطن أمرهم كانت الجاهلية تعمل عملها من وراء حجاب، وإذا اجتمعت الجاهلية والإسلام على هذا الوجه في كائن واحد فلابد أن تحدث المشكلات والمعضلات التي تكون معالجتها أصعب وأشق ألف مرة من مقاومة الجاهلية المحضة، فإنك إن قمت تحارب الجاهلية الصريحة التف من حولك مئات الألوف من المجاهدين ينصرونك عليها، ولم يتجرأ أحد من المسلمين أن يساعدها عليك، ولكنك إن خرجت تحارب هذا الممزوج بين الجاهلية والإسلام، لم يستعد للذب عنها المنافقون وحدهم، بل انبرى كثير من المسلمين المخلصين وأقبلوا عليك يلومونك ويتهمونك.

ومن الحق لعمر الله أن اعتلاء المســلم ســرير الحكم الجاهلي، وتقلده زعامة السياسة الجاهلية، وأن شــغل المسلم وظيفة المعلم في معهد التعليم الجاهلي وتوليه المشــيخة الجاهلية، لخدعة خادعة قلّ من يسلم من الوقوع في حبائلها.

وكان أشــد وأخطر ما في هذا الانقلاب المركوس، أن جاءت الجاهلية بأنواعها الثلاثة لابسة لباس الإســلام، وجعلت تتأصل في المجتمع العربي الإسلامي وتتمشى فيه، وغدت آثارها تزداد انتشــاراً على مرور الأيام، فأما الجاهلية المحضة فعمــدت إلى الدولة والحكومة فهيمنــت عليها وانقلبت الخلافة قيصرية جاء الإســلام بقطع دابرها، ولم تبق فيهــا من الخلافة إلا اســمها، احتالوا بأخذهم بالأثر المروي «الســلطان ظــل الله» وتبوأ الملوك والأمراء بهذه الحيلة منزلة المطاع التي هي خاصة للإله، واسترســل الأمراء والحكام والولاة ورجال الجيش والمترفــون إلى الجاهلية المحضة في هذه الملكية، وتأثرت حياتهم في قليل أو كثير بوجهة نظرها، وفسدت أخلاقهم ومعيشتهم بعاهتها.

وكان من الطبيعــي أن يصحب ذلك كله رواج فلســفة الجاهلية وآدابها وفنونها، فتدون العلوم والمعارف على طرازها، إن هذه الأمور تتطلب رعاية الدولة وإشــرافاً من الحكومة، ولما كانت هاتان تحت استيلاء الجاهلية، لم يكن بد من استيلائها أيضاً على تلك الأمور»[1].

وقد اتضح من كلامه هذا ما رزئت به الأمة فــي تلك الحقبة التأريخية الســوداء المظلمة، من فقد خصائص دين الإســلام التي جاء بها النبي ﷺ وطبقت في الخلافة الراشــدة، ومن أهمها العدل، واستقامة القمة والقاعدة،

(١) **موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه،** طبع دار السعودية للنشر والتوزيع، ص٤٠ - ٤٣.

وحرية التعبير، ومحاسبة الخليفة على كل ما يصدر عنه والرجوع عند الاختلاف في كل شيء إلى الله ورسوله؛ فقد أصبح الحكم مطلقا في يد شخص واحد، تساعده بطانة من جنسه، تتزلف إليه بكل شيء من غير مبالاة بسخط الله ﷻ، وتسفك لأجله الدماء، وتنهب لإرضائه الأموال، وتنتهك كل حرمة من الحرمات، وتنشر بين الناس فكرة الطاعة المطلقة له، من غير أن يكون لهم أن يطالبوا بحق، أو أن يدفعوا عن كرامة، أو أن يحموا حرمة، أو يتمتعوا بحرية في شيء.

وبناءً على هذا؛ كان ذلكم الفرد المتسلط هو المالك المطلق لثروة الأمة، يسخرها في شهواته، ويبذرها في ملذاته، من غير أن يحسب حسابا للجماهير المحرومة التي تتضور جوعا، وتعاني من حرمان أقل حقوقها وأدنى ما يعيش عليه المرء من شظف العيش ونكد الحياة، وقد صور الداعية الكبير العلامة المفكر أبو الحسن الندوي في كتابه القيم (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) هذه الحالة التي عانتها الأمة في تلك الحقبة من الدهر، ورسم بيراعه السيال الموهوب تلك الصورة الشوهاء لذلك التأريخ المحلولك البغيض أبدع رسم حيث قال:

«لقد أتى على العالم العربي عهد في التاريخ كانت الحياة فيه تدور حول فرد واحد ـ وهو شخص الخليفة أو الملك ـ أو حول حفنة من الرجال ـ هم الوزراء وأبناء الملك ـ وكانت البلاد تعتبر ملكاً شخصياً لذلك الفرد السعيد والأمة كلها فوجاً من المماليك والعبيد، ويتحكم في أموالهم وأملاكهم ونفوسهم وأعراضهم، ولم تكن الأمة التي كانت يحكم عليها إلا ظلاً لشخصه ولم تكن حياتها إلا امتداداً لحياته.

لقد كانت الحياة تدور حول هذا الفرد بتاريخها وعلومها وآدابها وشعرها وإنتاجها، فإذا استعرض أحد تاريخ هذا العهد أو أدب تلك الفترة من الزمان

وجد هذه الشخصية تسيطر على الأمة أو المجتمع، كما تسيطر شجرة باسقة على الحشـائش والشـجيرات التي تنبت فـي ظلها وتمنعها من الشـمس والهواء، كذلك تضمحل هذه الأمة في شخص هذا الفرد وتذوب فيه وتصبح أمة هزيلة لا شخصية لها ولا إرادة، ولا حرية لها ولا كرامة.

وكان هذا الفرد هو الذي تدور لأجله عجلة الحياة، فلأجله يتعب الفلاح ويشتغل التاجر ويجتهد الصانع، ويؤلف المؤلف وينظم الشاعر، ولأجله تلد الأمهات، وفي سـبيله يموت الرجـال وتقاتل الجيوش، بـل ولأجله تلفظ الأرض خزائنها ويقذف البحر نفائسه وتستخرج كنوز الأرض خيراتها.

وكانت الأمة ـ وهي صاحبة الإنتاج وصاحبـة الفضل في هذه الرفاهية كلها ـ تعيش عيش الصعاليك، أو الأرقاء المماليك، وقد تسعد بفتات مائدة الملك وبما يفضل عن حاشيته فتشـكر، وقد تُحرم ذلك أيضاً فتصبر، وقد تموت فيها الإنسانية فلا تنكر شيئاً بل تتسابق في التزلف وانتهاز الفرص.

هذا هو العهد الذي ازدهر في الشرق طويلاً وترك رواسب في حياة هذه الأمة ونفوسها وفي أدبها وشـعرها، وأخلاقها واجتماعها، وخلّف آثاراً باقية في المكتبـة العربية، ومن هذه الآثار الناطقة كتـاب (ألف ليلة وليلة) الذي يصور ذلـك العهد تصويراً بارعاً، يوم كان الخليفـة في بغداد أو الملك في دمشـق أو القاهرة هو كل شـيء، وبطل رواية الحياة ومركز الدائرة، إن هذا العهد الذي يمثله كتاب (ألف ليلة وليلة) بأساطيره وقصصه، وكتاب الأغاني بتاريخه وأدبه، لم يكن عهداً إسـلامياً، ولا عهداً طبيعياً معقولاً، فلا يرضاه الإسلام ولا يقرّه العقل، بل إنما جاء الإسلام بهدمه والقضاء عليه، فقد كان هذا هو العهد الذي بعث فيه محمد ﷺ فسـماه الجاهلية ونعى عليه وأنكر على ملوكه ـ ككسرى وقيصر ـ وعلى أثرتهم وترفهم أشد الإنكار.

إن هذا العهد غير قابل للبقاء والاستمرار في أي مكان وفي أي زمان ولا سبيل إليه إلا إذا كانت الأمة مغلوبة على أمرها أو مصابة في عقلها أو فاقدة الوعي والشعور أو ميتة النفس والروح.

إن هذا الوضع لا يقره عقل، ومن الذي يسوّغ أن يتخم فرد أو بضعة أفراد بأنواع الطعام والشراب ويموت آلاف جوعاً ومسغبة؟! ومن الذي يسوغ أن يعبث ملك أو أبناء ملك بالمال عبث المجانين، والناس لا يجدون من القوت ما يقيم صلبهم ومن الكسوة ما يستر جسمهم، ومن الذي يسوغ أن يكون حظ طبقة ـ وهي الكثرة ـ الإنتاج وحده والكدح في الحياة والعمل المضني الذي لا نهاية له، وحظ طبقة ـ وهي لا تجاوز عدد الأصابع ـ إلا التلهي بثمرات تعب الطبقة الأولى من غير شكر وتقدير وفي غير عقل ووعي، ومن الذي يسوغ أن يشقى أهل الصناعة وأهل الذكاء وأهل الاجتهاد وأهل المواهب وأهل الصلاح، وينعم رجال لا يحسنون غير التبذير ولا يعرفون صناعة غير صناعة الفجور وشرب الخمور ؟! ومن الذي يسوغ أن يُجفى أهل الكفاية وأهل النبوغ وأهل الأمانة ويقصوا كالمنبوذين ويجتمع حول ملك أو أمير فوج من خساس النفوس وسخفاء العقول وفاقدي الضمائر ممن لا همَّ لهم إلا ابتزاز الأموال وإرضاء الشهوات، ولا يحسنون فناً من فنون الدنيا غير التملق والإطراء والمؤامرة ضد الأبرياء، ولا يتصفون بشيء غير فقدان الشعور وقلة الحياء.

إنه وضع شاذ لا ينبغي أن يبقى يوماً فضلاً عن أن يبقى أعواماً.

إنه إن سبق في عهد من عهود التاريخ وبقي مدة طويلة فقد كان ذلك على غفلة من الأمة أو على الرغم منها، وبسبب ضعف الإسلام وقوة الجاهلية، ولكنه خليق بأن ينهار ويتداعى كلما أشرقت شمس الإسلام واستيقظ الوعي وهبت الأمة تحاسب نفسها وأفرادها»[1].

---

(١) **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**، أبو الحسن الندوي، ص٢٨٨ ـ ٢٩٠، ط. دار الكتاب العربي، بيروت.

وبعد هذا التصوير الرائع البديع لمشاهد أحوال الأمة في تلك الفترة الزمنية من تأريخها، أخذ يحذر أولئك الذين يعيشون على الأحلام التي سيطرت على عقول حكام تلك الحقبة وحواشيهم، ويحذرهم من مغبة المصير الأسود الذي ستنتهي بهم إليه هذه الأحلام الكاذبة، فقال:

«فالذين لا يزالون يعيشون في عالم (ألف ليلة وليلة) إنما يعيشون في عالم الأحلام، إنما يعيشون في بيت أوهن من بيت العنكبوت، إنما يعيشون في بيت مهدد بالأخطار لا يدرون متى يكبس، ولا يدرون متى تعمل فيه معاول الهدم، وإن سلموا من كل هذا فلا يدرون متى يخر عليهم السقف من فوقهم فإنه بيت قائم على غير أساس متين وعلى غير دعائم قوية.

ألا إن عهد (ألف ليلة وليلة) قد مضى فلا يخدعنّ أقوام أنفسهم ولا يربطوا نفوسهم بعجلة قد تكسرت وتحطمت، إن الملوكية مصباح ـ إن جاز هذا التعبير ـ قد نفد زيته واحترقت فتيلته، فهو إلى انطفاء عاجل ولو لم تهب عاصفة.

إنه لا مجال في الإسلام لأي نوع من أنواع الأثرة، إنه لا محل فيه للأثرة الفردية أو العائلية التي نراها في بعض الأمم الشرقية والأقطار الإسلامية ولا محل فيه للأثرة المنظمة التي نراها في أوربا وأمريكا وفي روسيا، فهي في أوربا أثرة حزب من الأحزاب، وفي أمريكا أثرة الرأسماليين، وفي روسيا قلة آمنت بالشيوعية المتطرفة وفرضت نفسها على الكثرة وهي تعامل العمال والمعتقلين بقسوة نادرة ووحشية ربما لا يوجد لها نظير في تاريخ السخرة الظالمة.

إن الأثرة بجميع أنواعها ستنتهي وإن الإنسانية ستثور عليها وتنتقم منها انتقاماً شديداً، إنه لا مستقبل في العالم إلا للإسلام السمح العادل الوسط

وإن طال أجل هذه (الأثرات) وأرخي لها العنان وتمادت في غيها وطغيانها مدة من الزمان.

إن الأثـــرة ـ فردية كانت أو عائلية أو حزبيـــة أو طبقية ـ غير طبيعية في حياة الأمة وإنها تتخلص منها في أول فرصة إنه لا محل لها في الإسلام ولا محل لها في مجتمع واع بلغ الرشد ولا أمل في استمرارها؛ فخير للمسلمين وخير للعرب وخير لقادتهم وولاة أمورهم أن يخلصوا أنفسهم منها ويقطعوا صلتهم بها قبل أن تغرق فيغرقوا معها»[١].

وأنت ترى كيف نفى عن ذلك العهد أن يكون عهدا إســـلاميا، وســـواه بالعهد الذي كان قبل إشـــراق نور الإسلام بدعوة نبيه المصطفى عليه أفضل الصلاة والســـلام، ووصمه بأنه عهد جاهلي، وأنه لا ينبغي أن يقر ويبقى في هذه الأمة يوما واحدا فضلا عن أن يبقى أعواما أو قرونا.

ونجد العلامة الندوي يعمم هذا الحكم على العهد الأموي والعباســـي ولا يســـتثني إلا عمر بن عبدالعزيز ﵁ الذي أقام موازين القسط وأعاد إلى الأمة حقوقها المسلوبة فقد قال: «ولكن من الأســـف ومن سوء حظ العالم البشري أن تولى هذا المنصب الخطير رجال لم يكونوا له أكفاء، ولم يُعِدُّوا له عدة، ولم يأخذوا له أهبة، ولم يتلقوا تربية دينية وخلقية كما تلقى الأولون وكثيرون في عصرهم وجيلهم، ولم يسيغوا تعاليم الإسلام إساغة تليق بقيادة الأمة الإســـلامية والاضطلاع بزعامتها، ولم تنق رؤوســـهم ولا نفوسهم من بقايا التربية القديمة، ولم يكن عندهم من روح الجهاد في ســـبيل الإســـلام ومن قوة الاجتهاد في المسائل الدينية والدنيوية ما يجعلهم يضطلعون بأعباء الخلافة الإســـلامية ـ وهذا الحكم عام يشمل خلفاء بني أمية وبني العباس،

---

(١) **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**، ص٢٩١.

حاشا الخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز»[١].

ويسهب الأستاذ سيد قطب في تشخيص الأمراض التي سرت في حياة الأمة في هذا العهد الذي تلا عهد الخلافة الراشدة، وكيف انحرفت السياسة حتى هوت في هوة سحيقة من الفساد وهوت معها الأمة، وكان مما قاله في ذلك:

«لقد اتسعت رقعة الإسـلام فيما بعد، ولكن روحه انحسرت بلا جدال، ولولا قوة كامنة فـي طبيعة هذا الديـن، وفيض عارم في طاقتـه الروحية، لكانت أيام (أُميَّة) كفيلـة بتغيير مجراه الأصيل، ولكـن روحه ظلت تقاوم وتغالب، وما تزال فيها الطاقة الكامنة للغلب والانتصار.

غير أنه منذ (أمية) أتاحت حدود بيت مال المسلمين، فصار نهبا ومباحا للملوك والحاشـية والمتعلقين، وتخلخلت قواعد العدل الإسلامي الصارم، فأصبـح للطبقة الحاكمـة امتيازات، ولأذيالها منافع، ولحاشـيتها رسـوم، وانقلبت الخلافة ملكا، وملكا عضوضا، كما قال عنه رسول الله ﷺ في وثبة من وثبات الاستشفاف الروحي العميق.

وعدنا نسـمع عن الهبات للمتملقين والملهيـن والمطربين، فيهب أحد ملوك (أمية) اثني عشـر ألف دينار لمعبد، ويهب هارون الرشيد ـ من ملوك العباسيين ـ إسـماعيل بن جامع المغني في صوت واحد أربعة آلاف دينار، ومنزلا نفيس الأثاث والرياش... وتنطلق الموجة في طريقها لا تقف إلا فترة بين الحين والحين»[٢].

على أنه من المعلوم قطعا أن الفساد لم يكن في السياسة المالية فحسب،

(١) المصدر السابق، ص١٢٨.

(٢) **العدالة الاجتماعية**، ص١٦٤.

بل شمل جميع مرافق حياة الأمة فنخر جميع جوانبها، وأول انحراف كان في طريقة الحكم، فبعد أن كان مبنيا على الشورى والانتخاب الحر للخليفة الشرعي ـ الذي تبايعه الأمة عن طواعية، بعد أن تختاره لما تجد فيه من خصال الورع والتقوى، وشدة الخوف من الله تعالى، والنصح للأمة، وإيثار مصالحها على مصلحته الشخصية، وما يتمتع به من خصائص قيادية تؤهله لإمساك زمامها والسير بها في دروب السلامة، لتسلم في دنياها وتسعد في عقباها ـ تحول الأمر إلى النقيض من ذلك، فأصبح الحكم يؤخذ عنوة، ويستلب من أهله بالسيف، ويفرض على الجماهير بقوة الحديد والنار، ولا يبقى لأحد من الأمة في ذلك رأي أو اختيار، وإنما عليها أن تسلم وتخضع وتنقاد وتسلب كل إرادة، حتى تغدو كالآلات الصماء التي تتحرك بالضغط على الأزرار.

انتِقَالُ الحُكْمِ مِنْ خِلافَةٍ رَاشِدَةٍ إلى سُلْطَةٍ استبداديّة:

إن أعظم بلاء على الأمة ومصيبة في الدين تحول نظام الحكم، الذي كان يسود الأمة من أقصاها إلى أقصاها، من منهج رباني ـ يقوم على العدل، والشورى، ومحاسبة النفس، والخوف والرجاء من الله، وينبني على عقد بين الأمة والخليفة يكون الخليفة؛ بموجبه أجيرا للأمة تحق لها مراقبته ومحاسبته على القليل والكثير، كما يحق لها مع انحرافه عن الجادة أن ترده إليها بالنصح والتقويم، فإن أبى كان لها عزله ولو بالقوة ـ إلى منهج شيطاني، يقوم على الجور والاستبداد، وإعطاء النفس شهواتها في البطش بالأمة، وسلبها جميع حقوقها المادية والمعنوية، وإطلاق يد المتسلط للعبث بأموالها وسفك دمائها، ومعاملتها كقطيع من السوائم لا تجتلب لنفسها نفعا ولا تدفع ضرا.

وقد كان هذا ـ بلا ريب ـ حدا فاصلا بين عهدين في حياة الأمة، عهد القوة والعزة والكرامة وعهد الضعف والذلة والمهانة، كما أوضح ذلك المفكر الكبير السيد أبو الحسن الندوي في قوله: «قال أحد الأدباء: «أمران لا يحدد لهما وقت بدقة، النوم في حياة الفرد، والانحطاط في حياة الأمة، فلا يشعر بهما إلا إذا غلبا واستوليا»، إنه لحق في قضية أكثر الأمم، ولكن بدا التدلّي والانحطاط في حياة الأمة الإسلامية أوضح منه في حياة الأمم الأخرى، ولو أردنا أن نضع إصبعنا على الحد الفاصل بين الكمال والزوال، لوضعنا على ذلك الخط التاريخي الذي يفصل بين الخلافة الراشدة والملوكية العربية أو ملوكية المسلمين»[1].

فقد كانت مسؤولية الأمة في العهد الأول تعود إلى من تختاره لقيادتها، ويكون أتقاها لله، وأقواها على إدارة دفة أمرها، إذ لا تنتخب لتحمل هذا العبء إلا من توفرت فيه خصلتان، حددهما القرآن في الأجير فيما حكاه عن أمته الصالحة اللبيبة ابنة عبده الصالح ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وهذه الصفات كانت متوفرة في جميع القائمين على الأمر، الذين يتحملون المسؤوليات السياسية والعسكرية والمدنية، أو الذين يدلون إليهم بالرأي والمشورة، وفي هذا يقول السيد أبو الحسن الندوي:

«كان زمام القيادة الإسلامية ـ والعالمية بالواسطة ـ بيد الرجال الذين كان كل فرد منهم معجزة جليلة لمحمد ﷺ، إيماناً وعقيدة وعملاً وخلقاً وتربية وتهذيباً وتزكية نفس وسمو سيرة، وكمالاً واعتدالاً، لقد صاغهم النبي ﷺ صوغاً، وصبهم في قالب الإسلام صباً، فعادوا لا يشبهون أنفسهم إلا في الأجسام لا في الميول والنزعات، ولا في الرغبات والأهواء، ولو دقق مدقق لما رأى في سيرتهم وأخلاقهم مأخذاً جاهلياً ينافي روح الإسلام

(١) **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**، ص١٢٤.

والنفسية الإسلامية، ولو تمثل الإسلام بشراً لما زاد على أن يكون كأحدهم.

وكانوا كما قلنا أمثلة كاملة وأقيســة تامة للدين والدنيا والجمع بينهما، فكانوا أئمة يصلون بالنــاس، وقضاة يفصلون قضاياهــم، ويحكمون بينهم بالعدل والعلم، وأمنة لأموال المســلمين وخزنتهم، وقواداً يقودون الجيوش ويحســنون تدبير الحروب، وأمراء يباشرون إدارة البلاد ويشرفون على أمور المملكــة ويقيمون حــدود الله، وكان الواحد منهم في آن واحــد تقياً زاهداً وبطلاً مجاهداً، وقاضياً فهماً، وفقيهاً مجتهداً وأميراً حازماً وسياسياً محنكاً.

فكان الدين والسياسة يتمثلان في شــخص واحد وهو شخص الخليفة وأميــر المؤمنين، حوله جماعــة ممن تخرجوا ـ إن صــح التعبير ـ في هذه المدرســة، المدرســة النبوية، أو المســجد النبوي، أفرغوا في قالب واحد يحملون روحاً واحدة، وتلقوا تربية واحدة، يستشــيرهم الخليفة ويســتعين بهم، فلا يقطع أمراً ذا بال حتى يشهدوه فســرت روحهم في المدنية ونظام الحكم وحياة الناس واجتماعهم وأخلاقهم، وانعكست ميولهم ورغباتهم في المدنية وظهرت خصائصهم فيها، فلا عداء بين الروح والمادة ولا صراع بين الدين والسياســة ولا تفريق بين الدين والدنيا، ولا تجــاذب بين المصالح والمبادئ ولا تزاحم بين الأغراض والأخلاق، ولا تناحر بين الطبقات، ولا تنافس في الشهوات»[١].

نعم؛ كان جميع المســئولين فــي الدولة الإســلامية الأولى من هذا الطراز، فكل منهم يعد أمة في رجل ورجلا في أمة، يحمل في نفســه هم الدين والدعوة إليه وهم الأمة بل البشرية بأســرها، لأنه يحس من أعماق نفسه أنه مسئول عن إصلاحها وتربيتها، وإخراجها من الظلمات إلى النور

(١) المرجع السابق، ص١٢٥.

ومن الضلال إلى الهدى ومن الجهل إلى العلم ومن الجاهلية إلى دين الإسلام الحق.

وهو مع نوئه بهذه الهموم، يحمل هم الدار الآخرة ووعدها ووعيدها، فيتزاحم في قلبه عاملا الخوف والرجاء، ففي خوفه ما ينهنهه ويصده عن كل سوء ويحجزه عن إعطاء نفسه رغباتها، وفي رجائه ما يبعث في نفسه همم الخير، ويؤجج عزائم الإيمان.

وبانحلال ذلك العقد وانطواء ذلك العهد وبروز عهد جديد طوي عن الأمة كل ما كانت تعهده في العهد الماضي من المزايا الخيرة، فغارت ينابيع الخير، وتحول روضها النضير إلى قفر يباب منطمس المعالم موحش للناظر.

وقد بدأت هذه المرحلة المشئومة في حياة الأمة بوثوب معاوية بن أبي سفيان على دولة الخلافة؛ لابتزاز السلطة من الخليفة الشرعي الذي بويع بإجماع أهل الحل والعقد، ليحولها إلى ملك عضوض ونظام استبدادي، لا يصلح إلا أن يكون امتدادا للنظام المتبع عند القياصرة والأكاسرة، ولم يكن معاوية يخفي أنه أخذ السلطة عنوة، وأن الناس له كارهون؛ فعندما دخل المدينة المنورة بعد استيلائه على الأمر خطب في أهلها قائلا:

«أما بعد؛ فإني والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم، ولا مسرة بولايتي، ولكني جالدتكم بسيفي هذا مجالدة، ولقد رضت لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة، وأردتها على عمل عمر، فنفرت من ذلك نفارا شديدا، وأردتها مثل ثنيات عثمان فأبت علي، فسلكت بها طريقا لي ولكم فيه منفعة؛ مؤاكلة حسنة ومشاربة جميلة، فإن لم تجدوني خيركم فإني خير لكم ولاية. والله لا أحمل السيف على من لا سيف له، وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفى به

القائل بلسانه؛ فقد جعلت ذلك له دبر أذني وتحت قدمي، وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كله فاقبلوا مني بعضه، فإن أتاكم مني خير فاقبلوه؛ فإن السيل إذا زاد عنى وإذا قل أغنى، وإياكم والفتنة فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة»[١].

وخطب في أهل الكوفة فقال: «ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا ولا لتحجوا ولا لتزكوا قد عرفت أنكم تفعلون ذلك، ولكن إنما قاتلتكم لأتأمر عليكم، فقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون»[٢].

وأنتم ترون ما في كلامه هذا من كشف الستار عما في خبيئة نفسه في قتاله، فإنه لم يقاتل لغرض ديني أو لإحقاق حق، وإنما قاتل ليتوصل إلى التسلط على الرقاب والتحكم في الناس، وقد قاوم بهذا خلافة شرعية بنيت على الشورى الإسلامية لتقويض بنيانها، فصفا له الجو وهدمها كما أراد، وحول الحكم إلى ملك عضوض.

(١) **العقد الفريد**، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت: ٣٢٨هـ)، ج٤، ص٧٦، دار إحياء التراث العربي، بيرو، لبنان، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، الطبعة: الثالثة، وينظر: **جمهرة خطب العرب**، أحمد زكي صفوت، ج٢، ص١٨٢، المكتبة العلمية، بيروت، **والبداية والنهاية**، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء، (ت: ٧٧٤هـ)، ج٨، ص١٣٢، مكتبة المعارف، بيروت.

(٢) **المعرفة والتاريخ**، أبو يوسف يعقوب بن سفيان الفسوي (ت: ٢٧٧هـ)، ج٣، ص٣٢٧، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، تحقيق: خليل المنصور، وانظر: **تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل**، لأبي القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله بن عبد الله الشافعي (ت: ٥٧١هـ)، ج٥٩، ص١٥٠ دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م، تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري، **ومختصره (مختصر تاريخ دمشق)**، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (ت: ٧١١هـ)، ج٧، ص٣٣٩، والبداية والنهاية، ج٨، ص١٣١.

النَّصُّ الصَّرِيحُ على أنّ هَذِهِ الفِئَةَ باغِيةٌ:

لقد أنذر النبي ﷺ بهذا العهد المشئوم وما يقع فيه من نقض عرى الإسلام، ووصف هذه الفئة بالبغي؛ فعن عكرمة، قال لي ابن عباس ولابنه علي: انطلقا إلى أبى سعيد فاسمعا من حديثه. فانطلقنا فإذا هو في حائط يصلحه، فأخذ رداءه فاحتبى، ثم أنشأ يحدثنا حتى أتى ذكر بناء المسجد، فقال: كنا نحمل لبنة لبنة، وعمار لبنتين لبنتين، فرآه النبي ﷺ فينفض التراب عنه، ويقول: «ويح عمار تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة، ويدعونه إلى النار». قال يقول عمار: «أعوذ بالله من الفتن»[١]، وعن أبي سعيد أيضا: «تقتل عمارا الفئة الباغية»[٢] وعن أم سلمة أن النبي ﷺ قال في عمار: «تقتله الفئة الباغية»[٣]، وعن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عمار تقتله الفئة الباغية» فقال معاوية: لا تزال تنزع في مبالك نحن قتلناه، إنما قتله الذين أخرجوه.[٤] وعن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يبني المسجد، فإذا نقل الناس حجرا نقل عمار حجرين، وإذا نقلوا لبنة نقل لبنتين، فقال رسول الله ﷺ: «ويح ابن سمية تقتله الفئة الباغية»[٥]، وعنه بلفظ: «أبشر عمار

(١) أخرجه أحمد (٩٠/٣، رقم ١١٨٧٩) والبخاري (١٠٣٥/٣، رقم ٢٦٥٧) وابن حبان (٥٥٤/١٥، رقم ٧٠٧٩)، والحاكم في مستدركه (١٦٢/٢ رقم ٢٦٥٣).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة من طريق خزيمة بن ثابت: (٥٥٢/٧، رقم ٣٧٨٧٥)، وأحمد (٢١٤/٥، رقم ٢١٩٢٢)، وابن سعد (٢٥٩/٣)، والطبراني (٨٥/٤، رقم ٣٧٢٠)، قال الهيثمي (٢٤٢/٧)، والحاكم (٤٤٨/٣، رقم ٥٦٩٧)، ومن طريق عمرو بن حزم: أخرجه أحمد (١٩٩/٤، رقم ١٧٨١٣)، وأبو يعلى (١٢٣/١٣، رقم ٧١٧٥)، والحاكم (١٦٨/٢، رقم ٢٦٦٣) وقال: صحيح على شرط الشيخين، وابن الجعد (٢٤٥/١ رقم ١٦٢).

(٣) المعجم الكبير: (٣٦٣/٢٣ رقم ٨٥٢ ورقم ٨٥٣).

(٤) الطبراني في الأوسط: (٤٤/٨ رقم ٧٩٠٨)، والنسائي في الكبرى (١٥٧/٥ رقم ٨٥٥).

(٥) أبو يعلى في مسنده (٤٠٣/١١ رقم ٦٥٢٤).

تقتلك الفئة الباغية»[١]، وعن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «تقتل عمارا الفئة الباغية»[٢]، وعن عثمان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لعمار رحمة الله عليه: «تقتل عمارا الفئة الباغية»[٣]، وعن ابنة هشام بن الوليد بن المغيرة ـ وكانت تمرض عمارا ـ قالت: جاء معاوية إلى عمار يعوده، فلما خرج من عنده، قال: اللهم لا تجعل منيته بأيدينا فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تقتل عمارا الفئة الباغية»[٤]، وعن أبي اليسر، قال: سمعت رسول الله ﷺ أو قال رسول الله ﷺ: «تقتل عمارا الفئة الباغية»[٥]، عن أبي أَيُّوبَ قال: قال رسول الله ﷺ: «تقتل عمارا الفئة الباغية»[٦]، وعن حنظلة ابن خويلد العنزي قال: إني لجالس عند معاوية، إذا أتاه رجلان يختصمان في رأس عمار، كل واحد منهما يقول: أنا قتلته، قال عبدالله بن عمرو: ليطب به أحدكما نفسا لصاحبه، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تقتله الفئة الباغية»، قال معاوية فما بالك معنا؟ قال: إني معكم ولست أقاتل، إن أبي شكاني إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أطع أباك ما دام حيا ولا تعصه»، فأنا معكم ولست أقاتل»[٧]، وعن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه، قال: دخل عمرو بن حزم على عمرو بن العاص، قال: قتل عمار، وقد قال رسول الله ﷺ: «تقتله الفئة الباغية» فدخل عمرو على معاوية، فقال: قتل عمار، فقال معاوية: قتل عمار، فماذا؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) الترمذي في سننه: (٦٦٩/٥ رقم ٣٨٠٠).
(٢) ابن أبي شيبة (٥٥٢/٧ رقم ٣٧٨٧) وأبو يعلى في مسنده (٣٢٧/١٣ رقم ٧٣٤٢).
(٣) أبو يعلى في معجمه (٢٣٢/١ رقم ٢٨٣)، والطبراني في الصغير (٣١٢/١ رقم ٥١٦).
(٤) أبو يعلى في مسنده (٣٥٣/١٣ رقم ٧٣٦٤).
(٥) الطبراني في كبيره (١٧٠/١٩ رقم ٣٨٢)، والشاشي في مسنده (٤٠٨/٣ رقم ١٥٣٢).
(٦) الطبراني في كبيره (١٦٨/٤ رقم ٤٠٣٠).
(٧) أخرجه أحمد في مسنده: (١٦٤/٢ رقم ٦٥٣٨)، وابن أبي شيبة (٥٤٨/٧، رقم ٣٧٨٤٥).

«تقتله الفئة الباغية»، قال: دحضت في بولك، أنحن قتلناه؟! إنما قتله علي وأصحابه»[١].

والحديث ظاهر ـ كما ترى ـ لا غبار على دلالته، فهو يدل على أن أهل الشام الخارجين على الإمام الشرعي بغاة وعلى رأسهم قائد فئتهم معاوية، وتجد من بين رواته أهل الشام أنفسهم، فقد رواه عن النبي ﷺ معاوية وعمرو بن العاص وابنه، وذلك مما يوثق ثبوته ويقوي سنده، على أنه بلغ حد الشهرة بكثرة طرقه وتنوع أسانيده حتى كاد يدنو من التواتر، وقد ألحقه الجصاص بالمتواتر، حيث قال: «وهذا خبر مقبول من طريق التواتر حتى أن معاوية لم يقدر على جحده لما قال له عبدالله ابن عمرو، فقال: إنما قتله من جاء به فطرحه بين أسنتنا»[٢].

ونقل الحافظ ابن حجر عن الحافظ ابن عبدالبر، أنه قال فيه: «تواترت الأخبار بذلك وهو من أصح الحديث»[٣]، وكذلك قال الذهبي: «وفي الباب عن عدة من الصحابة فهو متواتر»[٤]، ومثله قول السيوطي: «هذا الحديث متواتر رواه من الصحابة بضعة عشر كما بينت ذلك في

(١) أبو يعلى في مسنده: (١٣/٣٣٠ رقم ٧٣٤٦).

(٢) أحكام القرآن، أحمد بن علي الرازي الجصاص أبو بكر (ت: ٣٧٠هـ)، ج٥ ص٢٨٠، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي.

(٣) **تلخيص الحبير في أحاديث الرافعي الكبير**، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، ج٤، ص٤٣، المدينة المنورة، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م، تحقيق: السيد عبدالله هاشم اليماني المدني.

(٤) **سير أعلام النبلاء**، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبدالله (ت: ٧٤٨هـ)، ج١، ص٤٢١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٣هـ، الطبعة: التاسعة، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ، محمد نعيم العرقسوسي.

الأحاديث المتواترة»[١]، ونص على تواتره أيضا الصنعاني في «توضيحه»[٢].

مُجَادَلَةٌ بالباطِلِ لإِدْحَاضِ الحَقّ:

مع وضوح دلالة هذا الحديث وقوته جادلت فيه طائفة من الناس، فمنهم من طعن في أصله، فقد نقل ابن الجوزي في (العلل المتناهية) عن الخلال أنه: «ذكر أن أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وأبا خيثمة والمعيطي ذكروا هذا الحديث «تقتل عمارا الفئة الباغية»، فقالوا فيه: ما فيه حديث صحيح، وأن أحمد قال: قد روي في عمار «تقتله الفئة الباغية» ثمانية وعشرون حديثا ليس فيها حديث صحيح».[٣] وقد علمت أن غير واحد من أئمة الحديث عده في المتواتر، وتعقب الحافظ ابن حجر هذا الذي رواه الخلال بما تقدم من كون ابن عبدالبر ذكر أنه متواتر، ثم قال: وقال ابن دحية: «لا مطعن في صحته ولو كان غير صحيح لرده معاوية وأنكره»[٤].

وقد أشار ابن تيمية إلى عدم صحته، مع حمله على معنى آخر يتفق مع هواه، حيث قال: «وأما الحديث الذي روي عن النبي ﷺ أنه قال لعمار: «تقتلك الفئة الباغية» فبعضهم ضعفه، وبعضهم تأوله، فقال بعضهم: معناه

(١) **الخصائص الكبرى**، أبو الفضل جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت: ٩١١هـ)، ج٢، ص٢٣٩، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

(٢) **توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار**، محمد بن إسماعيل الأمير الحسني الصنعاني (ت: ١١٨٢هـ)، ج٢ ص٤١١: المكتبة السلفية، المدينة المنورة، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد.

(٣) **العلل المتناهية في الأحاديث الواهية**، عبدالرحمن بن علي بن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ)، ج٢ ص٨٤٨، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: خليل الميس.

(٤) **تلخيص الحبير**، ج٤، ص٤٣.

الطالبة لدم عثمان ﵁ كما قالوا: «نبغي ابن عفان بأطراف الأسل»، وبعضهم قال ما يروى عن معاوية ﵁ أنه قال لما ذكر له هذا الحديث: أونحن قتلناه!! إنما قتله علي وأصحابه حيث ألقوه بين أسيافنا»[١].

وهذه مجادلة ناشئة عن العصبية للباطل وتسفيه الحق، فقد علمت بأن الحديث أجمعت الأطراف المتنازعة على صحته، وأن من رواته معاوية نفسه وصاحبه عمرا وابنه، فلو كان غير ثابت لما رووه مع علمهم بأنه حجة لخصمهم عليهم.

وأما تأويله بأن الباغية بمعنى الطالبة لدم عثمان كما قال الشاعر: «نبغي ابن عفان بأطراف الأسل» فهو مردود بنص الحديث نفسه، ففيه: «يدعوهم إلى الجنة، ويدعونه إلى النار» وهو نص على أن دعوتهم باطلة وأنها تفضي إلى النار ـ والعياذ بالله ـ، وقد قال ملا علي القاري: «قال ابن الملك: اعلم أن عماراً قتله معاوية وفئته، فكانوا طاغين باغين بهذا الحديث؛ لأن عماراً كان في عسكر علي وهو المستحق للإمامة، فامتنعوا عن بيعته»[٢].

وأما دعوى أن قتلته هم الذين أخرجوه للقتال، فهي مكابرة للحقيقة وإنكار للحق، إذ لو كان الأمر كذلك للزم أن يكون النبي ﷺ هو الذي قتل عمه حمزة بن عبدالمطلب، وقتل أصحابه الذين استشهدوا في بدر وأحد وفي جميع المشاهد، فيكون هو الذي يبوء بتبعة قتلهم كما رد بذلك الإمام علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ عندما بلغته هذه الدعوى من معاوية.

(١) منهاج السُّنَّة النبويّة، أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني أبو العباس (ت: ٧٢٨هـ)، ج٤، ص٤٠٥، مؤسسة قرطبة، ١٤٠٦هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. محمد رشاد سالم.

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن سلطان محمد القاري (ت: ١٠١٤هـ)، ج١١، ص١٧، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، الطبعة: الأولى، تحقيق: جمال عيتاني.

ومن العصبية للباطل، قول ابن بطال بأن هذا إنما هو في مشركي مكة الذين عذبوا عمارا وحاولوا فتنته عن دينه!!.. قال: «ولا يمكن أن يتأول هذا الحديث في المسلمين البتة؛ لأنهم قد دخلوا دعوة الله، وإنما يدعى إلى الله من كان خارجًا من الإسلام. وقوله: «ويدعونه إلى النار» دليل أيضًا على ذلك؛ لأن المشركين أهل مكة إنما فتنوه وطالبوه أن يرجع إلى دينهم، فهو النار»[1].

وهو تأويل عجيب لا ينبئ إلا عن تأصل العصبية في النفوس، فإن من استجاب للدعوة العامة للإسلام بحيث أتى بالشهادتين لا تسقط دعوته إلى الحق، بل يؤمر أن يلتزم ما اقتضته الشهادتان من اتباع الحق وترك الباطل، والائتمار بأمر الله والازدجار عن أمر الشيطان، والقيام بجميع التكاليف الشرعية فعلا وتركا، إذ لا تسقط التبعة عن أحد بمجرد نطقه بالشهادتين، فلو كان كذلك لما وجب فرض على من أتى بهما ولا حظر شيء عليه، وأين هذا من قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ ﴾ [النساء: ١٢٣]، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩]، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٧٨ - ٢٧٩]، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ

---

(١) شرح صحيح البخاري، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال البكري القرطبي (ت: ٤٤٩هـ)، ج٥، ص٢٧، مكتبة الرشد، السعودية، الرياض، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، الطبعة: الثانية، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم.

تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٠ - ١٣٢]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ٢٩ - ٣٠]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٨ - ٣٩]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١١ - ١٢]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ

لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٩ - ١١].

فكم تجد من نصوص قرآنية فيها دعوة للذين آمنوا إلى اتباع الحق والائتمار بأوامر الله والازدجار عن نواهيه، مع وعدهم على امتثال ذلك ووعيدهم على مخالفته، فكيف يقال: «لا يمكن أن يتأول هذا الحديث في المسلمين البتة؛ لأنهم قد دخلوا دعوة الله، وإنما يدعى إلى الله من كان خارجًا من الإسلام»؟!.. فليت شعري ألم يكن ما تضمنته هذه الآيات دعوة لمن دخل في الإسلام إلى الالتزام بما يعنيه الإسلام من فعل أوامر الله تعالى وترك نواهيه، وماذا يقول ابن بطال في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ

﴿وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ٣٥ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ٣٧ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا﴾
[الإسراء: ٢٣ – ٣٨].

هل يعفى من استجاب لدعوة الإسلام من كل ما في هذه الآيات من أوامر ونواهي، ما عدا أولها وهو عدم عبادة غير الله سبحانه؟! فكيف يتجاهل أن الدعوة للذين استجابوا وآمنوا بتوحيد الله ﷻ قائمة إلى الالتزام بما يقتضيه التوحيد من حسن الطاعة له سبحانه وترك محظوراته؟! أوليس من محظوراته سفك دماء الأمة بغير حق، والخروج على خليفتها الشرعي، وشق عصا طاعة من أوجب الله طاعته ـ من أولياء الأمر القائمين بالقسط ـ ؟!.

على أن الأمر واضح لا غبار عليه، فمن الذي قتل عمارا حتى يتعسف في تأويل الحديث؟!.

وذكر الحافظ ابن حجر عن ابن بطال أنه قال: «تبعا للمهلب، إنما يصح هذا في الخوارج الذين بعث إليهم علي عمارا يدعوهم إلى الجماعة، ولا يصح في أحد من الصحابة، وتابعه على هذا الكلام جماعة من الشراح»[1].

وفي هذا أيضا من قلب الحقائق ما لا يخفى على ذي بصر، حتى أن الحافظ نفسه تعقبه بقوله: «وفيه نظر من أوجه، أحدها أن الخوارج إنما خرجوا على علي بعد قتل عمار بلا خلاف بين أهل العلم بذلك، فإن ابتداء أمر الخوارج كان عقب التحكيم، وكان التحكيم عقب انتهاء القتال بصفين،

(١) **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، (ت: ٨٥٢هـ)، ج١، ص٥٤٢، دار المعرفة، بيروت، تحقيق: محب الدين الخطيب.

وكان قتل عمار قبل ذلك قطعا، فكيف يبعثه إليهم عليٌ بعد موته؟!.

ثانيها: أن الذين بعث إليهم علي عمارا إنما هم أهل الكوفة، بعثه يستنفرهم على قتال عائشة ومن معها قبل وقعة الجمل، وكان فيهم من الصحابة جماعة كمن كان مع معاوية وأفضل، وسيأتي التصريح بذلك عند المصنف في كتاب (الفتن)، فما فر منه المهلب وقع في مثله مع زيادة إطلاقه عليهم تسمية الخوارج وحاشاهم»[١].

وأنت ترى كيف اتخذوا من سموهم (خوارج) شماعة لتعليق كل سوء بهم ونسبة كل باطل إليهم!!!... وأين هذا مما أمر الله تعالى به من الشهادة بالقسط في الأقربين والأبعدين من غير التفات إلى شنآن أو مقة، على أن الحافظ نفسه أغرب في شرحه الحديث حيث قال: «فإن قيل: كان قتله بصفين وهو مع علي والذين قتلوه مع معاوية وكان معه جماعة من الصحابة، فكيف يجوز عليهم الدعاء إلى النار؟ فالجواب: أنهم كانوا ظانين أنهم يدعون إلى الجنة، وهم مجتهدون لا لوم عليهم في اتباع ظنونهم، فالمراد بالدعاء إلى الجنة الدعاء إلى سببها وهو طاعة الإمام، وكذلك كان عمار يدعوهم إلى طاعة علي وهو الإمام الواجب الطاعة إذ ذاك، وكانوا هم يدعون إلى خلاف ذلك، لكنهم معذورون للتأويل الذي ظهر لهم»[٢].

فليت شعري؛ لو كانوا معذورين بهذا وكان ذلك مما يسوغ فيه الاجتهاد فكيف تكون دعوتهم له إلى النار؟! مع أن المجتهد الحق ـ حيث يسوغ الاجتهاد ـ مثاب على اجتهاده بأي حال، فلا يمكن أن يكون اجتهاده مؤديا إلى النار والعياذ بالله، على أن الاجتهاد لا يسوغ في موارد النصوص

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق.

الشرعية حيث يخالف المجتهد الحق الذي لا غبار عليه، ولو ساغ أن يحمل هذا الكلام على هذا المحمل لاحتمل مثله فيما حكاه الله من قول مؤمن آل فرعون: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤١]، لأن المدعو إليه واحد في القضيتين، وقد ذكر بعبارة واحدة في القرآن والحديث.

ولو كانت القضية اجتهادية لما ساغ للإمام علي قتالهم لأنهم متعلقون بعذر شرعي، مع أنه قال فيما أخرجه عنه ابن عساكر وغيره: «أما والله لقد ضربت هذا الأمر ظهرا لبطن أو ذنبا ورأسا؛ فوالله إن وجدت له إلا القتال أو الكفر بالله»[(١)].

فلو كانت القضية للاجتهاد فيها مجال لما قال إن ترك قتالهم كفر، إذ لا يكون الكفر إلا بارتكاب محرم شرعي، فإن كان غير مخرج من الملة، فهو كفر نعمة ـ كما سيأتي إن شاء الله ـ وإن كان مخرجا منها فهو كفر ملة، وأنت تدري أن التكفير في القضايا الفرعية الاجتهادية ما كان واردا عند السلف الصالح، ولا يجوز في الإسلام بحال، وإلا لساغ أن يكفر كل أحد

(١) تاريخ دمشق، ج٤٢، ص٤٥٧، وص٤٧٤، وانظر: مختصر تاريخ دمشق، ج٥، ص٤٢٤، وشرح نهج البلاغة، ج٢، ص١٢٣، وج٢، ص١٨٦، وذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، محب الدين أحمد بن عبد الله الطبري، (ت: جمادى الآخرة / ٦٩٤هـ)، ص١١٢، دار الكتب المصرية، مصر، ووقعة صفين، نصر بن مزاحم بن سيار المنقري، (ت: ٢١٢هـ)، ص٤٧٤. والمعرفة والتأريخ، ج١، ص٣٤٣ وج٣، ص٤٣، والأخبار الطوال، أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري، (ت: ٢٨٢هـ)، ص٤٣، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. عصام محمد الحاج علي، ونثر الدر في المحاضرات، أبو سعد منصور بن الحسين الأبي، (ت: ٤٢١هـ)، ج١، ص٢٢٣، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م، الطبعة: الأولى، تحقيق: خالد عبد الغني محفوظ.

من خالفه في الرأي، وإذا كان ترك قتالهم كفرا بسبب ما ارتكبوه من الفساد في الأرض الذي يوجب جهادهم، فكيف بهم وبصنيعهم، فإنه ـ بلا ريب ـ أوغل في الكفر وأعمق في الضلال، فأنى يسوغ أن يعدوا فيه مجتهدين وهم بسبب ذلك معذورون؟!!.

على أن معاوية نفسه اعترف لأهل الكوفة أنه ما قاتلهم إلا ليتأمر عليهم كما سبق ذكره عنه، ومعنى ذلك أنه ساع إلى العلو في الأرض، وقد قال تعالى: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣].

واعترف أيضا أن معروفه منكر بالنظر إلى من قبله، فقد قال لأهل المدينة: «فاقبلوا بما فينا، فإن ما وراءنا شر لكم، وإنَّ معروف زماننا هذا مُنكَر زمان مَضى، ومُنْكَرَ زماننا معروفُ زمان لم يأت».[1] ولم يخف النزعة القيصرية الكسروية في حكمه وتسلطه، إذ تصور كما كانوا يتصورون أنه أوتي ملك الأرض، وأنه لا حق لأحدٍ أن يسأله عن شيء أو يحاسبه على تصرف، فكان من قوله: «الأرض لله، وأنا خليفة الله، فما أخذت فلي، وما تركته للناس فبالفضل مني»[2].

(١) العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، (ت: ٣٢٨هـ)، ج٤، ص٧٦، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، الطبعة: الثالثة، وينظر: أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، (ت: ٢٧٩هـ)، ج٢، ص٨٦، والبصائر والذخائر، أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي، (ت: ٤١٤هـ)، ج٤، ص١٩٩، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، الطبعة: الراجعة، تحقيق: د. وداد القاضي، وينظر: نثر الدر في المحاضرات، ج٣ ص٩، وربيع الأبرار، ج١، ص٨٦، وجمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت، ج٢، ص١٨٣ المكتبة العلمية، بيروت.

(٢) أنساب الأشراف، ج٢، ص٨٣، وينظر: مروج الذهب، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، (ت: ٣٤٦هـ)، ج١، ص٣٦٧، ونثر الدر، ج٢، ص١٤٢، والتذكرة

وهذا يعني أنه لو حرم الناس من أرزاقهم من بيت مال المسلمين لكان ذلك له حقا مشروعا، وليس لهم حسابه على ذلك، لأنه منعهم ما يملك لا ما يملكون!.. وإن آتاهم شيئا من ذلك فهو لا يعدو أن يكون فضلا منه، لأنه له التصرف المطلق وله الحق في كل شيء دونهم، وأين هذا من نهج النبوة الصادقة في عهد رسول الله ﷺ، حيث كان ﷺ يقسم المال بالسوية، ويقول: «ما لي من هذا المال إلا مثل ما لأحدكم، إلا الخمس، وهو مردود عليكم»[1]، وبين ﷺ أنه لا يقسم بين الناس إلا كما أمر، من غير أن يجعل لرغبة نفسه وهواها أثراً في العطاء والمنع، فقد قال: «ما أعطيكم ولا أمنعكم، أنا قاسم أضع حيث أمرت»[2].

بل أين هذا من نهج الخلفاء الراشدين، فعن ابن عمر قال: «شهدت جلولاء، فابتعت من المغنم بأربعين ألفا، فلما قدمت على عمر، قال لي: أرأيت لو عرضت عليّ النار، فقيل لك: افتدني أكنت مفتدي؟ فقلت: والله ما من شيء يؤذيك إلا كنت مفتديك منه، فقال: كأني شاهد الناس حين تبايعوا، فقالوا: عبدالله بن عمر صاحب رسول الله ﷺ وابن أمير المؤمنين وأحب الناس إليه: وأنت كذلك، فكان أن يرخصوا عليك بمائة أحب إليهم من أن يغلوا عليك بدرهم، وإني قاسم مسئول، وأنا معطيك أكثر ما ربح تاجر من قريش، لك ربح الدرهم درهم. قال: ثم دعا التجار، فابتاعوا منه بأربعمائة ألف، فدفع إلي ثمانين ألفا، وبعث بالبقية إلى سعد بن أبي وقاص، فقال:

الحمدونية، ابن حمدون محمد بن الحسن بن محمد بن علي، (ت: ٦٠٨هـ)، ج٧، ص١٦٩ دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٩٦م، الطبعة: الأولى، تحقيق: إحسان عباس، بكر عباس، وجمهرة خطب العرب، ج١، ص٤٤٥.

(١) أخرجه أحمد (١٢٧/٤، رقم ١٧١٩٤)، والطبراني (٢٥٩/١٨، رقم ٦٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (١١٣٤/٣، رقم ٢٩٤٩).

اقسمه في الذين شهدوا الوقعة، ومن كان مات منهم فادفعه إلى ورثته»[١].

فانظر كيف كان احترازه حتى في تجارة أولاده التي تكون بتراض بينهم وبين من يعاملونهم، خشية أن يكونوا جاملوهم وتساهلوا معهم من أجله.

بل كان شديدا حتى على أطفاله خشية أن تمتد أيديهم إلى شيء من مال المسلمين العام، فلم تمنعه عاطفته تجاههم أن يردعهم بشدة، «فعن عيسى بن معمر قال: نظر عمر بن الخطاب عام الرمادة إلى بطيخة في يد بعض ولده، فقال: بخ بخ يا ابن أمير المؤمنين، تأكل الفاكهة وأمة محمد ﷺ هزلى، فخرج الصبي هاربا وبكى، فأسكت عمر بعدما سأل عن ذلك، فقالوا: اشتراها بكف من نوى»[٢].

وكتب إلى حذيفة: «أن أعط الناس أعطيتهم وأرزاقهم الذي أفاء الله عليهم، ليس هو لعمر ولا لآل عمر، اقسمه بينهم»[٣].

وقال له رجل: «يا أمير المؤمنين، لو وسعت على نفسك في النفقة من مال الله تعالى، فقال له عمر: أتدري ما مثلي ومثل هؤلاء، كمثل قوم كانوا في سفر فجمعوا منهم مالا وسلموه إلى واحد ينفقه عليهم، فهل يحل لذلك الرجل أن يستأثر عنهم من أموالهم؟!»[٤].

---

(١) كتاب الأموال، أبو عبيد القاسم بن سلام، (ت: ٢٢٤هـ)، ج١، ص٣٣١، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، تحقيق: خليل محمد هراس.

(٢) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد بن منيع أبو عبدالله البصري الزهري، (ت: ٢٣٠هـ)، ج٣، ص٣١٥، دار صادر، بيروت، وينظر: فتوح البلدان، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، (ت: ٢٧٩هـ)، ج١، ص٤٣٩، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ، تحقيق: رضوان محمد رضوان.

(٣) المرجع السابق، ج٣، ص٢٩٩.

(٤) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحران، (ت: ٧٢٨هـ)، ص٢٩، دار المعرفة.

وعن محمد بن سيرين: «أن صهرا لعمر بن الخطاب قدم على عمر، فعرض له أن يعطيه من بيت المال، فانتهره عمر وقال: أردت أن ألقى الله ملكا خائنا، فلما كان بعد ذلك أعطاه عمر من صلب ماله عشرة آلاف»[٥].

ومع شدة محاسبته لنفسه ما كانت رعيته تهمل حسابه، فكان كل منهم له بالمرصاد، يحاسبه حتى على الشيء الدقيق البسيط، فقد قال العتبي: «بعث إلى عمر بحلل فقسمها فأصاب كل رجل ثوبا، فصعد المنبر وعليه حلة، والحلة ثوبان، فقال: أيها الناس ألا تسمعون. فقال سلمان: لا نسمع. قال: ولم يا أبا عبد الله؟ قال: لأنك قسمت علينا ثوباً ثوباً، وعليك حلة. قال: لا تعجل يا أبا عبد الله. ثم نادى: يا عبد الله. فلم يجبه أحد، فقال: يا عبد الله بن عمر. قال: لبيك يا أمير المؤمنين. قال: نشدتك بالله، الثوب الذي اتّزرت به هو ثوبك؟ قال: اللهم نعم. فقال سلمان رضي الله عنه: أما الآن، فقل نسمع»[٦].

وقدم عبد الله بن زمعة على علي ـ كرم الله وجهه ـ في خلافته ـ وكان من شيعته ـ فطلب منه مالاً، فقال: «إن هذا المال ليس لي ولا لك، وإنما هو فيء للمسلمين وجلب أسيافهم، فإن شركتهم في حربهم كان لك مثل حظهم، وإلا فجناة أيديهم لا تكون بغير أفواههم»[٧].

وأتاه أخوه عقيل فقال: «يا أمير المؤمنين إني محتاج، وإني فقير

---

(٥) تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار، أبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري، (ت: ٣١٠هـ)، ج١، ص١١٤، مطبعة المدني، القاهرة، تحقيق: محمود محمد شاكر.

(٦) عيون الأخبار، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت: ٢٧٦هـ)، ص٢٣.

(٧) ربيع الأبرار، ج١، ص٢٩٠، وينظر: أحكام أهل الذمة، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، (ت: ٧٥١هـ)، ج١، ص٣٦٨، رمادى للنشر، دار ابن حزم، الدمام، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، الطبعة: الأولى، تحقيق: يوسف أحمد البكري، شاكر توفيق العاروري.

فأعطني، قال: اصبر حتى يخرج عطائي مع المسلمين فأعطيك معهم، فألح عليه، فقال لرجل: خذ بيده فانطلق به إلى حوانيت أهل السوق فقل: دقّ هذه الأقفال وخذ ما في هذه الحوانيت.

قال: يريد عليٌّ أن يتخذني سارقاً، فرجع إليه، فقال: يا أمير المؤمنين: أردت أن تتخذني سارقاً، قال: أنت والله أردت أن تتخذني سارقاً، أن آخذ أموال الناس فأعطيكها دونهم، قال: لآتينّ معاوية، قال: أنت وذاك، فأتى معاوية فسأله، فأعطاه مائة ألف»[1].

هكذا كانت سيرة الخلفاء الراشدين تبعا للمنهج الذي سار عليه النبي ﷺ، لم تكن فيها محاباة لقريب ولا حرمان لبعيد، وإنما كان بعدها الانحراف المعاكس فكان الملك المسمى بالخليفة هو الذي يستأثر بالمال ويؤثر به من شاء ويحرم منه من يشاء، ويتخذه وسيلة لابتياع الضمائر وابتزاز الحقوق وسفك الدماء وإضاعة الحرم، فعظمت مصيبة الدين واشتدت غربة الإسلام، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

مُغَالَطَةُ الحقيقة بسَبّ الخليفة الشرعيّ ولَعْنِهِ على المنابر لتضليل عُقُول الناس:

بجانب هذه الحرب المسلحة التي شنها معاوية على الدولة الإسلامية

(١) تاريخ دمشق، ج٤١، ص٢٢، وينظر: مختصره، ج٥، ص٣١٢، وتاريخ الخلفاء، عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، (ت: ٩١١هـ)، ص٢٠٤، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، والصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة، أبو العباس أحمد بن محمد بن علي ابن حجر الهيثمي، (ت: ٩٧٣هـ)، ج٢، ص٣٨٦، مؤسسة الرسالة، لبنان، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبدالرحمن بن عبدالله التركي، كامل محمد الخراط.

وخليفة الأمة ـ الذي بايعته عن طواعية، وقدمته عليها ليؤمها في الحق وينهج بها سبيل الرشد ـ شن حربا إعلامية على الخليفة الشرعي لتضليل عقول الناس، فقد سن لعن علي بن أبي طالب على المنابر، وجعله سنة ينشأ عليها الصغير ويموت عليها الكبير، وكان يدعو الصحابة رضي الله تعالى عنهم إلى ذلك فضلا عن دهماء الناس، فـ«عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه قال: أمر معاوية بن أبي سفيان سعدا، فقال: ما منعك أن تسب أبا التراب؟ فقال: أما ما ذكرت ثلاثا قالهن له رسول الله ﷺ فلن أسبه، لأن تكون لي واحدة منهن أحب إلي من حمر النعم»... إلخ[١]، و«عن سهل بن سعد أن رجلا جاءه، فقال: هذا فلان، أمير من أمراء المدينة، يدعوك لتسب عليا على المنبر»[٢].

وقال ابن عبد ربه: «الشيباني، عن أبي الحباب الكندي، عن أبيه، أن معاوية بن أبي سفيان بينا هو جالس وعنده وجوه الناس، إذ دخل رجل من أهل الشام، فقام خطيبا، فكان آخر كلامه أن لعن عليا، فأطرق الناس، وتكلم الأحنف، فقال: يا أمير المؤمنين، إن هذا القائل ما قال آنفا، لو يعلم أن رضاك في لعن المرسلين لعنهم، فاتق الله ودع عنك عليا، فقد لقي ربه، وأفرد في قبره، وخلا بعمله، وكان والله ما علمنا المبرز بسبقه، الطاهر خلقه، الميمون نقيبته، العظيم مصيبته، فقال له معاوية: يا أحنف لقد أغضيت العين على القذى، وقلت ما ترى، وأيم الله لتصعدن المنبر، فتلعننه طوعا أو كرها، فقال له الأحنف: يا أمير المؤمنين، إن تعفني فهو خير لك، وإن تجبرني على ذلك فوالله لا تجري فيه شفتاي أبدا، قال: قم فاصعد المنبر، قال الأحنف: أما والله ـ مع ذلك ـ لأنصفنك في القول والفعل.

---

(١) أخرجه مسلم (١٢٠/٧ رقم ٦٣٧٣)، والترمذي (٦٣٨/٥ رقم ٣٧٢٤).

(٢) أخرجه ابن حبان (٣٦٨/١٥ رقم ٦٩٢٥).

قال: وما أنت قائل يا أحنف إن أنصفتني؟ قال: أصعد المنبر، فأحمد الله بما هو أهله، وأصلي على نبيه ﷺ، ثم أقول: أيها الناس، إن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن ألعن عليا، وإن عليا ومعاوية اختلفا فاقتتلا، وادعى كل واحد منهما أنه بغي عليه وعلى فئته، فإذا دعوت فأمنوا رحمكم الله.

ثم أقول: اللهم العن أنت وملائكتك وأنبياؤك وجميع خلقك الباغي منهما على صاحبه، والعن الفئة الباغية، اللهم العنهم لعنا كبيرا، أمنوا رحمكم الله، يا معاوية لا أزيد على هذا ولا أنقص منه حرفا ولو كان فيه ذهاب نفسي، فقال معاوية: إذا نعفيك يا أبا بحر، وقال معاوية لعقيل بن أبي طالب: إن عليا قد قطعك ووصلتك، ولا يرضيني منك إلا أن تلعنه على المنبر، قال: أفعل فأصعد، فصعد، ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أيها الناس، إن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن ألعن علي ابن أبي طالب، فالعنوه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ثم نزل، فقال له معاوية: إنك لم تبين أبا يزيد من لعنت بيني وبينه، قال: والله لا زدت حرفا، ولا نقصت آخر، والكلام إلى نية المتكلم». اهـ[1].

وقال التميمي: «حدثني محمد بن علي بن الحسن، قال: حدثنا عبدالله بن محمد بن علي الدغشي، عن أبيه، عن خاله تميم بن مالك القرشي قال: كتب معاوية بن أبي سفيان إلى زياد، ابعث إلي خطباء أهل العراق وابعث إلي بصعصعة بن صوحان، فقدموا على معاوية، فخطب الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: قدمتم على إمامكم، وهو جنة لكم،

(١) العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، (ت: ٣٢٨هـ)، ج٤، ص٢٨ - ٢٩، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، الطبعة: الثالثة، وينظر: المختصر في أخبار البشر، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي (ت: ٧٣٢هـ)، ص١٣٥.

وقدمتم أرض المقدسة المحشر والمنشر، يعطيكم مسألتكم؛ ولا يتعاظم في كبير ولا يحقر لكـم صغيرا، ثم قال: لو أن أبا سـفيان ولـد الناس لكانوا أكياسا، ثم قال: يا صعصعة، قم فاخطب، فقام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ذكرت أنا قدمنا على إمامنا وهو جنة لنا، فكيف بالرعية إذا احترقت الجنة؟.. وذكرت أنا قدمنا أرض المقدسة وأن الأرض لا تقدس العباد، وإنما تقدسهم أعمالهم، وذكرت أنا قدمنا أرض المحشر والمنشر، ألا وإن المحشر والمنشر لا يضر بعدهما مؤمنا ولا ينفع قربهما كافرا، وذكرت أن أبا سـفيان لو ولد الناس لكانوا أكياسـا، فقد ولدهم من هو خير من أبي سفيان ـ آدم ـ فولد الأحمق والكيس، قال: اسكت لا أرض لك، قال: على الأرض ولدت، قال: اسكت، لا أم لك، قال: الأم ولدتني، قال: اسـكت، لا أب لك، قال: الأب ولدني، قال: أما والله لأحرمنـك عطاءك، قال: إن رازقي حي لا يموت، قال: أما والله لأقتلنك، ثم لأكفننك، قال: ما يحل لك إن كنت مسلما أن تقتلني، ولا يحل لك إن كنت كافرا أن تكفنني، قال: انطلقوا به إلى العراق، فأْمُروه أن يلعن عليا، وإلا فافعلوا به كذا، قال: فلما قدم به العراق، وجمع له الناس، صعد على المنبر، فقـال: أيها الناس، إني أتيتكم مـن عند رجل قدم خيره وأخر شـره، أمرني أن ألعن عليا، فالعنوه لعنه الله، قال: فقيل لهم: ما سـبَّ غيركم، فقيل له: اصعد المنبر الثانية، فقال: أيها الناس، إنهم قد أبوا علي إلا لعن من لعن الله، ولعن علي بن أبي طالـب ـ كرم الله وجهه ورضي عنه ـ، فسـكرت داره، ومنع عطـاؤه، فجمع له سـبعون ألفا، فاشـتكى صعصعة، فأوصى أن يرد إلى كل ذي حق حقه». اهـ[1].

(١) المحن، أبو العرب محمد بن أحمد بـن تميم بن تمام التميمـي، (ت: ٣٣٣هـ)، ٩٤٤م، ص٣٥٠-٣٥١، دار العلـوم، الريـاض، السـعودية، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، الطبعة: الأولى، تحقيق: د عمر سليمان العقيلي.

وقال الحاكم في المستدرك: «حدثنا أبو أحمد بكر بن محمد بن حمدان الصيرفي بمرو من أصل كتابه، حدثنا أبو محمد عبيد بن قنفذ البزار، حدثنا يحيى بـن عبدالحميد الحماني، حدثنا سـفيان ابن عيينـة، عن عبدالله بن طاوس، عن أبيـه، قال: كان حجر بن قيس المدري مـن المختصين بخدمة أمير المؤمنين علي بـن أبي طالب ﵁، فقال له علي يومـا: يا حجر، إنك تقام بعدي فتؤمر بلعنـي، فالعني ولا تبرأ مني، قال طـاوس: فرأيت حجر المدري وقد أقامه أحمد بن إبراهيم خليفة بنـي أمية في الجامع، ووكل به ليلعن عليـا أو يقتل، فقال حجر: أما إن الأمير أحمد بـن إبراهيم أمرني أن ألعن عليا، فالعنوه لعنه الله»[١].

وقال ابن عساكر في تاريخ دمشق: «قرأت على أبي محمد عبدالكريم بن حمزة، عن أبـي بكر الخطيب، أنـا أبو نعيم أحمد بن عبـدالله الحافظ، نا أبو حامد بن جبلة النيسـابوري، نا أبو العباس السـراج، حدثني محمد ابن مسـعود، نا عبدالرزاق، أنـا أبي، عـن عبدالملك بن خشـك، عن حجر المدري، قال: قال لي علـي كيف بك إذا أمرت أن تلعننـي؟ قلت: أوكائن ذلك؟ قـال: نعم، قلـت: فكيف أصنع؟ قـال: العن ولا تتبرأ منـي، فأقامه محمد بن يوسف إلى جنب المنبر يوم الجمعة، فقال له: العن عليا، فقال: إن الأمير محمد بن يوسـف أمرني أنا ألعن عليا، العنوه، لعنـه الله، قال: فلقد تفرق أهل المسـجد وما فهمها إلا رجل واحد. رواها خلف بن سـالم، عن عبدالرزاق، عن أبيه أنا حجر المدري، ولم يذكر عبدالملك بن خشك.

أنبأنـا بهـا أبو غالب شـجاع بن فارس الذهلـي، أنـا محمد بن علي العشـاري، نا أبو القاسـم عمر ابن ثابت بن القاسـم، نا علي بن أحمد بن علي بن أبي قيـس، نا أبو بكر بن أبي الدنيا، حدثني خلف ابن سـالم عن

(١) المستدرك على الصحيحين، ج٢، ص٣٩٠.

عبدالرحمن، عن أبيه، أن حجر المدري قال: قال لي علي كيف بك إذا أمرت أن تلعنني، قلت: وكائن ذلك؟! قال: نعم، قلت: فكيف أصنع؟ قال: العن ولا تتبرأ مني، قال: فأمره محمد بن يوسف أن يلعن عليا، فقال: إن الأمير أمرني أنا ألعن عليا محمد بن يوسف فالعنوه لعنه الله، قال: فعماها على أهل المسجد، قال: فما فطن لها إلا رجل واحد.

أخبرنا أبو البركات الأنماطي، أنا أبو الحسين بن الطيوري، أنا أبو الحسن العتيقي وأبو عبدالله السلماسي، وأنا أبو عبدالله البلخي، أنا أبو المعالي ثابت بن بندار، أنا أبو عبدالله السلماسي، قالا: أنا الوليد بن بكر، أنا علي بن أحمد الهاشمي، نا صالح بن أحمد بن عبدالله العجلي، حدثني أبي، قال: حجر المدري يماني تابعي ثقة، وكان من خيار التابعين، دعاه محمد بن يوسف وهو أمير اليمن، فقال: إن أخي الحجاج بن يوسف كتب إلي: أنا أقيمك للناس، فتلعن علي بن أبي طالب، فقال: اجمع لي الناس، فجمعهم، فقام فقال: ألا إن الأمير محمد بن يوسف أمرني بلعن علي، فالعنوه، لعنه الله». اهـ[1].

(١) تاريخ مدينة دمشق، ج٥٦، ص٣١٠-٣١١، وينظر: معرفة الثقات من رجال أهل العلم والحديث ومن الضعفاء وذكر مذاهبهم وأخبارهم، لأبي الحسن أحمد بن عبدالله بن صالح العجلي الكوفي نزيل طرابلس الغرب، (ت: ٢٦١هـ)، ج١، ص٢٨٨ مكتبة الدار، المدينة المنورة، السعودية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبدالعليم عبدالعظيم البستوي، والسلوك في طبقات العلماء والملوك، بهاء الدين محمد بن يوسف بن يعقوب الجندي الكندي، (ت: قبل سنة ٧٣٢هـ)، ج١، ص١١٠، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ١٩٩٥م، الطبعة: الثانية، تحقيق: محمد بن علي بن الحسين الأكوع الحوالي، وتاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، (ت: ٧٤٨هـ)، ج٦، ص٤٧٠، دار الكتاب العربي، لبنان، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. عمر عبدالسلام تدمري، ولسان الميزان، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، (ت: ٨٥٢هـ)، ج٤، ص١٢٢، مؤسسة الأعلمي =

فأنت ترى كيف كان معاوية وأتباعه يحملون الناس بالترغيب والترهيب على لعن علي الخليفة الشرعي، الذي خرج عليه معاوية باغيا وابتز منه السلطة بغير حق، وما ذلك إلا لأجل إدحاض الحق وقلب الموازين في عقول الناس، ليروا المحق مبطلا والمبطل محقا، وليتقبلوا الباطل ويرضخوا له، وفي هذا يقول الإمام السالمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ألا أدلكم على أضلهم أضلهم هم الذين ظلموا
وقاتلوا في البغي مع معاوية وشتموا أهل الهدى علانية
سن لهم إمامهم لعن علي في كل منبر وكل محفل[1].

وقد استمر على ذلك حكام بني أمية وعمالهم، وكانوا يحملون الناس على ذلك قسرا، فقد ذكر ابن سعد في ترجمة عطية بن سعد بن جنادة العوفي أنه خرج مع ابن الأشعث على الحجاج، فلما انهزم جيش ابن الأشعث هرب عطية إلى فارس، فكتب الحجاج إلى محمد بن القاسم الثقفي أن ادع عطية، فإن لعن علي بن أبي طالب، وإلا فاضربه أربعمائة سوط، واحلق رأسه ولحيته، فدعاه فأقرأه كتاب الحجاج، فأبى عطية أن يفعل، فضربه أربعمائة وحلق رأسه ولحيته[2].

وشددوا على الناس حتى في الرواية عن علي، حرصا منهم على تناسي

= للمطبوعات، بيروت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، الطبعة: الثالثة، تحقيق: دائرة المعرف النظامية، الهند، وزاد المسير في علم التفسير، عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي، (ت: ٥٩٧هـ)، ج٥، ص٣٦٣، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٤هـ، الطبعة: الثالثة.

(١) ينظر: مفتاح السعادة إلى صحيح العبادة، (أنوار العقول، مدارج الكمال، كشف الحقيقة)، نور الدين عبدالله بن حميد السالمي، ص٢٠٠، السيب، محافظة مسقط، الطبعة الأولى.

(٢) الطبقات الكبرى، ج٦، ص٣٠٤، وينظر: المنتخب من ذيل المذيل، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت: ٣١٠هـ)، ص١٢٨.

اسمه، فكانت الرواية عنه تعد من الجرائم التي لا تغتفر، ودليل ذلك ما ذكره ابن رجب في (شرح علل الترمذي) في قوله: «وروى محمد بن موسى الحرشي، عن ثمامة بن عبيدة، ثنا عطية بن محارب، عن يونس، قال: سألت الحسن، قلت: «يا أبا سعيد، إنك تقول: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ولم تدركه؟». قال: «كل شيء سمعتني أقوله: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فهو عن علي بن أبي طالب، غير أني في زمان لا أستطيع أن أذكر علياً». وكان في عمل الحجاج[١].

وإنما قطع دابر هذه البدعة عمر بن عبدالعزيز رضي الله تعالى عنه لما ولي الأمر، إذ منع من ذلك ولاته ورعيته، وكان ذلك من الإصلاح العظيم الذي قام به في عهده، قال اليعقوبي: «ونكث عمر أعمال أهل بيته، وسماها

---

(١) شرح علل الترمذي، زين الدين عبدالرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (ت: ٧٩٥هـ)، ج١، ص٥٣٨، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، الدكتور همام عبدالرحيم سعيد، وينظر: تهذيب الكمال، ج٦، ص١٢٤، مغاني الأخيار، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفي بدر الدين العيني (ت: ٨٥٥هـ)، ج١، ص٢١٠، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، (ت: ٩١١هـ)، ج١، ص٢٠٤، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف، الحاوي للفتاوي في الفقه وعلوم التفسير والحديث والأصول والنحو والإعراب وسائر الفنون، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، (ت: ٩١١هـ)، ج٢ ص٩٦، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبداللطيف حسن عبدالرحمن، الفتاوى الحديثية، أحمد شهاب الدين ابن حجر الهيتمي المكي، (ت: ٩٧٣هـ)، ص١٢٦، دار الفكر، السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، علي بن برهان الدين الحلبي، (ت: ١٠٤٤هـ)، ج٢، ص٢٨٩، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٠هـ، قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، محمد جمال الدين القاسمي، (ت: ١٣٣٢هـ)، ص١٤٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، الطبعة: الأولى، تحفة الأحوذي، ج٤، ص٥٧١.

مظالم، وكتب إلى عماله جميعا: أما بعد؛ فإن الناس قد أصابهم بلاء وشدة وجور في أحكام الله، وسنن سيئة سنتها عليهم عمال السوء، قلما قصدوا قصد الحق والرفق والإحسان، ومن أراد الحج فعجلوا عليه عطاءه حتى يتجهز منه، ولا تحدثوا حدثا في قطع وصلب حتى تؤامروني، وترك لعن علي بن أبي طالب على المنبر»[١].

ومع ذلك، فقد ظل الموالون للسلطات الأموية السابقة تغلي صدورهم حقدا على علي ابن أبي طالب، فيجري على ألسنتهم من بذاءة القول في حقه ما هو شاهد على اعتقادهم فيه، ومن ذلك ما ذكره ابن عساكر في «تاريخ دمشق» قال: «أخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي وأبو السعود أحمد ابن علي بن محمد بن المجلي، قالا: أنا أبو محمد عبد الله بن محمد الصريفيني، أنا أبو القاسم الصيدلاني، نا علي بن محمد الكاتب، نا أبو الحسن علي بن الحسين الطويل، حدثني أحمد بن محمد السكري، حدثني ابن عمي أبو يحيى السكري، قال: دخلت مسجد دمشق فرأيت في مسجدها خلقا، فقلت: هذا بلد قد دخله جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ وعليهم، وملت إلى حلقة في المسجد، في صدرها شيخ جالس، فجلست إليه فسأله رجل ممن بين يديه، فقال: يا أبا المهلب من علي بن أبي طالب؟ قال: خناق كان بالعراق، اجتمعت إليه جميعة، فقصد أمير المؤمنين يحاربه، فينصره الله عليه، قال: فاستعظمت ذلك وقمت، فرأيت في جانب المسجد شيخا يصلي إلى سارية حسن السمت والصلاة والهيئة فقعدت إليه، فقلت له: يا شيخ أنا رجل من أهل العراق جلست إلى تلك الحلقة وقصصت عليه القصة، فقال لي: في هذا المسجد عجائب، بلغني أن بعضهم يطعن على

---

(١) تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي، (ت: ٢٩٢هـ)، ج٢، ص٣٠٥، دار صادر، بيروت.

أبي محمد حجاج ابن يوسف، فعلي بن أبي طالب من هو؟»[١].

وحسبك من هذا، أنهم يرونه لا يقارن في الفضل بطاغية ثقيف الحجاج بن يوسف، الذي سفك الدماء واستباح الحرم.

ومع تقادم العهد، بقي ابن تيمية ـ مع محاولته طي ما في نفسه عن الناس ـ تنفلت منه عبارات، تشي عما يعتمل بين حناياه من الحقد على أبي السبطين ـ كرم الله وجهه ـ حتى أنه شبهه بفرعون، حيث قال: «ثم يقال لهؤلاء الرافضة، لو قالت لكم النواصب: علي قد استحل دماء المسلمين وقاتلهم بغير أمر الله ورسوله على رياسته، وقد قال النبي ﷺ: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» وقال: «ولا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض» فيكون علي كافرا لذلك، لم تكن حجتكم أقوى من حجتهم، لأن الأحاديث التي احتجوا بها صحيحة، وأيضا فيقولون: قتل النفوس فساد، فمن قتل النفوس على طاعته كان مريدا للعلو في الأرض والفساد، وهذا حال فرعون، والله تعالى يقول: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣] فمن أراد العلو في الأرض والفساد لم يكن من أهل السعادة في الآخرة»[٢].

وقال أيضا: «وأما الرافضي، فإذا قدح في معاوية رضي الله عنه بأنه كان باغيا ظالما قال له الناصبي: وعلي أيضا كان باغيا ظالما لما قاتل المسلمين على إمارته، وبدأهم بالقتال وصال عليهم، وسفك دماء الأمة بغير فائدة لهم، لا في دينهم ولا في دنياهم، وكان السيف في خلافته مسلولا على أهل الملة مكفوفا عن الكفار»[٣].

---

(١) تاريخ دمشق، ج١، ص٣٦٥.
(٢) منهاج السُّنّة النبويّة، ج٤، ص٤٩٩ ـ ٥٠٠.
(٣) المرجع السابق، ج٤، ص٣٨٩.

وهو بهذا يتجاهل الفرق بين القتالين، فإن معاوية إنما كان يقاتل لأجل العلو في الأرض والفساد، وتحويل الخلافة إلى ملك عضوض، والاستبداد بالسلطة دون المسلمين، وجعلها ميراثا يورثه أعقابه الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، وكفى شاهدا على ذلك إكراهه خيار المهاجرين والأنصار على قبولهم استخلافه ليزيد ابنه، مع ما كان عليه من الانحراف والفساد، وما تبع هذا الاستخلاف من استباحة دماء المؤمنين، وانتهاك حرم الإسلام، وهتك أعراض المؤمنات في حرم رسول الله ﷺ كما سيأتي إن شاء الله.

وأما علي، فكان قتاله امتثالا لأمر الله سبحانه، الذي يأمر بقتال الفئة الباغية بنص صريح في قوله: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]، وقد علمت تواتر الروايات عن النبي ﷺ ببغي الفئة التي قتلت عمارا رضي الله عنه، فشتان لعمر الله بين القتالين.

وقال أيضا: «فلا رأي أعظم ذما من رأي أريق به دم ألوف مؤلفة من المسلمين، ولم يحصل بقتلهم مصلحة للمسلمين لا في دينهم ولا في دنياهم، بل نقص الخير عما كان، وزاد الشر على ما كان»[١].

وقال: «وعلي رضي الله عنه كان عاجزا عن قهر الظلمة من العسكرين، ولم تكن أعوانه يوافقونه على ما يأمر به، وأعوان معاوية يوافقونه، وكان يرى أن القتال يحصل به المطلوب، فما حصل به إلا ضد المطلوب»[٢].

وقال: «إن الله قد أخبر أنه سيجعل للذين آمنوا وعملوا الصالحات ودا، وهذا وعد منه صادق، ومعلوم أن الله قد جعل للصحابة مودة في قلب كل

(١) المرجع السابق، ج٦، ص١١٣.
(٢) المرجع السابق، ج٤، ص٣٨٣ - ٣٨٤.

مسلم، لا سيما الخلفاء ﷺ لا سيما أبو بكر وعمر، فإن عامة الصحابة والتابعين كانوا يودونهما وكانوا خير القرون، ولم يكن كذلك علي، فإن كثيرا من الصحابة والتابعين كانوا يبغضونه ويسبونه ويقاتلونه»[١].

وحكى عنه الحافظ ابن حجر أنه قال في علي: «إنه كان مخذولا حيث ما توجه، وإنه حاول الخلافة مرارا فلم ينلها، وإنما قاتل للرئاسة لا للديانة، وإنه كان يحب الرئاسة، وإن عثمان كان يحب المال، وإن أبا بكر أسلم شيخا يدري ما يقول، وعلي أسلم صبيا؛ والصبي لا يصح إسلامه على قول»[٢].

وحسبك من هذا، أنه كان يشكك في صحة إسلام علي، لأنه أسلم في صباه، وهو كلام لا ينبئ إلا عن مرض عضال في نفس قائله، والله المستعان.

استخلافُ مُعَاوية ليزيد على رغم المهاجرين والأنصار:

نزا معاوية على السلطة فابتزها ـ بمكره وخداعه، وبشنه حربا باغية ـ ممن هو أحق بها وأهلها، على أن الأمة كانت إبان حكمه لا يزال فيها عدد كبير من المهاجرين والأنصار، الذين كانت لهم سابقة نصرة الدين ورفع مناره، والجهاد من أجل توطيده وتعميم هدايته، وتذليل العقبات التي تعترضه، وهم بلا ريب كانوا أحق بهذا الأمر وأولى، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «هذا الأمر في أهل بدر ما بقي منهم أحد، ثم في أهل

(١) المرجع السابق، ج٧، ص١٣٦ – ١٣٧.

(٢) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، الحافظ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني، (ت: ٨٥٢هـ/ ١٤٤٩م)، ج١، ص١٨١، مجلس دائرة المعارف العثمانية، صيدر اباد، الهند، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، الطبعة: الثانية، تحقيق: مراقبة / محمد عبدالمعيد ضان.

أحد ما بقي منهم أحد، وفي كـذا وكذا، وليس فيها لطليق، ولا لولد طليق، ولا لمسلمة الفتح شيء»[١].

وقد كانت مقولة عمر هذه أمام جمهرة من المهاجرين والأنصار، ولم ينكر عليه أحد، فـكان ذلك إجماعا منهم على رأيـه، ولكن الواقع آل إلى خلاف ما رأوا، فابتز الأمر الطلقاء، وورَّثوه من بعدهم لأعقابهم، ولا يخفى أن نية التوريث كانت راسـخة في نفس معاوية، وإن واراها عن الناس إلى حين مواتاة الفرصـة لإظهارها وفرضهـا عليهم، وإن صح مـا ذكر من أن المغيرة بن شعبة تقدم إلى معاوية بهذا الاقتراح، تزلفا إليه عندما علم أن من نية معاوية أن يعزله عن الكوفة ويولي مكانه سعيد ابن العاص، فإن ذلك لا يعدو أن يكون فتحا لباب كان معاوية يتحين فتحـه، فلم يلبث أن أظهر ما كان مكنونا في نفسه، فطرح فكرة اسـتخلاف ابنه يزيد، وفرضها بالإرهاب والقوة على المهاجرين الذين رفضوها وقاوموها، ولكن لم يلق لمعارضتهم بالا، بل أسكت ألسنتهم بإشهار السيف في وجوههم لقطعها إن لم تخرس، بل لحز رقابهم ونهب حياتهم، فقد كتـب معاوية إلى مروان أن يبايع ليزيد ابـن معاوية، فقـال عبدالرحمن بن أبي بكـر: «جئتم بها هرقليـة وفوقية، يبايعون لأبنائكم!»[٢].

(١) الطبقات الكبرى، ج٣، ص٣٤٢، تاريخ دمشـق، ج٥٩، ص١٤٥، أسـد الغابة في معرفة الصحابة، عز الدين بن الأثير أبي الحسـن علي بن محمـد الجزري، (ت: ٦٣٠هـ)، ج٥، ص٢٢٤، دار إحياء التـراث العربي، بيروت، لبنـان، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عادل أحمد الرفاعي، فتح الباري، ج١٣، ص٢٠٧.

(٢) تاريخ مدينة دمشق، ج٣٥ ص٣٥، وينظر: مختصره ج٤، ص٤٨٤، الكشف والبيان (تفسير الثعلبي)، أبو إسـحاق أحمد بن محمد بـن إبراهيم الثعلبي النيسـابوري، (ت: ٤٢٧هـ)، ١٠٣٥م، ج٩، ص١٣، دار إحيـاء التـراث العربـي، بيروت، لبنـان، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، الطبعة: الأولـى، تحقيق: الإمـام أبي محمد بن عاشـور، مراجعة وتدقيق الأسـتاذ نظير السـاعدي، الكشـاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسـم =

وذكر أنه رد عليه بقولـــه: «كذبت والله يا مروان وكذب معاوية، ما الخير أردتما لأمة محمد، ولكنكم تريدون أن تجعلوهـــا هرقلية، كلما مات هرقل قام هرقل»[١].

وقال عبدالله بن نافع بن ثابت: «قام مـــروان على المنبر، فدعا إلى بيعة يزيد، فكلمه الحســـين ابن علي وعبدالله بن الزبير بكلام، موضعه غير هذا، وقال لـــه عبدالرحمن بن أبي بكر: أهرقلية؟ إذا مات كســـرى كان كســـرى مكانه، لا نفعل والله أبداً»[٢].

واحتج عليه بإباء الخلفاء الراشـــدين أن يســـتخلفوا أولادهم قائلا: «ما لأبي بكر لم يستخلفني؟ وما لعمر لم يستخلف عبدالله؟!»[٣].

= محمود بن عمر الزمخشـــري الخوارزمي، (ت: ٥٣٨هـ)، ج٤، ص٣٠٧، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمـــر التميمـــي الـــرازي الشـــافعي، (ت: ٦٠٤هـ)، ج٢٨، ص٢٠، دار الكتب العلمية، بيـــروت، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، الطبعة: الأولى، النهاية فـــي غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، (ت: ٦٠٦هـ)، ج٥، ص٢٥٩، المكتبة العلمية، بيـــروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى، محمود محمد الطناحي، أســـد الغابة في معرفـــة الصحابـــة، ج٣ ص٤٨٢، دار إحياء التـــراث العربي، بيـــروت، لبنان، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، الطبعة: الأولـــى، تحقيق: عادل أحمد الرفاعي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٦، ص١٩٧، تفسير النسفي، النســـفي، (ت: ٧١٠هـ)، ج٤، ص١٣٩، الإجابة لإيراد ما اســـتدركته عائشـــة على الصحابة، الإمام بدر الدين الزركشـــي، (ت: ٧٩٤هـ)، ص١٢٩، المكتب الإســـلامي، بيروت، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م، الطبعة: الثانية، تحقيق: ســـعيد الأفغاني، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ج٣، ص٤٧٤.

(١) الكامـــل في التاريخ، أبو الحســـن علي بن أبـــي الكرم محمد بن محمد بـــن عبدالكريم الشـــيباني، (ت: ٦٣٠هـ)، ج٣، ص٣٥١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ، الطبعة: ط٢، تحقيق: عبدالله القاضي.

(٢) مختصر تاريخ دمشق، ج٤، ص٤٨٤.

(٣) المصدر السابق، ج٤، ص٤٨٥.

واحتج بهذا أيضا عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قائلا: «إن هذه الخلافة ليست بهرقلية ولا قيصرية ولا كسروية يتوارثها الأبناء عن الآباء، ولو كان كذلك كنت القائم بها بعد أبي»(١).

ولكن معاوية لم يلتفت إلى هذه المعارضة ولم يلق لها بالا، بل كان مصمما على تنفيذ ما أراده من توريث ولده أمر الأمة وهي له كارهة، بل عمد إلى القوة والبطش لتحقيق ما يهواه من ذلك.

وذكر ابن كثير أنه امتنع عن موافقة معاوية: «عبدالرحمن بن أبي بكر، وعبدالله بن عمر، والحسين بن على، وعبدالله بن الزبير، وابن عباس، فركب معاوية إلى مكة معتمرا، فلما اجتاز بالمدينة مرجعه من مكة استدعى كل واحد من هؤلاء الخمسة، فأوعده وتهدده بانفراده، فكان من أشدهم عليه ردا وأجلدهم في الكلام عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق، وكان ألينهم كلاما عبدالله بن عمر ابن الخطاب، ثم خطب معاوية، وهؤلاء حضور تحت منبره، وبايع الناس ليزيد، وهم قعود ولم يوافقوا، ولم يظهروا خلافا لما تهددهم وتوعدهم»(٢).

وأنت ترى أن هذه البيعة أخذت عنوة تحت طائلة البطش ممن بقي من صحابة رسول الله ﷺ وهم كارهون لها، فكيف تكون بيعة مشروعة مع أنه أمر يرتبط به مصير أمة محمد ﷺ ؟!، وقد علمت من هدي السلف الذين بايعوا الخلفاء الراشدين أنهم لا يختارون لهذا الأمر إلا من كان أورعهم وأنقاهم وأتقاهم، والعقود لا تثبت بالإكراه، فكيف يثبت به عقد يناط به أمر الأمة بأسرها، بل يغدو مرهونا به دينها ودنياها؟!.

---

(١) الإمامة والسياسة، أبو محمد عبدالله بن مسلم ابن قتيبة الدينوري، (ت: ٢٧٦هـ)، ج٤، ص٤٨٥، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.، تحقيق: خليل المنصور.

(٢) البداية والنهاية، ج٨، ص٧٩ - ٨٠.

وقد صور الأستاذ عبدالكريم محمد مطيع الحمداوي هذا الواقع المرير، الذي انقلبت به حياة الأمة إلى عهد مظلم موحش في تقديمه لـ: (تحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك) فقال: «تربع معاوية على أريكة الملك الذي أسموه خلافة، وتخلص من مناوئيه بالسيف تارة، وبالرشوة أخرى؛ وشفى غيظ قومه باضطهاد آل البيت، وتسميم أعيانهم، ولعنهم على المنابر. ثم جمع الأتباع على بيعة ولده الفاسق (يزيد)، وأكره كرام الصحابة على ذلك تحت بارقة السيف؛ بل حتى عبدالله بن عمر رضي الله عنه الذي بايعه وبايع يزيد، قتله الحجاج بن يوسف غيلة بأخس ما تتفتق عنه ذهنية شيطان. وخلف معاويةَ ولدُه يزيد، فشرب الخمر وجاهر بالفاحشة، وواصل قتل آل البيت واضطهاد الصحابة، واستباحة الحرمين الشريفين ـ مكة والمدينة ـ؛ فكان بذلك عهد بني أمية باباً للفتنة الصماء التي هاجت وماجت بالأمة، وما زالت تعيث فيها إلى عصرنا الحاضر، وفيما يستقبل إن لم يتداركنا الله بالرشد، ويهدنا للعودة إلى نبع القرآن الكريم»[(١)].

على أن هذه المعارضة لم تتوقف بوقوع هذه البيعة الإكراهية في عهد معاوية لابنه يزيد وإنما تجددت بموته، كما تجددت مظاهر البطش الذي أخذ به الناس ليوطئوا أكنافهم، فقد كتب يزيد إلى عامله بالمدينة الوليد بن عقبة في صحيفة كأنها أذن الفأرة: «أما بعد، فخذ حسينا وعبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير بالبيعة أخذا شديدا ليست فيه رخصة حتى يبايعوا، والسلام»[(٢)].

وقد استشار الوليد في ذلك مروان فقال: «أرى أن تدعوهم قبل أن

---

(١) تحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك، إبراهيم بن علي بن أحمد بن عبدالواحد ابن عبدالمنعم الطرسوسي، نجم الدين، (ت: ٧٥٨هـ)، ص٥.

(٢) البداية والنهاية، ج٨، ص١٤٥ ـ ١٤٦.

يعلموا بموت معاوية إلى البيعة، فإن أبوا ضربت أعناقهم»[١].

وهكذا كانت هذه البيعة لا تقوم إلا بضرب الأعناق وسفك الدماء، إذ لم تبق في موازينهم قيمة للإنسانية، أو وزن لدماء أصحاب رسول الله ﷺ وأنفسهم، في سبيل تحقيق التسلط في الأرض والعلو فيها، ومع هذا البطش الشديد فإن من هؤلاء من تخلص من هذه البيعة بالاحتيال حتى تسنى له أن يعلن الثورة على الطاغية الجديد، كما كان من حسين سبط رسول الله ﷺ الذي اتجه نحو العراق التي دعته إليها لنصرته ثم خذلته، فتمكن منه جند الطاغية، فحملوا إليه رأسه وقد أبين عن جسده، كما هي العادة في شفاء نفوس الطغاة.

وكذلك ابن الزبير، فقد أبى بيعة يزيد وثار عليه، فاستقل بمكة المكرمة وما دخل في حكمه من الأقطار والبلدان.

وثارت المدينة المنورة بمن فيها من بقايا المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان على هذا الطاغية الجديد بقيادة عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصاري، فما كان منه إلا أن جرد حملة من الوحوش الضارية بقيادة مسلم بن عقبة، الذي عرف من بعد بمسرف بن عقبة لعظم جرائمه التي ارتكبها في حرم رسول الله ﷺ بإيعاز من يزيد الطاغية نفسه! فاستباح المدينة ثلاثة أيام، وأطلق لجيشه العنان في انتهاك الحرم، حتى بلغ عدد العذارى اللائي رزئن في عفتهن ألف عذراء! وقد روى ذلك البيهقي بإسناده حيث قال: أخبرنا أبو الحسين بن الفضل، أخبرنا عبد الله بن جعفر، حدثنا يعقوب ابن سفيان، حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا جرير عن مغيرة، قال: أنهب

(١) المرجع السابق، ج٨، ص١٤٧.

مسرف بن عقبة المدينة ثلاثة أيام، فزعم المغيرة أنه افتض فيها ألف عذراء[(١)].

وقد دون المؤرخون هذه الفظائع التي ارتكبها هذا الجيش المجرم بمدينة رسول الله ﷺ وذكروا استعظام أصحاب رسول الله ﷺ، لهذا العمل الموحش، وكان مما ذكره العاصمي في ذلك ما نصه: «وأما جابر بن عبدالله الأنصاري فخرج في ذلك اليوم يطوف في أزقة المدينة، وهو أعمى، والبيوت تنتهب، وهو يعثر في القتلى، ويقول: تعس من أخاف رسول الله، فقال له قائل: ومن أخاف رسول الله؟ فقال: سمعت رسول الله يقول: «من أخاف المدينة فقد أخاف ما بين جنبي» فحملوا عليه ليقتلوه فأخذه منهم مروان بن الحكم وأدخله بيته، وقتل في ذلك اليوم من وجوه المهاجرين والأنصار ألف وسبعمائة رجل، وقتل من أخلاط الناس عشرة آلاف، سوى النساء والصبيان، ونهبوا وأفسدوا واستحلوا الحرم وعطلت الصلوات في مسجده، ولم يبق في المسجد إلا سعيد بن المسيب، جعل نفسه ولهانا خبلا

(١) دلائل النبوة، للبيهقي، (ت: ٤٥٨هـ)، ج٦، ص٤٧٥، وينظر: مختصر تاريخ دمشق، ج٧، ص٢٨٣، سير أعلام النبلاء، ج٣، ص٣٢٣، تاريخ الإسلام، ج٥، ص٢٦، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردى الأتابكي، (ت: ٨٧٤هـ)، ج١، ص١٦١، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، الامام السخاوي، (ت: ٩٠٢هـ)، ج١، ص٤٤، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، الطبعة: الأولى، الخصائص الكبرى، أبو الفضل جلال الدين عبدالرحمن أبي بكر السيوطي، (ت: ٩١١هـ)، ج٢، ص٢٤٠، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، تاريخ الخلفاء، عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، (ت: ٩١١هـ)، ص٢٠٩، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، علي بن برهان الدين الحلبي، (ت: ١٠٤٤هـ)، ج١، ص٢٦٧، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٠هـ، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، عبدالملك بن حسين بن عبدالملك الشافعي العاصمي المكي، (ت: ١١١١هـ)، ج٣، ص٢٠٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، علي محمد معوض.

فتركوه، وكان يقول: كنت أسمع عند مواقيت الصلاة همهمة من الحجرة المطهرة، وافتض فيها ألف عذراء، وإن مفتضها فعل ذلك أمام الوجه الشريف، والتمس ما يمسح به الدم فلم يجد، ففتح مصحفا قريبا منه، ثم أخذ من أوراقه ورقة فتمسح بها، نعوذ بالله، ما هذا إلا صريح الكفر وأنتنه.

ومن ذلك، أن امرأة من الأنصار دخل عليها رجل من أهل الشام وهي ترضع ولدها وقد أخذ ما كان عندها، قال لها: هاتي الذهب، وإلا قتلتك وقتلت ابنك. فقالت: ويحك إن قتلته فأبوه أبو كبشة صاحب رسول الله، وأنا من النسوة اللاتي بايعن رسول الله، وما خنت الله في شيء بايعت رسوله عليه فأخذ الصبي من حجرها وثديها في فيه، وضرب به الحائط حتى انتثر دماغه في الأرض، والمرأة تقول: لو كان عندي شيء أفديك به يا ابني لفديتك، قال: فما خرج من البيت حتى اسود نصف وجهه، وصار مثلة في الناس»[(١)].

ليت شعري؛ ما الذي أبقاه هؤلاء من الحرم لم ينتهكوه، فقد انتهكوا حرمة مسجد رسول الله ﷺ بارتكابهم الجرائم العظام بين جنباته، وانتهكوا سائر حرمه بسفكهم الدماء، وإزهاقهم الأرواح، وانتزاعهم النساء ـ لا سيما العذارى ـ من بين أهلهن، وترويعهم الساكنين فيه، وانتهكوا حرمة القرآن الكريم إذ دنسوا المصاحف بمسحهم آثار جرائمهم بأوراقها التي كتبت عليها آياته تعالى، وانتهكوا حرمة الدين إذ ضربوا بتعاليمه عرض الحائط وداسوها بأقدامهم، وانتهكوا حرمة الإنسانية التي عظمها الله في كتابه حيث قال: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]، فكيف بقتل هذه الألوف من خيار أهل الأرض، وانتهكوا حرمة خير أمة

(١) **سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي**، ج٣، ص٢٠٢ - ٢٠٣.

أخرجت للناس بإبادة خيارها وقتل معنوياتها وتمريغ وجهها في أوحال الذل والهوان؟!!.

ومع هذا كله، فقد فرض الأحمق المغرور المتسلط مسرف بن عقبة على أهل المدينة العبودية المطلقة ليزيد الطاغية، حيث طلبهم أن يبايعوه على أن يكونوا له عبيدا أرقاء!!.

قال الزبيري: «وكان مسلم بن عقبة، بعد ما أوقع بأهل المدينة يوم الحرة في إمرة يزيد ابن معاوية، وأنهبها ثلاثاً، أتي بقوم من أهل المدينة؛ فكان أول من قدم إليه محمد بن أبي جهم، فقال له: «تبايع أمير المؤمنين يزيد على أنك عبد قن فإن شاء أعتقك، وإن شاء استرقك»، قال محمد: «بل، أبايع على أني ابن عم كريم حر»، فقال: «اضربوا عنقه»؛ فقتل، ثم قدم إليه يزيد بن عبدالله بن زمعة، فقال له مثل ذلك؛ فأجابه مثل جواب محمد فقدمه، فقتله، ثم قدم إليه سعيد بن المسيب، فقال له: «بايع أمير المؤمنين على أنك عبد قن فإن شاء أعتقك، وإن شاء استرقك»، قال سعيد: «لا أبايع عبداً ولا حراً «فقال مسلم للذين أتيا به: مجنون والله!؛ فخنقاه حتى ثقل في أيديهما، فظنا أنه قد مات، فأرسلاه فسقط ثم أفاق، فقال: «لا والله لا والله»، فتقدم إليه مروان بن الحكم، وعمرو بن عثمان؛ فشهدا أنه مجنون، فقال: «قد ظننت ذلك، أرسلاه» فانصرف راجعاً إلى المدينة؛ فلحقه مروان وعمرو بن عثمان، فقالا له: «الحمد لله الذي سلمك يا أبا محمد»، فقال: «اذهبا إليكما عني، أتشهدان بالزور وأنا أسمع، وتنفسان عليَّ الشهادة؟ والله لا أكلمكما أبداً»[1].

---

(١) نسب قريش، أبو عبدالله المصعب بن عبدالله بن المصعب الزبيري، (ت: ٢٣٦هـ)، ج١٠، ص٣٧١، دار المعارف، القاهرة، تحقيق: ليفي بروفسال، وينظر: المنمق في أخبار قريش، محمد بن حبيب البغدادي، (ت: ٢٤٥هـ)، ص٣١٦، عالم الكتب، بيروت، لبنان، =

فانظر كيف أخذت البيعة من أهل مدينة رسول الله ﷺ للطاغية ـ على يدي قائد جنده الذي أوعز إليه أن يستبيح حرم رسول الله ﷺ ـ على أنهم أرقاؤه، يتصرف فيهم تصرف المالك في رقيقه، وهل هذا إلا دليل على أن هذه الدولة قامت باستعباد العباد ونقل عبوديتهم عن كونها لله ﷻ خالصة، لتصبح عبوديتهم لطائفة من البشر تتحكم فيهم كما يملي عليها هواها، فأين هذا من مقولة عمر ؓ: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا»؟!.

وأين هذه البيعة من بيعة الخلفاء الراشدين التي كانت على كتاب الله وسنة رسول ﷺ، فقد كان ذكر الكتاب العزيز والسنة الطاهرة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، وإرادة البيعة وفق مقتضاهما عند هؤلاء جريمة يعاقب عليها بالقتل، فعندما أراد يزيد بن عبد الله بن زمعة بن الأسود ـ ابن ربيبة رسول الله ﷺ بنت أم سلمة ـ أن يبايع على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ أمر الطاغية بضرب عنقه[1].

ولا عجب، إذ كيف يقرون البيعة على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهم إنما قاموا من أجل حربهما وطمس معالمهما، بل بلغ الأمر بالقائد الطاغية أن ينتهك أعظم حرمة من حرمات الله في حرم رسوله ﷺ حول ضريحه الطاهر المطهر، ويمسح أثر الدم الذي خلفه الانتهاك بأوراق من المصحف الشريف، فكيف يتصور بعد ذلك أن يقروا بيعة أساسها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ؟!..

= ١٤٠٥هـ /١٩٨٥م، الطبعة: الأولى، تحقيق: خورشيد أحمد فارق، جمهرة نسب قريش وأخبارها، الزبير بن بكار بن عبد الله (ت: ٢٥٦هـ)، ص٩٧، أنساب الأشراف، ج٢، ص١٩٤، تاريخ اليعقوبي، ج٣، ص٢٥١، جمهرة أنساب العرب، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، (ت: ٤٥٦هـ)، ج١، ص١١٩، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، الطبعة: الثالثة، تاريخ دمشق، ج٥٤، ص١٨٢.

(١) أنساب الأشراف، ج٣، ص٢٨٧ – ٢٨٨.

ولم يخف الطاغية الأكبر يزيد ما كان يعتمل بين حنايا قلبه من الفرحة والابتهاج والسرور بشفاء غيظه مما أصاب بقايا المهاجرين والأنصار من هذه الحملة الوحشية، إذ عد ذلك من الأخذ بالثأر منهم، نتيجة ما فعلوه مع رسول الله ﷺ بأجداده الكفرة الطغاة في يوم بدر، فقد أعرب عن بهجته هذه بإنشاده قصيدة ابن الزبعرى التي يقول فيها:

ليت أشياخي ببدرٍ شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل[1]

ويقال بأن إنشادها كان عندما وضعت بين يديه الرؤوس التي حزها قائده المسرف بالمدينة المنورة وبعثها إليه[2].

وأنشدها أيضا عندما جيء برأس سبط رسول الله ﷺ، فكان يعبث بثناياه بقضيب في يده وينشد هذه القصيدة إعجابا وغرورا[3].

---

(١) المرجع السابق، ج٢، ص١٩٦، وينظر: تاريخ الطبري، ج٥، ص٦٢٣، العقد الفريد، ج٤، ص٣٦٥، وج٥، ص٧١، الأخبار الطوال، ج١، ص٣٩٥، الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة، محمد بن أبي بكر الانصاري التلمساني المعروف بالبري (ت: ٦٤٤هـ)، ص٢٩، غرر الخصائص الواضحة، أبو إسحق برهان الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى بن علي المعروف بالوطواط (ت: ٧١٨هـ)، ج١، ص١٨٨، نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويري، (ت: ٧٣٣هـ)، ج٢٠، ص٣١٠، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م، الطبعة: الأولى، تحقيق: مفيد قمحية وجماعة، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبدالحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي، (ت: ١٠٨٩هـ)، ج١، ص٦٩، دار بن كثير، دمشق، ١٤٠٦هـ، الطبعة: ط١، تحقيق: عبدالقادر الأرنؤوط، محمود الأرناؤوط، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد الناصري، (ت: ١٣١٥هـ)، ج٦، ص٣٩ دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، تحقيق: جعفر الناصري/ محمد الناصري.

(٢) العقد الفريد، ج٤، ص٣٦٥، غرر الخصائص الواضحة، ص١٨٨.

(٣) مقاتل الطالبيين، أبو الفرج الاصفهاني، علي بن الحسين (ت: ٣٥٦هـ) ص٣٤، نثر الدر في المحاضرات، ج٤، ص١٧، البدء والتاريخ، وهو المطهر بن طاهر المقدسي، =

وقد خرج القائد المسرف من مدينة رسول الله ﷺ بهجا مسرورا بما فعله بأهلهـــا وارتكبه في حرمهـــا، وتوجه إلى مكـــة المكرمة ليعيـــد الكرة فيها بجرائمه المنكرة ووحشـــيته الضارية وهو يتميز غيظا عليها وعلى أهلها، إلا أنه هلك بالمشلل، وتبعه من بعد يزيد، عاملهما الله بما يستحقان.

هذه هي ســـيرة يزيد الذي اختاره معاوية ليخلفه في أمر الأمة، فيا ترى هل يبرأ معاوية من تبعـــة أفعال يزيد؟ مع أنه تربى علـــى يديه وصنع على عينه، فخبر طواياه واكتشف خباياه، وقد كان إقدامه على هذه الخطة بإرغام بقايا المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحســـان، وقد علمت أنهم كانوا معترضيـــن عليه فلم يلق لهـــم بالا، وإنمـــا هددهم بالقتل والإبـــادة إن لم يخضعوا ويستكينوا، ولنسمع إلى ما ذكره شـــيخ المفسرين والمؤرخين ابن جرير الطبري، نقلا من الكتاب الذي أمر المعتضد العباسي بنشره في معاوية وجرائره، ابتداء من انتزاعه الخلافـــة ممن هو أتقى وأنقى وأبر وأكرم وأعلم وأحلم، وتحويلها إلى ملك عضوض، ومنها أخذه البيعة ليزيد قســـرا، وهاك بعضا مما تضمنه بنصه:

«ثم مما أوجب الله لـــه اللعنة قتله مـــن قتل صبرا من خيـــار الصحابة والتابعين وأهل الفضـــل والديانة، مثل عمرو بن الحمـــق وحجر بن عدي، فيمن قتل مـــن أمثالهم في أن تكون لـــه العزة والملك والغلبـــة، ولله العزة

= (ت: ٥٠٧هـ)، ج٦، ص١٢، مكتبة الثقافة الدينية ـ بورســـعيد، المنتظم في تاريخ الملوك والأمـــم، عبدالرحمن بـــن علي بن محمد بن الجـــوزي أبو الفـــرج، (ت: ٥٩٧هـ)، ج٥، ص٣٤٣، دار صادر، بيروت، ١٣٥٨هـ، الطبعة: الأولى، التذكرة الحمدونية، ابن حمدون محمد بن الحســـن بن محمد بن علي، (ت: ٦٠٨هـ)، ج٦، ص٢٦٢، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٩٦م، الطبعة: الأولى، تحقيق: إحســـان عباس، بكر عباس، الجوهرة في نســـب النبي وأصحابه العشـــرة، محمد بن أبـــي بكر الانصاري التلمســـاني المعـــروف بالبري (ت: ٦٤٤هـ)، ج١، ص٢٩، البداية والنهاية، ج٨، ص١٩٢.

والملك والقدرة والله ﷻ يقول: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣].

ومما استحق به اللعنة من الله ورسوله ادعاؤه زياد بن سمية جرأة على الله، والله يقول: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب: ٥]، ورسول الله ﷺ، يقول: «ملعون من ادعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه»[(١)]، ويقول: «الولد للفراش وللعاهر الحجر»[(٢)] فخالف حكم الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ جهارا، وجعل الولد لغير الفراش والعاهر لا يضره عهره، فأدخل بهذه الدعوة من محارم الله ومحارم رسوله في أم حبيبة زوجة النبي ﷺ وفي غيرها من سفور وجوه ما قد حرمه الله، وأثبت بها قربى قد باعدها الله، وأباح بها ما قد حظره الله مما لم يدخل على الإسلام خلل مثله ولم ينل الدين تبديل شبهه.

ومنه إيثاره بدين الله، ودعاؤه عباد الله إلى ابنه يزيد المتكبر الخمير صاحب الديوك والفهود والقرود، وأخذه البيعة له على خيار المسلمين

(١) أخرجه الطبراني (١٩١/٥، رقم ٥٠٥٧)، وأحمد (١٨٦/٤، رقم ١٧٦٩٩).
(٢) أخرجه من طريق عائشة الربيع (ص٢٤٠ رقم ٦٠٩)، والبخاري (٧٢٤/٢، رقم ١٩٤٨)، ومسلم (١٠٨٠/٢، رقم ١٤٥٧)، وأبو داود (٢٨٢/٢، رقم ٢٢٧٣)، والنسائي (١٨٠/٦، رقم ٣٤٨٤)، وابن ماجه (٦٤٦/١، رقم ٢٠٠٤)، ومن طريق أبي هريرة أخرجه البخاري (٢٤٩٩/٦، رقم ٦٤٣٢)، ومسلم (١٠٨١/٢، رقم ١٤٥٨)، والترمذي (٤٦٣/٣، رقم ١١٥٧) وقال: حسن صحيح. والنسائي (١٨٠/٦، رقم ٣٤٨٢)، وابن ماجه (٦٤٧/١، رقم ٢٠٠٦)، حديث عمر أخرجه أحمد (٢٥/١، رقم ١٧٣)، وأبو يعلى (١٧٧/١، رقم ١٩٩). ومن طريق أبي أمامة أخرجه ابن ماجه (٦٤٧/١، رقم ٢٠٠٧)، ومن طريق واثلة أخرجه الطبراني (٨٣/٢٢ رقم ٢٠١)، وتمام (٨٧/٢، رقم ١٢٠٤)، وابن عساكر (٣٢/٢٧) ومن طريق ابن حذافة أخرجه الحاكم (٧٣١/٣، رقم ٦٦٥١)، ومن طريق ابن عباس أخرجه الطبراني (١٨٣/١١، رقم ١١٤٣٤).

بالقهر والسطوة والتوعد والإخافة والتهدد والرهبة، وهو يعلم سفهه ويطلع على خبثه ورهقه ويعاين سكرانه وفجوره وكفره، فلما تمكن مما مكنه منه ووطأه له وعصى الله ورسوله فيه طلب بثأرات المشركين وطوائلهم عند المسلمين؛ فأوقع بأهل الحرة الوقيعة التي لم يكن في الإسلام أشنع منها ولا أفحش مما ارتكب من الصالحين فيها، وشفى بذلك حقد نفسه وغليله، وظن أن قد انتقم من أولياء الله وبلغ النوى لأعداء الله، فقال مجاهرا بكفره ومظهرا لشركه:

ليت أشياخي ببدر شهدوh	جزع الخزرج من وقع الأسل
قد قتلنا القوم من ساداتكم	وعدلنا ميل بدر فاعتدل
فأهلوا واستهلوا فرحا	ثم قالوا يا يزيد لا تسل
لست من خندف إن لم أنتقم	من بني أحمد ما كان فعل
ولعت هاشم بالملك فلا	خبر جاء ولا وحي نزل

هذا هو المروق من الدين، وقول من لا يرجع إلى الله ولا إلى دينه ولا إلى كتابه ولا إلى رسوله، ولا يؤمن بالله ولا بما جاء من عند الله... إلخ»[(١)].

هذا؛ ونجد من أئمة التابعين من يسجل على معاوية أربع قضايا يعد كل واحدة منهن مهلكة، فضلا عن اجتماعها، فعن الحسن البصري أنه قال: «أربع خصال كن في معاوية، لو لم تكن فيه إلا واحدةٌ لكانت موبقة، وهي: أخذه الخلافة بالسيف من غير مشاورةٍ، وفي الناس بقايا الصحابة وذوو الفضيلة. واستخلافه ابنه يزيد، وكان سكيراً خميراً يلبس الحرير ويضرب بالطنابير. وادعاؤه زياداً أخاً، وقد قال رسول الله ﷺ: «الولد للفراش وللعاهر

(١) تاريخ الطبري، ج٥، ص٦٢٢ - ٦٢٣.

الحجر»[١]. وقتله حجر بن عديٍّ وأصحابه، فيا ويلًا له من حجر وأصحاب حجر»[٢].

تحول الحكم في بني أمية من آل أبي سفيان إلى آل مروان:

لم يمهل الله تعالى يزيد بعد هذه الجرائم كما لم يمهل قائده مسرف بن عقبة، إذ أخذهما أخذ عزيز مقتدر، ولم يكن بين هلاكهما زمن مديد، وبهلاك يزيد كاد عهد بني أمية ينطوي وينتقل الحكم إلى غيرهم، وقد دان كثير من الأقطار لابن الزبير، كما استعرت شرارة الثورة في أقطار أخرى، إذ الناس كانوا متبرمين من الظلم الذي حاق بهم والخسف الذي أخذوا به، ولكن كان من أسباب فشل هذه الثورات أنها لم تنتظم في جبهة واحدة، وراء قيادة لا تبتغي إلا إحقاق الحق وإزهاق الباطل ونصرة المظلومين وإغاثة الملهوفين وإقامة شريعة الله وبسط عدله بين عباده، فقد تعددت النزعات وتباينت الاتجاهات، فسادت فوضى ثورية، أدت إلى أن يكشر الباطل من جديد عن أنيابه العصل؛ فيقضم الأمة وحقوقها، متمثلا في حكم مروان وذريته التي لم تكن أقل ضراوة ولا ألين عريكة من يزيد وبطشه، حاشا عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه، الذي خرج عن هذا النظام فعاد إلى نهج

(١) سبق تخريجه.

(٢) تاريخ الطبري، ج٣، ص٢٣٢، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج٥، ص٢٤٣، الكامل في التاريخ، ج٣، ص٣٣٧، شرح نهج البلاغة، ج٢، ص١٥٤، المختصر في أخبار البشر، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي (ت: ٧٣٢هـ)، ج١، ص١٢٩، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٠، ص٢١٣، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج١، ص١٤١، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبدالقادر بن عمر البغدادي، (ت: ١٠٩٣هـ)، ج٦، ص٥١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد نبيل طريفي/ اميل بديع اليعقوب.

الخلافة الراشــدة، واحتذى في حكمه النهج الراشد الذي كان عليه من قبل جد أمه المصونة عمر بن الخطاب ﵁، فكان أمة وحده ونســيجا لا يلتقي مع بني أمية في سدى ولا لحمة، إذ كان العرق العمري هو الذي غلب على طبعه؛ فصنع منه فاروقا ثانيا، ما كان له هم إلا أن يحيي ما أميت من ســيرة الفاروق السابق، كما قال رسول آل مروان إليه في رده على آل مروان.

«يا معشــر بني أمية عمدتم إلــى صاحبكم فزوجتموه بنــت ابن عمر، فجاءتكم بعمر ملفوفا في ثيابه، فلا تلوموا إلا أنفسكم»(١).

أما سائر الحكام من هذه الأســرة، فما كانوا إلا امتدادا لبني عمهم من الأســرة الســفيانية التي حولت الخلافــة إلى ملك عضــوض، وأذاقت أمة محمد ﷺ مــا لم تذقه من الأكاســرة أو القياصرة من أنــواع الذل وصنوف الهوان.

وكان أول من تســنم مطاها منهم مروان بن الحكم، ابن طريد رســول الله ﷺ، ولم يلبــث أن عهد بها من بعده إلى ابنــه عبدالملك، الذي تلقفها ليعلن عهدا جديدا ليس له من هم إلا امتصاص دمــاء الأمة ونهب ثرواتها وســلب حرياتها، ليكون الناس له ولأولاده خولا، وأموالهم لهم دولا، فقد أعلن للناس بمدينة الرسول ﵊ أن سياسة المداجاة التي عهدوها في معاوية لن يبقى لها أثــر، وأنه لن يتخذ سياســة لتوطيد ملكــه إلا القمع والإبادة وإشــاعة الرعب بين الجميع، فقد قال فــي خطابه: «أما بعد؛ فإني لســت بالخليفة المســتضعف ـ يعنــي عثمــان ـ، ولا بالخليفة المداهــن ـ يعني معاوية ـ، ولا بالخليفة المأفون ـ يعني يزيد ـ، ألا وإني لا أداوي هذه الأمة

(١) ســيرة عمر بن عبدالعزيــز على مــا رواه الإمام مالك بــن أنس وأصحابــه، أبي محمد عبدالله بــن عبدالحكــم، (ت: رمضــان، ٢١٤هـ)، ص٥٠ عالم الكتب، بيــروت، لبنان، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، الطبعة: السادسة، تحقيق: أحمد عبيد.

إلا بالسيف، حتى تستقيم لي قناتكم، وإنكم تحفظون أعمال المهاجرين الأولين ولا تعملون مثل أعمالهم، وإنكم تأمروننا بتقوى الله وتنسون ذلك من أنفسكم، والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه، ثم نزل»[1].

ومعنى ذلك الإعلان بأن دولته لا مكان لتقوى الله فيها، وإلا ما كان ليأنف أن يؤمر بالتقوى، أين هذا الاستكبار والعلو من تواضع الفاروق ﵁ في قبوله لكلمة الحق، حيث قال: «لا خير فيكم إذا لم تقولوا لنا، ولا خير فينا إذا لم نسمع منكم، رحم الله امرأ أهدى إلى أخيه عيوبه»[2].

---

(١) الكامل في التاريخ، ج٤، ص١٥٠، وينظر: تاريخ خليفة بن خياط، خليفة بن خياط الليثي العصفري أبو عمر، (ت: ٢٤٠هـ)، ص٢٧٣، دار القلم، مؤسسة الرسالة، دمشق ، بيروت، ١٣٩٧هـ، الطبعة: الثانية، تحقيق: د. أكرم ضياء العمري، البيان والتبيين، الجاحظ، (ت: ٢٥٥هـ)، ص٣٣٤ دار صعب، بيروت، تحقيق: فوزي عطوي، أنساب الأشراف، ج٢، ص٤٤٣، العقد الفريد، ج٤، ص٨٣، وص٣٧٥، أحكام القرآن، ج١، ص٨٨، الأوائل للعسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت: نحو ٣٩٥هـ)، ص٧٦، البصائر والذخائر، ج٧، ص١٤٧، نثر الدرر، ج٣، ص٣٣، تاريخ دمشق، ج٣٧، ص١٣٥، ومختصره، ج٥، ص٨٦، وشرح نهج البلاغة، ج٦، ص١١، وتاريخ الإسلام، ج٥، ص٣٢٥، الوافي بالوفيات، ج١٩، ص١٤٠، فوات الوفيات، محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي، (ت: ٧٦٤هـ)، ج٢، ص٢٥، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م، الطبعة: الأولى، تحقيق: علي محمد بن يعوض الله، عادل أحمد عبدالموجود، والبداية والنهاية، ج٩، ص٦٤، وتاريخ الخلفاء، ص٢١٨، جمهرة خطب العرب، ج٢، ص١٩٢.

(٢) أصول السرخسي، محمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي أبو بكر، (ت: ٤٩٠هـ)، ج١، ص٣٠٧، دار المعرفة، بيروت، وينظر: كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي، علاء الدين عبدالعزيز بن أحمد البخاري، (ت: ٧٣٠هـ)، ج٣ ص٣٤٦، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.، تحقيق: عبدالله محمود محمد عمر، التقرير والتحرير في علم الأصول، ابن أمير الحاج، (ت: ٨٧٩هـ)، ج٣، ص١٣٧، دار الفكر، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، وتيسير التحرير، محمد أمين المعروف بأمير بادشاه، (ت: ٩٧٢هـ)،

وهي سيرة جميع الخلفاء الراشدين، الذين كانوا أطوع للحق وأشوق إلى أن يؤمروا به ويوجهوا إليه، وإنما هذه نعرة أهل الجهل والحمية الجاهلية، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [البقرة: ٢٠٦]، على أنه لم يقتصر على إبائه قبول الأمر بالتقوى، وإنما كان جزاء قائلها قتله، ليلجم الأفواه عن قولة الحق، كما قال أبو بكر الرازي عنه: «ولم يكن في العرب ولا آل مروان أظلم ولا أكفر ولا أفجر من عبدالملك، ولم يكن في عماله أكفر ولا أظلم ولا أفجر من الحجاج، وكان عبدالملك أول من قطع ألسنة الناس في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»(١).

وقد تحمل عماله تبعة ترسيخ طاعته في النفوس وتقديمها على طاعة الله، ولو اقتضت هتك أعظم حرمات الله تعالى، فقد قال البلاذري: «أبو عاصم النبيل عن عمر بن قيس انه سمع خالداً ـ ابن عبدالله القسري ـ يقول حين أخذ سعيد بن جبير وطلق بن حبيب بمكة: كأنكم أنكرتم ما صنعت، والله لو كتب إلي أمير المؤمنين أن أنقضها حجراً حجراً لفعلت ـ يعني الكعبة ـ»(٢).

وحسبك من هذا أن هؤلاء اجترأوا على حُرَمِ الله، التي ما كان أهل

ج٣، ص٢٤٨، دار الفكر، بيروت.

(١) أحكام القرآن، ج١، ص٨٧ – ٨٨.

(٢) أنساب الأشراف، ج٣، ص١٦٧، وينظر: المتوارين الذين اختفوا خوفا من الحجاج بن يوسف الثقفي، عبدالغني بن سعيد الأزدي أبو محمد، (ت: ٤٠٩هـ)، ص٦٠، دار القلم ، الدار الشامية، دمشق ، بيروت، ١٤١٠هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: مشهور حسن محمود سلمان، تاريخ دمشق، ج١٦، ص١٦١، ومختصره، ج٣، ص٢٦، وبغية الطالب في تاريخ حلب، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة، (ت: ٦٦٠هـ)، ج٧، ص٣٠٨٥، دار الفكر، تحقيق: د. سهيل زكار، سير أعلام النبلاء، ج٥، ص٤٢٩.

الجاهلية يجترئون على هتكها، فقد كانوا على ما بهم من جهل وشرك يعظمون بيت الله الحرام، ولا يرضون أن تنتهك له حرمة، وهو إن دل على شيء فإنما يدل على دقة وصف أبي حمزة الشاري لبني أمية، حيث قال فيهم وفي أتباعهم: «أصابوا إمرة ضائعة وقوما طغاما جهالا لا يقومون لله بحق ولا يفرقون بين الضلالة والهدى، ويرون أن بني أمية أرباب لهم، فملكوا الأمر وتسلطوا فيه تسلط ربوبية، بطشهم بطش الجبابرة، يحكمون بالهوى، ويقتلون على الغضب، ويأخذون بالظن، ويعطلون الحدود بالشفاعات، ويؤمنون الخونة، ويقصون ذوي الأمانة، ويأخذون الصدقة في غير وقتها على غير فرضها، ويضعونها في غير موضعها»[1].

نقض عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه لما أسسه بنو أمية من الجور وإعادته دور الخلافة الراشدة في العدل:

استمر عهد بني أمية مطبوعا بطابع الظلم والقسوة والبطش والفساد في الأرض، ما عدا عهد عمر بن عبدالعزيز ـ كما قلنا ـ، فقد نقض ما بنوه وشاد ما نقضوه، ففطمهم عن شهواتهم التي كانوا يخوضون فيها خوضا ويعبونها عبا، وقطع أيديهم أن تمتد إلى أي أحد، وأنزلهم منازلهم التي يستحقونها، ودونك ما ذكره الآجري في «سيرته» قال: «أخبرنا محمد قال حدثنا أبو عبدالله محمد ابن مخلد العطار، قال: حدثني سهل بن عيسى المروزي، قال: حدثني القاسم بن محمد بن الحارث المروزي، قال: حدثنا سهل بن يحيى بن محمد المروزي، قال: أخبرني أبي عن عبدالعزيز سليمان ابن عمر بن عبدالعزيز، قال: لما دفن عمر بن عبدالعزيز سليمان بن

(١) الأغاني، ج٢٣، ص٢٥٥، شرح نهج البلاغة، ج٥، ص٦٥، جمهرة خطب العرب، ج٢، ص٤٧٣.

عبدالملك، وخرج من قبره، سمع للأرض هدة أو رجة، فقال: ما هذه؟ فقيل: هذه مواكب الخلافة يا أمير المؤمنين، فقربت إليه بغلته فركبها، فجاءه صاحب الشرط يسير بن يديه بالحربة، فقال: تنح عني مالي ولك، إنما أنا رجل من المسلمين، فسار وسار معه الناس حتى دخل المسجد، فصعد المنبر، واجتمع الناس إليه، فقال: أيها الناس، إني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأي كان مني فيه، ولا طلبة له، ولا مشورة من المسلمين، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي فاختاروا لأنفسكم، فصاح الناس صيحة واحدة: قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضيناك، فلِ أمرنا باليمن والبركة، فلما رأى الأصوات قد هدأت ورضي الناس به جميعا، حمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ فقال:

أوصيكم بتقوى الله، فإن تقوى الله خَلَفٌ، من كل شيء وليس من تقوى الله ﷻ خَلَفٌ فاعملوا لآخرتكم، فإنه من عمل لآخرته كفاه الله تبارك وتعالى أمر دنياه، وأصلحوا سرائركم يصلح الله الكريم علانيتكم، وأكثروا ذكر الموت وأحسنوا الاستعداد قبل أن ينزل بكم فإنه هادم اللذات، وإن من لا يذكر من آبائه ـ فيما بينه وبين آدم عليه السلام ـ أبا حيا لمعرق له في الموت، وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها ﷻ ولا في نبيها ﷺ ولا في كتابها، وإنما اختلفوا في الدينار والدرهم، وإني والله لا أعطي أحدا باطلا ولا أمنع أحداً حقاً...

ثم رفع صوته حتى أسمع الناس، فقال: يا أيها الناس، من أطاع الله فقد وجبت طاعته ومن عصى الله فلا طاعة له أطيعوني ما أطعت الله ﷻ فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم، ثم نزل، فدخل فأمر بالستور فهتكت، والثياب التي كانت تبسط للخلفاء فحملت وأمر ببيعها وإدخال أثمانها في بيت مال المسلمين، ثم ذهب يتبوأ مقيلا، فأتاه ابنه عبدالملك بن عمر، فقال: يا أمير المؤمنين ماذا تريد أن تصنع؟ قال: أي بني أقيل، قال: تقيل

ولا ترد المظالم؟! فقال: أي بني قد سهرت البارحة في أمر عمك سليمان، فإذا صليت الظهر رددت المظالم، قال: يا أمير المؤمنين، من لك أن تعيش إلى الظهر؟! قال: ادن مني أي بني فدنا منه فالتزمه وقبل بين عينيه، وقال: الحمد لله الذي أخرج من صلبي من يعينني على ديني، فخرج ولم يقلْ، وأمر مناديه أن ينادي: ألا من كانت له مظلمة فليرفعها.

فقام إليه رجل ذمي من أهل حمص أبيض الرأس واللحية، فقال: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله ﷻ، قال: وما ذاك؟ قال: العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي ـ والعباس جالس ـ، فقال له: يا عباس ما تقول؟ قال: أقطعنيها ـ يا أمير المؤمنين ـ الوليد بن عبد الملك، وكتب لي بها سجلا؟ فقال عمر: ما تقول يا ذمي؟ قال: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله ﷻ، فقال عمر: كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد بن عبد الملك، فاردد عليه يا عباس ضيعته، فرد عليه، فجعل لا يدع شيئا مما كان في يديه وفي يدي أهل بيته من المظالم إلا ردها مظلمة مظلمة، فبلغ ذلك عمر بن الوليد بن عبد الملك، فكتب إليه:

«إنك أزريت على من كان قبلك من الخلفاء، وعبت عليهم، وسرت بغير سيرتهم، بغضا لهم وشنآنا لمن بعدهم من أولادهم، قطعت ما أمر الله به أن يوصل إذ عمدت إلى أموال قريش ومواريثهم فأدخلتها بيت المال جورا وعدوانا، فاتق الله يا ابن عبد العزيز وراقبه أن شططت، لم تطمئن على منبرك حتى خصصت أول قرابتك بالظلم والجور، فو الذي خص محمدا ﷺ بما خصه به، لقد ازددت من الله ﷻ بعدا في ولايتك هذه؛ إذ زعمت أنها عليك بلاء، فأقصر بعض ميلك، واعلم أنك بعين جبار وفي قبضته ولن تترك على هذا، اللهم فسل سليمان بن عبد الملك عما صنع بأمة محمد ﷺ».

فلما قرأ عمر بن عبد العزيز رحمه الله كتابه، كتب إليه:

«بســـم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمر بن الوليد، السلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، أما بعد: فقد بلغني كتابك، وسأجيبك بنحو منه، أما أول شأنك يا ابن الوليد ـ كما زعم ـ فأمك بنانة أمة السكون، كانت تطوف في سوق حمص، وتدخل في حوانيتها، ثم الله أعلم بها، اشـــتراها ذبيان ابن ذبيان من فيء المســـلمين فأهداها لأبيك، فحملت بك، فبئس المحمول وبئس المولود، ثم نشأت فكنت جبارا عنيدا، تزعم أني من الظالمين إذ حرمتك وأهـــل بيتك فيء الله ﷻ، الذي فيه حق القرابة والمســـاكين والأرامل، وإن أظلم مني وأترك لعهد الله من استعملك صبيا سفيها على جند المسلمين، تحكم بينهم برأيك، ولم تكن له في ذلك نية إلا حب الوالد لولده، فويل لك وويل لأبيك، مـــا أكثر خصماءكما يوم القيامة، وكيف ينجو أبوك من خصمائه؟! وإن أظلم مني وأترك لعهد الله من استعمل الحجاج ابن يوسف على خمس العرب، يسفك الدم الحرام ويأخذ المال الحرام، وإن أظلم مني وأترك لعهد الله من اســـتعمل قرة بن شـــريك أعرابيا جافيا على مصر، وأذن له في المعازف واللهو والشـــرب، وإن أظلم مني وأترك لعهد الله من جعل لعالية البربرية سهما في خمس العرب، فرويدا يا ابن بنانـــة، فلو التقت حلقتا البطـــان ورد الفيء إلى أهلـــه، لتفرغت لك ولأهل بيتك فوضعتكم على المحجـــة البيضاء، فطالما تركتم الحق وأخذتم في بنيـــات الطريق، وما وراء هـــذا من الفضل ما أرجـــو أن أكون رأيته بيع رقبتك، وقسم ثمنك بين اليتامى والمســـاكين والأرامل فإن لكل فيك حقا، والسلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، ولا ينال سلام الله الظالمين»[1].

(١) أخبار أبي حفص عمر بن عبد العزيـــز، ص٥٥ - ٦٣، وينظر: تاريخ دمشـــق ج٤٥، ص٣٥٩، ومختصـــره، ج٦، ص٩٦، صفـــوة الصفـــوة، عبد الرحمن بـــن علي بـــن محمـــد أبو الفرج، (ت: ٥٩٧هـ)، ج٢، ص١١٧، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، الطبعة: الثانية، تحقيق: محمود فاخوري، د. محمد رواس قلعه جي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج٧، ص٣٤.

فهذه صورة تعكس ما كان عليه عهده ﵁ من إحقاق الحق ونصرته، وإزهاق الباطل وإماتته، لـم يحاب قريبا لقرابته ولم يجامل حبيبـا لمودته، وإنما وضع بين يديه ميزان القسـط ومعايير الحق، فأعطـى كل ذي حق حقه، غير مبخوس ولا منقوص، وأخذ الحق لأمة محمد ﷺ من كل غاشـم جبـار، ولم يفكر فيما عسى أن يواجه من مؤامرات الجبارين وأعوانهم، وما يلقاه من كيدهم وبطشهم، لأنه امتـلأ إيمانا بالله، فوجل قلبه بذكره، وشـغله خوفه عن كل خوف، ورجاؤه عن كل رجـاء، وجعل الدار الآخـرة نصب عينيـه، فلم يحفل بالحيـاة الدنيا وزخرفها، إذ لم تزن شيئا في موازين عقله بجانب الآخرة، وناهيك من ذلك ما ذكره الآجري أيضا من خطبه التي كان يعظ بها رعيته، حيث قال:

«أخبرنا محمد، قال: حدثنا الفريابي، قال ثنا عمرو بن علي. قال: حدثنا سفيان بن خليد الضبي، عن سالم بن نوح العطار، عن بشر بن السري، قال عمرو، ثم لقيت سالم بن نوح فحدثني به عن بشر بن السري، ثم حججت فقيل لي بمكة أن بشـر بن السـري بمكة فأتيته فسـألته، فحدثني بشر ابن السري، قال: حدثنا ابن سليم الهذلي، قال: خطب عمر بن عبدالعزيز فقال:

أما بعد؛ فإن الله ﷻ لم يخلقكم عبثا، ولم يدع شـيئا من أمركم سدى، وإن لكم معادا يُنْزِلُ الله ﷻ فيه الحكم والقضاء بينكم، فخاب وخسـر من خرج من رحمة الله، وحرم الجنة التي عرضها السماوات والأرض، فاشترى قليلا بكثير وفانيا بباق وخوفا بأمان، ألا ترون أنكم في أسـلاب الهالكين، وسـيخلفها بعدكم الباقون، كذلك حتى ترد إلى خير الوارثين، في كل يوم وليلة تشيعون غاديا ورائحا إلى الله ﷻ، قد قضى نحبه وانقضى أجله، حتى تغيبوه في صدع، ثم تدعوه غير ممهد ولا موسد، قد خلع الأسباب، وفارق الأحباب، وسكن التراب، وواجه الحساب، مرتهنا بعمله، فقيرا إلى ما قدم، غنيا عما ترك، فاتقوا الله قبل نزول الموت.

وأيم الله، إني لأقول لكم هــذه المقالة، وما أعلم عنــد أحد منكم من الذنوب ما أعلم عندي، وما يبلغني عن أحد منكم حاجة، إلا أحببت أن أسد من حاجته ما قدرت عليه، وما يبلغني أن أحدا منكم لا يسعه ما عندي، إلا وددت أنه يمكنني تغييره؛ حتى يستوي عيشــنا وعيشه، وأيم الله، لو أردت غير ذلك من الغضارة والعيش، لكان اللســان مني به ذلولا عالما بأســبابه، ولكن سبق من الله ﷻ كتاب ناطق وســنة عادلة، دل فيها على طاعته ونهى فيها عن معصيته.... إلخ.

ثم وضع طرف ردائه على وجهه، فبكى وشــهق، وبكى الناس، فكانت آخر خطبة خطبها»(١).

وكان يؤكد في خطبــه ومخاطباته أن الطاعة إنما هي لله وحده، وأنه لا يطاع من عصاه، ومن ذلك مــا ذكره الآجري قائــلا: «أخبرنا محمد، قال: حدثنا عمر بن أيوب الســقطي، قال: ثنا أبو همام الوليد بن شــجاع، قال: حدثنا يزيد بن هارون، قال: أخبرنا عبدالله بن يونس الثقفي، عن سيار أبي الحكم، قال: كان أول ما علم من عمر بن العزيز، أنه لما دفن ســليمان بن عبدالملك، أتي بدابة ســليمان التي كان يركب، فلــم يركب، وركب دابته التي جــاء عليها، فدخل القصر، وقــد مهدت له فرش ســليمان التي كان يجلس عليهــا، فلم يجلس عليها، ثــم خرج إلى المســجد، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

(١) المرجع السابق، ص٦٤-٦٥، وينظر: ســيرة عمر بن عبدالعزيز، ص١١٧، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد ابن عبــدالله الأصبهاني، (ت: ٤٣٠هـ)، ج٥، ص٢٩٤، دار الكتاب العربي، بيــروت، ١٤٠٥هـ، الطبعة: الرابعة، صفــة الصفوة، ج٢، ص١٢٤، الفتوحــات المكية في معرفة الأســرار الملكية، محيي الدين بن علي بــن محمد الطائي الخاتمــي، (ت: ٦٣٨/٤/٢٢هـ)، ج٤، ص٥٢٤، دار إحيــاء التــراث العربــي، لبنــان، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، الطبعة: الأولى، البداية والنهاية، ج٩، ص١٩٩.

أما بعد؛ فإنه ليس بعد نبيكم ﷺ نبي، ولا بعد الكتاب الذي أنزل عليه كتاب ألا ما أحل الله ﷻ حلال إلى يوم القيامة وما حرم الله حرام إلى يوم القيامة، ألا لست بقاض ولكني منفذ، ألا وإني لست بمبتدع، ولكني متبع ألا أنه ليس لأحد أن يطاع في معصية الله ﷻ، ألا إني لست بخيركم ولكني رجل منكم، غير أن الله جعلني أثقلكم حملا، ثم ذكر حاجته»[(١)].

وقد تبين من خطبته التي ألقاها بعدما ولي الأمر أنه طُوِّقَ هذه المسؤولية على كره منه، ولم يكن على علم بذلك وإنما كانت مفاجئة له، وقد رد الأمر إلى المسلمين، ليختاروا لأنفسهم من يرضونه، لِيَلي أمرهم ويوجه سفينتهم، لكن أطبقت كلمتهم على اختياره دون سواه، ولا غرو؛ فإن الناس إنما ينشدون العدل والحرية والمساواة في الحقوق والواجبات، وما كانوا ليعدلوا عنه وقد وجدوا في شخصه القائد الرباني المخلص الذي تهمه أمته لا نفسه، وتستبد بتفكيره آخرته لا دنياه، وكان عزوفه عن الدنيا وقد عرضت له بزينتها وزخرفها، وراودته عن نفسه بكل ما حوته مما ينشده عشاقها منها، فضرب صفحا عنها، ولم يعرها بالا ولم يقم لها وزنا، فما أجدره أن تضع الأمة فيه ثقتها وأن تقلده أمانتها، وهو القوي الأمين.

وهذا ما عبر عنه عبدالله بن الأهتم، الخطيب العربي، عندما وفد عليه فيمن وفد، فخطب بين يديه بدون استئذان، واستعرض في خطبته دعوة النبي ﷺ، وما لقيه من قومه، وما كان من بعد من خلفائه، ثم خاطب عمر بقوله:

«ثم إنك يا عمر ابن الدنيا، ولدتك ملوكها وألقمتك ثديها، فلما وليتها ألقيتها وأحببت لقاء الله وما عنده، فالحمد لله الذي جلا بك حوبتنا، وكشف

(١) أخبار أبي حفص عمر بن عبدالعزيز، ص٦٣، الطبقات الكبرى، ج٥، ص٣٤٠.

بك كربتنا، امض ولا تلتفت، فإنه لا يغني عن الحق شيء، أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم وللمؤمنين وللمؤمنات»[١].

ومن الظاهر بداهة أن عمر بن عبدالعزيز ما كان لينقم على آبائه وبني عمومته حقا أتوه، ولا أنكر عليهم عدلا قاموا به، إذ لو فعل ذلك لكان جبارا عنيدا وشيطانا مريدا، فإنه لا ينقم الحق إلا المبطل، ولا ينكر العدل إلا القاسط، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢]، وإنما رأى في سيرتهم عسفا وظلما، واضطهادا للمحقين، وتأييدا للمبطلين، ومحقا للعدل، وإحياء للجور، فأخذ على نفسه عهد الله ورسوله أن ينقض بنيانهم من أساسه، وأن يرد إلى الأمة ما فقدته من الحرية والإنصاف، ويلبسها ما ابتز منها من العزة والكرامة.

ولربما يقول قائل: أين كان عمر، وهو يروح ويغدو في مراتع بني أمية، وبين ظهرانيهم، وتحت ألوية حكمهم، قبل أن يلي أمر الخلافة والحكم؟ ما باله لم ينقم عليهم ما كانوا فاعليه؟!..

والجواب: أن هذا لو كان صحيحا لكن هو في فسيح العذر، ما دام عاجزا عن التغيير، كيف ولم يألُ جهدا ولم يفوت فرصة عندما أمكنه التغيير، وعلى رغم تطاول عهدهم في استئصال شأفة الحق، وإعمال معاولهم في اجتثاث أسسه ونقض صرحه، ومع قصر عهده؛ فإنه أتى على ما عمروه من الباطل فتركه دكا دكا، وإلى ما خرَّبوه من الحق فأعاده روضا نضيرا وربعا عامرا، على أنه مع هذا لم يهمل الإنكار عليهم، إبان أوج طغيانهم واستفحال عتوهم، فقد ذكر ابن عبدالحكم أنه:

---

(١) العقد الفريد، ج٤، ص٨٦، نثر الدرر، ج٦، ص١١، التذكرة الحمدونية، ج٦، ص٢٨٦، جمهرة خطب العرب، ج٢، ص٤٢١.

«كلم عمر بن عبد العزيز سليمان بن عبد الملك في ميراث بعض بنات عبد العزيز من بني عبد الملك، فقال له سليمان بن عبد الملك: إن عبد الملك كتب في ذلك كتابا منعهن ذلك، فتركه يسيرا، ثم راجعه فظن سليمان أنه اتهمه فيما ذكر من رأي عبد الملك في ذلك الأمر، فقال سليمان لغلامه: ائتني بكتاب عبد الملك، فقال له عمر: أبالمصحف دعوت يا أمير المؤمنين؟ فقال أيوب بن سليمان: ليوشكن أحدكم أن يتكلم الكلام تضرب فيه عنقه، فقال له عمر: إذا أفضى الأمر إليك فالذي دخل على المسلمين أعظم مما تذكر، فزجر سليمان أيوب، فقال عمر: إن كان جهل فما حلمنا عنه»[1].

وكان لا تفوته فرصة موعظتهم في الموقف الذي يبعث العبرة والذكرى، فقد ذكر ابن عبد الحكم أيضا أن سليمان بن عبد الملك خرج ومعه عمر بن عبد العزيز إلى الحج، فأصابهم مطر شديد ورعد وبرق، فقال سليمان: هل رأيت مثل هذا يا أبا حفص؟ فقال: يا أمير المؤمنين: هذا في حين رحمته، فكيف به في حين غضبه؟[2].

وبالجملة؛ فإن حكم عمر بن عبد العزيز كان رحمة من الله لهذه الأمة، ولطفا أراده بها، بعدما أرهقها جور من كان قبله، وما كان أسعد ذلك العهد وأهنأه لو أنه امتد به الزمن وطالت حقبته، ولكن الحياة لا تصفو حتى تتكدر والدهر لا يعطي حتى يسلب، فالمنح تعقبها المحن، ولله في خلقه شئون:

طُبِعَت عَلى كدرٍ وَأَنتَ تُريدُها صَفواً مِنَ الأَقذاءِ وَالأَكدارِ
وَمُكَلِّف الأَيامِ ضِدَّ طِباعِها مُتَطَّلِب في الماءِ جَذوة نارِ

فقد انطوت أيامه التي ازدهرت بالحق وازدهر بها، وازدانت بالعدل

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز، ص٣٠.
(٢) المرجع السابق.

واستوسق فيها، ليعقبها ليل بهيم موحش، تفري وحوشه الضارية وذئابه المسعورة أديم الأمة وأوصالها، لتشبع نهمها وتطفئ سعارها وتشفي غيظها من الحق وأهله، فعاد الأمر أسوأ مما كان، إذ اعتلى منصة الحكم بنو مروان مرة أخرى؛ بكبرهم وبطرهم وبطشهم الشديد ونقضهم لعرى الإسلام ونسفهم لأحكامه وانتهاكهم لحرمه، وتلك هي حكمة الله في خلقه وسنته في أرضه ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]، فكم طالت في الأمم أحقاب الجاهلية والجهل وامتدت آماد الظلم والجور، وإنما تتخللها فترات الخير، ببعث الله تعالى من شاء من رسله، ومن هيأه لنصرة الحق من عباده الصالحين.

مساندة فتاوى المارقين لجور الظالمين:

إن جور بني أمية وفسادهم عززهما وقوف المخذولين، ممن يظهرون بمظاهر العلم والحكمة بجانبهم، إذ كانوا يشجعونهم على ما يشيعونه من جور ويرتكبونه من فساد، طمعا في دنياهم، ورغبة في الانتفاع بما يستحصلونه من متع الحياة بتبرير ما يتلبسون به من باطل وما يأتونه من منكر، ولا غرو؛ فإن النبي ﷺ أنذر هذه الأمة أنها لن تكون بمنأى عن أحوال الأمم من قبلها، الذين أضاعوا ما عهد الله إليهم من حق وما أنزله عليهم من كتاب، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه، قالوا يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: فمن»[1].

(١) أخرجه الطيالسي من حديث أبي سعيد: (ص٢٨٩، رقم ٢١٧٨)، وأحمد (٣/٨٤، رقم ١١٨١٧)، والبخاري (٣/١٢٧٤، رقم ٣٢٦٩)، ومسلم (٤/٢٠٥٤، رقم ٢٦٦٩)، وابن حبان (١٥/٩٥، رقم ٦٧٠٣)، ومن حديث سهل بن سعد أخرجه الطبراني (٦/١٨٦، =

وقد سبق أن هذا مما عهد عند جميع أصحاب الأديان، كما علمت من شأن الكهنة، الذين كانوا يضفون على أعمال الفراعنة ـ من الظلم والعسف، والاستبداد وسلب الناس أموالهم، وابتزاز حرياتهم وسفك دمائهم ـ ما يزينها في قلوب الناس، حتى ينطبع في نفوس المظلومين أن ذلك هو العدل والبر والإحسان، وأن كل من استنكر منه شيئا فهو جدير بكل شر، حري بكل شنآن، وقد ذكر الله تعالى من شأن الأحبار والرهبان من هذا، ما يدل على رسوخ ذلك في حياة الأمم، حيث قال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة: ٧٩]، وقال: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٨].

وقد تغلغل ذلك في حياة هذه الأمة الفكرية؛ برسوخ الظلم في نظمها السياسية منذ تربُّعِ بني أمية على سدة أمرها، فكم عززت الفتاوى الباطلة ما ارتكبوه من ظلم، وصورته للناس بأنه عين الحق وسواء الرشد، بل بلغ الأمر بهؤلاء أنهم لم يقتصروا على تبرير ظلم الظلمة، بل كانوا هم الذين يشجعونهم على الظلم ويدفعونهم إلى الفساد، حتى أن من حاول منهم أن يرعوي عن غيه، ويقلع عن فساده، ويتبع مسالك الرشد لم يلبثوا أن يثنوه عن ذلك ويزينوا له الفساد ويسوغوا له الظلم، ناهيك بهذه القصة التي تناقلها

= رقم ٥٩٤٣). وأخرجه أيضًا: الروياني (٢/٢١٨، رقم ١٠٧٣)، ومن حديث أبي هريرة أخرجه الحاكم (١/٩٣، رقم ١٠٦)، وقال: صحيح على شرط مسلم. وأخرجه أيضًا: ابن ماجه (٢/١٣٢٢، رقم ٣٩٩٤)، قال البوصيرى (٤/١٨٠): هذا إسناد صحيح، وجاء بلفظ: «لتسلكن سنن من قبلكم» عند الطبراني (١٧/١٣، رقم ٣)، قال الهيثمي (٧/٢٦٠): فيه كثير بن عبد الله وهو ضعيف. وعند الحاكم (١/٢١٩، رقم ٤٤٥).

الرواة وحفظتها الدواوين، عن الذين ثنوا يزيد بن عبدالملك أن يسير سيرة عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه، فقد قال ابن عساكر: «أخبرنا أبو عبدالله الحسين بن عبدالملك، أنا أبو طاهر ابن محمود، أنا أبو بكر بن المقرئ، نا أبو العباس بن قتيبة، ثنا حرملة، أنبأ ابن وهب، نا عبدالرحمن ابن زيد ابن أسلم، قال: لما توفي عمر بن عبدالعزيز، وولي يزيد بن عبدالملك، قال: سيروا بسيرة عمر، قال: فأتي بأربعين شيخا فشهدوا له ما على الخلفاء حساب ولا عذاب»[١].

وقد أشيعت هذه العقيدة الباطلة في عهد بني أمية في أوساط الناس، فكان عليها السواد الأعظم منهم، وقد نص على ذلك ابن تيمية ـ مع تعصبه المقيت، لهم واستماتته في الدفاع عنهم وتبرير ضلالهم ـ وذلك في قوله:

«وأيضا، فكثير من أتباع بني أمية أو أكثرهم، كانوا يعتقدون أن الإمام لا حساب عليه ولا عذاب وأن الله لا يؤاخذهم على ما يطيعون فيه الإمام بل تجب عليهم طاعة الإمام، في كل شيء، والله أمرهم بذلك، وكلامهم في ذلك معروف كثير، وقد أراد يزيد بن عبدالملك أن يسير بسيرة عمر ابن عبدالعزيز، فجاء إليه جماعة من شيوخهم، فحلفوا له بالله الذي لا إله إلا هو، أنه إذا ولى الله على الناس إماما، تقبل الله منه الحسنات وتجاوز عنه السيئات»[٢].

---

(١) تاريخ مدينة دمشق، ج٦٥، ص٣٠٤، وينظر: مختصر تاريخ دمشق، ج٨، ص٢٤٣، سير أعلام النبلاء، ج٥، ص١٥١، تاريخ الإسلام، ج٧، ص٢٨٠، مرآة الجنان، ج١، ص٢٢٤، البداية والنهاية، ج٩، ص٢٣٢، تاريخ الخلفاء ص٢٤٦، شذرات الذهب، ج١، ص١٢٨، فيض القدير شرح الجامع الصغير، عبدالرؤوف المناوي، (ت: ١٠٣١هـ)، ج١، ص٣٥٤، وج٢، ص٤١٩، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١٣٥٦هـ، الطبعة: الأولى، المنتقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال، أبو عبدالله محمد بن عثمان الذهبي، (ت: ٧٤٨هـ)، ج١، ص٤١١، تحقيق: محب الدين الخطيب.

(٢) منهاج السنة، ج٦، ص٤٣٠.

ولعمر الحق، إن هذا الفكر هو أعظم خطرٍ رزئ به الإسلام، فقد كان أعمل المعاول في دك صرحه وأحد الحراب في قطع أوصاله وتمزيق أديمه، وما أشبهه بما ذكره الله تعالى عن بني إسرائيل، في قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

وما أبعده من فكر عن عقيدة الإيمان التي جاء بها القرآن، فإن الله تعالى يخاطب نبياً استخلفه في الأرض بقوله: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]، بل نجد في القرآن الكريم خطاب الله للنبي ﷺ الذي أرسله رحمة للعالمين، وفضله على الخلق أجمعين، بما يتوعده أشد الوعيد أن لو خرج قيد شعرة عن حد صراطه المستقيم، فقد قال له تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا﴾ [الإسراء: ٧٤ - ٧٥]، وقال فيه: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧]، وفي قضية أسارى بدر، شدد الله تعالى في خطابه للنبي والمؤمنين، في قوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٧ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [الأنفال: ٦٧ - ٦٨].

وقال له تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الأنعام: ١٥]، فإذا كان النبي ﷺ، مع عظم قدره وقربه من الله تعالى، يخشى من المعصية أن ينقلب إلى العذاب العظيم، فكيف بالظلمة المجرمين،

الذين يعيثون في الأرض فسادا ويعبثون بحقوق الأمة وينهبون خيراتها، بأي حجة، وأي برهان، يقال بأنهم في مأمن من الحساب والعقاب؟؟!!

وإذا كان الله تعالى يتوعد بمس النار، على الركون إلى أهل الظلم، فكيف بممارسة الظلم؟! فقد قال تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: ١١٣]، وقد ملئت السُّنَّة النبويّة، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، بالوعيد الشديد لمن ولي من أمر الناس شيئا فلم يتق الله فيهم، ولمن شايع الظالمين وأعانهم وصدقهم، فقد قال عليه أفضل الصلاة والسلام: «ما من عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصحه إلا لم يجد رائحة الجنة»[١]، وقال: «ما من عبد يسترعيه الله، يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته؛ إلا حرم الله عليه الجنة»[٢] وقال: «ما من عبد استرعاه الله رعية، فلم يحطها بنصيحة؛ إلا حرم الله عليه الجنة»[٣].

وقال: «اسمعوا، إنه سيكون عليكم أمراء، فلا تعينوهم على ظلمهم، ولا تصدقوهم بكذبهم، فإنه من أعانهم على ظلمهم، وصدقهم على كذبهم، فلن يرد عليَّ الحوض»[٤]، وقال: «اسمعوا، هل سمعتم؟ إنه سيكون بعدي أمراء، فمن دخل عليهم فَصَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ، وَأَعَانَهُمْ على ظُلْمِهِمْ؛ فليس مِنِّي ولست منه، وليس بوَارِدٍ عليَّ الحوضَ، ومن لم يدخل عليهم، ولم يُعِنْهُمْ على

(١) أخرجه البخاري (٢٦١٤/٦ رقم ٦٧٣١).
(٢) أخرجه البخاري (٢٦١٤/٦، رقم ٦٧٣١)، ومسلم (١٤٦٠/٣، رقم ١٤٢).
(٣) أخرجه ابن عساكر (٣٧٥/٤٥).
(٤) أخرجه أحمد (١١١/٥، رقم ٢١١١١)، وابن حبان من طريق أبي يعلى (٥١٨/١، رقم ٢٨٤)، والطبراني (٥٩/٤، رقم ٣٦٢٧) وقال الهيثمي (٢٤٨/٥): رجاله رجال الصحيح خلا عبدالله بن خباب، وهو ثقة. والحاكم (١٥١/١، رقم ٢٦٢) وقال: صحيح على شرط مسلم.

ظلمهم ولم يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ؛ فهو مِنِّي وأنا منه، وهو وارد عليَّ الحوضَ»[١].

وقال: «أعيذك بالله يا كعب بن عجرة من أمراء يكونون بعدي؛ فمن غشي أبوابهم فصدقهم في كذبهم، وأعانهم على ظلمهم؛ فليس مني ولست منه، ولا يَرِدُ عليَّ الحوضَ، ومن غشي أو لم يغش فلم يصدقهم في كذبهم، ولم يعنهم على ظلمهم، فهو مني وأنا منه، وسيَرِدُ عليَّ الحوضَ»[٢].

وقال: «إنه سيكون عليكم أمراء يكذبون، ويظلمون، فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه، ولا يَرِدُ عليَّ الحوضَ، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم؛ فهو مني وأنا منه، وسيرد عليَّ الحوضَ»[٣].

وقال: «إنها ستكون عليكم أمراء من بعدي، يعظون بالحكمة على منابر، فإذا نزلوا اختلست منهم، وقلوبهم أنتن من الجيف، فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه، ولا يَرِدُ عليَّ الحوضَ، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم؛ فهو مني وأنا منه، وسيَرِدُ عليَّ الحوضَ»[٤].

وقال: «أيما راع استرعي رعية، فلم يحطها بالأمانة والنصيحة؛ ضاقت عليه رحمة الله التي وسعت كل شيء»[٥]، وقال: «من ولى ذا قرابة، محاباة، وهو يجد خيرا منه؛ لم يجد رائحة الجنة»[٦].

---

(١) أخرجه النسائي (١٦٠/٧، رقم ٤٢٠٨)، والترمذي (٥٢٥/٤، رقم ٢٢٥٩) وقال: صحيح غريب. وابن حبان (٥١٢/١، رقم ٢٧٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٥١٢/٢، رقم ٦١٤) وقال: حسن غريب. والطبراني (١٠٥/١٩، رقم ٢١٢).

(٣) أخرجه أحمد (٣٨٤/٥، رقم ٢٣٣٠٨)، والطبراني (١٦٧/٣، رقم ٣٠٢٠).

(٤) أخرجه الطبراني (١٦٠/١٩، رقم ٣٥٦). قال الهيثمي (٢٣٨/٥): رجاله ثقات.

(٥) أخرجه الخطيب (١٢٦/١٠).

(٦) أخرجه ابن عساكر (٢٤٥/٦٥).

كل هذه الأدلة تدحض هذه المقولة الكاذبة، وترد هذه الشهادة المزورة، ولكن روج لهذا الفكر، وروج من أجله لعقيدة الإرجاء اليهودية التي أنكرها الله أشد الإنكار على اليهود، في قوله: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩]، وبين أنها سبب إضاعتهم الكتاب وتبديلهم أحكامه، إذ قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣ – ٢٤].

كما روج لعقيدة الجبر، وبه فسر القدر، من أجل تبرير ما يصدر منهم من ظلم وعسف وجور، ومن ذلك قول معاوية: «وإن أمر يزيد قد كان قضاء من القضاء وليس للعباد خيرة من أمرهم»[1]، والقصد بهذا تخدير الناس، وتهوين الجرائم التي ترتكب، والحرم التي تنتهك.

أثر السياسة الأموية في الفقه السياسي التبريري:

لقد كان لتوجه بني أمية إلى تعميق سلطتهم، وتبرير مخالفاتهم للأحكام الشرعية، أثر كبير على مواقف الفقهاء ومحاولتهم تبرير المواقف السياسية للسلطات الظالمة، ناهيك ما سبق ذكره، من أنهم بلغ بهم الأمر أن يسقطوا عمن يسمونهم الخلفاء أي مسئولية أمام الله تعالى، وأن يسجلوا لهم أمانا من أي عقاب من لدنه، مهما ارتكبوا من جرائم وعاثوا في الأرض فسادا، فقد ارتقوا بهم في ذلك إلى مقام لم يصله ملك مقرب ولا نبي مرسل، وهكذا كانت الفتاوى تصدر لتزيين باطلهم وإقرار ظلمهم، بل أولئك الفقهاء هم الذين كانوا يدفعونهم إلى الباطل دفعا، وقد استمر أثر ذلك في الفقه السياسي عبر القرون، وإليك أمثلة من ذلك:

(١) الإمامة والسياسية، ص١٥١، جمهرة خطب العرب، ج٢، ص٢٥٧.

١ ـ إضفاء الشرعية على السلطة المأخوذة عنوة.

كان من أثر هذه الفتاوى إشاعة الفوضى السياسية، بفتح الأبواب وتهيئة الفرصة لمن أراد أن يبتز السلطة بالقوة ممن كانت في يده، فإن الغالب بموجب هذه السياسة المعززة بالفتاوى هو الأولى بالشرعية، وهو الذي تحق له الطاعة المطلقة من الأمة، فلا يحل الخروج عليه، مهما أتى من جرائم في حق الأمة أو تبديل لمعالم الدين، وإنما على الأمة أن تطأطئ له رأسها، وتحني لمقامه ظهرها، وتكون طوع أمره.

فنجد ابن قدامة مثلا، يقول: «ولو خرج رجل على الإمام، فقهره، وغلب الناس بسيفه، حتى أقروا له، وأذعنوا بطاعته، وبايعوه، صار إماما يحرم قتاله، والخروج عليه؛ فإن عبدالملك ابن مروان، خرج على ابن الزبير، فقتله، واستولى على البلاد وأهلها، حتى بايعوه طوعا وكرها، فصار إماما يحرم الخروج عليه»[١].

ثم قال: «ويدخل الخارج عليه في عموم قوله ﷺ: «من خرج على أمتي، وهم جميع؛ فاضربوا عنقه بالسيف، كائنا من كان»»[٢].

وأنت ترى ما في هذا الحكم من الاضطراب، فهم مع كونهم يحرمون خروج أحد عن طاعة الظالم الجائر المبدل لحكم الله الناكث لعهده، يرون أن لو خرج أحد باغيا ظالما على إمام شرعي، حتى تمكن منه، فأباده واستحل بيضته؛ كان هو الإمام الشرعي الذي تجب له الطاعة ويحرم الخروج عليه، مع أنه بنفسه توصل إلى الإمامة بالخروج على من قبله!!

(١) المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، عبدالله بن أحمد بن قدامة المقدسي أبو محمد، (ت: ٦٢٠هـ)، ج٩، ص٥، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ، الطبعة: الأولى.

(٢) المرجع السابق.

فليت شعري؛ كيف يكون البغي والظلم وسيلة إلى حق، وطريقا إلى استحقاق الطاعة؟! وحسبك من هذا النص الفقهي، أن يجعل من تصرف عبدالملك بن مروان الباغي الطاغية، مصدرا للتشريع، وأصلا لحكم يرتبط به مصير الأمة، متجاهلين في ذلك قول الله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥]، وقول النبي ﷺ: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا، فهو رد»[١]، وفي رواية: «من أحدث في أمرنا هذا، ما ليس منه، فهو رد»[٢]، وكيف تكون الفتنة والظلم والبغي من أمر الله أو رسوله، وقد بين لنا الله سبحانه ما يأمر به وينهى عنه، في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، ونزه نفسه عن الأمر بالفحشاء في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

وقد تبين لك فساد هذا الرأي، من خلال النظر لما فيه من التناقض الفاضح والاضطراب البين، وإذا جئنا إلى الأثر، فإننا نجد أن بينه وبين المأثور عن السلف الصالح بعد المشرقين، فهو أبعد عنه من بعد الثريا عن الثرى، والعرش عن الفرش، فعن عمر رضي الله عنه أنه قال لابن عباس رضي الله عنهما: «اعقل عني ثلاثا: الإمارة شورى... إلخ»[٣]، وقال رضي الله عنه: «مَن بايع رجلا، عن غير

(١) أخرجه الربيع (ص٣٩ رقم ٤٩)، وأحمد (١٤٦/٦، رقم ٢٥١٧١)، ومسلم (١٣٤٣/٣، رقم ١٧١٨)، وأبو عوانة (١٧١/٤، رقم ٦٤٠٩)، والدارقطني (٢٢٧/٤).

(٢) أخرجه أحمد (١٥٧/٤٣ رقم ٢٦٠٣٣) والبخاري (١٨٤/٣ رقم ٢٦٩٧)، ومسلم (١٣٤٣/٣ رقم ١٧١٨)، وابن ماجه (٧/١ رقم ١٤)، وابن حبان (٢٠٨/١ رقم ٢٦)، والبيهقي (٢٠٤/١٠ رقم ٢٠٣٧١)، والدارقطني (٤٠٢/٥ رقم ٤٥٣٤).

(٣) أخرجه عبدالرزاق (٢٧٧/٧، رقم ١٣١٥٥)، وأبو عبيد في الأموال (ص١٧٨ رقم ٣٦١).

مشورة من المسلمين؛ فلا يبايع هو ولا الذي بايعه، تغرة أن يقتلا»[١]، وقد قال ذلك في خطبة خطبها بين المهاجرين والأنصار، قال الدكتور حاكم المطيري: «وهذه الخطبة من أشهر خطب عمر وأصحها، وقد كانت بمحضر الصحابة رضي الله عنهم، فكان إجماعا منهم على أن حق اختيار الإمام هو للأمة، وأنه يحرم غصبها هذا الحق، وأن من بايع رجلا دون شورى المسلمين، فقد عرض نفسه للقتل»[٢].

وقال عمر رضي الله عنه للستة: «فمن تأمر منكم، على غير مشورة من المسلمين؛ فاضربوا عنقه»[٣]، وخطب الناس إبان رجوعه من الحج بالمدينة المنورة، فكان مما قاله في خطبته: «إنه لا خلافة إلا عن مشورة»[٤]، وقال عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه بعد أن استشار المسلمين فيمن يختارونه خليفة عليهم، حتى النساء في خدورهن: «يا علي، إني قد نظرت في أمر الناس، فلم أرهم يعدلون بعثمان، فلا تجعلن على نفسك سبيلا»[٥].

وقال الطبري: «حدثني جعفر بن عبدالله المحمدي، قال: حدثنا عمرو بن حماد وعلي ابن حسين، قالا حدثنا حسين، عن أبيه، عن عبدالملك بن أبي سليمان الفزاري، عن سالم بن أبي الجعد الأشجعي، عن محمد بن الحنفية، قال: كنت مع أبي حين قتل عثمان رضي الله عنه، فقام فدخل منزله، فأتاه أصحاب رسول الله، فقالوا: إن هذا الرجل قد قتل، ولا بد للناس من إمام، ولا نجد اليوم أحدا أحق بهذا الأمر منك، لا أقدم سابقة،

---

(١) أخرجه البخاري (١٦٨/٨ رقم ٦٨٣٠) والبزار (٣٠٢/١ رقم ١٩٤).

(٢) الحرية أو الطوفان، دراسة موضوعية للخطاب السياسي الشرعي ومراحله التأريخية، بقلم د. حاكم المطيري، ص٣١، سنة النشر ٢٠٠٣م.

(٣) الطبقات الكبرى، ج٣، ص٣٤٤.

(٤) مصنف ابن أبي شيبة، (٤٣١/٧ رقم ٣٧٠٤٢)، والنسائي (٢٧٣/٤ رقم ٧١٥٤).

(٥) البخاري (٧٨/٩ رقم ٧٢٠٧) والبيهقي في الاعتقاد، ص٣٦٥.

ولا أقرب من رســول الله، فقال: لا تفعلوا، فإني أن أكون وزيرا خير من أن أكــون أميرا، فقالــوا: لا والله، ما نحــن بفاعلين، حتى نبايعــك، قال: ففي المسجد، فإن بيعتي لا تكون خفيا، ولا تكون إلا عن رضا المسلمين، قال: سالم بن أبي الجعد، فقال عبد الله بن عباس: فلقد كرهت أن يأتي المسجد، مخافة أن يشغب عليه، وأبى هو إلا المســجد فلما دخل دخل المهاجرون والأنصار فبايعوه، ثم بايعه الناس»[١].

وقال الطبري أيضا: «حدثني جعفر قال: حدثنا عمرو وعلي، قالا: حدثنا حســين، عن أبيه، عن أبــي ميمونة، عن أبي بشــير العابــدي، قال: كنت بالمدينة حين قتل عثمان رضي الله عنه، واجتمع المهاجــرون والأنصار فيهم طلحة والزبير فأتوا عليا، فقالوا: يا أبا حســن هلم نبايعك، فقال: لا حاجة لي في أمركم، أنــا معكم فمن اخترتم فقــد رضيت به، فاختــاروا والله، فقالوا: ما نختار غيرك، قال: فاختلفوا إليه بعد ما قتل عثمــان رضي الله عنه مرارا، ثم أتوه في آخر ذلك، فقالــوا له: إنه لا يصلح الناس إلا بإمــرة، وقد طال الأمر، فقال لهم: إنكم قــد اختلفتم إلي وأتيتم، وإني قائل لكــم قولا إن قبلتموه قبلت أمركم، وإلا فلا حاجة لي فيه، قالوا: ما قلت من شــيء قبلناه إن شــاء الله، فجــاء فصعد المنبر، فاجتمع النــاس إليه، فقال: إني كنــت كارها لأمركم، فأبيتم إلا أن أكون عليكــم، ألا وإنه ليس لي أمر دونكــم، إلا أن مفاتيح مالكم معــي، ألا وإنه ليس لي أن آخذ منه درهمــا دونكم، رضيتم؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشــهد عليهم، ثــم بايعهم على ذلك، قال أبو بشــير: وأنا يومئذ عند منبر رسول الله، قائم أسمع ما يقول»[٢].

وقد بلغ تشــدد ابنه الحســن عليه أنه كان لا يرى أن يبايع، حتى يأتيه

---

(١) تاريخ الطبري، ج٢، ص٦٩٦، المنتظم، ج٥، ص٦٣، شرح نهج البلاغة، ج١١، ص٦.
(٢) تاريخ الطبري، ج٢، ص٦٩٦ - ٦٩٧.

أهل الأمصار جميعا فيبايعوه، وقد اعتذر إليه، بأن قبوله بيعتهم قبل مجيء أهل الأمصار إنما كان خشية أن يضيع الأمر»[١].

هذا هو نهج السلف الصالح، وأين هو مما أقره من بعدهم من أخذ الحكم عنوة، من غير مشورة من أحد؟!.

على أن هؤلاء لم يكتفوا بنقض منهج السلف، وحل عرى الإسلام في أمر الحكم، بل جاوزوا ذلك، فجعلوا طاعة الظالم من طاعة الله سبحانه!!، وغلوا حتى جعلوا طاعته أعظم من طاعة الله، كما روي عن الحجاج أنه قال: «طاعتنا أوجب من طاعة الله، لأنه شرط في طاعته، فقال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وأطلق في طاعتنا، فقال: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]»[٢].

ولم يكن ذلك أمرا نظريا، وإنما كان منهجا تطبيقيا ساروا عليه، كما علمت من قصة خالد ابن عبد الله القسري، الذي أعلن في خطبته أنه لو أمره عبد الملك بهدم الكعبة البيت الحرام لنقضها حجرا حجرا، ومعنى ذلك أنه لا يبالي بسخط الله تعالى، إن رضي عنه سيده عبد الملك!.

٢ ـ تحريم القيام عليهم لدفع ظلمهم وأخذ الحق منهم.

تلقف الفقهاء الرسميون هذه السياسة منذ عهد بني أمية، فوطأوا لهم الأكناف، وأوجبوا طاعتهم، ولو بالغوا في الفساد، وأسرفوا في الجور، وأتوا

(١) المرجع السابق، ج٣، ص١١، وينظر: الفتنة ووقعة الجمل، سيف بن عمر الضبي الأسدي، (ت: ٢٠٠هـ)، ص١٢٠، دار النفائس، بيروت، ١٣٩١هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: أحمد راتب عرموش.

(٢) الكشاف، ٤، ص٩٧، وينظر: تفسير السراج المنير، محمد بن أحمد الشربيني، ج٣، ص٣٣٨، دار الكتب العلمية، بيروت، وفيض القدير شرح الجامع الصغير، ج٢، ص٤١٩.

عظائم الأمور، وحرموا الخروج عليهم وعدوه مروقا من الدين، وانتهاكا لحرمه، وزعموا أن الإجماع انعقد عليه[١]، بل نسبوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فرووا عنه أنه قال: «اسمع وأطع للأمير الأعظم، وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك»[٢]، ورووا في هذا العديد من الروايات التي لم تثبت، كما أنهم تأولوا معاني ما ثبت منها وفق هواهم، وحملوا على ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩].

وأنت تدري، أن الله إنما أرسل رسله وأنزل كتبه لإحقاق الحق وإزهاق الباطل، لا لإقرار الظلم، وترسيخ طاعة الظلمة، وجَعْلِ كلمة التوحيد سلما لهم إلى أكل أموال الناس، وابتزاز حقوقهم، وسلب حرياتهم، على أنه من أضل الضلال وأبلغ الانحراف في التصور والفكر ما زعمه الحجاج، من أن طاعة أولي الظلم، أوجب من طاعة الله!، فيا سبحان الله، كيف يسوغ أن يقال ذلك فتكون طاعة رب السموات والأرض مؤخرة عن طاعة أعدائه الظالمين؟!.. وهل الحكم إلا حكمه والعبادة إلا له؟.. ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

ونحن إن أمعنا النظر في آية النساء، التي تشبثوا بها في إلزام طاعتهم

(١) حاشية الشيخ سليمان الجمل على شرح المنهج (لزكريا الأنصاري)، سليمان الجمل، ج٥، ص١١٤، دار الفكر، بيروت غاية البيان شرح زبد ابن رسلان، محمد بن أحمد الرملي الأنصاري، (ت: ١٠٠٤هـ)، ص١٥دار المعرفة، بيروت، تحفة الحبيب على شرح الخطيب (البجيرمي على الخطيب)، سليمان بن محمد بن عمر البجيرمي الشافعي، (ت: ١٢٢١هـ)، ج٤، ص٢٦٨، وج٥، ص٩١ - ٩٢ دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، الطبعة: الأولى.

(٢) أخرجه مسلم (١٤٧٦/٣، رقم ١٨٤٧)، والطبراني في الأوسط (١٩٠/٣، رقم ٢٨٩٣)، والحاكم (٥٤٧/٤، رقم ٨٥٣٣) وقال: صحيح الإسناد.

على الإطلاق، وجدنا في سياقها ما يناقض دعواهم من عدة وجوه:

أولها: أن الخطاب في صدر الآية لأهل الإيمان، وقد ابتدئ فيها بالأمر بطاعة الله، ثم ثني بالأمر بطاعة الرسول، وذكرت طاعة أولي الأمر مدرجة مع طاعة الرسول ولم تذكر استقلالا، وهو يعني أن طاعتهم لا بد من أن تكون مقيدة بطاعة الله ورسوله؛ لأنها تبع لطاعتهما.

ثانيها: أن أولي الأمر في الآية الكريمة مقيدون بكونهم من أهل الإيمان، فقد قال تعالى: ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء: ٥٩]، ولا ريب أنه لا يدخل في ذلك الظلمة والفسقة، إذ لم يكن الله تعالى ليشرف هؤلاء بعطفهم على نفسه وعلى رسوله، وقد أجاد الزمخشري حيث قال في تفسير الآية: «والمراد بأولي الأمر منكم أمراء الحق؛ لأن أمراء الجور الله ورسوله بريئان منهم، فلا يعطفون على الله ورسوله في وجوب الطاعة لهم، وإنما يجمع بين الله ورسوله والأمراء الموافقين لهما في إيثار العدل واختيار الحق والأمر بهما والنهي عن أضدادهما، كالخلفاء الراشدين ومن تبعهم بإحسان.

وكان الخلفاء يقولون: أطيعوني ما عدلت فيكم، فإن خالفت؛ فلا طاعة لي عليكم»[(١)].

وتبعه في ذلك أبو السعود، حيث قال في تفسير الآية:»وهم أمراء الحق وولاة العدل، كالخلفاء الراشدين ومن يقتدى بهم من المهتدين، وأما أمراء الجور فبمعزل من استحقاق العطف على الله تعالى والرسول ﷺ في وجوب الطاعة لهم»[(٢)].

(١) الكشاف، ج١، ص٥٥٦.
(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي، ج٢ ص١٩٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

وقال الأستاذ الشهيد سيد قطب: «فأما أولو الأمر؛ فالنص يعين من هم [أولـي الأمر.. منكـم..]، أي: من المؤمنيـن.. الذين يتحقق فيهم شـرط الإيمان وحد الإسـلام المبين فـي الآية.. من طاعة الله وطاعة الرسـول؛ وإفراد الله ـ سبحانه ـ بالحاكمية وحق التشريع للناس ابتداء؛ والتلقي منه وحده ـ فيما نـص عليه ـ والرجوع إليـه أيضاً فيما تختلـف فيه العقول والأفهـام والآراء، مما لم يـرد فيه نص؛ لتطبيـق المبـاديء العامة في المنصوص عليه.

والنص يجعـل طاعة الله أصلاً؛ وطاعة رسـوله أصلاً كذلـك ـ بما أنه مرسل منه ـ ويجعل طاعة أولي الأمر.. منكم.. تبعاً لطاعة الله وطاعة رسوله. فلا يكرر لفظ الطاعة عند ذكرهم، كما كررها عند ذكر الرسول ﷺ ليقرر أن طاعتهم مستمدة من طاعة الله وطاعة رسوله ـ بعد أن قرر أنهم «منكم» بقيد الإيمان وشرطه..

وطاعـة أولي الأمـر.. منكم.. بعـد هـذه التقريرات كلهـا، في حدود المعروف المشـروع من الله، والذي لـم يرد نص بحرمتـه؛ ولا يكون من المحرم عندما يرد إلى مباديء شـريعته، عند الاختلاف فيه.. والسـنة تقرر حدود هذه الطاعة، على وجه الجزم واليقين.

في الصحيحين من حديث الأعمش: «إنما الطاعة في المعروف»[1].

وفيهما من حديث يحيى القطان: «السـمع والطاعة على المرء المسلم.

---

(١) أخرجه البخـاري (٢٦١٢/٦، رقم ٦٧٢٦)، ومسـلم (١٤٦٩/٣، رقم ١٨٤٠)، وأبو داود (٤٠/٣، رقم ٢٦٢٥)، والنسـائي (١٥٩/٧، رقم ٤٢٠٥)، وابـن حبـان (٤٢٩/١٠، رقم ٤٥٦٧). وابـن أبـي شـيبة (٥٤٣/٦، رقم ٣٣٧٠٦)، وأحمـد (٨٢/١، رقم ٦٢٢)، والحاكم (١٣٢/٣، رقم ٤٦٢٢) وقال: صحيح الإسناد.

فيما أحب أو كــره. ما لم يؤمر بمعصيــة. فإذا أمر بمعصية فلا ســمع ولا طاعة»[١].

وأخرج مسلم من حديث أم الحصين: «ولو استعمل عليكم عبد. يقودكم بكتاب الله. اسمعوا له وأطيعوا»[٢].

بهذا يجعل الإسلام كل فرد أميناً على شريعة الله وسنة رسوله. أميناً على إيمانه ودينه. أميناً على نفســه وعقله. أميناً على مصيره في الدنيا والآخرة.. ولا يجعلــه بهيمة فــي القطيع؛ تزجر من هنــا أو من هنا فتســمع وتطيع! فالمنهج واضح، وحدود الطاعة واضحة. والشــريعة التي تطاع والسنة التي تتبع واحدة لا تتعدد، ولا تتفرق، ولا يتوه فيها الفرد بين الظنون!»[٣].

ومن المفسرين، من فســر [أولي الأمر] في الآية الكريمة بعلماء الأمة، الذين ينعقد بهم الإجمــاع فيما يحدث من نوازل، فإنهــم إن أجمعوا على حكم في نازلــة ولم يختلفوا فيها كان ذلك شــرعا ربانيــا، يجب على من بعدهم أن يتبعوه ولا يخالفوه، ولذلــك كان الإجماع هو الأصل الثالث في الأدلة الشرعية، بعد الكتاب العزيز والسُّنَّة النبويّة على صاحبها أفضل الصلاة والتســليم، وعلى هذا عول الفخر الــرازي، وجعل الآية أصــلا في حجية الإجماع، وهاك نص قوله:

---

(١) أخرجــه أحمــد (١٤٢/٢، رقم ٦٢٧٨)، والبخــاري (٢٦١٢/٦، رقم ٦٧٢٥)، ومســلم (١٤٦٩/٣، رقم ١٨٣٩)، وأبــو داود (٤٠/٣، رقم ٢٦٢٦)، والترمــذي (٢٠٩/٤، رقم ١٧٠٧) وقال: حسن صحيح. والنسائي (١٦٠/٧، رقم ٤٢٠٦)، وابن ماجه (٩٥٦/٢، رقم ٢٨٦٤) وابــن أبــي شــيبة (٥٤٣/٦، رقم ٣٣٧٠٧)، وابــن الجــارود (ص٢٦٠، رقم ١٠٤١)، وأبــو عوانــة (٤٠٤/٤، رقم ٧١٠٨)، والبيهقــي (١٢٧/٣، رقم ٥١١٧)، والديلمي (٣٤٦/٢، رقم ٣٥٦٨).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٦٨/٣، رقم ١٨٣٨).

(٣) في ظلال القرآن، تفسير سيد قطب، ج٥، ص٦٩١، دار الشروق.

"اعلم أن قوله: ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ يدل عندنا على أن إجماع الأمة حجة، والدليل على ذلك أن الله تعالى أمر بطاعة أولي الأمر على سبيل الجزم في هذه الآية، ومن أمر الله بطاعته على سبيل الجزم والقطع لا بد وأن يكون معصوما عن الخطأ، إذ لو لم يكن معصوما عن الخطأ كان بتقدير إقدامه على الخطأ يكون قد أمر الله بمتابعته، فيكون ذلك أمرا بفعل ذلك الخطأ، والخطأ لكونه خطأ منهي عنه، فهذا يفضي إلى اجتماع الأمر والنهي في الفعل الواحد بالاعتبار الواحد، وأنه محال، فثبت أن الله تعالى أمر بطاعة أولي الأمر على سبيل الجزم، وثبت أن كل من أمر الله بطاعته على سبيل الجزم وجب أن يكون معصوما عن الخطأ فثبت قطعاً أن أولي الأمر المذكور في هذه الآية لا بد وأن يكون معصوما، ثم نقول: ذلك المعصوم إما مجموع الأمة أو بعض الأمة، لا جائز أن يكون بعض الأمة؛ لأنا بينا أن الله تعالى أوجب طاعة أولي الأمر في هذه الآية قطعاً، وإيجاب طاعتهم قطعاً مشروط بكوننا عارفين بهم قادرين على الوصول إليهم والاستفادة منهم، ونحن نعلم بالضرورة أنا في زماننا هذا عاجزون عن معرفة الإمام المعصوم، عاجزون عن الوصول إليهم، عاجزون عن استفادة الدين والعلم منهم، وإذا كان الأمر كذلك علمنا أن المعصوم الذي أمر الله المؤمنين بطاعته ليس بعضا من أبعاض الأمة، ولا طائفة من طوائفهم. ولما بطل هذا وجب أن يكون ذلك المعصوم الذي هو المراد بقوله: ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ أهل الحل والعقد من الأمة، وذلك يوجب القطع بأن إجماع الأمة حجة». اهـ[١].

وروى الطبري أن أولي الأمر هم الفقهاء، عن جماعة من السلف منهم مجاهد، وعطاء، والحسن، وأبو العالية[٢].

---

(١) التفسير الكبير، ج١٠، ص١١٦.

(٢) تفسير الطبري ج٥ ص١٤٨ - ١٥٠.

ويتعزز ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

ونحن نرى أن أولي الأمر وصف ينطبق على من اضطلع بأمانة الله، وأخذ بيد الأمة إلى سبيل الرشد وذب عن حرماتها ووفاها حقوقها، فأنصف كل مظلوم وقبض على كل ظالم، وكان على القوي حتى يأخذ الحق منه ومع الضعيف حتى يأخذ الحق له، وأن من تبديل شرع الله أن يكون هذا الوصف وما يتبعه من وجوب الطاعة لأولي الظلم، الذين ابتزوا الحكم وأضاعوا الحق وأشاعوا الفساد، وأمروا بالمنكر ونهوا عن المعروف، فإنهم أهون على الله من أن يجعل لهم على عباده طاعة ويدرجهم فيها مع نفسه ورسوله.

هذا؛ وقد بين الله تعالى أن الظالمين لا نصيب لهم من عهده، حيث قال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وبين العلماء أن الإمامة والقيادات الدينية هي من عهد الله الذي لا نصيب فيه لظالم، قال ابن خويز منداد: «وكل من كان ظالما لم يكن نبيا ولا خليفة ولا حاكما ولا مفتيا ولا إمام صلاة ولا يقبل عنه ما يرويه عن صاحب الشريعة ولا تقبل شهادته في الأحكام»[١].

وقال أبو بكر الرازي: «أراد أن الظالم لا يكون إماما، وعن ابن عباس أنه قال: «لا يلزم الوفاء بعهد الظالم، فإذا عقد عليك في ظلم فانقضه»، وقال الحسن: ليس لهم عند الله عهد يعطيهم عليه خيرا في الآخرة، قال أبو بكر: جميع ما روي من هذه المعاني يحتمله اللفظ، وجائز أن يكون جميعه مراد الله تعالى، وهو محمول على ذلك عندنا، فلا يجوز أن يكون الظالم نبيا،

(١) تفسير القرطبي، ج٢، ص١٠٩.

ولا خليفة لنبي، ولا قاضيا ولا من يلزم الناس قبول قوله في أمور الدين من مفت، أو شاهد، أو مخبر، عن النبي ﷺ خبرا، فقد أفادت الآية أن شرط جميع من كان في محل الائتمام به في أمر الدين العدالة والصلاح، وهذا يدل أيضا على أن أئمة الصلاة ينبغي أن يكونوا صالحين غير فساق ولا ظالمين، لدلالة الآية على شرط العدالة لمن نصب منصب الائتمام به في أمور الدين؛ لأن عهد الله هو أوامره، فلم يجعل قبوله عن الظالمين منهم، وهو ما أودعهم من أمور دينه وأجاز قولهم فيه وأمر الناس بقوله منهم والاقتداء بهم فيه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٠] يعني أقدم إليكم الأمر به، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ﴾ [آل عمران: ١٨٣]، ومنه عهد الخلفاء إلى أمرائهم وقضاتهم إنما هو ما يتقدم به إليهم ليحملوا الناس عليه ويحكموا به فيهم، وذلك، لأن عهد الله إذا كان إنما هو أوامره لم يخل قوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ من أن يريد أن الظالمين غير مأمورين، أو أن الظالمين لا يجوز أن يكونوا بمحل من يقبل منهم أوامر الله تعالى وأحكامه ولا يؤمنون عليها، فلما بطل الوجه الأول لاتفاق المسلمين على أن أوامر الله تعالى لازمة للظالمين، كلزومها لغيرهم، وأنهم إنما استحقوا سمة الظلم لتركهم أوامر الله ثبت الوجه الآخر، وهو أنهم غير مؤتمنين على أوامر الله تعالى وغير مقتدى بهم فيها، فلا يكونون أئمة في الدين، فثبت بدلالة هذه الآية بطلان إمامة الفاسق، وأنه لا يكون خليفة، وأن من نصب نفسه في هذا المنصب وهو فاسق لم يلزم الناس اتباعه ولا طاعته، وكذلك قال النبي ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[1]، ودل أيضا على أن الفاسق لا يكون

(١) أخرجه أحمد (٦٦/٥، رقم ٢٠٦٧٢)، والحاكم (٥٠١/٣، رقم ٥٨٧٠) وقال: صحيح الإسناد. والطبراني (١٦٥/١٨، رقم ٣٦٧). وأخرجه أيضا الخطيب (٢٢/١٠).

حاكما، وأن أحكامه لا تنفذ إذا ولي الحكم، وكذلك لا تقبل شهادته، ولا خبره إذا أخبر عن النبي ﷺ، ولا فتياه إذا كان مفتيا، وأنه لا يقدم للصلاة، وإن كان لو قدم واقتدى به مقتد كانت صلاته ماضية؛ فقد حوى قوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هذه المعاني كلها»[1].

وقال القرطبي: «استدل جماعة من العلماء بهذه الآية، على أن الإمام يكون من أهل العدل والإحسان والفضل مع القوة على القيام بذلك، وهو الذي أمر النبي ﷺ ألا ينازعوا الأمر أهله، على ما تقدم من القول فيه. فأما أهل الفسوق والجور والظلم فليسوا له بأهل، لقوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ولهذا خرج ابن الزبير والحسين بن علي رضي الله عنهم. وخرج خيار أهل العراق وعلماؤهم على الحجاج، وأخرج أهل المدينة بني أمية وقاموا عليهم، فكانت الحرة التي أوقعها بهم مسلم بن عقبة»[2].

وقد يعترض معترض بدعوى أن الظلم الذي لا ينال أهله عهد الله هو الشرك وحده، لأنه أعظم الظلم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

ويُرَدُّ بأن الظلم في الآية على إطلاقه؛ لأن التعريف يقتضي العموم، فكل من تلبس بظلم لم ينله عهد الله، لأن الظلم لغة: «وضع الشيء في غير موضعه»[3] وعلى ذلك جرى المفسرون[4]، وفي «النهاية» و«اللسان» ما نصه:

(١) أحكام القرآن، ج١، ص٨٦.

(٢) تفسير القرطبي، ج٢، ص١٠٨-١٠٩.

(٣) تهذيب اللغة، ج١٤، ص٢٧٤، المخصص، ج٣، ص٤٠٥، المحكم والمحيط الأعظم، ج١٠، ص٢٣، ـ، ج١٢، ص٣٧٣ وص٣٧٦، مقاييس اللغة، ج٣، ص٤٦٨، المحيط في اللغة، ج١٠، ص٣٢، المفردات في غريب القرآن، ص٣١٥.

(٤) تفسير الطبري، ج١، ص٢٣٤، المحرر الوجيز، ج١، ص٣٠٨، التفسير الكبير، ج٨، ص١٧١، تفسير السمرقندي، ج١، ص١٩٣، تفسير الثعلبي، ج١، ص١٨٢، تفسير =

«وأصل الظلم الجور ومجاوزة الحد، ومنه حديث الوضوء: فمن زاد أو نقص فقد أساء وظلم أي أساء الأدب بتركه السنة والتأدب بأدب الشرع، وظلم نفسه بما نقصها من الثواب بترداد المرات في الوضوء»[١].

ونصوص القرآن شواهد قاطعة، على أن الظلم يصدق على كل خروج عن حكم الله ومخالفة لأمره، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]، ولا ريب أن النهي عن الظلم فيهن يصدق على كل مخالفة لأمر الله، ومثله قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات: ١١]، وقوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣١]، وقوله: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطلاق: ١].

وحكى عن آدم وحواء عليهما السلام، أنهما قالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقال في يونس عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ

= القرطبي، ج١، ص٣٠٩، تفسير القشيري، ج٢، ص٨، تفسير السمعاني، ج١، ص٦٨، تفسير البغوي، ج١، ص٦٣، أحكام القرآن لابن العربي، ج٣، ص٢٧٧، تفسير النسفي، ج٣، ص٦٨، تفسير غرائب القرآن، ج١، ص٢٨٧، البحر المحيط، ج١، ص٣٠٦.

(١) النهاية في غريب الأثر، ج٣، ص١٦١، لسان العرب، ج١٢، ص٣٧٣، وينظر: عمدة القاري، ج١٢، ص٢٨٣.

﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وذكر عن موسى ﷺ أنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦].

وقد تضافرت الأحاديث عن رسول الله ﷺ دالة على صدق معنى الظلم على كل مخالفة لأمر الله، ومن ذلك قوله: «مطل الغني ظلم»[(١)]، وروي بلفظ: «إن من الظلم مطل الغني»[(٢)]، وروي «الـمَعْكُ طرف من الظلم»[(٣)]، وقال: «هذا الوضوء، من زاد أو نقص فقد ظلم وأساء»[(٤)]، وقال: «أعظم الظلم ذراع من الأرض، ينتقصه المرء من حق أخيه»[(٥)]، وقال: «لا تكونوا إمعة تقولون: إن أحسن الناس أحسنا، وإن أساءوا أسأنا، ولكن وطئوا أنفسكم، إن أحسنوا أن تحسنوا، وإن أساءوا أن لا تظلموا»[(٦)].

ثالثها: أن الآية الكريمة اختتمت بقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، ومعنى ذلك ـ بلا ريب ـ أن أولي الأمر ومن يلون أمرهم، عليهم جميعا أن يحتكموا إلى الله ورسوله عند التشاجر والخلاف، وهو دليل

---

(١) أخرجه مالك (٦٧٤/٢، رقم ١٣٥٤)، وعبدالرزاق (٣١٦/٨، رقم ١٥٣٥٥)، والبخاري (٧٩٩/٢، رقم ٢١٦٦) ومسلم (١١٩٧/٣، رقم ١٥٦٤) وأبو داود (٢٤٧/٣، رقم ٣٣٤٥)، والترمذي (٦٠٠/٣، رقم ١٣٠٨) والنسائي (٣١٧/٧ رقم ٤٦٩١)، وابن ماجه (٨٠٣/٢، رقم ٢٤٠٣)، وابن حبان (٤٨٧/١١، رقم ٥٠٩٠).

(٢) أخرجه عبدالرزاق (٣١٦/٨، رقم ١٥٣٥٥). وأحمد (٣١٥/٢، رقم ٨١٦٠)، وأبو عوانة (٣٤٨/٣ رقم ٥٢٤٥).

(٣) أخرجه الطبراني (١٧/٤، رقم ٣٥١٦).

(٤) أخرجه أبو داود (٣٣/١، رقم ١٣٥)، والنسائي في الكبرى (٨٢/١، رقم ٨٩)، وابن خزيمة (٨٩/١، رقم ١٧٤)، والطحاوي (٣٣/١)، والبيهقي (٧٩/١، رقم ٣٧٨).

(٥) أخرجه أحمد (٣٩٦/١، رقم ٣٧٦٧). قال الهيثمي (١٧٥/٤): إسناده حسن. والطبراني (٢١٦/١٠ رقم ١٠٥١٦).

(٦) أخرجه الترمذي (٣٦٤/٤، رقم ٢٠٠٧).

الإيمان بالله واليوم الآخر، فمن أبى ذلك وأراد أن يمضي على الآخر هواه، فقد خرج عن مقتضيات الإيمان بالله واليوم الآخر، وهو ظالم لنفسه فلا يناله عهد الله، «وعن أبي حازم: أن مسلمة بن عبدالملك قال له: ألستم أمرتم بطاعتنا في قوله: ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾؟ قال: أليس قد نزعت منكم إذ خالفتم الحق بقوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]»[(١)].

أما الحديث، فلو صح لوجب حمله على محمل صحيح، يتواءم مع روح الإسلام ومقاصد الشرع، وهو أن طاعة ولي الأمر تجب، إن لم تكن عند من يلي أمره حجة شرعية أنه تعدى عليه وبخسه حقه، أما مع ثبوت ظلمه وقيام الحجة عليه بذلك فإن طاعته لا يعود لها مكان في شرع الله تعالى، أو أنه يحمل على ما إذا أخذ ماله وضرب ظهره بحكم شرعي له فيه من الله برهان، وهذا الذي ذهب إليه ابن حزم، حيث قال:

«فإنما ذلك ـ بلا شك ـ إذا تولى الإمام ذلك بحق، وهذا ما لا شك فيه، أنه فرض علينا الصبر له، وإن امتنع من ذلك، بل من ضرب رقبته إن وجب عليه؛ فهو فاسق عاص لله تعالى، وأما إن كان ذلك بباطل فمعاذ الله أن يأمر رسول الله ﷺ بالصبر على ذلك، برهان هذا قول الله ﷻ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المائدة: ٢]، وقد علمنا أن كلام رسول الله ﷺ لا يخالف كلام ربه تعالى، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤﴾ [النجم: ٣ - ٤]، وقال تعالى ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ٨٢]، فصح أن كل ما قاله

(١) تفسير البحر المحيط، ج٣، ص٢٩٠، تفسير الكشاف، ج١، ص٥٥٦، تفسير النسفي، ج١، ص٢٢٩، مختصر تاريخ دمشق، ج٥٨، ص٤٢، مختصره، ج٧، ص٢٧٤، بدائع السلك، ابن الأزرق(م)، (ت: ٨٩٦هـ)، ج١، ص٧٨، وزارة الإعلام، العراق، الطبعة: الأولى، تحقيق: د.علي سامي النشار، مرقاة المفاتيح، ج٧، ص٢٥١، فيض القدير، ج٦، ص٤٣٢.

رسول الله ﷺ فهو وحي من عند الله ﷻ، ولا اختلاف فيه ولا تعارض ولا تناقض، فإذا كان هذا كذلك، فَبِيَقِينٍ لا شك فيه، يدري كل مسلم أن أخذ مال مسلم أو ذمي بغير حق؛ وضرب ظهره بغير حق؛ إثم وعدوان وحرام، قال رسول الله ﷺ: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم»(١). فإذ لا شك في هذا ولا اختلاف من أحد من المسلمين، فالمُسَلِّمُ ماله للأخذ ظلما وظهره للضرب ظلما، وهو يقدر على الامتناع من ذلك، بأي وجه أمكنه؛ معاون لظالمه على الإثم والعدوان، وهذا حرام بنص القرآن»(٢).

قلت: إن مما يعضد ما ذهب إليه ابن حزم في تأويل الحديث ما كان عليه الخلفاء الراشدون، من إعلان أن الطاعة إنما تجب حال التزام الإمام بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ، فقد أخرج عبدالرزاق: «عن معمر قال وحدثني بعض أهل المدينة قال خطبنا أبو بكر فقال: يا أيها الناس أني قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن ضعفت فقوموني وإن أحسنت فأعينوني الصدق أمانة والكذب خيانة الضعيف فيكم القوي عندي حتى أزيح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم الضعيف عندي حتى آخذ منه الحق إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالفقر ولا ظهرت ـ أو قال شاعت ـ الفاحشة في قوم إلا عمهم البلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم»(٣).

---

(١) أخرجه أحمد (٣٣٧/٤، رقم ١٨٩٨٦) و(٣٠/٥، رقم ٢٠٣٥١)، والنسائي (٤٢٢/٢، رقم ٤٠٠٢)، وابن خزيمة (٢٥٠/٤، رقم ٢٨٠٨)، والطبراني (٧/٤، رقم ٣٤٧٨) و(٣٤/٤، رقم ٣٥٧٢)، و(٣٦٣/٢٢، رقم ٩١٢)، وابن سعد (٥١/٧).

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري أبو محمد، (ت: ٥٤٨هـ)، ج٤، ص١٣٣، مكتبة الخانجي، القاهرة.

(٣) المصنف، أبو بكر عبدالرزاق بن همام الصنعاني، (ت: ٢١١هـ)، ج١١، ص٢٠٧٠١، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٣هـ، الطبعة: الثانية، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي.

وقال أبو عبيد: «حدثني علي بن هاشم بن البريد عن هشام بن عروة عن أبيه قال خطب أبو بكر رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد فإني وليت أمركم ولست بخيركم، ولكنه نزل القرآن وسن النبي وعلمنا فعملنا واعْلَمُنَّ أيها الناس، أن أكيس الكيس الهدى، ـ أو قال التقى، شك أبو عبيد قال: وأكثر ظني أنه التقى ـ وأن أعجز العجز الفجور وأن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقه، وأن أضعفكم عندي القوى حتى آخذ منه الحق، يا أيها الناس، إنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن أنا أحسنت فأعينوني، وإن أنا زغت فقوموني»[1].

فلو كانت الطاعة لهم مطلقة لما كان له أن يأمرهم بأن يقوموه إذا اعوج، وأن يعلن لهم أن لا طاعة له عليهم إن عصى الله ورسوله، لما في ذلك من تبديل حكم الله، وقد سبق أن سلمان قال لعمر رضي الله عنهما: «لا سمع»، عندما رأى عليه حلة، وقد أعطى كل واحد منهم ثوبا، حتى شهد له ابنه عبدالله أنه أعطاه ثوبه مع ثوبه، فكانت له بهما حلة، فما كان لسلمان ـ لو كانت الطاعة واجبة على الإطلاق ـ أن يعترض على الفاروق، وما كان للفاروق أيضا أن يقر سلمان على هذا الاعتراض، ولكن ذلك دليل على أن هديهم كان منسجما مع روح الإسلام ومقاصد الشرع، في تحقيق العدل وترسيخ الحق، وأن إقرار الطاعة المطلقة لهم، ولو عصوا وبغوا، مناف لذلك وناقض لعرى الدين.

وقد نص عمر رضي الله عنه على أن على الرعية أن تُقَوِّم الخليفة إن اعوج، كما أن عليه أن يقومهم إن اعوجوا، فقد أخرج ابن شبة في (تاريخ المدينة) بإسناده إلى عفيف بن معدي كرب، أنهم خرجوا من الكوفة إلى المدينة، يشكون إلى عمر رضي الله عنه واليه بالكوفة سعد بن أبي وقاص، ويطلبون منه عزله،

---

(١) كتاب الأموال، ص١٢.

فعزله عنهم، ـ مع سابقته في الإسلام وارتباط نسبه ورحمه بالنبي ﷺ ـ، ثم قال لهم عمر: «أخبروني عما أسألكم عنه إذا كان الإمام عليكم فجار عليكم ومنعكم حقوقكم وأساء صحبتكم ما تصنعون به؟ قلنا: يا أمير المؤمنين ما نصنع به؟ إن رأينا خيرا حمدنا الله وقبلنا، وإن رأينا جورا وظلما صبرنا حتى يفرج الله منه، قال: أما هو إلا ما أسمع؟ قالوا: لا والله ما عندنا إلا ما قلنا لك، قال: فضرب بيده على جبهته، ثم قال: لا والله الذي لا إله إلا هو، لا تكونون شهداء في الأرض، حتى تأخذوهم كأخذهم إياكم، وتضربوهم في الحق كضربهم إياكم، وإلا فلا»[1].

وهو كلام غني عن التعليق، فإنه شاهد على أن الشهادة على الناس، التي هي وظيفة هذه الأمة، لا تكون إلا بردع الخلفاء عن الباطل، وردهم إلى الحق بكل وسيلة، كما يردع الخلفاء العامة عن الباطل، ويردونهم إلى الحق بالقوة.

وقد علق الإمام علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ وجوب طاعة الإمام على الرعية على أمرين اثنين، وهما حكمه بما أنزل الله وأداؤه الأمانة، فقد أخرج أبو عبيد القاسم بن سلام عنه ذلك، قال: وحدثنا عبدالله بن إدريس، وأبو إسماعيل إبراهيم بن سليمان المؤدب والأشجعي واسمه عبيدالله ابن عبيد الرحمن كلهم عن إسماعيل ابن أبي خالد عن مصعب بن سعد قال: قال علي بن أبي طالب ﵁ كلمات أصاب فيهن الحق، قال: يحق على الإمام أن يحكم بما أنزل الله وأن يؤدي الأمانة فإذا

(١) تاريخ المدينة المنورة، أبو زيد عمر بن شبة النميري البصري، (ت: ٢٦٢هـ)، ج٢، ص٢٠، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، تحقيق: علي محمد دندل وياسين سعد الدين بيان.

فعل ذلك فحق على الناس أن يسمعوا له ويطيعوا ويجيبوه إذا دعا»[١].

وقد تقدم فيما ذكرته عن عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه، أنه رفع صوته ـ في خطبته ـ حتى أسمع الناس، فقال: «يا أيها الناس من أطاع الله فقد وجبت طاعته، ومن عصى الله فلا طاعة له. أطيعوني ما أطعت الله عز وجل، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم».

وأحاديث الرسول ﷺ شاهدة بهذا، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «لا طاعة لأحد في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف»[٢]، واستكانة الإنسان في أخذ ماله وجلد ظهره بغير حق، إنما هي طاعة في غير معروف، بل في جور وظلم، فما كان رسول الله ﷺ ليأمر بها.

هذا؛ ومن أولويات الدين ضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنهما من أقوى عرى الإسلام التي تشد المؤمنين والمؤمنات بعضهم إلى بعض، فقد قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١]، ومعنى هذا، أن معقد الترابط بين شرائح الأمة ما ذكر في الآية الكريمة، من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله، فإذا ذهب شيء من ذلك انحلت الرابطة، وقد بدأ بالأمر

---

(١) المرجع السابق، ص١٣، وأخرجه سعيد بن منصور (١٢٨٦/٤، رقم ٦٥١)، وابن أبي شيبة (٤١٨/٦، رقم ٣٢٥٣٢)، وابن جرير (١٤٥/٥)، وابن زنجويه في الأموال (٣٥/١) والخلال في السنة (١٠٩/١ رقم ٥١).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦١٢/٦، رقم ٦٧٢٦)، ومسلم (١٤٦٩/٣، رقم ١٨٤٠)، وأبو داود (٤٠/٣، رقم ٢٦٢٥)، والنسائي (١٥٩/٧، رقم ٤٢٠٥)، وابن حبان (٤٢٩/١٠، رقم ٤٥٦٧). وابن أبي شيبة (٥٤٣/٦، رقم ٣٣٧٠٦)، وأحمد (٨٢/١، رقم ٦٢٢)، والحاكم (١٣٢/٣، رقم ٤٦٢٢) وقال: صحيح الإسناد.

بالمعروف والنهي عن المنكر قبل غيرهما، لأنهما يصان بهما الدين، وتحفظ بهما الحقوق، وينصف بهما المظلوم من ظالمه.

وهما ـ بلا ريب ـ يشملان جميع طبقات الناس من حكام ومحكومين ورعاة ورعايا، فعلى الرعية أن تأمر راعيها بالمعروف وتنهاه عن المنكر، كما أن على الراعي ذلك في رعيته، ويدل عليه قول النبي ﷺ: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع أن يغيره بيده فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[٣]، فقد أطلق الأمر بهذا في كل من رأى منكرا، و(من) من أدوات العموم؛ فيصدق ذلك على الراعي والرعية، ويؤكد هذا قول النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً، أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض، وليلعننكم كما لعنهم»[٤].

وقال ﷺ: «إذا رأيت أمتي تهاب، فلا تقول للظالم يا ظالم، فقد تودع منهم»[٥].

وبالجملة؛ فإن الله تعالى يأبى على رسوله ﷺ أن يكون داعية إلى إقرار الظلم والاستكانة للجور والفساد، ويأبى على دينه الإسلام أن يكون سلما

(٣) أخرجه الطيالسي (ص٢٩٢، رقم ٢١٩٦)، وأحمد (٤٩/٣، رقم ١١٤٧٨)، وعبد بن حميد (ص٢٨٤، رقم ٩٠٦) ومسلم (٦٩/١، رقم ٤٩) وأبو داود (٢٩٦/١، رقم ١١٤٠)، والترمذي (٤٦٩/٤، رقم ٢١٧٢) وقال: حسن صحيح. والنسائي (١١١/٨، رقم ٥٠٠٨)، وابن ماجه (١٣٣٠/٢، رقم ٤٠١٣)، وابن حبان (٥٤١/١، رقم ٣٠٧). وأخرجه أيضًا: أبو يعلى (٢٨٩/٢، رقم ١٠٠٩)، والبيهقي (٩٠/١٠، رقم ١٩٩٦٦)، وأبو نعيم في الحلية (٢٨/١٠).

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (١٤٦/١٠ رقم ١٠٢٦٧)، وأحمد (٣٩١/١، رقم ٣٧١٣)، والترمذي (٢٥٢/٥، رقم ٣٠٤٧)، وقال: حسن غريب.

(٥) أخرجه الحاكم (١٠٨/٤ رقم ٧٠٣٦) وصححه ووافقه الذهبي.

للظالمين يصلون به إلى أهوائهم ويحققون به مآربهم، كيف؛ وهو تعالى لم يرسل رسله وينزل كتبه، إلا لرفع الظلم وبسط العدل بين عباده، وأن يكون له وحده الحكم، فقد قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧]، وقال: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠]، فكيف يجعل سبحانه في شرعه العادل ودينه المحكم سلطانا للمبطلين على المحقين، وهيمنة للقاسطين على المقسطين، مع أنه تعالى هو أحكم الحاكمين؟!!

وقد علمت أن الطاعة المطلقة إنما هي له وحده ولرسوله ﷺ، لأنه عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى، فقد صانه تعالى من الزلل، وعصمه عن المؤثرات النفسية والخارجية، فلا يأمر إلا بطاعة الله ولا ينهى إلا عن معصيته، أما من عداه فليس هو من ذلك في شيء، لذلك كان تقييد طاعة من تجب لهم الطاعة بأن تكون في حدود طاعة الله تعالى ورسوله أمرا لا مناص منه، وما كان الله تعالى ليرفع إلى مقام رسوله الأمين المتسلطين على عباده من غواة المجرمين، الذين قال فيهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣].

ومع هذا، فإن حديث: «وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك»، لم يخل إسناده من مقال، فهو عند مسلم من رواية زيد بن سلام عن جده أبي سلام عن حذيفة، ولم يثبت سماع أبي سلام من حذيفة، فقد قال أبو زرعة: «قال العلائي: روى عن حذيفة وأبي مالك الأشعري وذلك في صحيح مسلم، وقال الدارقطني: لم يسمع منهما»[1].

(١) تحفة التحصيل في ذكر رواة المراسيل، ولي الدين أحمد بن عبدالرحيم بن الحسين أبي زرعة العراقي، ج١، ص٣١٦، مكتبة الرشد، الرياض، ١٩٩٩م، تحقيق: عبدالله نوارة.

وقد تشبث الذين رسخوا في الأمة طاعة الظلمة الفجرة، وجعلوهم كالعدول البررة، بحديث ابن عباس عن النبي ﷺ: «من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات فميتته جاهلية»[(١)]، وليست لهم في هذا حجة، فإن غاية ما في الحديث أن من كان تحت إمرة أحد يقوده، فوقع بينهما خلاف، فإن على المقود أن يصبر، ولا يثأر لنفسه بتمزيق الصف وتشتيت الكلمة وإثارة الفتنة بين المسلمين حتى يجعل الله له مخرجا، بحيث يجد الحجة في مرافعة خصمه ومقاضاته إلى من يحكم بينهما، ولا يعني ذلك ـ بحال ـ الصبر على انتهاك المحارم، وإشاعة الفساد، وانتشار الظلم، إذ لو كان الحديث دالا على وجوب الصبر، وعدم الخروج على الإطلاق، لشمل ذلك ما لو ارتدَّ الأمير ونبذ الإسلام وراء ظهره، فلما تعذر ذلك بالإجماع، وجب حمله على هذا المعنى الصحيح، الذي يساير روح التشريع، ويتفق مع مقاصد الدين.

وتعلقوا ـ بجانب ما تقدم ـ بأدلة أخرى، منها قوله تعالى فيما حكاه عن ابن آدم: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة: ٢٨ ـ ٢٩]، وذلك أنهم رأوا سريان هذا الحكم فيما يكون بين المتسلط الظالم وبين مظلوميه.

وقد أجاب ابن حزم عن هذا الاستدلال، بأن «تلك شريعة أخرى غير

(١) أخرجه أحمد (٣١٠/١، رقم ٢٨٢٦)، والبخاري (٢٥٨٨/٦، رقم ٦٦٤٦)، ومسلم (١٤٧٧/٣، رقم ١٨٤٩)، وأبو يعلى (٢٣٤/٤، رقم ٢٣٤٧). وأخرجه أيضًا: الطبراني (١٦٠/١٢، رقم ١٢٧٥٩) والدارمي (٣١٤/٢، رقم ٢٥١٩)، والبيهقي (١٥٧/٨، رقم ١٦٣٩٣)، وأبو عوانة (٤٢٣/٤، رقم ٧١٧٨).

شريعتنا، وقد قال الله ﷻ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]»[١].

قلت: قد يعترض معترض على هذا الجواب، بأن دعوى أن ذلك من خصوصيات تلك الشريعة مدفوع بذكره في القرآن، فلو لم يكن مشروعا لنا لم يذكر، وجوابه أن كثيرا مما ذكر في القرآن من أخبار الأمم الغابرة والنبوات السابقة هو غير مشروع لنا، ناهيك برؤيا إبراهيم ﷻ، أنه يذبح ابنه إسماعيل، وقد عد ذلك أمرا بذبحه، وشَرَعَ في امتثاله، لولا عناية الله التي تداركتهما، ولو كان مثله مشروعا لنا لوجب على كل من رأى في منامه أنه يذبح ولده أن يفعل ذلك، إلا أن يفدى بذبح عظيم، كما فدي إسماعيل ﷻ، وما أبعد ذلك عن الفهم الصحيح لمقاصد القرآن، فإن اعترض معترض بأن الحديث دل على وجوب التأسي بخير ابني آدم في مثل هذا، وذلك في حديث سعد بن أبي وقاص، عن النبي ﷺ في هذا الحديث، قال: فقلت: يا رسول الله، أرأيت إن دخل على بيتي وبسط يده ليقتلني، قال: فقال رسول الله ﷺ: «كن كابني آدم». وتلا ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ ﴾.. الآية.

فجوابه: أن الحديث الآحادي ولو صح سنده، يترك العمل به لخمسة أسباب ذكرها الحافظ البغدادي، في قوله: "وإذا روى الثقة المأمون خبراً متصل الإسناد رد بأمور:

أحدها: أن يخالف موجبات العقول، فيعلم بطلانه، لأن الشرع إنما يَرِدُ بمجوزات العقول، أما بخلاف العقول فلا.

والثاني: أن يخالف نص الكتاب أو السنة المتواترة، فيعلم أنه لا أصل له أو منسوخ.

---

(١) الفصل في الملل، ج٤، ص١٣٣.

والثالث: أن يخالف الإجماع، فيستدل على أنه منسوخ، أو لا أصل له، لأنه لا يجوز أن يكون صحيحاً غير منسوخ وتجمع الأمة على خلافه.

والرابع: أن ينفرد الواحد برواية ما يجب على كافة الخلق علمه، فيدل ذلك على أنه لا أصل له؛ لأنه لا يجوز أن يكون له أصل وينفرد هو بعلمه من بين الخلق العظيم.

والخامس: أن ينفرد برواية ما جرت العادة بأن ينقله أهل التواتر، فلا يقبل لأنه لا يجوز أن ينفرد في مثل هذا بالرواية»[1].

وأنت تدري أن الأدلة القرآنية صريحة في جواز دفع عدوان المعتدي، فقد قال تعالى: ﴿وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْۚ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقال: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١]، ومع هذا انعقد الإجماع أيضا على جواز دفع الصائل، والأخذ بظاهر هذا الحديث وبقصة ابني آدم يمنع من دفع الصائل، وقد جاءت أيضا أحاديث أخرى دالة على مشروعية قتال الإنسان عن نفسه وماله وأهله، منها قوله ﷺ: «من قتل دون ماله فهو شهيد»[2]، وقوله: «من قتل دون

(١) الفقيه والمتفقه؛ الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي؛ ج١ ص١٣٢ - ١٣٣، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

(٢) أخرجه الضياء من طريق أنس (٦/٢٨٤، رقم ٢٢٩٩)، والنسائي من طريق علقمة (٧/١١٦، رقم ٤٠٩٣)، ومن طريق أبي جعفر مرسلا (٧/١١٦، رقم ٤٠٩٣). وأخرجه أيضا عبد الرزاق من طريق عبد الله بن عمرو (١٠/١١٣، رقم ١٨٥٦٢)، وأحمد (٢/٢٢٣، رقم ٧٠٨٤)، والبخاري (٢/٨٧٧، رقم ٢٣٤٨)، ومسلم (١/١٢٤، رقم ١٤١)، والترمذي (٤/٢٩، رقم ١٤١٩) وصححه الألباني، والنسائي (٧/١١٥، رقم ٤٠٨٧)، ومن طريق شداد بن أوس أخرجه الطبراني (٧/٢٩٢، رقم ٧١٧٠). قال الهيثمي (٤/١٧٦)، (٦/٢٤٥): فيه قزعة بن سويد، وثقه ابن معين في رواية، وابن عدي، وضعفه الجمهور، وبقية رجاله ثقات، ومن طريق أبي هريرة أخرجه الخطيب (٢/٣٢٩)، ومن طريق ابن مسعود أخرجه =

ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد»[1]، وقوله: «من قاتل دون ماله حتى يقتل فهو شهيد»[2]، وفي رواية: «من قاتل دون نفسه حتى يقتل فهو شهيد، ومن قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون أهله حتى يقتل فهو شهيد، ومن قتل في جنب الله؛ فهو شهيد»[3]، وفيه مشروعية القتال للدفاع عن النفس والمال والأهل.

هذا؛ ويحتمل أن يكون حديث سعد بن أبي وقاص كان إبان أمر المسلمين بكف أيديهم عن القتال، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ﴾ [النساء: ٧٧]، وكانت هذه مرحلة أراد الله سبحانه

= الطبراني (١٠/٢٠١، رقم ١٠٤٦٣). قال الهيثمي (٦/٢٤٤): فيه عبيد بن محمد المحارمى وهو ضعيف، وأخرجه عبدالرزاق أيضا من طريق عمر بن عبدالعزيز (١٠/١١٦، رقم ١٨٥٦٩)، وأخرجه أحمد من طريق السيد الحسين (١/٧٨، ٥٩٠)، ومن طريق علي بن أبي طالب أخرجه أبو يعلى (١٢/١٤٦ رقم ٦٧٧٥). وأحمد (١/٧٨، رقم ٥٩٠)، ومن طريق سعيد بن زيد أخرجه الترمذي (٤/٢٨، رقم ١٤١٨) وقال حسن صحيح، وابن ماجه (٢/٨٦١، رقم ٢٥٨٠)، وابن حبان (١١/١١١، رقم ٤٧٩٠)، والطبراني (١/١٥٢، رقم ٣٥٢). والشافعي (١/٣١٣)، وأبو داود (٤/٢٤٦، رقم ٤٧٧٢)، وابن عساكر (٥/٢٢٣)، ومن طريق جابر أخرجه الخطيب (١١/٢١٧)، ومن طريق سويد بن مقرن أخرجه ابن عساكر (٢١/٢٨٨)، ومن طريق ابن الزبير وابن كريز معًا أخرجه ابن عساكر (٢٩/٢٤٨). وابن أبي عاصم في الآحاد (١/٤٠٨ رقم ٥٦٧)، وابن قانع (٢/١٢٥)، والطبراني في الأوسط (٨/٩٣، رقم ٨٠٦٩)، والحاكم (٣/٧٤١، رقم ٦٦٩٧).

(١) أخرجه عبدالرزاق (١٠/١١٤، رقم ١٨٥٦٥)، وأحمد (١/١٩٠، رقم ١٦٥٢)، وعبد بن حميد (ص٦٦، رقم ١٠٦)، وأبو داود (٤/٢٤٦، رقم ٤٧٧٢)، والترمذي (٤/٣٠، رقم ١٤٢١) وقال: حسن صحيح. والنسائي (٧/١١٦، رقم ٤٠٩٥)، وأبو يعلى (٢/٢٤٨، رقم ٩٤٩)، والبيهقي (٣/٢٦٦، رقم ٥٨٥٨)، والضياء (٣/٢٩٢، رقم ١٠٩٢) وقال: إسناده حسن.

(٢) أخرجه الطبراني (١/١٥٢، رقم ٣٥٢)، والنسائي (٧/١١٥، رقم ٤٠٩١).

(٣) أخرجه عبدالرزاق (١٠/١١٦، رقم ١٨٥٧٠).

بها ترويض المسلمين على الصبر، على البلاء وأن تكون معاملتهم للمشركين بالسياسة والحكمة، فلما تهيأت الظروف للجهاد أذن لهم به وأمرهم بالجهاد، وقد ذكر ذلك القرطبي في قوله: «قال مجاهد: كان الفرض عليهم حينئذ ألا يستل أحد سيفا، وألا يمتنع ممن يريد قتله، قال علماؤنا: وذلك مما يجوز ورود التعبد به، إلا أن في شرعنا يجوز دفعه إجماعا، وفي وجوب ذلك عليه خلاف، والأصح وجوب ذلك لما فيه من النهي عن المنكر»[(١)].

واستدلوا أيضا بما روي عن النبي ﷺ من قوله: «ستكون أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن عرف برئ، ومن أنكر سلم، ولكن من رضي وتابع، قالوا: أفلا نقاتلهم، قال: لا، ما صلوا»[(٢)].

وجوابه: أنه لا يخلو من ضعف حسب معايير علماء النقد، لأن في إسناده قتادة، وقد رواه بالعنعنة، وهو مدلس مشهور، قال الحافظ ابن حجر: «وكان مدلسا على قدر فيه، وقال البخاري: لا يشبه أن قتادة سمع من بشر بن عائذ، لأنه قديم الموت ولا نعرف له سماعا من ابن بريدة، وقال في موضع آخر: ما أرى سمع قتادة من بشير بن نهيك، وقال علي: ما أرى قتادة سمع من أبي ثمامة الثقفي ولم يسمع من أبي عبدالله الجدلي، وقال البزار: لم يسمع من طاوس ولم يسمع من الزهري وقد روى عنه ثلاثة أحاديث، وقال الحاكم في علوم الحديث: لم يسمع قتادة من صحابي غير أنس، وقد ذكر ابن أبي حاتم عن أحمد بن حنبل مثل ذلك، وزاد: قيل له فابن سرجس،

---

(١) تفسير القرطبي، ج٦، ص١٣٦.

(٢) أخرجه مسلم (١٤٨٠/٣، رقم ١٨٥٤)، وأبو داود (٢٤٢/٤، رقم ٤٧٦٠) وابن أبي شيبة (٤٦٩/٧، رقم ٣٧٢٩٦)، وأحمد (٣٠٢/٦، رقم ٢٦٦١٩)، أبو يعلى (٤١٦/١٢، رقم ٦٩٨٠)، ونعيم بن حماد (١٥٠/١، رقم ٣٨٠).

فكأنه لم يره سماعا، قال أحمد: ولم يسمع من عبدالله بن الحارث الهاشمي، ولا من القاسم، ولا سالم، ولا سعيد بن جبير، ولا عبدالله ابن مغفل، وقال البرديجي: لم يصح له سماع من أبي سلمة بن عبدالرحمن، ولم يسمع من الشعبي، ولا من عروة بن الزبير، وقال ابن معين: لم يسمع من ابن أبي مليكة، ولا من حميد بن عبدالرحمن الحميري، ولا من مسلم بن يسار، ولا من رجاء بن حيوة، ولا من حكيم بن عفان، ولا من عبدالرحمن مولى أم برثن، وقال في رواية ابن الجنيد: لم يلق سعيد بن جبير، ولا مجاهدا، ولا سليمان ابن يسار، وقال يحيى بن سعيد: لم يسمع سماعه من معاذة، وقال أبو حاتم: قتادة عن أبي الأحوص مرسل، وأرسل عن أبي موسى وعائشة وأبي هريرة ومعقل بن يسار، وقال أبو داود: حدث قتادة عن ثلاثين رجلا لم يسمع منهم». اهـ[1].

وقال الباجي: «قال أبو بكر بن أبي خيثمة، حدثنا أحمد بن حنبل، حدثنا سليمان بن داود، قال: قال شعبة: كنت أعرف إذا جاء ما سمع قتادة مما لم يسمع، كان إذا جاء ما سمع يقول: حدثنا أنس حدثنا الحسن حدثنا سعيد حدثنا مطرف، وإذا جاء ما لم يسمع، يقول: قال سعيد بن جبير، قال أبو قلابة، قال أبو بكر: حدثنا أبي حدثنا جرير عن مغيرة عن الشعبي، قيل له: رأيت قتادة؟ قال: نعم، رأيته كحاطب ليل، قال أبو بكر: حدثنا محمد بن عبدالله الرازي، حدثنا معتمر بن سليمان، عن أبي عمرو بن العلاء، قال: كان قتادة وعمرو بن شعيب لا يغث عليهما شيء، يأخذان عن كل أحد»[2].

---

(١) تهذيب التهذيب، ج٨، ص٣١٨.

(٢) التعديل والتجريح، لمن خرج له البخاري في الجامع الصحيح، سليمان بن خلف بن سعد أبو الوليد الباجي، ج٣ ص١٠٦٦، دار اللواء للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. أبو لبابة حسين.

وقال ابن حبان: «وكان مدلسا»[١].

وهو رواه عن الحسن، عن ضبة بن محصن، بالعنعنة، وقد يعل من حيث إن الحسن أيضا رواه عن ضبة، معنعنا، مع أن الحسن عند أهل النقد يعد في المدلسين، فقد قال الحافظ ابن حجر: «روى عن أبي بن كعب وسعد بن عبادة وعمر بن الخطاب ولم يدركهم، وعن ثوبان وعمار بن ياسر وأبي هريرة وعثمان بن أبي العاص ومعقل بن سنان ولم يسمع منهم»[٢].

وقال أيضا: «وكان يرسل كثيرا ويدلس، قال البزار: كان يروي عن جماعة لم يسمع منهم فيتجوز ويقول حدثنا وخطبنا يعني قومه الذين حدثوا وخطبوا بالبصرة»[٣].

والحديث جاء أيضا عن الحسن، عند أبي داود من غير طريق قتادة، فقد أخرجه عنه من طريق المعلى بن زياد، وهشام بن حسان عنه، وهما ضعيفان، قال ابن الجوزي في المعلى بن زياد: «قال يحيى: ليس بشيء ولا يكتب حديثه، وقال ابن عدي: لا أرى بروايته بأسا»[٤].

وأنت تدري أن الجارح مقدم على الموثق، وأما هشام بن حسان، فقد قال الحافظ ابن حجر: «وفي روايته عن الحسن وعطاء مقال، لأنه قيل كان يرسل عنهما»[٥].

واستدلوا أيضا بما روي عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «دعانا النبي ﷺ

(١) الثقات، ج٥، ص٣٢٢.

(٢) تهذيب التهذيب، ج٢، ص٢٣١.

(٣) تقريب التهذيب، تقريب التهذيب، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، ص١٦٠، دار الرشيد، سوريا، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد عوامة.

(٤) الضعفاء والمتروكين، ج٣، ص١٣١.

(٥) تقريب التهذيب، ص٥٧٢.

فبايعناه، فقال: فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان»[١].

ووجه استدلالهم به أن عصيان من ولي الأمر لا يجوز، إلا إن كان مرتكبا كفرا بواحا، وهو ما يخرجه من ملة الإسلام.

وجوابه: أن الكفر أعم من أن يكون كفر ملة مخرجا من الملة، أو كفر نعمة يصدق على من ركب معصية وأصر عليها، فإن الكفر لغة: بمعنى التغطية، ومنه قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: ٢٠]، فإن المراد بالكفار فيه الزراع، لأنهم يكفرون البذر بما يغطونه به من التراب، ومن شواهده قول لبيد:

يَعلو طَريقَةَ مَتنِها مُتَواتِرٌ   في لَيلَةٍ كَفَرَ النُجومَ غَمامُها

ومن لم يقابل نعمة المنعم بما تستحقه من الشكر فقد كفرها، فلذلك كان الكفر نقيض الشكر، لأن الشاكر مظهر للنعمة بقيامه بحقها، ونعمة الله تعالى إنما يتحقق شكرها بتسخيرها في طاعته، ومن استخدمها في معصيته فقد كفرها، قال في «اللسان»: «والكفر: كفر النعمة، وهو نقيض الشكر. والكفر: جحود النعمة، وهو ضد الشكر»[٢].

ودليل ذلك من الكتاب قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، وقوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقوله في قصة سليمان ﷺ: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا

(١) أخرجه البخاري (٢٥٨٩/٦ رقم ٦٦٤٧)، ومسلم (١٤٧١/٣ رقم ١٧٠٩).
(٢) لسان العرب، ج٥، ص١٤٤.

يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠]، فقد دلت هذه الآيات الكريمة على أن الكفر والشكر نقيضان، فمن لم يكن شاكرا فهو كافر ولا منزلة بينهما، والشكر لا يكون إلا بأداء حق المنعم من الطاعة وعدم استخدام نعمته في عصيانه، قال في «اللسان»: «الشكر: مقابلة النعمة بالقول والفعل والنية، فيثني على المنعم بلسانه ويذيب نفسه في طاعته ويعتقد أنه موليها»[١]، ومن شواهد ذلك قول الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

كما استدل على أن العمل من الشكر بقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]، ودل على أن ترك طاعته تعالى كفر كثير من النصوص القرآنية، منها قوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وهو في ذلك كله ليس كفرا مليا، فلا يخرج المتلبس به من ملة الإسلام، وإنما هو ظالم لنفسه كافر بنعمة ربه مستحق لوعيده، يصدق عليه وصف الفسوق والضلال، وقد حكى صاحب المنار عن شيخه الإمام محمد عبده، أنه حمل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨]، كما قرر أنه مذهب جماعة من العلماء الأعلام، وذلك في قوله:

«واختار شيخنا أن المراد بالكفر هنا: ما هو دون الشرك، وعدم تصديق

(١) المصدر السابق، ج٤، ص٤٢٥.

دعوة النبوة، وهو استعمال معروف في القرآن، وصرح به بعض العلماء الأعلام، وقالوا: إنه يوجد كفر دون كفر، وبه فسر أبو حامد الغزالي الحديث الصحيح: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»[١]». اهـ[٢].

وقد تعزز إطلاق الكافر على ما دون المشرك، بكثير من نصوص الحديث الشريف، منها قوله ﷺ: «الصلاة على موتى أهل القبلة، المقرين بالله ورسوله واليوم الآخر، واجبة، فمن تركها فقد كفر»[٣].

وقوله عليه الصلاة والسلام: «لا ترجعوا بعدي كفارا، يضرب بعضكم رقاب بعض»[٤].

(١) أخرجه من طريق أبي هريرة عبدالرزاق (٤١٦/٧، رقم ١٣٦٨٦)، ومسلم (٧٧/١، رقم ٥٧)، وأبو داود (٢٢١/٤، رقم ٤٦٨٩)، والترمذي (١٥/٥، رقم ٢٦٢٥) وقال: حسن صحيح غريب. وأحمد (٤٧٩/٢، رقم ١٠٢٢٠)، والبخاري (٢٤٩٧/٦، رقم ٦٤٢٥)، وابن حبان (٢٦٠/١٠، رقم ٤٤١٢) وأخرجه من طريق أبي سعيد أخرجه عبد بن حميد (ص٢٨٨، رقم ٩١٩)، والحكيم (٢٧٤/١)، ومن طريق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ذكره الحكيم (٢٦٩/١).

(٢) تفسير المنار، ج٤، ص٣٦٩.

(٣) أخرجه الربيع، (ص٢٩٧ رقم ٧٧٧).

(٤) أخرجه من طريق أبي زرعة بن عمرو: الطيالسي (ص٩٢، رقم ٦٦٤)، وابن أبي شيبة (٤٥٥/٧، رقم ٣٧١٧٦)، وأحمد (٣٦٣/٤، رقم ١٩٢٣٧)، والبخاري (٥٦/١، رقم ١٢١)، ومسلم (٨١/١، رقم ٦٥)، والنسائي (١٢٧/٧، رقم ٤١٣١)، وابن ماجه (١٣٠٠/٢، رقم ٣٩٤٢)، والدارمي (٩٥/٢، رقم ١٩٢١)، وابن حبان (٢٦٨/١٣، رقم ٥٩٤٠)، وأخرجه من طريق ابن عمر: ابن أبي شيبة (٤٥٥/٧، رقم ٣٧١٧٤)، وأحمد (٨٥/٢، رقم ٥٥٧٨)، والبخاري (٢٥١٨/٦، رقم ٦٤٧٤)، وأبو داود (٢٢١/٤، رقم ٤٦٨٦)، والنسائي (١٢٦/٧، رقم ٤١٢٥)، وابن ماجه (١٣٠٠/٢، رقم ٣٩٤٣)، ومن طريق أبي بكرة: أخرجه البخاري (٢٥٩٣/٦، رقم ٦٦٦٧)، والنسائي (١٢٧/٧، رقم ٤١٣٠)، ومن طريق ابن عباس: أخرجه البخاري (٦١٩/٢، رقم ١٦٥٢)، والترمذي (٤٨٦/٤، رقم ٢١٩٣) وقال: حسن صحيح، ومن طريق أبي سعيد: أخرجه الطبراني (٣٧/٦، =

وقوله ﷺ: «أريت النار، فإذا أكثر أهلها النساء، يكفرن. قيل: أيكفرن بالله؟ قال: يكفرن العشير ويكفرن الإحسان إن أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئا، قالت: ما رأيت منك خيرا قط»[١].

وقوله: «ثِنْتَان في الناس، وهما بهم كفر: النياحة، والطعن في النسب»[٢].

وقوله: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر»[٣].

وقوله: «ليس بين العبد والكفر إلا تركه الصلاة».[٤] وفي لفظ:» ليس بين العبد وبين الكفر إلا أن يدع صلاة مكتوبة».[٥] وفي آخر: «بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة»[٦]، وقوله: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»[٧]، وقوله: «لا ترغبن

= رقم ٥٤٤٢)، ومن طريق أبي أمامة: أخرجه الطبراني (١٣٧/٨، رقم ٧٦١٩)، ومن طريق ابن مسعود: أخرجه أحمد (٤٠٢/١، رقم ٣٨١٥)، والطبراني (١٥٥/١٠، رقم ١٠٣٠١).

(١) أخرجه مالك (١٨٦/١، رقم ٤٤٥) والبخاري (١٩/١، رقم ٢٩)، ومسلم (٦٢٦/٢، رقم ٩٠٧) من طريق ابن عباس.

(٢) ينظر: المنة الكبرى شرح وتخريج السنن الصغرى، محمد ضياء الرحمن الأعظمي، ج٣، ص١٠٧ مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٢٢هـ.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (١٦٧/٦، رقم ٣٠٣٩٦)، وأحمد (٣٤٦/٥، رقم ٢٢٩٨٧)، والترمذي (١٣/٥، رقم ٢٦٢١)، وقال: حسن صحيح غريب. والنسائي (٢٣١/١، رقم ٤٦٣)، وابن ماجه (٣٤٢/١، رقم ١٠٧٩)، وابن حبان (٣٠٥/٤، رقم ١٤٥٤)، والحاكم (٤٨/١، رقم ١١)، وقال: صحيح الإسناد. والبيهقي (٣٦٦/٣، رقم ٦٢٩١). وأخرجه أيضا: ابن أبي شيبة (١٦٧/٦، رقم ٣٠٣٩٦)، والدارقطني (٥٢/٢)، والديلمي (٩٢/٣، رقم ٤٢٥٧)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٨٧٩/٢، رقم ٨٩٦)، وعبدالله بن أحمد في السنة (٣٥٨/١، رقم ٧٦٩) قال المناوي (٣٩٥/٤): قال العراقي: حديث صحيح.

(٤) أخرجه الربيع (١٢٥ رقم ٣٠٣).

(٥) أخرجه عبد بن حميد (ص٣١٨، رقم ١٠٤٣)، وعبدالرزاق في مصنفه (١٢٤/٣ رقم ٥٠٠٦).

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة (١٦٧/٦، رقم ٣٠٣٩٤) وأحمد (٣٨٩/٣، رقم ١٥٢٢١).

(٧) أخرجه أحمد من طريق ابن مسعود (٣٨٥/١، رقم ٣٦٤٧)، والبخاري (٢٧/١، رقم ٤٨)، =

عن آبائكم، فمن رغب عن أبيه فهو كفر»[١]، وقولـه: «ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر، ومن ادعى ما ليس له فليس منا، وليتبوأ مقعده من النار، ومن دعا رجلا بالكفر أو قال عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه، ولا يرمي رجل رجلا بالفسق ولا يرميه بالكفر إلا ارتدت عليه، إن لم يكن صاحبه كذلك»[٢].

وهو الذي عول عليه حذاق الشراح للحديث الذي نحن بصدده في شرح قوله ﷺ: «إلا أن تروا كفرا بواحا»، فقد قال الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم: «والمراد بالكفر هنا المعاصي، ومعنى عندكم من الله فيه برهان أي تعلمونه من دين الله تعالى»[٣].

وقد حكاه عنه العلامة السيد محمد رشيد رضا في تفسيره المنار، ثم قال: «ومثله كثير».

= ومسلم (٨١/١، رقم ٦٤)، والترمذي (٣٥٣/٤، رقم ١٩٨٣) وقال: حسن صحيح. والنسائي (١٢٢/٧، رقم ٤١٠٨)، وابن ماجه (٢٧/١، رقم ٦٩). وابن حبان (٢٦٥/١٣، رقم ٥٩٣٩)، والحميدي (٥٨/١، رقم ١٠٤)، ومن طريق أبي هريرة: أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣٥٩/٨). وإسحاق ابن راهويه (٣٧٩/١، رقم ٤٠٠)، وابن ماجه (١٢٩٩/٢، رقم ٣٩٤٠) قال البوصيري (١٦٦/٤): هذا إسناد حسن، ومن طريق سعد: أخرجه ابن ماجه (١٣٠٠/٢، رقم ٣٩٤١)، قال البوصيري (١٦٦/٤): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات. والبزار (١٣/٤، رقم ١١٧٢)، والبخاري في الأدب المفرد (ص١٥٤، رقم ٤٢٩)، ومن طريق عبدالله بن مغفل: أخرجه أيضا: الطبراني في الأوسط (٢٢٣/١، رقم ٧٣٤) قال الهيثمي (٧٣/٨): فيه كثير بن يحيى وهو ضعيف، ومن طريق عمرو بن النعمان: أخرجه الطبراني (٣٩/١٧، رقم ٨٠) قال الهيثمي (٧٣/٨): رجاله رجال الصحيح غير أبي خالد الوالبي وهو ثقة. وابن أبي الدنيا في الصمت (ص٢٧٠، رقم ٥٩٠).

(١) أخرجه البخاري (٢٤٨٥/٦، رقم ٦٣٨٦)، ومسلم (٨٠/١، رقم ٦٢) من طريق أبي هريرة.

(٢) أخرجه أحمد (١٦٦/٥، رقم ٢١٥٠٣)، والبخاري (١٢٩٢/٣، رقم ٣٣١٧)، ومسلم (٧٩/١، رقم ٦١) من طريق أبي ذر.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، (ت: ٦٧٦هـ)، ج١٢، ص٢٢٩، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٩٢، الطبعة الثانية.

ثم قال: «وظاهر الحديث أن منازعة الإمام الحق في إمامته لنزعها منه لا يجب، إلا إذا كفر كفرا ظاهرا، وكذا عماله وولاته، وأما الظلم والمعاصي فيجب إرجاعه عنها، مع بقاء إمامته وطاعته في المعروف دون المنكر، وإلا خلع ونصب غيره. ومن هذا الباب خروج الإمام الحسين سبط الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على إمام الجور والبغي الذي ولي أمر المسلمين بالقوة والمكر، يزيد ابن معاوية خذله الله وخذل من انتصر له من الكرامية والنواصب؛ الذين لا يزالون يستحبون عبادة الملوك الظالمين على مجاهدتهم لإقامة العدل والدين».

وقال بعده: «وقد صار رأي الأمم الغالب في هذا العصر وجوب الخروج على الملوك المستبدين المفسدين»[١].

ويتعزز تفسير الكفر بالمعاصي، بأنه جاء بلفظ: «إلا أن يكون معصية لله بواحا»، قال الحافظ ابن حجر: «ووقع في رواية حيان أبي النضر المذكورة «إلا أن يكون معصية لله بواحا»[٢]، وعند أحمد من طريق عمير بن هانئ عن جنادة «ما لم يأمروك بإثم بواحا»[٣]، وفي رواية إسماعيل بن عبيد عند أحمد والطبراني والحاكم من روايته عن أبيه عن عبادة: «سيلي أموركم من بعدي رجال، يعرفونكم ما تنكرون، وينكرون عليكم ما تعرفون، فلا طاعة لمن عصى الله»[٤]، وعند أبي بكر بن أبي شيبة، من طريق أزهر بن عبد الله، عن

(١) تفسير المنار، ج٦، ص٣٠٤.

(٢) أخرجه ابن حبان (٤٢٨/١٠، رقم ٤٥٦٦).

(٣) أخرجه أحمد (٣٢١/٥ رقم ٢٢٧٨٩).

(٤) أخرجه الحاكم (٤٠١/٣، رقم ٥٥٢٨) وقال: صحيح الإسناد. وأخرجه أيضا: أحمد (٣٢٥/٥، رقم ٢٢٨٢١)، والطبراني في الاوسط (١٩٠/٣، رقم ٢٨٩٤).

عبادة، رفعه «سيكون عليكم أمراء، يأمرونكم بما لا تعرفون، ويفعلون ما تنكرون، فليس لأولئك عليكم طاعة»[١][٢].

وقال أبو العباس القرطبي: «فإن أمر بمعصية فلا تجوز طاعته في تلك المعصية قولا واحدا، ثم إن كانت تلك المعصية كفرا: وجب خلعه على المسلمين كلهم. وكذلك: لو ترك إقامة قاعدة من قواعد الدين، كإقام الصلاة، وصوم رمضان، وإقامة الحدود، ومنع من ذلك. وكذلك لو أباح شرب الخمر، والزنى، ولم يمنع منهما، لا يختلف في وجوب خلعه. فأما لو ابتدع بدعة، ودعا الناس إليها؛ فالجمهور: على أنه يخلع»[٣].

وحمل ابن حزم ما دل من الروايات على منع القيام على الجائر على أنه منسوخ بالروايات الدالة على خلافه، وذلك في قوله: «وأما الأحاديث، فقد صح عن رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده إن استطاع، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان، ليس وراء ذلك من الإيمان شيء»[٤]، وصح عن رسول الله ﷺ: «لا طاعة في معصية، إنما الطاعة في الطاعة وعلى أحدكم السمع والطاعة ما لم يؤمر بمعصية، فإن أمر

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٤٦٩/٧، رقم ٣٧٢٩٦).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، (ت: ٨٥٢هـ)، ج١٣، ص٨، دار المعرفة، بيروت، تحقيق: محب الدين الخطيب.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، ج١٢، ص٨٩، الشاملة.

(٤) أخرجه الطيالسي (ص٢٩٢، رقم ٢١٩٦)، وأحمد (٤٩/٣، رقم ١١٤٧٨)، وعبد بن حميد (ص٢٨٤، رقم ٩٠٦) ومسلم (٦٩/١، رقم ٤٩) وأبو داود (٢٩٦/١، رقم ١١٤٠)، والترمذي (٤٦٩/٤، رقم ٢١٧٢) وقال: حسن صحيح. والنسائي (١١١/٨، رقم ٥٠٠٨)، وابن ماجه (١٣٣٠/٢، رقم ٤٠١٣)، وابن حبان (٥٤١/١، رقم ٣٠٧). وأخرجه أيضا: أبو يعلى (٢٨٩/٢، رقم ١٠٠٩)، والبيهقي (٩٠/١٠، رقم ١٩٩٦٦)، وأبو نعيم في الحلية (٢٨/١٠).

بمعصية فلا سمع ولا طاعة»[1]، وأنه ﷺ قال: «من قتل دون ماله فهو شهيد، والمقتول دون دينه شهيد، والمقتول دون مظلمة شهيد»[2]، وقال ﷺ: «لتأمرن

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ، وإنما بلفظ «لا طاعة في معصية الله إنما الطاعة في المعروف» عند أحمد (٨٢/١، رقم ٦٢٢)، وابن أبي شيبة (٥٤٣/٦، رقم ٣٣٧٠٦)، والبخاري (١٥٧٧/٤، رقم ٤٠٨٥)، ومسلم (١٤٦٩/٣، رقم ١٨٤٠)، وأبو داود (٤٠/٣، رقم ٢٦٢٥)، والنسائي (١٥٩/٧، رقم ٤٢٠٥)، وأبو يعلى (٣٠٩/١، رقم ٣٧٨)، وأبو عوانة (٤٠٥/٤، رقم ٧١١٢)، وابن حبان (٤٢٩/١٠، رقم ٤٥٦٧).

(٢) لم أجده بهذا اللفظ، ولفظ الحديث: «من قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون دمه فهو شهيد ومن قتل دون دينه فهو شهيد ومن قتل دون أهله فهو شهيد» أخرجه عبدالرزاق (١١٤/١٠، رقم ١٨٥٦٥)، وأحمد (١٩٠/١، رقم ١٦٥٢)، وعبد ابن حميد (ص٦٦، رقم ١٠٦)، وأبو داود (٢٤٦/٤، رقم ٤٧٧٢)، والترمذي (٣٠/٤، رقم ١٤٢١) وقال: حسن صحيح. والنسائي (١١٦/٧، رقم ٤٠٩٥)، وأبو يعلى (٢٤٨/٢، رقم ٩٤٩)، والبيهقي (٢٦٦/٣، رقم ٥٨٥٨)، والضياء (٢٩٢/٣، رقم ١٠٩٢) وقال: إسناده حسن.

وأما قوله ﷺ: «من قتل دون ماله فهو شهيد» فقد روي من طرق عديدة، فروي عن أنس عند الضياء (٢٨٤/٦، رقم ٢٢٩٩). ومن طريق علقمة: أخرجه النسائي (١١٦/٧، رقم ٤٠٩٣)، ومن طريق أبي جعفر المرسل عند النسائي (١١٦/٧، رقم ٤٠٩٣)، وذكر أن الموصول خطأ والصواب المرسل، ومن طريق عبدالله بن عمرو: أخرجه عبدالرزاق (١١٣/١٠، رقم ١٨٥٦٢)، وأحمد (٢٢٣/٢، رقم ٧٠٨٤)، والبخاري (٨٧٧/٢، رقم ٢٣٤٨)، ومسلم (١٢٤/١، رقم ١٤١)، والترمذي (٢٩/٤، رقم ١٤١٩). وأخرجه أيضا: النسائي (١١٥/٧، رقم ٤٠٨٧). ومن طريق شداد بن أوس: أخرجه الطبراني (٢٩٢/٧، رقم ٧١٧٠). قال الهيثمي (١٧٦/٤)، (٢٤٥/٦): فيه قزعة بن سويد، وثقه ابن معين في رواية، وابن عدى، وضعفه الجمهور، وبقية رجاله ثقات. ومن طريق أبي هريرة: أخرجه الخطيب (٣٢٩/٢). ومن طريق ابن مسعود: أخرجه الطبراني (٢٠١/١٠، رقم ١٠٤٦٣). قال الهيثمي (٢٤٤/٦): فيه عبيد بن محمد المحارمى وهو ضعيف. ومن طريق عمر بن عبدالعزيز: أخرجه عبدالرزاق (١١٦/١٠، رقم ١٨٥٦٩). ومن طريق السيد الحسين: أخرجه أحمد (٧٨/١، ٥٩٠). ومن طريق علي بن أبي طالب: أخرجه أبو يعلى (١٤٦/١٢ رقم ٦٧٧٥). وأخرجه أيضا: أحمد (٧٨/١، رقم ٥٩٠). ومن طريق سعيد بن زيد: أخرجه الترمذي (٢٨/٤، رقم ١٤١٨)، وابن ماجه (٨٦١/٢، رقم ٢٥٨٠)، وابن حبان (١١١/١١، رقم ٤٧٩٠)، والطبراني (١٥٢/١، رقم ٣٥٢). وأخرجه أيضا: الشافعى =

بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليعمنكم الله بعذاب من عنده»[1]، فكان ظاهر هذه الأخبار معارضا للآخر، فصح أن إحدى هاتين الجملتين ناسخة للأخرى، لا يمكن غير ذلك، فوجب النظر في أيهما هو الناسخ، فوجدنا تلك الأحاديث التي منها النهي عن القتال موافقة لمعهود الأصل، ولما كانت الحال فيه في أول الإسلام بلا شك، وكانت هذه الأحاديث الأخر واردة بشريعة زائدة وهي القتال، هذا ما لا شك فيه، فقد صح نسخ معنى تلك الأحاديث ورفع حكمها، حين نطقه ﷺ بهذه الأخر بلا شك، فمن المحال المحرم أن يؤخذ بالمنسوخ ويترك الناسخ، وأن يؤخذ الشك ويترك اليقين، ومن ادعى أن هذه الأخبار بعد أن كانت هي الناسخة فعادت منسوخة فقد ادعى الباطل، وقفا ما لا علم له به، فقال على الله ما لم يعلم، وهذا لا يحل، ولو كان هذا لما أخلى الله ﷻ هذا الحكم عن دليل وبرهان يبين به رجوع المنسوخ ناسخا لقوله تعالى في القرآن: ﴿تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النحل: ٨٩]، وبرهان آخر وهو أن الله ﷻ قال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ﴾ [الحجرات: ٩]، لم يختلف مسلمان في أن هذه الآية التي فيها فرض قتال الفئة الباغية محكمة غير منسوخة، فصح أنها الحاكمة في تلك الأحاديث، فما كان موافقا لهذه

(٣١٣/١)، وأبو داود (٢٤٦/٤، رقم ٤٧٧٢)، وابن عساكر (٢٢٣/٥). ومن طريق جابر: أخرجه الخطيب (٢١٧/١١). ومن طريق سويد بن مقرن: أخرجه ابن عساكر (٢٨٨/٢١)، ومن طريق ابن الزبير وابن كريز معا: أخرجه ابن عساكر (٢٤٨/٢٩). وأخرجه أيضا: ابن أبي عاصم في الآحاد (٤٠٨/١ رقم ٥٦٧)، وابن قانع (١٢٥/٢)، والطبراني في الأوسط (٩٣/٨، رقم ٨٠٦٩)، والحاكم (٧٤١/٣، رقم ٦٦٩٧). قال الهيثمي (٢٤٥/٦): رواه عنهما الطبراني في الأوسط، ورواه الكبير، عن ابن الزبير وحده. وكذلك رواه البزار، وفيه عبدالله ابن مصعب الزبيري، وهو ضعيف.

(١) أخرجه أحمد (٧/١، رقم ٣٠).

الآية فهو الناسخ الثابت، وما كان مخالفا لها فهو المنسوخ المرفوع». اهـ[1].

قلت: من الواضح بداهة أن الإسلام الحنيف جاء بالشريعة العادلة السمحة، التي تعطي كل أحد حقه وتنزل كل أمر منزله، وتبني حياة الأمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإحقاق الحق وإزهاق الباطل، ولكنه تدرج في تشريع أحكامه من الأدنى إلى الأعلى، فكان الملائم لحال الأمة في بداية أمرها ـ وما كانت عليه من ضعف وقلة، وعدم اجتماع شتاتها، وائتلاف نظامها ـ أن لا تحمل على الأشد في ذلك، حتى يستوسق أمرها ويقوى عضدها ويشتد ساعدها، كما هو واضح في عدم مشروعية القتال لها إلى أن كانت الهجرة، وولدت دولة الإسلام، ووقف على قدميه، فتسنى له أن يتحدى عدوه، ومن ناحية أخرى فإن في حمل الأمة على الصبر بادئ ذي بدء اختبارا لحالها، وترويضا لها على ممارسة أمرها بنفس طويل، حتى يتسنى لها التصدي لما يعنيها والتحدي لمن يناوئها، فتبين بهذا صواب ما ذهب إليه ابن حزم، من كون أدلة المنع سابقة منسوخة وما عداها متأخرا ناسخا، لأنه الملائم لروح الإسلام.

ثم تعرض ابن حزم لدعوى من ادعى أن هذه الحجج، التي عدها ناسخة، إنما هي في اللصوص دون الجبابرة المتسلطين، وتعقبها بقوله:

«وهذا باطل متيقن، لأنه قول بلا برهان، وما يعجز مدع أن يدعي في تلك الأحاديث أنها في قوم دون قوم وفي زمان دون زمان، والدعوى دون برهان لا تصح، وتخصيص النصوص بالدعوى لا يجوز، لأنه قول على الله تعالى بلا علم، وقد جاء عن رسول الله ﷺ أن سائلا سأله عن من طلب ماله بغير حق، فقال ﷺ: «لا تعطه»، قال: فإن قاتلني؟ قال: «قاتله»، قال: فإن

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج٤، ص١٣٤.

قتلته؟ قــال: «إلى النار» قال: فإن قتلني؟ قال: «فأنــت في الجنة»[١] أو كلاما هذا معناه، وصح عنه ﷺ أنه قال: «المســلم أخو المســلم، لا يســلبه، ولا يظلمه»[٢]، وقد صح أنه ﷺ قال في الزكاة: «من سألها على وجهها فليعطها، ومن ســألها على غير وجهها فلا يعطها»[٣] وهذا خبر ثابت رويناه من طريق الثقات، عن أنس بن مالك، عن أبي بكر الصديق، عن رسول الله ﷺ، وهذا يبطل تأويل من تــأول أحاديث القتال عن المال علــى اللصوص، فإنهم لا يطلبون الزكاة، وإنما يطلبها الســلطان، فاقتصر ﷺ معها إذا سألها على غير ما أمر به ﷺ، ولــو اجتمع أهل الحق مــا قاواهم أهل الباطل، نســأل الله المعونة والتوفيق». اهـ[٤].

وقد اشتد إنكار الشوكاني على الذين جمدوا على ظواهر هذه الروايات، فحكموا على خيار المســلمين بالبغــي، لقيامهم على أئمة الجور الفســقة المجرمين، وهم لم يقوموا عليهم إلا إنكارا لجورهم، واســتنكارا لطمسهم معالم الإســلام، وانتهاكهم حرمه، فقال في ذلك: «لا ينبغي لمسلم أن يحط على من خرج من الســلف الصالح مــن العترة وغيرهم علــى أئمة الجور، فإنهم فعلوا ذلك باجتهاد منهم، وهم أتقى لله وأطوع لســنة رســول الله من جماعة ممن جــاء بعدهم مــن أهل العلم، ولقــد أفرط بعــض أهل العلم

(١) لم نجده.

(٢) روي بألفاظ متعددة عند أحمد (٢٧٧/٢، رقم ٧٧١٣) و(٧١/٥، رقم ٢٠٧٠٨)، ومســلم (١٩٨٦/٤، رقم ٢٥٦٤)، والبيهقي (٩٢/٦، رقم ١١٢٧٦).

(٣) أخرجه أحمــد (١١/١، رقم ٧٢)، والبخــاري (٥٢٧/٢، رقم ١٣٨٦)، وأبو داود (٩٦/٢، رقم ١٥٦٧) والنســائي (١٨/٥، رقم ٢٤٤٧)، وابــن الجــارود (٩٤/١، رقم ٣٤٢)، وابن خزيمة (١٤/٤، رقم ٢٢٦١)، وابــن حبــان (٥٧/٨، رقم ٣٢٦٦)، والدارقطني (١١٣/٢، رقم ٢)، والحاكم (٥٤٨/١، رقم ١٤٤١)، والبيهقي (٨٥/٤، رقم ٧٠٣٨).

(٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج٤، ص١٣٤.

كالكرامية ومن وافقهم في الجمود على أحاديث الباب، حتى حكموا بأن الحسين السبط رضي الله عنه وأرضاه باغ على الخمير السكير الهاتك لحرم الشريعة المطهرة، يزيد بن معاوية، لعنهم الله، فيالله، العجب من مقالات تقشعر منها الجلود، ويتصدع من سماعها كل جلمود». اهـ[1].

وأما دعوى الإجماع على وجوب الخضوع والطاعة للظلمة، فقد نقضها ابن حزم، بما يدل أن نهج السلف شاهد على خلافها، فإن مواقفهم وأقوالهم دالة على أن انحراف الإمام عن نهج الحق مسقط لحقه في وجوب الطاعة، قال في (الفصل): «وهذا قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكل من معه من الصحابة، وقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وطلحة والزبير وكل من كان معهم من الصحابة، وقول معاوية وعمرو والنعمان بن بشير، وغيرهم ممن معهم من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، وهو قول عبدالله بن الزبير، ومحمد والحسن بن علي، وبقية الصحابة من المهاجرين والأنصار، والقائمين يوم الحرة رضي الله عن جميعهم أجمعين، وقول كل من قام على الفاسق الحجاج ومن والاه من الصحابة رضي الله عنهم جميعهم كأنس بن مالك، وكل من كان ممن ذكرنا من أفاضل التابعين كعبدالرحمن ابن أبي ليلى، وسعيد بن جبير، وابن البحتري الطائي، وعطاء السلمي الأزدي، والحسن البصري، ومالك بن دينار، ومسلم بن بشار، وأبي الحوراء، والشعبي، وعبدالله بن غالب، وعقبة ابن عبدالغافر، وعقبة بن صهبان، وماهان، والمطرف بن المغيرة بن شعبة، وأبي المعد، وحنظلة ابن عبدالله، وأبي إسحاق الهنائي، وطلق بن حبيب، والمطرف بن عبدالله بن الشخير، والنصر بن أنس، وعطاء بن السائب، وإبراهيم ابن يزيد التيمي، وأبي الحوسا، وجبلة بن زحر، وغيرهم، ثم من

---

(١) نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، (ت: ١٢٥٥هـ)، ج٧، ص٣٦٢، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣م.

بعد هؤلاء من تابعي التابعين، ومن بعدهم، كعبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر، وكعبد الله ابن عمر ومحمد بن عجلان، ومن خرج مع محمد بن عبد الله بن الحسن، وهاشم بن بشر، ومطر ومن خرج مع إبراهيم بن عبد الله، وهو الذي تدل عليه أقوال الفقهاء كأبي حنيفة، والحسن بن حيي، وشريك ومالك والشافعي وداود وأصحابهم، فإن كل من ذكرنا من قديم وحديث إما ناطق بذلك في فتواه، وإما فاعل لذلك بسل سيفه في إنكار ما رآه منكرا». اهـ[١].

وذكر في «مراتب الإجماع» عن ابن مجاهد البصري الطائي أنه ادعى الإجماع على عدم الخروج على أئمة الجور، وتعقبه بقوله:

«فاستعظمت ذلك، ولعمري إنه عظيم أن يكون قد علم أن مخالف الإجماع كافر فيلقي هذا إلى الناس، وقد علم أن أفاضل الصحابة وبقية الناس يوم الحرة خرجوا على يزيد بن معاوية، وأن ابن الزبير ومن اتبعه من خيار المسلمين خرجوا عليه أيضا، رضي الله عن الخارجين عليه، ولعن قتلتهم، وأن الحسن البصري، وأكابر التابعين خرجوا على الحجاج بسيوفهم، أترى هؤلاء كفروا؟!! بل والله من كفَّرهم أحق بالكفر منهم، ولعمري لو كان اختلافا يخفى لعذرناه، ولكنه أمر مشهور، يعرفه أكثر العوام في الأسواق، والمخدَّرات في خدورهن لاشتهاره، فلقد يحق على المرء أن يخطم كلامه وأن يزمه إلا بعد تحقيق وميز، وأن يعلم أن الله تعالى بالمرصاد، وأن كلامه محسوب مكتوب، مسئول عنه يوم القيامة، وعن كل تابع له، إلى آخر من اتبعه عليه وزره». اهـ[٢].

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج٤، ص١٣٤.

(٢) مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري أبو محمد، (ت: ٤٥٦هـ)، ص١٧٨، دار الكتب العلمية، بيروت.

ونقل ما قاله في (الفصل) الأستاذ إبراهيم العسعس أبو الهدى، وأتبعه قوله: «والعجب بعد هذا البيان ممن يلقب القائلين بجواز الخروج بالخوارج!! تشويها لسمعتهم وتنفيرا عنهم، وهو فعل باطل وقياس فاسد، يدل إما على جهل وإما على فساد طوية، فليختر القائل بهذا أحلاهما إليه!! ـ إلى أن قال: ـ أما إن كانوا خوارج لأنهم يرون الخروج على الحاكم المتسلط الظالم فأكرم بها من تهمة، وما الضير في تبني قول الخوارج إن كان قولهم موافقا للدليل، فكيف إذا كان قولهم موافقا لقول جمهور السلف أيضا؟!!»[(١)].

وقد أوضح الحافظ ابن حجر أن السلف كانوا يرون الخروج على الظلمة، وإنما ترك من بعد ذلك خشية أن ينفتح من أبواب الشرور ما هو أنكى وأشد على الأمة، فقد ذكر الخروج وقال: «وهذا مذهب للسلف قديم، لكن استقر الأمر على ترك ذلك، لما رأوه قد أفضى إلى أشد منه، ففي وقعة الحرة ووقعة بن الأشعث وغيرهما عظة لمن تدبر»[(٢)].

وأنت، إن استقريت ما كان عليه الصحابة والتابعون، وما جرى عليه العلماء المحققون المتحررون من العصبية للباطل والتقليد الأعمى، تدرك بلا ريب أن نهجهم كان على خلاف هذا الإجماع المزعوم، الذي يعزز جور الجورة وبطش الظالمين ومكر أكابر المجرمين، بتسويغ إجرامهم في الأمة وحرمان الأمة من انتزاع حقوقها منهم، ناهيك أن الله سبحانه بين أن مكرهم لا ينقلب إلا عليهم، إذ قال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٣]، فأنى يكون شرعه المحكم معززا لإجرامهم! وخاذلا لأهل الصلاح والتقوى عن دفعه ودحره؟!!

(١) الأمة والسلطة، ص٢٨ - ٢٩.

(٢) تهذيب التهذيب، ج٢، ص٢٥٠.

على أن القرآن الكريم واضح في كون فسادهم ـ إن لم يقبض على أيديهم ويردعوا عنه ـ هو الذي يترتب عليه هلاك الأمم ودمار الأمصار، فقد قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦].

كما أنه واضح في عدم استواء البررة والفجرة في الأحكام، فقد قال تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [ص: ٢٨]، وقال: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١]، وقال: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم: ٣٥ ـ ٣٦]، فلا يستوون في أحكام الدنيا، كما أنهم لا يستوون في المآل الأخروي، ولكل مقامه وقدره وحكمه.

٣ ـ رد الروايات ولو صحت أسانيدها عندما تتعارض مع هذه السياسة:

انتهى الأمر ببعض الأئمة إلى رسوخ هذا الفكر في أذهانهم، واستيلائه على ألبابهم، حتى تجرأوا أن يردوا الروايات، ولو ثبتت أسانيدها، عندما تعارض موقفهم هذا من الظلمة، بل إلى شطبها رأسا حتى لا يبقى لها أثر؛ فهذا ابن حنبل اعترض على حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ، أنه قال: «يهلك أمتي هذا الحي من قريش، قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: لو أن الناس اعتزلوهم»[1]، مع أنه ثابت عند الشيخين وغيرهما، بل رواه أحمد نفسه؛ فقد قال ابنه عبد الله قال أبي في مرضه الذي مات فيه: اضرب على هذا الحديث، فإنه خلاف الأحاديث عن النبي ﷺ، يعني قوله: «اسمعوا

(١) أخرجه أحمد (٣٠١/٢، رقم ٧٩٩٢)، والبخاري (١٣١٩/٣، رقم ٣٤٠٩)، ومسلم (٢٢٣٦/٤، رقم ٢٩١٧).

وأطيعوا واصبروا»، ومثله إنكاره حديث ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي، بعثه الله في أمة قبلي، إلا كان له من أمته حواريون، وأصحاب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»[1]؛ وهو عند مسلم وغيره، فقد حكى عنه النووي، أنه قال: «هذا الحديث غير محفوظ، قال: وهذا الكلام لا يشبه كلام بن مسعود، وابن مسعود يقول: «اصبروا حتى تلقوني» هذا، وأنت تدري أن الحديثين لا غبار عليهما، فهما يعتضدان بنصوص القرآن الدالة على وجوب تغيير المنكر، ويتفقان مع روح الإسلام، الذي يأبى أن يقر أتباعه المنكر ممن كان، كما يدل على صحتهما منهج الصحابة رضي الله عنهم، وقيامهم على الظلمة كما فعلوا في الحرة وغيرها، وليس إنكارهما إلا ناشئا من تغلغل الفكر الذي رسخ في حياة الأمة، بتأثير السياسة الأموية عليها، وأنت تدري أن سياسة البشر يجب أن تحاكم إلى القرآن والسُّنَّة، لا أن يحاكما إليها.

ومما هو واضح بداهة، أن هذا منهج اختطه الأمويون في نقد الروايات وردها عندما تعاكس سياستهم، ودليل ذلك ما أخرجه البخاري في صحيحه، قال: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب عن الزهري، قال: كان محمد ابن جبير بن مطعم يحدث: أنه بلغ معاوية ـ وهو عنده في وفد من قريش ـ أن عبدالله بن عمرو بن العاص يحدث أنه سيكون ملك من قحطان، فغضب معاوية، فقام فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: أما بعد؛ فإنه بلغني أن رجالا منكم يتحدثون أحاديث، ليست في كتاب الله تعالى، ولا تؤثر عن

---

(١) أخرجه أحمد (٤٥٨/١، رقم ٤٣٧٩)، ومسلم (٦٩/١، رقم ٥٠). والبيهقي (٩٠/١٠، رقم ١٩٩٦٥)، وابن منده (٣٤٥/١، رقم ١٨٣).

رســـول الله ﷺ؛ فأولئك جهالكم، فإياكم والأماني التـــي تضل أهلها، فإني ســـمعت رســـول الله ﷺ يقول: «إن هذا الأمر في قريش، لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين»؛ فتراه كيف سارع إلى إنكار هذه الرواية، خشية أن تتهيأ النفوس لتقبل سلطة تخرج عن محيطه القبلي، كأنما الإسلام جاء ليعزز ســـلطة طائفة من البشـــر في الأرض، لا ليقيم ســـلطان الله فيها، وتكون الحاكمية له! كما قال ﷻ: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ﴾ [يوسـف: ٤٠]، وهم بهذا يتجاهلون أن الناس سواســـية بين يدي الله تعالى، لا يتفاضلون في موازين الحق إلا بالتقوى، لا بالأنســـاب والأحساب كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]؛ فليس بين الله تعالى وبين أحد من خلقه نســـب، ولا بينه وبينهم ســـبب إلا التقوى، على أن ما ذكره معاوية عن رســـول الله ﷺ ـ إن صح ـ ليس بمجديهم شـــيئا؛ فإن بقاء الأمر فيهم إنما هو مشـــروط بإقامتهم الدين، ولا يخفى على ذي دين وعقل أن بني أمية بدلوا الدين، منذ قيام معاوية على الســـلطة الشـــرعية، وانتزاع الأمر من الخليفة الشـــرعي وجعله ميراثا يتوارثه الفجرة، الذين نبذوا أحكام الله، وطمسوا معالم الحق، واتخذوا عباد الله خولا، وماله دولة بينهم؛ فليت شعري هل إصلاته الســـيوف على رقاب المهاجرين والأنصار، من أجل أن يقبلوا اســـتخلافه يزيد ـ مع علمه بعربدته وفجـــوره ـ؛ هو من إقامة الدين؟ وهل ما فعله يزيد بالمهاجريـــن والأنصار في دار الهجـــرة، وما انتهكه من حرم، هو مـــن إقامة الدين؟ وهل قصف الكعبة المشـــرفة بالمجانيق هو من إقامة الدين؟ وهل ترويع المسلمين، وتهديدهم بقطع رؤوسهم إن قالوا كلمة الحـــق، وأمـــروا بالتقوى، هو مـــن إقامة الديـــن؟ وهل إشـــاعة أن الخليفة لا حســـاب عليه ولا عقاب، مهما ارتكب هو من إقامة الدين؟!.. كلا وإنما كل ذلك هـــدٌّ لصرحه وطمس لمعالمـــه، ولولا أن الله ســـبحانه حفظ كتابه

العزيز ـ كما وعد ـ وآتى ذوي البصائر من العلم بما صح من سنة النبي ﷺ؛ لما بقي للدين من أثر مع هذه الحرب الضروس التي شنت عليه.

٤ ـ إسقاط حرمات دماء الأمة في سبيل تعزيز السلطة وإبقائها.

كان من أثر هذه السياسة الرعناء أن يسترسل الفقهاء في تسويغ سياسة الإبادة لجماهير الأمة، في سبيل تعزيز السلطة ودعمها، مع أنه من المعلوم أن الدماء لها حرمات عظيمة في الإسلام، لا يجوز انتهاكها إلا بمسوغ شرعي، فقد قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٦٩]، وحسبك من هذا قرن قتل النفس بالإشراك بالله تعالى، وإذا كان هذا في مطلق النفس البشرية فما بالك بالنفس المؤمنة؟! لذلك شدد الله الوعيد في قتلها، حيث قال: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، غير أن السياسة التي كانت تقوم على تبرير ما ترتكبه السلطات عززتها فتاوى فقهية، تبيح للقائم أن يقتل ثلث الأمة، من أجل استصلاحها كما يزعمون، وهو مروي عن الإمام مالك، وأنكر ذلك غالب الفقهاء، وسوغه آخرون[١].

---

(١) ينظر: البرهان في أصول الفقه، عبدالملك بن عبدالله بن يوسف الجويني أبو المعالي، (ت: ٤٧٨هـ)، ج٢، ص٧٨٥، الوفاء، المنصورة، مصر، ١٤١٨هـ، الطبعة: الرابعة، تحقيق: د. عبدالعظيم محمود الديب، غياث الأمم والتياث الظلم، عبدالملك بن عبدالله بن يوسف الجويني أبو المعالي، (ت: ٤٧٨هـ)، ص١٦٣، دار الدعوة، الاسكندرية، ١٩٧٩م، =

وليس بخاف على ذي بصيرة خطورة هذه الفتوى، وأثرها البالغ في دعم الباطل وتسويغ الظلم، فإن كل طاغية إنما يزعم أنه لا يهدف إلا إلى الصلاح والإصلاح، ولا يقاوم إلا الفساد والإفساد، ففرعون الطاغية المتكبر في الأرض قال لقومه: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، وقال في موسى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]، فماذا عسى أن يحجز من اعتاد سفك الدماء، وتغلغلت في نفسه شهوة الملك، أن يدعي كلما أباد أمة من الناس، أنه فعل ذلك لمصلحة الدين، ولسلامة من بقي من الأمة؟، فقد وصل الأمر ببعض سلاطين آل عثمان، أن يقتل أحدهم إخوته وأبناءه خشية منافستهم له، ولربما بادر إلى قتلهم وهم في مرحلة من العمر لا تتصور فيها المنافسة،

= الطبعة: الأولى، تحقيق: د. فؤاد عبد المنعم، د. مصطفى حلمي، شرح نهج البلاغة، والمنخول في تعليقات الأصول، محمد بن محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، (ت: ٥٠٥هـ) ص٣٥، وص٥٠٠ دار الفكر، دمشق، ١٤٠٠هـ، الطبعة: الثانية، تحقيق: د. محمد حسن هيتو، والمستصفى في علم الأصول، محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، (ت: ٥٠٥هـ)، ص١٧٧، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، والإبهاج في شرح المنهاج على منهاج الوصول إلى علم الأصول للبيضاوي، علي بن عبد الكافي السبكي، (ت: ٧٥٦هـ)، ج٣، ص١٨١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٤هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: جماعة من العلماء، وتحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك، إبراهيم بن علي بن أحمد بن عبد الواحد بن عبد المنعم الطرسوسي، نجم الدين، (ت: ٧٥٨هـ)، ص٨، وص٨٧، والتحبير شرح التحرير في أصول الفقه، علاء الدين أبي الحسن علي ابن سليمان المرداوي الحنبلي، (ت: ٨٨٥هـ)، ج٧، ص٣٣٩٢، مكتبة الرشد، السعودية، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. عبد الرحمن الجبرين، د. عوض القرني، د. أحمد السراح، والفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم بن سالم النفراوي المالكي، (ت: ١١٢٥هـ)، ج٢، ص١١٨، وج٢، ص١٨١، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ، منح الجليل شرح على مختصر سيد خليل، محمد عليش، (ت: ١٢٩٩هـ)، ج٧، ص٥١٣ - ٥١٤، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

فقد يقتل أحيانا حتى الرضيع، حذر أن يقوم بتحرك ما عندما يبلغ أشده.

وإليك هذا النص الذي يصور هذا الإجرام، الذي كان يرتكب لأجل ما يتصورونه من مصلحة، في الحفاظ على نظام الملك، قال د. رضاء الطيب، الأمين العام للجمعيات الشرعية وعضو هيئة علماء الجمعية:

«كانت هناك عادة وحشية بربرية وهمجية، صاحبت بعض سلاطين آل عثمان، في عصر التخلف والتأخر، وتم فيها سفك دماءٍ بريئة كثيرة، بلا ذنب ولا جريرة حيث كان السلطان الجديد حين يرتقي العرش يقوم بقتل إخوته الذكور حتى لا ينافسوه على الحكم، وكمثال على ذلك، فإن السلطان السابع عشر، (مراد الرابع) قتل أخاه وولي عهده بايزيد، وكان في الثالثة والعشرين من عمره، ثم قتل أخاه الثاني سليمان، ثم الثالث قاسم، ولم يبق من إخوته الذكور سوى الأخ الرابع إبراهيم، الذي أصبح ولياً للعهد بعد قتل إخوته الثلاثة، وكانت الخلافة في البيت العثماني تنتقل بعد وفاة الخليفة إلى أكبر إخوته، وليس أكبر أبنائه، فإن مات إخوته جميعاً أو قُتِلوا انتقلت الخلافة إلى أكبر أبنائه، وشاءت إرادة الله أنه كلما أنجب السلطان (مراد الرابع)، ابناً تُوفي بعد فترة، فلم يعش له أي من أولاده ليكون ولياً للعهد، وقد بلغت الحماقة به أنه عزم على قتل أخيه الرابع إبراهيم، لكن والدته السلطانة نصحته بتأجيل ذلك، حتى يُرْزَق بابن يجعله ولياً للعهد، ولكن ذلك لم يتحقق وهكذا نجا إبراهيم من القتل، وأصبح الوحيد من آل عثمان الذي بقي على قيد الحياة، وتولى الخلافة بعد وفاة أخيه السلطان (مراد الرابع)، ولو كان قد قُدِّر له أن يُقتل لكانت ذرية عثمان قد انقرضت، وسلسلة رجالهم قد انقطعت، ودولتهم قد اندثرت»[١].

---

(١) دولة الخلافة العثمانية (عصر الفاتحين، السقوط والانهيار، الإسلاميون الجدد)، رضا الطيب، ص٥٠، المكتبة الشاملة.

ولربما كان تأثير الجارية المحظية عند السـلطان، هو الذي يجعله يلبي رغبتها في قتـل أولاده من غيرها، ليصفو الأمر لولدهـا، كما كان ذلك في عهد السـلطان سـليمان القانوني، الذي قتل ولده مصطفى الذي كان برا به إرضاء لمحظيته، حتى يؤول الأمر من بعده إلى ابنها سليم، ولم تكتف بقتل مصطفى، وإنما أرسـلت إلـى طفله الرضيع مـن يقتله في قـراره.[١] وكان للسلطان محمد الثالث تسعة عشر أخا، أمر بخنقهم جميعا يوم تولى السلطة بعد وفاة أبيه، قبل دفن السلطان السابق فدفنوا معه[٢].

وكان هذا كله، يجري على مسـمع ومرأى من الفقهاء وذوي المناصب الدينية، ولم يكونوا يحركون ساكنا، أو يقفون في وجه هذا الفساد، كل ذلك بتأثير مبدأ الطاعـة المطلقة للجائر كالعادل وللمفسـد كالمصلح، وقد نص على هذا أحد المؤرخين للدولة العثمانية، فقـال: «وكان العلماء والأدباء لا يهتمون إلا بالدين وحده هذا على الرغم من بعض التصرفات التي كان يقوم بها بعض الخلفاء والتي تخالف الإسلام صراحة مثل قتل الأقرباء خوفا من المنازعة على الحكم أو للتفرد بالسلطة أو إباحة شرب الخمور»[٣].

بل ذكرتُ هذا لبعض الشباب المثقفين المهتمين بالدراسات الإسلامية في تركيا، وأضاف إلى ذلك، أن هذا كان يجري بمساندة من الفقهاء، الذين كانت فتاواهم تسوغ هذه التصرفات من سلاطين آل عثمان، وذكر أن معظم هؤلاء الضحايا كانوا يقتلون في أعمار الزهور، وكانوا يتوسلون إلى قاتليهم أن يدعوهم يعيشـون كسـائر عامة الناس، من غير أن تكون لهم سـلطة أو امتيازات خاصـة، ولكن ما كانوا يجـدون من يصغي إلـى طلبهم، فكانوا

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية، فريد بك المحامي، ص٢٤٥-٢٤٦، المكتبة الشاملة.

(٢) تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص٢٦٧.

(٣) انهيار الدولة العثمانية، ص١٣٩، المكتبة الشاملة.

يبادون في زهرة الشباب، كما تأتي النار على الروض النضير فتذره رمادا تذروه الرياح.

وتحول هذا الإجرام إلى قانون رسمي ونظام ثابت في الدولة، حتى جاء من عطله، ورغم تعطيله، فقد كانت تمارس في حق هؤلاء سياسة وقائية، تتمثل في عزلهم عن الناس، في بيوت أو أقفاص خاصة، تمنعهم من الاتصال بالعالم الخارجي(١).

فيا ترى، هل كان سكوت الفقهاء عن هذا المنكر الفظيع، وإقرارهم لهذا الجور الفاحش، إلا أثرا من آثار ذلك الفكر، الذي استقر في نفوس الأمة، منذ نكبت بحكم الجور، وتسلط الظلم عليهم؟.

٥ ـ إباحة المحرمات لذوي السلطة.

من المعلوم في الدين بالضرورة، أن الله تعالى حرم على عباده محارم، وأباح لهم ما أراد، لتنضبط حياة الناس وفق شرعه، وليكون في ذلك اختبار لإيمانهم، فإن الانقياد لحكم الله في أمره ونهيه يجسد صدق الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، ولم يجعل لأحد من خلقه سلطة تشريعية، تخوله أن يحلل أو يحرم من تلقاء نفسه، ولذلك شدد في التحليل والتحريم كما يمليه هوى المحللين أو المحرمين، فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

---

(١) تطور الفكر السياسي السني نحو خلافة ديمقراطية، أحمد الكاتب، ص٢٠٩، مؤسسة الانتشار العربية.

وعدَّ تحريم ما أحل من صفات المشركين وديدنهم، كما في قوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥]، وتوعد أولئك شر الوعيد ووصفهم بأسوأ الأوصاف في قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

وإذا كان هذا في تحريم الحلال، فما بالك بتحليل الحرام؟! فإن محارم الله تعالى هي حماه، الذي يجب الحذر من الحوم حوله، كما قال النبي ﷺ: «الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهات، لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لعرضه ودينه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله في أرضه محارمه»[1].

وقد يكون التحريم خاصا بجنس من البشر، لما في ذلك من الحكمة الربانية في إنزال كل شيء منزله وإعطاء كل أمر حكمه، وذلك كتحريم

(١) أخرجه أحمد (٢٧٠/٤، رقم ١٨٣٩٨)، والبخاري (٢٨/١، رقم ٥٢)، ومسلم (١٢١٩/٣، رقم ١٥٩٩)، وأبو داود (٢٤٣/٣، رقم ٣٣٢٩، رقم ٣٣٣٠)، والترمذي (٥١١/٣، رقم ١٢٠٥) وقال: حسن صحيح. والنسائي (٢٤١/٧، رقم ٤٤٥٣)، وابن ماجه (١٣١٨/٢، رقم ٣٩٨٤)، وأخرجه أيضا: الدارمي (٣١٩/٢، رقم ٢٥٣١)، والبيهقي (٢٦٤/٥، رقم ١٠١٨٠).

الذهب والحرير على الرجال دون النساء، لأجل ما طبع عليه الله تعالى الرجال من الخشونة والقوة المنافيتين للبس الحرير والتحلي بالذهب، وقد نص على هذا قوله ﷺ: «أحل الذهب والحرير لإناث أمتي، وحرم على ذكورها»[(١)]، وقوله: «إن هذين حرام على ذكور أمتي حل لإناثهم»[(٢)].

وقد شدد النبي ﷺ في التختم بالذهب، فعن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ رأى خاتما من ذهب في يد رجل فنزعه فطرحه، وقال: «عمد أحدكم إلى جمرة من نار، فيجعلها في يده»[(٣)]، وعن علي ابن أبي طالب قال: «نهاني رسول الله ﷺ عن لبس القسي، وعن لبس المعصفر، وعن خاتم الذهب، وعن قراءة القرآن في الركوع والسجود»[(٤)].

غير أن الفقهاء، الذين كانوا يسيرون في ركب السلطات الجائرة، أبوا إلا أن يتدخلوا في هذا، فيحلوا لأولي السلطة التختم بالذهب ولبس الحرير[(٥)].

---

(١) أخرجه أحمد (٣٩٢/٤، رقم ١٩٥٢١)، والنسائي (١٦١/٨، رقم ٥١٤٨)، والبيهقي (٤٢٥/٢، رقم ٤٠٢٠) والطيالسي (ص٦٩، رقم ٥٠٦)، وعبدالرزاق عن معمر في الجامع (٦٨/١١، رقم ١٩٩٣٠)، وابن شاهين في ناسخ الحديث ومنسوخه (٤٤٦/١، رقم ٥٩٠).

(٢) أخرجه أحمد (٩٦/١، رقم ٧٥٠)، وأبو داود (٥٠/٤، رقم ٤٠٥٧)، والنسائي (١٦٠/٨، رقم ٥١٤٤)، وابن ماجه (١١٨٩/٢، رقم ٣٥٩٥)، والبيهقي (٤٢٥/٢، رقم ٤٠١٩). وأخرجه أيضا: ابن أبي شيبة (١٥٢/٥، رقم ٢٤٦٥٩)، والبزار (١٠٢/٣، رقم ٨٨٦)، وأبو يعلى (٢٣٥/١، رقم ٢٧٢)، وابن حبان (٢٤٩/١٢، رقم ٥٤٣٤).

(٣) أخرجه مسلم (١٦٥٥/٣، رقم ٢٠٩٠)، وابن حبان (١٩٢/١، رقم ١٥)، والبيهقي (٤٢٤/٢، رقم ٤٠١٤).

(٤) أخرجه الربيع ص٩٨ رقم ٢٣١.

(٥) ينظر: الاعتصام، أبو إسحاق الشاطبي، (ت: ٧٩٠هـ)، ج٢، ص٨٢، المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر. والفروق أو أنوار البروق في أنواء الفروق (مع الهوامش)، أبو العباس أحمد بن إدريس الصنهاجي القرافي، (ت: ٦٨٤هـ)، ج٤، ص٣٥٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، الطبعة: الأولى، تحقيق: خليل المنصور، والسلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي، محمد سعيد رمضان البوطي، ص٤٧، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان.

وكان تعليل هذه الإباحة ـ كما ذكر الدكتور البوطي ـ أن المسلمين فتحوا أعينهم على ما يمتاز به حكام العالم وملوكه، من مظاهر الهيبة والأبهة، في الملبس والمسكن والحياطة والحجابة، فاتجهت الأنظار إلى الأخذ بذلك كله أو شيء منه، واقتنع أكثر الناس، وفي مقدمتهم العلماء والباحثون، بأن الخليفة لم يعد يصلحه ـ للنهوض بواجباته تجاه الأمة ـ إلا أن يعيش وسط هالة من الهيبة والأبهة والحماية، وإنما يكون ذلك من خلال المظهر الذي يبدو فيه، والمسكن الذي يستقبل فيه شتى فئات الناس، والحماية التي يجب أن تحيط به[1].

ومعنى ذلك، أن أولئك الحكام حرصوا على أن ينقلوا إلى حياتهم ما وجدوه أو عرفوا عنه في حياة الأكاسرة والقياصرة، من البذخ والإسراف، والتلاعب بأموال الأمة، وعدم الاكتراث بما تكون عليه العامة من البؤس والفقر والحرمان، فلم يكونوا يهتمون إلا بشهواتهم ولا يلتفتون إلا إلى ملذاتهم، وقد سايرهم الفقهاء الرسميون، فجادوا عليهم بالفتاوى السخية التي تبرر ذلك، ولا غرو؛ فإن هؤلاء هم الذين سخوا عليهم، بالتشجيع على ارتكاب المظالم والانغماس في المحارم، مسولين لهم أن لهم عند الله وضعا خاصا بسبب تسلطهم في الأرض، فلا حساب عليهم ولا عقاب!!! كما شهد بذلك الأربعون ليزيد بن عبدالملك، وبهذا تدرك ـ أخي القارئ الكريم ـ أن هذه الفتاوى إنما بدأت في هذه الأمة في مرحلة مبكرة من حياتها، عندما ابتز بنو أمية الحكم وساسوه حسب هواهم، فأباحوا لأنفسهم ما لم يحله الله تعالى لنبي مرسل ولا لصدّيقٍ رضي.

ولم تكن هذه الفتاوى الشاذة إلا تصديقا لقول النبي ﷺ: «لتتبعن سنن الذين من قبلكم، شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضب

(١) السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي، ص٤٦.

لســلكتموه، قالوا يا رســول الله: اليهــود والنصارى؟، قال: فمــن»[١]، وعن عدي بن حاتم، قال: أتيت النبي ﷺ، وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: «يا عدي اطرح عنك هذا الوثن». وســمعته يقرأ في ســورة براءة ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١]، قال: «أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شــيئا اســتحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه»[٢].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الترمذي (١١/٣٥٤ رقم ٣٣٧٨).

القسم الأول:

مظاهر الاستبداد

قِيَامُ الأُمَّة على بني أُمَيَّة «ثورة طالب الحقّ وأبي حمزة نمُوذجًا»:

لما فشا في الأمة الطغيان الأموي، وحاد حكامهم عن شرعة الله، وبنوا سلطتهم على الهوى، واتخذوا عباد الله خولا وماله دولا، لم تتلكأ الأمة في القيام عليهم، ومحاولة استرداد الحق منهم، وانتزاع السلطة من أيديهم، وردهم إلى حكم الله كارهين، فكل من أمكنه القيام عليهم هب إليه، مستجيبا لداعي الله، الذي يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، الذي قال في كتابه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [النساء: ٥٨]، فتجرد للقيام بذلك من سنحت له الفرصة، من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان، وكان ممن قام عليهم الحسين بن علي، سبط رسول الله ﷺ، وقد انتهت به محاولته إلى الاستشهاد، في وقعة كربلاء الشهيرة، وقد اجتمع حوله لفيف من المسلمين.

وسار على نهجه من بعده، حفيده زيد بن علي، الذي هب للجهاد، في عصر هشام بن عبد الملك الأحول، وانتهى به الأمر إلى مصير جده.

كما هب أهل المدينة المنورة، بمن كان فيهم من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، إلى تحدي كبريائهم، ودفع بطشهم وجورهم

بالسيف، عندما قاموا في وجه الطاغية يزيد ابن معاوية، وقائده العنيد مسرف بن عقبة، فكانت وقعة الحرة المشهورة، وثار عليهم ابن الزبير بمن التف حوله من الصحابة والتابعين، وتمكن حقبة من الدهر من تحرير بعض البلاد، التي كانت واقعة تحت حكمهم، منهم ومن بينها الحرم الشريف ـ صانه الله وحماه ـ إلى أن انتهى حكمه بالإجهاز عليه في عهد عبدالملك بن مروان، بقيادة عامله الطاغية الحجاج بن يوسف، ولم يبال الطغاة في هتك حرمة الحرم الشريف، وقصف بيت الله الحرام بالمجانيق، لتحقيق مناهم، من بسط سلطتهم والانتقام من خصمهم.

وقام عليهم جماعة من المسلمين، بقيادة عبدالرحمن بن الأشعث، وكان فيهم سعيد بن جبير من أئمة التابعين وخيارهم، وعرفت هذه الثورة بثورة التوَّابين، إلى أن تمكن الطغاة من إخمادها وإبادة رجالها، بالأسلوب الذي عرفوا به من البطش الشديد والمبالغة في الانتقام.

وما من ريب، أن هذه الحركات جميعا كانت تهدف إلى مقاومة ظلمهم ودفع بطشهم وإخماد فسادهم، ولكن نظرا إلى أن معظم هذه الثورات أجهز عليها قبل أن تصل إلى غاياتها، من إقامة العدل وبسط المعروف وإزهاق الباطل، ما عدا حركة ابن الزبير، التي تمكنت من الحكم برهة من الزمن، رأيت أن أعرض هنا الثورة التي قادها الإمام عبدالله بن يحيى الكندي، وقائده أبو حمزة المختار ابن عوف الشاري، للاعتبارات الآتية:

١ ـ أن هذه الثورة تمكنت من دحر قوى الباطل ـ ولو لفترة قصيرة من الزمن، وأماكن محدودة من الأرض ـ، فتيسر لها أن تجسد النموذج الحي للحكم الإسلامي النظيف، حيث يظهر لكل ذي عينين البون الشاسع بالمقارنة بين ممارساتها العادلة وممارسات عدوها الجائرة.

٢ ـ أنها تنتمي إلى مدرسة، تمكنت في عهود لاحقة أن تحقق هذه الغاية المنشودة في بقاع من بلاد الإسلام، فكانت صورة حية للحكم العادل، والنموذج الأمثل لإحياء الخلافة الراشدة، ولو في بقاع محدودة.

٣ ـ كثرة لغط الحاقدين في حقها، وحق قادتها ورجالها، وبروز شهادات صادقة من قوم منصفين، فندوا ما قاله الحاقدون وما حبكه المغرضون.

ومن المعلوم، أن قيام عمر بن عبدالعزيز بنقض ما شاده بنو أمية من الباطل، وعمارة ما هدموه من الحق، يعد ثورة عليهم وعلى حكمهم، وإن كانت سلمية، لم يصل إلى مبتغاه فيها بإشهار سلاح أو تكوين جيش، وإنما سيق إليه الخير بعناية الله تعالى.

المهد الذي ترعرعت فيه ثورة طالب الحق.

جاءت ثورة طالب الحق ثمرة من ثمار الممارسات الدعوية، التي تولاها قادة الدعوة في مرحلة الكتمان، بعد صبر ومصابرة وعنت ومعاناة، فقد أنشأ الإمام أبو الشعثاء جابر بن زيد رحمه الله تعالى مدرسة خاصة، تعنى بإعداد رجال يحملون ـ مع الفقه في الدين، والبصيرة في العمل، وجهاد النفس ـ هموم الأمة ومحاولة إصلاح ما فسد من أمرها، وبما أن السلطة الظالمة يزعجها هذا الاتجاه، فقد كانت هذه الحركة مواراة بستار الكتمان، خشية أن تمتد إليها يد العدو فتئدها.

ومع تكتم الإمام أبي الشعثاء على أمره، لم يسلم من مضايقة الطغاة، وكان نفيه من البصرة إلى عُمان، حلقة في سلسلة المضايقات التي لقيها، ولا يخفى على مطلع أن جابرا رحمه الله كرع من معين العلم الصافي، من أصحاب رسول الله ﷺ الذين أدركهم بالحجاز وبالعراق، فأخذ الدين من

معدنه، وتلقى الفقه من حملته الأمناء، الذين لم تستهوهم مطامع الدنيا ولم يرق لهم بريقها الخلاب، فكانت بسبب هذا مدرسته التي أنشأها بعيدة عن التأثر بالسياسة السائدة، التي انحرفت بأتباعها، فكانوا أبواقا لدعايات الباطل وتبرير الظلم وتسويغ الفساد، كما سبق في شأن الأربعين، الذين شهدوا أن الخليفة لا حساب عليه ولا عقاب.

وتميزت هذه المدرسة، بأنها كانت خطاها نتيجة دراسة عميقة وفهم واع وتخطيط سليم، إذ لم تكن اندفاعا بتأثير عاطفة ملتهبة وحماس متأجج، كما كانت حركات الخوارج، التي أجهز عليها قبل أن تحقق رجاء وتصل إلى غاية، وإنما كان من طبيعتها طول النفس وقوة الصبر، ولذلك لم يندفع الإمام أبو الشعثاء، وراء رغبة النفس في الثورة على الباطل ومحاولة استئصال شأفته، قبل أن يعد لذلك عدته.

ولهذا عني بإعداد الرجال، الذين يجمعون بين عمق التصور وإحكام الخطى، وبين الهمم العالية والصبر الشديد، ويخلصون لله تعالى أقوالهم وأعمالهم، وينذرون له حياتهم، ويسخرون في نصرة دينه طاقاتهم، فأعد لفيفا من الرجال، الذين يعد كل منهم أمة في رجل ورجلا في أمة، وقد لقي الله تعالى قبل أن تتحقق أمنيته في الإثئار للحق والانتصار من الباطل، وإنما سلم القيادة من بعده لتلميذه العملاق، القائد المحنك أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي بالولاء، الذي قاد السفينة بحنكة الربان الماهر وخبرة الرائد الحصيف، وكان عزمه وإخلاصه لله تعالى وابتغاؤه ما عنده قوته وعتاده، وصبره على الشدائد والمكاره درعه الواقي وحصنه الحصين.

فقد ابتلاه الله تعالى فصبر وشكر، واجتاز مراحل البلاء بنجاح وتوفيق، ومن ذلك تسلط الحجاج عليه، وإلقاؤه في غياهب السجون مع أخيه وحميمه ضمام بن السائب، وإهمالهما حتى كانا يجزان شاربهما بأسنانهما،

وقد تفنن الطاغية في إيذائهما، حتى استشار طبيبا مجوسيا فيما يطعمهما من طعام يعذبهما، فأشار عليه أن يطعمهما الزيت والكراث، وربما ضاق ضمام ذرعا من ذلك، فيقول له أبو عبيدة: على من تضيق؟[١].

وذكر البدر الشماخي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى أن رجلا من المسلمين يسمى أبا سالم سجن معهما، ذكر أنهم يوما قالوا لرجل ممن يدخل عليهم: «اشو لنا دجاجة، وآتنا بأربعة أرغفة، وصانع عليها صاحب السجن، فلما أوصلها واقتسمناها، فإذا بجلبة نحو البيت الذي نحن فيه، فخفنا أن يكون فطن بنا، فرمينا بالجميع في الكنيف، فإذا لم يفطن بنا، فكان طرحنا لها أشد علينا مما مر للمعاينة»[٢].

وهي قصة تنبئ عن معاناتهم في السجن، حيث كانوا يحرمون من الطعام المألوف ويطعمون ما لم يؤلف، وتشدد عليهم الرقابة، غير أن أبا عبيدة وضماما صبرا على هذا كله، حتى أتاهما الفرج بهلاك الحجاج، ومع شدة الرقابة التي فرضت عليهما بعد إطلاق سراحهما أبى أبو عبيدة إلا أن يقوم بدوره الريادي في إبلاغ رسالة الحق وتبصير الناس بالإسلام، وإعداد جيل من المؤمنين يحمل الأمانة إلى آفاق الأرض.

وقد عمد إلى سرداب في الأرض، فجعله مدرسة له، يربي فيها رجالا يعرفون كيف يحملون الأمانة ويؤدونها، وكيف يصبرون على المكاره، ويضحون بالنفس والنفيس في سبيل الحق، وكان يظهر للعامة أنه وتلامذته يعتنون في ذلك السرداب بصنع القفاف ـ ولذلك اشتهر بالقفاف ـ، وقد وضع على باب السرداب سلسلة تتحرك بالضغط على ما حولها في المرور،

(١) ينظر: كتاب السير، لأحمد بن سعيد الشماخي، ج١، ص٨١، سلطنة عُمان وزارة التراث القومي والثقافة، ١٤٠٧هـ، تحقيق أحمد بن سعود السيابي.

(٢) ينظر: المرجع السابق، ص٨٩.

فإذا تحركت عرفوا أن أحدا قادم عليهم، فيمسكون عن الدرس، ويقبلون على صنع القفاف، حتى يطمئنوا إلى الداخل، فيعودوا إلى الدرس[١].

وبهذه الطريقة ربى قادة وهيأ رادة، كانوا نجوما في الأرض هادية إلى الحق وإلى الصراط المستقيم، فكان من تلامذته حملة العلم إلى المغرب، وهم: أبو الخطاب المعافري اليمني، وعبدالرحمن بن رستم، وإسماعيل بن درار الغدامسي، وأبو داود القبلي النفزاوي، وعاصم السدراتي، وقد عقدت إمامة الظهور للأولين منهم ببلاد المغرب، فكانا مثالاً للعدل والاستقامة والبذل والتضحية، وقد سبقهم إلى المغرب من تلامذته وجنده، سلمة بن سعد، الذي كان الرائد الأول لهذه الدعوة ببلاد المغرب، فقد خرج من البصرة في العام الرابع من القرن الثاني الهجري، بعدما وصلت الأنباء إلى أبي عبيدة، بما كان يعانيه المغرب الإسلامي، من ظلم ولاة بني أمية وبطشهم وانتهاكهم الحرم، فجرد تلميذه هذا لمهمة الدعوة هنالك، فخرج إليها وهو يقول عندما كان يودع قائده وشيخه: وددت لو ظهر هذا الأمر، ولو يوما واحدا بالمغرب، ثم لا أبالي أن تضرب عنقي.

ولم تكن قولته هذه شقشقة جرت على لسانه، وإنما كانت عقيدة راسخة في قرارة نفسه وعمق وجدانه، وقد صدقها بفعله، إذ شق بعزمته من أرض المغرب العزيزة جبالها الوعرة الشاهقة، وطوى وهادها الفسيحة المترامية، فبث الدعوة بين قبائل البربر من سرت إلى تلمسان، مع أنه أتى قوما غرباء من غير جنسه، ولا يتحدثون بلسانه، ولا يتطبعون بطبعه، فاستطاع بإخلاصه وهمته وحنكته أن يتغلغل في أعماق نفوسهم ويصل إلى سويداء قلوبهم،

---

(١) ينظر: المرجع السابق، ص١٠١، الإباضية في موكب التاريخ الحلقة الأولى (نشأة المذهب الإباضي)، علي يحيى معمر، ص١٢٠، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عُمان، السيب، الطبعة الثالثة، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

فكان لدعوته فيهم أثر الشمس في الفضاء، والماء في الثرى، حتى تحقق ما كان يصبو إليه من خير[١].

وكان من تلامذة أبـــي عبيدة رادة الدعوة في اليمن وعُمان وخراســان، وقد عقدت الإمامة لاثنين منهم بأرض المشــرق، همـا طالب الحق الذي بويع باليمن، والجلندى بن مســعود الذي بويع بعُمــان، وقد تربى كل من طالب الحق اليمني المنبت وأبي حمزة الشاري العُماني المولد والمنشأ في مدرسة أبي عبيدة، فتلقيا منه عقيدة الإيمان والفقه في الدين ومناهج الدعوة، فكانت هموم دعوة الحق وإحيائه هي نبض أفئدتهما ومطمح أبصارهما.

ومن خلال هذا، يتبين للقارئ الكريم أن طالب الحق وأبا حمزة غصنان نبتا في دوحة واحدة، سرت فيهما جميعا خصائصها، فكانت طبيعتهما واحدة ومنزعهمـا واحــدا، إذ باعا جميعا دنياهمــا بأخراهما، فآثرا شــظف العيش والجهاد في ســبيل الله على الدعة وراحة الدنيا، وقد امتلك ألبابهما حب الله تعالى، والرغبة في التقرب إليه ببــذل النفس والنفيس في نصرة دينه، وإقامة شــرعه وإحياء تعاليم كتابــه ونهج رســوله ﷺ، وإغاثــة الملهوفين ونصرة المظلومين من عباده وتحدي كبرياء أعدائه، وإعزاز ما أذلوه من الحق وإذلال ما أعزوه من الباطل، وقد خبر كل منهما صاحبه بنفسه، ولم يكن أمرهما كما تصور بعض المراجع أنهما التقيا لقاء عفويا، فاتفقا على الثورة.

أسباب قيام طالب الحق:

لا يخفى على من درس ســيرة بني أمية، واطلع على مــا ذكرناه ـ من نقضهم عهد الله، وحربهــم لدينه، وإهانتهم لعباده، واســتعلائهم في أرضه،

(١) ينظر: المرجع السابق، ص١٤٥ - ١٤٦

وإفسادهم فيها ـ أن أعمالهم جميعا كانت مبررة للقيام عليهم، كيف وقد أمر الله بالقيام بالقسط، وفرض على الأمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد سبق فيما نقلناه من كلام مفكري الأمة أن عهد بني أمية لم يكن عهدا إسلاميا، فقد وصفه الإمام المودودي بأنه عهد جاهلي ـ كما تقدم ـ، وقال فيه العلامة الندوي بأنه «لا ينبغي أن يبقى يوما واحدا، فضلا عن أن يبقى أعواما، وأن بقاءه إنما كان على غفلة من الأمة أو على الرغم منها»، وقد كان ذلك في ضعف الإسلام وقوة الجاهلية كما سبق ذلك عنه، وتقدم قول الشهيد سيد قطب: «ولولا قوة كامنة في طبيعة هذا الدين، وفيض عارم في طاقته الروحية، لكانت أيام أُميَّة كفيلة بتغيير مجراه الأصيل».

في هذه الظروف الكالحة المكفهرة، التي كشرت فيها الجاهلية عن أنيابها العصل لقضم ما تبقى من الإسلام، كانت الحركة التصحيحية التي قادها طالب الحق، وقد اتفقت المراجع على أنه رأى باليمن ما لا يطاق، وهاك ما قاله البلاذري:

«رأى باليمن جوراً وعسفاً شديداً وسيرة في الناس قبيحة، فقال لأصحابه: لا يحل لنا المقام على ما نرى، ولا يسعنا احتماله والصبر عليه، فكتب إلى أبي عبيدة مسلم كودين مولى بني تميم، وإلى غيره من إباضية البصرة، يشاورهم في الخروج، فكتبوا إليه: إن استطعت ألا تقيم يوماً واحداً فافعل، فإن المبادرة بالعمل الصالح أفضل، فإنك لا تدري متى يبلغ أجلك، ولله خيرة من عباده يبتعثهم إذا شاء لنصر دينه، ويخصهم بالشهادة إكراماً لهم بها»(١).

ويقول الأستاذ مهدي طالب هاشم: «إن خضوع اليمن وحضرموت هذه

(١) أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، ج٣، ص٢٣٦.

الحقبة الطويلة، يرافقه الظلم والتعسف، وروح الاستعلاء البغيض المبني على أساس التعصب القبلي، المخالف لروح الشريعة الإسلامية، التي جعلت الإخاء أساسا للروابط الاجتماعية في المجتمع الإسلامي، والتقوى أساس التفاضل فيه؛ مكنت الدعوة الأباضية من قيادة الحركة السياسية في اليمن، لتصحيح الانحرافات العديدة، التي مارسها الخلفاء الأمويون وولاتهم في اليمن»[١].

وأكد هذا الدكتور عوض خليفات بقوله: «تَزَعَّم الدعوة الإباضية في حضرموت طالب الحق السالف الذكر، الذي يبدو أنه كان يتمتع بمؤازرة قبيلته كندة، وأصبحت السند القوي للدعوة الأباضية في تلك المنطقة، وقد ساعدت الأحوال السيئة ـ التي كان يعاني منها السكان ـ المهمة التي كان يقوم بها طالب الحق وأعوانه من أهل دعوته، وتؤكد المصادر السنية والأباضية والشيعية على رغبة الناس في التخلص من عسف الولاة الثقفيين، الذين حكموا البلاد بيد من حديد، وبروح قبلية حاقدة مخالفة للمبادئ الإسلامية»[٢].

وقد جسد طالب الحق ما يعتمل بين حنايا قلبه من مشاعر الحزن والأسى، لهول ما يلقاه المستضعفون من عسف الظلمة وجورهم، بقوله:

كوى بالأسى قلبي وأبكى نواظري ... بكاء اليتامى وابتسام الجبابر

وكلفني حمل القواضب والقنا ... وسفك الدما إسراف أهل الكبائر

(١) الحركة الإباضية في المشرق العربي، مهدي طالب هاشم، ص٩٣ - ٩٤، دار الحكمة، لندن.

(٢) نشأة الحركة الأباضية، عوض خليفات، ص١٧٣، دار الحكمة لندن، ط١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

كما بين أبو حمزة الشــاري، في إحدى خطبه التي ألقاهــا في المدينة المنورة، ما دعاهم إلى هذه الحركة، حيث قال: «أتعلمون يا أهل المدينة، أنا لم نخرج من ديارنا وأموالنا، أشــرا ولا بطرا ولا عبثــا ولا لهوا، ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيــه ولا ثأر قديم نيل منا، ولكنا لمــا رأينا مصابيح الحق قد عطلت، وعنف القائل بالحق، وقتل القائم بالقســط، ضاقت علينا الأرض بما رحبت، وســمعنا داعيا يدعو إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن، فأجبنــا داعــي الله ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأحقاف: ٣٢]»[١].

وتحكي المراجــع الأباضية أن طالب الحق كتــب إلى أبي عبيدة رَحِمَهُ اللَّهُ حاكيا له ما وجده باليمن ـ بعد عودته إليها ـ من العســف والجور مستشيرا في القيام، فأمره بالقيام وكتب إليه: (إنا بعثنا إليك برجل إنجيله في صدره)، وهو يعني بهذا أبا حمزة الشاري، وأرسل إليه ببلج بن عقبة الأزدي، وكتب إليه: (إنا بعثنا لك اثني عشــر رجلا وألفا) ويعني بالألــف بلج بن عقبة[٢] الذي كان يعدُّ بألف بطل، وقد قيل إن عمره كان ثمانية عشر عاما، وخلد له هذا الوصف في الأدب الإباضي، فقد قال فيه الإمام أبو إســحاق الهمداني الحضرمي.

سل من غزا وادي القرى بالصيلم   بلــج الذي لألف قــرن ينتمي

وقال فيه الإمام ابن النضر:

أو كالفتى بلج الهمام البطل في   الحرب من جحجاح ليث الجحفل

عن ألــف قرن فــي الوغــى لا ينجلي

(١) الأغاني، ج٢٣، ص٢٤٩.

(٢) السير للشماخي، ج١، ص٩١.

وذكر أبو الفرج الأصفهاني أن إباضية البصرة كتبوا إلى طالب الحق ومن معه: «إذا خرجتم فلا تغلوا، ولا تغدروا، واقتدوا بسلفكم الصالحين، وسيروا سيرتهم، فقد علمتم أن الذي أخرجهم على السلطان العيب لأعمالهم»[(١)].

وهو كلام ـ لعمر الحق ـ لا يدل إلا على سلامة المنهج وصحة العقيدة واستقامة الفكر، والحمد لله.

وشتان ـ لعمر الله ـ بين هذه الوصية ووصايا بني أمية لعمالهم، أن يبيدوا الأخضر واليابس، ويهلكوا الحرث والنسل، ناهيك أن طالب الحق تمكن من والي حضرموت لبني أمية إبراهيم بن جبلة بحضرموت أولا، فلم يتعرض له بسوء، بل تركه ينصرف إلى الوجهة التي يختارها، مع إدراكه أن له مأوى يرجع إليه، وهو عامل بني أمية بصنعاء، ثم تمكن منه بصنعاء ثانيا، وقد أخذه هذه المرة وهو يقاتل مع والي بني أمية عليها القاسم بن عمر الثقفي، فلم يزد على حبسه أياما لا للانتقام ولكن لكف العامة عنه، ثم منحه الحرية مرة أخرى، لينصرف حيث شاء.

قال أبو الفرج الأصفهاني: «ودخل عبدالله بن يحيى صنعاء، فأخذ الضحاك بن زمل وإبراهيم بن جبلة بن مخرمة فحبسهما، وجمع الخزائن والأموال فأحرزها، ثم أرسل إلى الضحاك وإبراهيم فأرسلهما، وقال لهما: حبستكما خوفا عليكما من العامة، وليس عليكما مكروه، فأقيما إن شئتما، أو اشخصا فخرجا»[(٢)].

فليت شعري؛ ماذا عسى أن يكون لو أن بني أمية وولاتهم ظفروا بأحد

(١) الأغاني، ج٢٣، ص٢٣٤.

(٢) المرجع السابق، ج٢٣، ص٢٣٦.

في الحرب مرتين، أتراهم يعفون عنه، أم أنهم يعدون له المقصلة ثم المصلبة، كما هو ديدنهم؟!.

ولم يكن هم طالب الحق ورجاله إلا الوصول إلى نصرة الحق، وكف الظلم عن الأمة، وإيتاء اليتامى والمساكين والأرامل وذوي الحاجات حقوقهم المشروعة من مال الله تعالى، ناهيك أنهم عندما فتحت عليهم الدنيا، وتمكنوا من متاعها، لم يفتحوا عليها عينا، ولم يمدوا إليها يدا، ولم يُسِيلُوا من أجلها لعابا، بل تساوى في موازينهم تبرها وترابها وعذبها وعذابها.

كأن حطام الأرض من لحم ميتة ... فهم عنه في عليائهم قد ترفعوا

....

تمثلت لهم الدنيا فما جهلوا ... حقيقة الأمر أن العيش ثعبان

فعندما أقبلوا إلى حضرموت، ثم منها إلى صنعاء، كانوا من الحاجة والفقر كما يصف أبو حمزة الشاري وضعهم بقوله: «فأقبلنا من قبائل شتى، النفر منا على بعير واحد، عليه زادهم وأنفسهم، يتعاورون لحافا واحدا»[1].

ففتح الله عليهم بلاد اليمن الفسيحة، ودخلوا عاصمتها صنعاء، فوجدوا خزائن الأموال، التي جباها القاسم بن عمر الثقفي من أهل صنعاء، فلم يستحلوا شيئا منها لأنفسهم، وإنما وزعها طالب الحق بين أهل صنعاء أنفسهم، لأنها جبايات أخذت منهم بغير حق، فهم أولى بأن ترد إليهم.

قال البدر الشماخي في السير: «وقسم ما وجد من مال على فقراء صنعاء، قصد إليه ابن خيران وعبدالله بن مسعود وغيرهما من المسلمين، فأتوا به من الخزانة إلى المسجد فقسمه عبدالله على فقراء صنعاء، ولم يأخذ منه شيئا ولم يستحل منه لأصحابه متاعا»[2].

---

(١) المرجع السابق، ج٢٣، ص٢٤٩.

(٢) السير، ج١، ص٩١ - ٩٢.

وقال الإمام السالمي:

وطالب الحق بصنعا حكما بجعله في أهلها واحتشما
لم يأخذن عند مضيق يومه شيئا لنفسه ولا لقومه
تعففا منهم ومن كمثلهم أكرم بهم من عصبة أكرم بهم
كانوا يموتون على ما أبصروا من الهدى ما بدلوا وغيروا[١]

وقال الأستاذ مهدي طالب هاشم: «كانت أولى الإجراءات التي قام بها عبدالله بن يحيى (طالب الحق) بعد أن استولى على الخزائن والأموال، أمر بتوزيعها بين الناس بالسوية، ليؤكد لأهل اليمن عهدا جديدا قائما على أساس العدل والمساواة دون مراعاة للاتجاهات المذهبية ـ إلى أن قال: ـ وبسبب هذه الإصلاحات والسياسة المرنة مع أعدائه، أجمع المؤرخون كافة على حسن سيرته وسياسته، ولم نجد فيهم من يطعن في عدالته، كما أحبه المتدينون من أهل اليمن، بسبب تمسكه بالشريعة الإسلامية»[٢].

وتعرض الأستاذ مهدي طالب هاشم للمنهجية السياسية التي سار عليها طالب الحق عندما انتصر على أعدائه، إذ لم يكن همه شفاء غيظه، بحز رؤوسهم وصلب جثثهم والتنكيل بهم، ولكنه عاملهم بالرأفة والرحمة، وسوَّى بين الصديق والعدو والقريب والبعيد في العدل والإنصاف، ملتزما الشريعة الإسلامية بخلاف سيرة بني أمية الذين لم يجد الناس منهم إلا البطش الشديد والعسف والجور والحرمان من أدنى حقوقهم، وكان مما قاله الأستاذ في هذا:

(١) جوهر النظام في علمي الأديان والأحكام، نور الدين أبو محمد عبدالله بن حميد بن سلوم السالمي العُماني، تحقيق أبو إسحاق إبراهيم اطفيش، ج٢، ص٣٥٧، دار الفاروق للطباعة والنشر والتوزيع.

(٢) الحركة الأباضية في المشرق العربي، ص١٠٥ - ١٠٦.

«كانت سياسة عبدالله بن يحيى (طالب الحق) مصداقا للالتزام بالشريعة الإسلامية، في معاملة المخالفين له مذهبيا، واستطاع أن يوفق بين النظرية والتطبيق، دون أن يسمح لحكم العواطف في اللحظات الحرجة، كلحظات ومواقف القتال التي تثور فيها العواطف الجياشة وحب الانتقام، فعندما طلب قائده أبرهة بن الصباح الحميري الإجهاز على المحاربين وقتلهم منعه، مع أن طالب الحق كان قد تمكن منهم على ما يبدو من رواية البلاذري، لأن الإباضية لا تجوز الإجهاز ولحوق المدبر في الحرب، وهذا يدل على الطابع المعتدل لسلوك هذه الفرقة حتى في حالة الحرب، ولو قارنا بينهم وبين الأمويين لوجدنا بونا شاسعا في هذه الناحية، فقد ظهرت في حروب الأمويين الوحشية والطابع البدوي والخروج على القيم الإسلامية في حروبهم للإباضية.

ونستطيع أن نتلمس الصدق في هذه السلوكية، في الإجراءات التي اتخذها طالب الحق حيال العمال والولاة الأمويين، فعندما دخل صنعاء حبس الضحاك بن زمل ـ الذي تركه القاسم بن عمر واليا على صنعاء بعد خروجه لطالب الحق ـ وإبراهيم بن جبلة الكندي الذي وقع في الأسر للمرة الثانية بعد طرده من حضرموت، وحبسهما لمدة قصيرة وأطلق سراحهما، وقال: «إنما حبستكما مخافة من العامة عليكما، وليس عليكما مكروه، فأقيما، أو اشخصا»، فطلبا الخروج من اليمن.

إن هذه الإجراءات، التي اتخذها طالب الحق في حضرموت أولاً وفي صنعاء ثانيا أراد أن يبرهن بها لأعدائه والمسلمين عامة صدق التطبيق، ومحو الصورة المشوهة التي رسخت في أذهان المسلمين، نتيجة للممارسات السياسية السابقة للحركات الخارجية، كالأزارقة والنجدات على سبيل المثال»[١].

(١) المصدر السابق، ص١٠٢ ـ ١٠٣.

هذا؛ وقد تضمنت خطبة طالب الحق التي ألقاها بصنعاء معالم دعوته، وبرزت فيها مزايا سياسته، فقد ذكر البلاذري في أنساب الأشراف أن مما تضمنت خطبته قوله: «أيها الناس إنكم حذرتم عظيماً، وخوفتم جسيماً، لا تبلغه الصفات، ولا تحيط به الأوهام، العذاب الأليم جهنم، وسعير ولظى والهاوية والحامية، وسقر التي لا تبقي ولا تذر، نسأل الله مولانا ولي الإحسان أن يجيرنا من عذابه الذي خوفنا، أيها الناس إنا نخيركم بين ثلاث خصال أيها شئتم فخذوا لأنفسكم، رحم الله امرأً أخذ الخيار لنفسه: إما قال امرؤ بقولنا، ودان بالدين الذي دنا، فحملته نيته على أن يجاهد معنا بنفسه، فيكون له من الأجر ما لأفضلنا، ومن قسم الفيء ما لبعضنا(١)، أو قال هذا القول ثم أقام في داره، فدعا الناس إليه بقلبه ولسانه فَعَلَّهُ ألّا يكون ذلك أخس منازله، أو كرهنا فليخرج بأمان إلى ماله وأهله، ويكف عنا يده ولسانه، فإن ظفرنا لم يكن عرض لنا نفسه، ولم يحملنا على سفك دمه، وإن قتلنا كان قد كفي مؤونتنا، وعسى ألا يعمر بعدنا إلا قليلاً.

ندعو: إلى الله، وإلى كتابه، وسنة نبيه ﷺ، ونجيب من دعا إليها، الإسلام ديننا ومحمد نبينا والكعبة قبلتنا والقرآن إمامنا، رضينا بالحلال حلالاً لا نبغي به بدلاً، ولا نشتري به ثمناً، ولا قوة إلا بالله، وإلى الله المشتكى وعليه المعول.

ندعو: إلى فرائض بينات محكمات، وآثار مقتدى بها، ونشهد أن الله صادق فيما وعد، عدل فيما حكم.

(١) مراده بالفيء هنا إما أن يكون ما يفيء الله عليهم في ما لو تمكنوا من الجهاد خارج بلاد الإسلام لنشر الدين فأفاء الله عليهم من أرض المشركين، أو يكون مراده به ما يستحقه المسلمون من بيت المال الذي فيه حق لكل واحد منهم، ولا يعني به غنيمة من مال موحد، فإنهم لم يكونوا يستحلونها بحال.

ندعـو: إلى توحيد الـرب، واليقيـن بالوعيـد، وأداء الفرائض، والأمر بالمعروف، والنهي عـن المنكر، والولاية لأهل ولاية الله، وإن من رحمة الله أن جعل فـي كل فترة بقايـا من أهل العلـم يدعون من ضـل إلى الهدى ويصبرون على الألم في حب الله، يقتلون في سالف الدهر، فما نسيهم ربهم «وما كان ربك نَسِـيّا»، أوصيكم بتقوى الله وحسـن القيـام على ما وكلكم بالقيام به، قابلوا الله حسناً في أمره وزجره»[1].

ولا يخفى على متأمل كلماته هذه مـا ضمنها من دعوته إلى توحيد الله تعالى وإخلاص العمل له، وحسن الرجاء لوعده، والحذر من وعيده، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وحسن الموعظة، بالتذكير باليوم الآخر، وما ينتظر الفجار فيه من عقابه تعالى، وأن الأمر أعظم من أن تتصوره الأفهام أو تتخيلـه الأوهام، فما على الإنسـان إلا أن يعد عدته لذلـك اليوم، بتوطين النفس على التقـوى، وتحري مرضاة الله تعالى في الفعـل والترك، والقبول والرفض والمكره والمنشط.

وقد تجلت سياسته ودقته في العدل والإنصاف فيها، إذ خير الناس بين انضمامهم إليه وإلى أصحابـه والجهاد معهم، أو البقـاء في كنفهم وإن لم يشـاركوهم الجهاد، أو الخروج لمن كره البقاء إلى حيث شاء آمنا مطمئنا، على أن لا يتعرض لما يؤدي إلى سفك دمه ـ بممارسته من الأعمال العدائية ما يسوغ ذلك شرعا ـ وإلا فلا يلومنَّ إلا نفسه، على أنه قد يصل إلى مبتغاه منهم، إن دارت عليهم الدائرة، ولو لم يمد يده إليهم بسوء، ويحملهم على مواجهة صنيعه بمثله.

وهي سياسة نابعة من شرع الله، فيها تعظيم حرمات الله وإنصاف عباده،

---

(١) أنساب الأشراف، ج٣، ص٢٣٧.

إذ لم تكن سياسة مَنْ تعطش لسفك الدماء، وإذلال الناس وحرمانهم من الحقوق المشروعة، كسياسة بني أمية وولاتهم، الذين لم يقيموا وزنا لحرمات الله ولم يرعوا إلا ولا ذمة في عباده، وإنما كانوا ظمأى إلى دمائهم يسفكونها، غرثى إلى لحومهم ينهشونها، ولا يبالون مع ذلك بهتك الأعراض ونهب الأموال وإهدار الحقوق، وبهذا يتضح الفرق بين الفئتين، ويظهر البون بين الفكرين، كما قال الشاعر:

مَلكْنا فكان العَفْو منَّا سَجيَّةً فلمَّا ملكْتُمْ سالَ بالدَّمِ أبْطَحُ
وحَلَّلْتُمُ قتلَ الأسارى وطالَما غَدوْنا عن الأسْرى نَعفُّ ونصفَح
فحسْبُكُمُ هذا التَّفاوتُ بيْنَنا وكلُّ إِناءٍ بالذي فيهِ يَنْضَحُ

امتداد حركة طالب الحق إلى الحجاز:

كانت حركة طالب الحق وأبي حمزة الشاري تهدف إلى تغيير الأوضاع من الفساد إلى الصلاح، وتحرير الأمة من الجور الذي طوقته من بني أمية وولاتهم، لتنعم بالعدل والإنصاف، ولتتبوأ مكان العزة والكرامة بعدما رزحت مكبلة بقيود الذلة والمهانة ردحا من الزمن، فهي من حيث المبدأ حركة عالمية وليست إقليمية لا تهتم إلا بتحرير اليمن، كيف وهدفها الأسمى إعادة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة موازين القسط بين الناس، ورفع كابوس الظلم الذي جثم على صدر الأمة.

ومن المعلوم، أن أولى البقاع بذلك البقاع المقدسة التي فيها بيت الله العتيق وحرمه الآمن، وإليها تهوي أفئدة المؤمنين، ومن أرجائها انطلقت دعوة الله إلى سائر أرجاء الأرض، وفيها كان مثوى رسول الله ﷺ، فهي ـ بلا ريب ـ أحق البقاع بتطهيرها من رجس الظلم

والاستبداد، وإمتاعها بنعمة تطبيق شريعة الله العادلة.

وما كان فتح اليمن السعيد قبل ذلك إلا تهيئة لهذه الأمنية الغالية والغاية المنشودة، على أن الأجواء في اليمن كانت أكثر تهيؤا لنجاح هذا الأمر، إذ كانت أرض اليمن تضم عددا أكبر من الذين يحملون هذا الهم ويحلمون بهذه الغاية، لاقتناعهم بهذا الفكر، على أن أرض الحجاز ـ مع طهرها وقداستها ـ رزئ أهلها بدسائس السياسة الأموية المنحرفة، فكانت خططها محكمة في تمييع سكان الحجاز، وإغراقهم في اللهو والمجون، وتحبيب الخلاعة إليهم، وتنويم ضمائرهم، وتخدير عزائمهم، فما كانت مع هذه الحالة لتستجيب لهذا الداعي وتتقبل هذه الحركة، وقد وضح ذلك جليا عندما أتاهم أبو حمزة الشاري، وصدع بينهم بكلمة الحق وجلجل صوته بعزائم الإيمان.

ومن المعلوم، أن الغزو الفكري والخلقي يسري أثره في النفوس ـ عندما يحبب إليها الشهوات ويزين لها الفساد ـ سريان النار في الهشيم، وقد وضح ذلك جليا في انقلاب البيئة بالحجاز ـ نتيجة هذا المخطط الرهيب ـ إلى أن تكون مناخا للغناء واللهو، وأن يشتهر فيها أمثال طويس ودلال ومعبد وابن عائشة وسلامة القس، وأن تحفل كتب الأدب من أخبارهم وترهاتهم بما يندى منه الجبين، ويطير منه اللب، ويبعث على الحسرة والأسى.

وإذا كانت حركة طالب الحق تهدف إلى تحقيق الحق، غير لاوية على شيء، فإنه ولا ريب كان من أهم أهدافها إعادة الحرمين الشريفين إلى قداستهما، وتطهيرهما من حياة الخنا والخلاعة والمجون، ليظلا قلعتين للإسلام وحمى منيعا للدين، ومركزين يشعان في العالم نورا وهداية.

ومع ذلك، فإن تعريف الناس بمبادئ هـذه الحركة وأهدافها على منابر الحرمين الشـريفين مدعاة لوصول صوتها إلى آفاق الأرض، وذلك بسـبب تزاحم وفود الرحمن عليهما ووجود الحجيج فـي عراصهما، وقد كان هذا سـببا لانتشـار خطب أبي حمزة الشـاري وتناقل الناس لها، وهو مكسب دعوي يعود على الدعوة بالربح، ولو بعد أمد بعيد.

لأجل هذا كله؛ جرد طالب الحق حملة إلـى الحجاز بقيادة أبي حمزة الشاري، الرجل الذي وصفه قادة الدعوة بالبصرة بأن إنجيله في صدره، وقد كانت شـخصية أبي حمزة جامعـة للمؤهـلات القيادية، التـي تفتقر إليها الحركات الإسلامية، إذ كان يجمع بين سلامة الفكر، وصفاء الذهن، وحسن العبادة، وعمق التصور، وجمال الأداء، وملكـة التعبير، وقوة الحجة، ودربة اللسان، وحصافة الرأي، والتفوق في الشجاعة والإقدام، والإخلاص لله تعالى في القول والعمل، والزهد في الدنيا، والرغبة فيما عند الله.

وكان مصداقا للالتزام بالشـريعة الإسلامية في سـلمه وحربه، وترجمة حية للعدل والإنصاف مع صديقه وعدوه، حتـى كان يؤثر الحزم في الدين على الحزم في السياسة، كما سـيتجلى ذلك واضحا في مواقفه، وهو ـ وإن خرج إلى مكة في جيش مدجج بالسـلاح، يتراوح عدده بين سبعمائة رجل وألف ومائة رجل ـ لم يكن يهدف إلى قتال في الحرم الشريف وفي الشهر الحرام، فهو أرعى لحرمات الله تعالى، وإنما كان ذلك من باب (الاسـتعداد للحرب يمنع الحرب)، وكان اختياره لمكة للاعتبـارات التي ذكرناها، كما اختار موسـم الحج لأجل هذا الغرض نفسـه، على أنه حرص على مفاجأة الوالي الأموي على الحجاز، عبدالواحد بن سليمان بن عبدالملك، بدخوله الحرم في الموسـم، ليُفَوِّت عليه فرصة الاسـتعداد للحرب، حتى لا يكون بينهما صدام في الحرم.

ويسجل الأستاذ مهدي طالب هاشم في أطروحته هذه الملاحظات بقوله:

«وقد كان اختيارهم لموسم الحج اختيارا موفقا لدخول مكة، إذ سيمكنهم من ناحية دعائية، في عرض أفكار وأهداف الحركة السياسية التي انطلقت من اليمن، لتقضي على الخلافة الأموية، لا سيما وأن الحجاج قد اجتمعوا من كافة الأقاليم الإسلامية، ومن ناحية أخرى سوف لا يمكنون عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك والي الحجاز لمروان بن محمد من الاستعداد لحربهم، إلا بعد الاستيلاء على مكة، وبذلك سوف يحرم من القوة البشرية والاقتصادية في مدينة مكة، وتجنيدها لحرب الإباضية، ولهذا كان موقف عبد الواحد بن سليمان ضعيفا من الناحية العسكرية، فعقد اتفاقا بينه وبين أبي حمزة المختار بن عوف الأزدي، وقد توسط بين الطرفين مجموعة من أحفاد الصحابة، ترأسهم عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وأمية بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، وعبد العزيز ابن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وسألوا أبا حمزة الكف عن الحرب حتى ينتهي الناس من مناسك الحج، على أن يترك عبد الواحد بن سليمان مكة لأبي حمزة بعد الانتهاء من مناسك الحج، فقبل أبو حمزة هذا الاتفاق، ووقف وشيعته بعرفة، في حين تجمع عبد الواحد في منطقة منى ليؤم كل منهما جماعته، وقد تم ذلك فعلا بعد الحج مباشرة حيث غادر عبد الواحد مكة في العاشر من ذي الحجة، ليدخلها أبو حمزة بغير قتال يذكر، وكان لا بد لأبي حمزة أن يعرض مبادئ الحركة الإباضية، ككل الحركات التي تبدأ بدايات جديدة في الحكم، ولهذا الغرض ألقى أبو حمزة خطبته البليغة، التي خلدت ذكره كواحد من أبرز خطباء العصر»[1].

---

(١) الحركة الإباضية في المشرق العربي، ص١١٦ - ١١٧.

هذا؛ وقد انضم إلى أبي حمزة الشاري من أهل مكة أربعمائة رجل، على رأسهم أبو الحر علي ابن الحصين، الذي كان مقيما بمكة، وكان من أهل اليسار، تأتيه غلته من البصرة، فينفقها بمكة فيما يقربه إلى الله، قال البدر الشماخي: «عن عيسى بن علقمة، قال: كان أبو الحر موسرا، وتأتيه غلته من البصرة إلى مكة نقرة واحدة ذهبا، ويقسمها نصفين، فيفرق نصفها في فقراء المسلمين، وربعا في نفقته، وربعا يحبسه ليهيئه لمن يمر به من المسلمين وفي معاونتهم»[1].

وقبل أن يأتي أبو حمزة تعرض الوالي الأموي لأبي الحر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فحمله مكبلا بالحديد إلى مروان بن محمد ومعه أحد الشيعة المقيمين بمكة، غير أن من كان هنالك من جماعة المسلمين خلصوا الرجلين معا من رجال بني أمية، ففكوا عنهما الأصفاد وأطلقوا سراحهما، قال أبو العباس الدرجيني في الطبقات:

«وقال أبو سفيان، أدركت عيسى بن عمر وهو شيخ كبير، يحدثنا أن مروان بن محمد بعث إلى أبي الحر إذ كان بمكة، فأُخذَ فشُدَّ في الحديد، وأخذ رجل من الرافضية يقال له أصفر، فشد في الحديد، ثم ساروا بهما نحو مروان، قال عيسى: فخرجنا في أربعة عشر رجلا من المسلمين نتبعه، قال: فلما مشينا أياما أرسلنا إليه أنا نأتيكم الليلة، قال: فقال لا تفعلوا، مكة منكم قريبة والطلب سريع، فسرنا على طريق الساحل، وغلامه يأتينا بخبره، ويأتيه بخبرنا، فما زلنا نطلب إليه، ونسأله يدعنا حتى نخلصه من أيديهم، قال فكان يأبى ذلك علينا حتى جاوزنا المدينة بمراحل، فأرسلنا إليه أنا قد قربنا من الشام وقراها فدعنا نأتيهم الليلة، قال: فأبى، قال: فأرسلنا إليه أنا نأتيكم على كل حال، فتباطأ في وضوئك، حتى لا تعجل الرحيل، لنقعد

(١) السير، ج١، ص٩٣.

مقاعدنا، قال: ففعل، فتقدمنــا فنزلنا عن رواحلنا وعقلناها بعيدا من الطريق، ثم جئنا أمامه إلــى الطريق، فجثمنا عليه، فلما دنوا منه ســرنا في وجوههم بالتحكيم، والسيوف في أيدينا مصلتة، فألقوا بأيديهم وقالوا: الأمان، الأمان، قال: فبادر رجل منا، فأعطاهم الأمان، فشق ذلك على أبي الحر، قال: أما إذا فعلتم فلا تختلجــوا، ولا تهيبوا منهم أحدا، قال: فأســرناهم، فأخرجنا بهم الطريق حتى أبعدناهم، خلينا سبيلهم واحتملنا صاحبنا وفككنا عنه جامعته، وفككنا عن الرافضي»[١].

وهذه القصة إن دلت على شيء، فإنها تدل على أمرين:

أولهما: أن هدف هذه الحملــة رفع الظلم عن المظلومين، من غير تحيز إلى أحــد أو تمييز بين مظلوم وآخر، فأنتم تــرون أن أصحاب أبي الحر لم يقتصروا على فكاك صاحبهم، وإنما حرصوا أيضا على فكاك الشيعي الذي كان مأسورا معه.

ثانيهما: التزامهم بالعهد، من غير أن يســمحوا لأنفسهم أن يخيسوا فيه لأي سبب من الأسباب، فعندما أعطى أحدهم الأمان للطغمة المجرمة التي أسرت أبا الحر التزموا تنفيذه، على الرغم من كون أبي الحر نفسه ساءه أن يعطوا لهم الأمان، ولكنه أمرهم أن يلتزموا ما أعطوهم، فأطلقوا سراحهم مع أنهم كانوا قادرين عليهم.

هذا؛ وقد ســجل البدر الشــماخي انضمــام أبي الحر إلــى أبي حمزة وأصحابه وما اكتنف ذلك من أحداث، فقال: «وأقام أبو حمزة بمكة أربعين يوما، فلمّا التأم إليه أصحابه ودخلوا مكــة يحكمون، قال أبو الحر علي بن الحصين: هذا صوت غريــب في أرض الحرم، وخطب في مكة خطبا، وأقام

(١) طبقات المشايخ، للدرجيني، ج٢، ص٢٦٢ - ٢٦٣، وينظر: السير للشماخي، ج١، ص٩٢.

بها ما شاء الله أن يقيم وهو يكاتب أبا يحيى، وكان أبو الحر علي بن الحصين العنبري من علماء المسلمين وفقهائهم أقام بمكة.

عن عيسى بن أبي عمرو، قال أبو سفيان: أدركته شيخا كبيرا، بعث مروان بن محمد إلى أبي الحر إذ كان بمكة، وشدّ في الحديد مع رجل من الرافضة اسمه أصفر، ثم ساروا بهما، فخرج عيسى في أربعة عشر رجلا من المسلمين، فخلصوه منهم بعدما جاوزوا المدينة بمراحل، ثم رجعوا حتى دخلوا مكة مستخفين فخرجوا إلى منى وإلى عرفات، وكانوا ينتظرون قدوم أبي حمزة، فعند الرواح فاجأهم أبو حمزة في نواصي الخيل قد طلعت، فلمّا رآهم أبو الحر، قال: أحرموا، فاغتسلنا وأحرمنا، ودخلنا في عسكر أبي حمزة، فأرسل عبدالواحد إلى أبي حمزة الخطباء فأفحمهم، فتهادنوا، فوقفنا وأفضنا إلى جمع ثم منى، فنزلنا في مؤخّر منى»[1].

وذكر أبو الفرج الأصبهاني في «الأغاني» أن أبا حمزة الشاري لما راسله عبدالواحد بن سليمان في الهدنة، رد بقوله: «نحن بحجنا أضن، وعليه أشح» غير أن جمهور الناس لاموا عبدالواحد، وقالوا له: «إنك قد أخطأت فيهم ولو حملت عليهم الحاج ما كانوا إلا أكلة رأس»، فراسلهم بنقض العهد الذي بينه وبينهم، فلما سمع ذلك بلج وإبراهيم، وكانا قائدين له قالا: «الساعة الساعة» فأقبل عليهما أبو حمزة، وقال: معاذ الله أن ننقض العهد أو نخيس به والله لا أفعل ولو قطعت رقبتي هذه، ولكن تنقضي هذه الهدنة بيننا وبينكم، فلما أبى عليهم خرجوا فابلغوا عبدالواحد»[2].

ومن هذين الموقفين المتباينين يتضح لكل ذي عينين من هو المحق أو

---

(١) السير، ج١، ص٩٢.

(٢) الأغاني، ج٢٣، ص٢٣٨ - ٢٣٩.

المبطل من الطائفتين، طائفة لا تبالي أن تنتهك حرمات الحج، والمناسك العظام في البلد الحرام والشهر الحرام، مؤلبة العامل الأموي على أن يحمل الحجيج على مقاتلة من جاء للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة حجة الله على عباده، والدعوة إلى تطبيق شرعه في أرضه، مسولين لأنفسهم أن هؤلاء لن يكونوا إلا أكلة رأس لقلتهم بين السواد الأعظم، فلم يروا حرجا في إبادتهم عن بكرة أبيهم ولو كانوا ملبين محرمين، كافين أيديهم أن تمتد بالسوء إلى الحجيج أو غيرهم، وطائفة تأبى أن تنقض العهد أو تخيس فيه ولو قطعت رقابها، فشتان لعمر الله بين الهدى والضلال وبين الورع والفجور.

وقد شاء الله تعالى أن يوجف الحق قلب عبدالواحد، فلم يلبث أن غادر مكة في اليوم العاشر من ذي الحجة، فارا بجلده غير لاو على شيء، فتمكن أبو حمزة من إقامة موازين، القسط فيها والصدع بكلمات الحق لتجلجل في جنباتها، من خلال خطبه التي ألقاها على منابرها، فأخذت بمجامع الألباب، ووعتها قلوب، واعية فخلدها التأريخ وتناقلتها الألسن، وكعادة أسلافه لم ينزع إلى التشفي والإثئار من أي أحد، وإنما كان التسامح شيمته، كما هي سجيته وسجية من يحمل فكره.

العناية بالطائف:

وجه أبو حمزة الشاري بعد استتباب الأمر بمكة المكرمة عنايته إلى الطائف، فجهز إليها جماعة من أصحابه، وقد ظن أهل الطائف أنهم جاؤوهم لسفك دمائهم ونهب أموالهم، كما جرت العادة في حروب بني أمية، فقلقوا على أنفسهم، وغادر رجالهم بلدهم وتركوها للنساء، ولما دخلها جند أبي حمزة كانوا ـ كعادتهم ـ مثالا للتسامح وحسن المعاملة، فما وجدت النساء منهم إلا البر والإحسان، وبسطوا الأمان لمن رجع،

فآب إليها رجالها ليجدوا ما تطمئن إليه نفوسـهم من العدل والإنصاف[١]، وذكر البلاذري أن منادي أبي حمزة نادى أربعة أيـام، في كل يوم: الناس آمنون إلا من حاربنا[٢].

وقد كان تصرف أهل الطائف هذا مثار سخرية واستهجان من القرشيين الذين كانوا بالمدينة، حتى قال قائلهم: لو شـاء أهل الطائف لكفونا أمر هذه المارقة، أما والله لئن ظفرنا لنسـبين أهل الطائف. من يشتري مني سبي أهل الطائف؟ فلما التقوا بقديد، حين التقوا، وانهزم أهـل المدينة قال لخادمته: غاق باق، يريد أغلقي الباب دهشاً، وذلك بعد أربعة أيام يرى أنهم خلفه[٣]، فلقبه أهل المدينة، بعد ذلك غاق باق[٤].

ولعمري؛ إن من قلـب الحقائق أن يطلق لقب المارقـة على هذه الفئة المؤمنة، الحريصة على تطبيق شرع الله، واتباع كتابه، والاقتداء برسوله ﷺ، وينسـى قائل ذلك أن أولى النـاس بالمروق من عطل كتـاب الله، وانتهك حرمه، وأفسـد على الناس دينهم، ناهيك بما كان يتهدد به أهل الطائف من سبيهم، وليت شعري؛ بأي وجه استباح سـبيهم؟ فهل سبي من قال (لا إله إلا الله) مشروع في الإسلام؟!! وهل كان ما ينويه هو من صميم ما تعلَّمه من الدين، والمروق هو فيما كان من تسامح أبي حمزة وأصحابه؟!!.

من خلال هذا، تدرك أخي القـارئ الكريم إلى أي مدى وصل انحراف بني أمية بفكر هذه الأمة، وفي أي هاوية سحيقة من الضلال رموا بها.

---

(١) ينظر: أنساب الأشراف، ج٣، ص٢٣٧.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق، ج٤، ص٣٩، والأغاني، ج٢٣، ص٢٤٢.

(٤) الأغاني، ج٢٣، ص٢٤٢.

مثالية أبي حمزة وأصحابه في التعامل مع أهل المدينة بقديد:

عندما غادر عبدالواحد بن سليمان بن عبدالملك مكة المكرمة توجه إلى المدينة المنورة، ليحمس أهلها على قتال أبي حمزة وجنده، وسجل في الديوان الخاص بالمقاتلين أسماءهم، وزاد في أعطياتهم، ليلهب حماسهم لأداء هذه المهمة، فخرج نحو ثمانية آلاف مقاتل بقيادة أحد الأمويين.

وعندما نما ذلك إلى علم أبي حمزة آثر الخروج من مكة، ليكون لقاؤهم خارجها، وذلك لأكثر من مغزى، فمن ناحية راعى حرمات البيت والحرم، وأراد أن يكون الصدام خارج حدود الحرم، ومن ناحية أخرى رأى أن الخروج أنجح له في التخطيط العسكري، إذ لعل المكيين الذين تشربوا الفكر الأموي وهيمنت على ألبابهم العصبية لبني أمية، لا يلبثون إذا دخلت جموع أهل المدينة مكة أن ينضموا إليهم، فتقوى بذلك شوكتهم، ويكون الأمر أشق على أبي حمزة وأصحابه.

لهذا خرج أبو حمزة بنفسه، ومعه فئة من أصحابه، بعدما استخلف أحدهم على مكة المكرمة، ولم يكن لأبي حمزة وأصحابه في هذه الحركة غرض إلا إحقاق الحق وإخماد الباطل، إذ لم يكونوا أهل عصبية لعنصر معين أو طائفة من البشر، لذلك كانت مجموعتهم نسيجا يجمع أشتاتا من الناس، فكان بعضهم من اليمن، وبعضهم من عُمان، وآخرون من البصرة والموصل، والبعض الآخر من الحجاز، وأهل الحجاز بعضهم من خزاعة، والبعض الآخر من قريش، وكان أبو بكر محمد بن عبدالله ابن عمرو من القرشيين أحد قواد أبي حمزة الشاري في هذه المعركة[1].

(١) ينظر: طبقات المشايخ، ج٢، ص٢٦٥، وتاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٣٣٩، ونسب قريش، أبو عبدالله المصعب بن عبدالله ابن المصعب الزبيري، (ت: ٢٣٦هـ)، دار المعارف، القاهرة، تحقيق: ليفي بروفسال، جمهرة أنساب العرب، أبو محمد علي بن أحمد ابن =

وعندما التقى الفريقان في قديد أبى أبو حمزة الشـاري أن يشـرع في القتال ـ كعادته ـ، حرصا على صون الدماء أن تسفك، والحرمات أن تهتك، فأصر على إقامة الحجة على أهل المدينة، وهذا مـا اتفق عليه المؤرخون، قال البلاذري: «وأرسـل المختار إليهم بلج بن عقبـة ليدعوهم، فأتاهم في ثلاثين راكباً، فذكرهم الله، وسـألهم أن يكفوا أيديهم عنهم حتى يسيروا إلى مروان وقال: خلو لنا سـبيلنا لنلقى من ظلمكم وجار في الحكم عليكم ولا تجعلوا حدنا بكم، فإنا لا نريد قتالكم، فشتمهم أهل المدينة وقالوا: نخليكم وندعكم تفسدون في الأرض، فقالت الخوارج: يا أعداء الله، ونحن نفسد في الأرض؟ وإنمـا خرجنا لنكف الفسـاد، ونقاتل من اسـتأثر بالفيء عليكم، فانظروا لأنفسـكم، واخلعوا من لم يجعل الله له طاعـة، فإنه لا طاعة لمن عصى الله، وادخلوا في السلم وعاونوا أهل الحق»[(١)].

وبعد حوار بين الجانبيـن، قال القائد الأموي لبلـج: ارجع إلى أصحابك فليس بيننا إلا السـيف، فرجع إلى أبي حمزة وأخبره بنتيجة الحوار، وقد كان هذا بلا ريـب إيذانا ببدء القتال، ولكن أبا حمزة ـ الرجل المتسـامح الذي لم يكن متعطشـا إلى الدماء، ولا من ديدنه التشـفي والانتقام ـ أبى أن يناجزهم حتى يبدأوا بالقتال، فأمر أصحابه أن يكفوا أيديهم عنهم، وما هي إلا هنيهة من الوقت فإذا بوابل من السـهام يمطرهم بها أهل المدينة، وهنا ما كان مفر لأبي حمزة وأصحابه من مناجزتهم، فقال لأصحابه: «دونكم فقد حل الآن قتالهم»[(٢)].

= سعيد بن حزم الأندلسي، (ت: ٤٥٦هـ)، ج١، ص١٥٠، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، الطبعة: الثالثة، تحقيق: لا يوجد، الحركة الإباضية في المشرق العربي، ص١٢١ ـ ١٢٢.

(١) أنسـاب الأشـراف، ج٣، ص٢٤٠، وينظر: الأغاني، ج٢٣، ص٢٤٣، وشرح نهج البلاغة، ج٥، ص٦١، تاريخ بن خياط، ص٣٩٢.

(٢) ينظر: المراجع السابقة.

وهو موقف إن دل على شيء فإنما يدل على الاحتراز من الولوغ في الدماء، والحرص على وزن الخطى بموازين الشرع والتحكم في جيشان العواطف حال الاستفزاز من الطرف الآخر، ولم يمض إلا قليل من اليوم حتى انكشف أهل المدينة بعدما جندل عدد لا يستهان به من جنودهم قيل إنهم بلغوا ألفين ومائتين وثلاثين رجلا[١]، كما خلفوا كثرةً من الجرحى وولوا هاربين مع كثرة عَدَدِهم ووَفْرَةِ عُدَدِهم، إذ كانوا أضعاف جند أبي حمزة، كما أنهم كانوا بحوزتهم من العتاد ما لم يكن عند أبي حمزة وأصحابه، إلا أن أولئك إنما كانوا يقاتلون ليلقوا الله، فلذلك ثبتوا في الميدان ثبوت الرواسي.

وقد جال الأستاذ مهدي طالب هاشم في بحث الأسباب التي أدت إلى انتصار جند أبي حمزة، الذين لم يكونوا يتجاوزون ألف مقاتل، على القائد الأموي وجنده، الذين كانوا بلغوا ثمانية آلاف مقاتل، وبعد استعراض عدد من الأسباب المفترضة، قال: «كان العامل الأساسي في انتصار الإباضية حبهم الاستشهاد في سبيل المبادئ التي يعتنقونها، وقد امتازوا بصلابتهم وصمودهم في مسرح القتال، ويشير الشماخي إلى أنه لا يمكن للإباضي أن يفر من ساحة المعركة إلا أن يكون متحيزا إلى فئة، لأن الفرار من الزحف كبيرة لا تغتفر لدى الشراة الإباضية»[٢].

ولعمري؛ إن ما عزاه إليهم لا يعكس إلا تعاليم القرآن على سلوكهم في السلم والحرب، ومواقفهم في المكره والمنشط، فالفرار من الزحف كبيرة توعد عليها القرآن في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ۝١٥ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ

(١) الأغاني، ج٢٣، ص٢٤٥، شرح نهج البلاغة، ج٥٦٢.
(٢) الحركة الإباضية في المشرق العربي، ص١٢٧.

﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٥-١٦]، وهو وإن نص على الذين كفروا، فإن حكمه لا ينحصر في لقاء المشركين، إذ القياس في إلحاق لقاء البغاة الذين أذن الله بقتالهم بهذا الحكم قياس جلي، على أن وصف الذين كفروا يصدق على كفار الملة وكفار النعمة، كما سبق تحرير ذلك.

وحسبك ما مضى ذكره، من جرائم بني أمية وأشياعهم، وهتكهم لحرم الإسلام، ونبذهم كتاب الله، مسوغا شرعا لقتالهم وملحقا لهم بفئة الذين كفروا، فإنهم إن كانوا تعصمهم كلمة التوحيد عن إدراجهم في أهل كفر الشرك، فقد شهدت أفعالهم بأنهم من أهل كفر النعمة، والله المستعان.

هذا؛ وأبى أبو حمزة الشاري أن يتبع مدبرهم ويذفف على جريحهم، وقال كلمته المشهورة: «لا أفعل، ولا أخالف سيرة أسلافنا»[1]، مع أنه أفتاه أبو الحر علي بن الحصين ـ من كبار فقهاء الشراة ـ، واقترح عليه بأن يفعل ذلك، نظرا إلى أن أولئك كان لهم مأوى يرجعون إليه، وهو رأس البغاة بالشام، فما كانوا مقطوعين من قوة يحتمون بها، وهو مما يسوِّغ شرعا اتباع هذه الخطة الوقائية في مثل هذا الظرف، وقد بين له ذلك أبو الحر، حيث قال له: «فإن هؤلاء أشر علينا من أهل الشام، فلو جاؤوك غدا لرأيت من هؤلاء ما تكره»[2]، وقد وقع فعلا ما كان يحذره أبو الحر منهم، ولهذا عزز الإمام السالمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ رأي أبي الحر، حيث قال:

ولأبي الحر مع المختار حث على القتل مع الإدبار
يوم قديد إذ لهم جبار ردء وما ساعفه المختار
وكان فيها لأبي الحر النظر لأنه مارسهم وقد نظر

(١) الأغاني، ج٢٣، ص٢٤٤، شرح نهج البلاغة، ج٥، ص٦١.
(٢) نفس المرجعين.

ولعل هذا الإجراء يعد خطأ عسكريا من أبي حمزة، ولكنه كان صورة حية للمثالية التي يتسم بها، وقد أعجبت جهابذة العلماء المنصفين الذين تحدثوا عن ذلك بإكبار، ومن بين هؤلاء المجاهد البطل العلامة الكبير الشيخ عبدالمعز عبدالستار، الذي قال: «وهذه مثالية لا تعرف إلا لمثل أبي حمزة رَحِمَهُ ٱللَّهُ»[1].

خطب أبي حمزة الشاري بالمدينة المنورة:

ظل أبو حمزة الشاري يصدع بكلمة الحق على منبر رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة، بعد أن دخلها منصورا بإذن الله، وقد شرح مبادئه وأفكاره وأسباب هذه الحركة التحريرية التي قادها، في خطبه التي سارت بها الركبان وحفظها الرواة، وردتها الألسن، وعدت نماذج للبلاغة العربية، وفصاحة التعبير في الخطابة، وقد رواها أهل المدينة فيمن رووها، كان من بينهم الإمام مالك الذي ذكروا عنه أنه قال: «خطبنا أبو حمزة خطبة شكك فيها المستبصر وردت المرتاب»[2]، وكان مما قاله في هذه الخطبة:

«أوصيكم بتقوى الله وطاعته، والعمل بكتابه وسنة نبيه ﷺ، وصلة الرحم، وتعظيم ما صغرت الجبابرة من حق الله، وتصغير ما عظمت من الباطل، وإماتة ما أحيوا من الجور، وإحياء ما أماتوا من الحقوق، وأن يطاع الله ويعصى العباد في طاعته، فالطاعة لله ولأهل طاعة الله، ولا طاعة لمخلوق

---

(١) تطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية في المواقف العسكرية، بحث مقدم إلى ندوة الاحتفال بالإمام المختار أبي حمزة الشاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، التي أقامتها دار الإفتاء ورعاية الشباب سنة ١٤١٠هـ، بسلطنة عُمان، عبدالمعز عبدالستار، ص٥١ تعليق رقم ١، دار الطباعة والنشر الإسلامية، مدينة نصر، القاهرة، ٢٠٠١م.

(٢) العقد الفريد، ج٤، ص١٣٢.

في معصية الخالق، ندعو إلى كتاب الله وسـنة نبيه، والقسم بالسوية والعدل في الرعية، ووضـع الأخماس في مواضعهـا التي أمر الله بهـا، إنا والله ما خرجنا أشـرا ولا بطرا، ولا لهوا ولا لعبا، ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيها، ولا لثأر قد نيل منا، ولكنا لما رأينا الأرض قد أظلمت، ومعالم الجور قد ظهرت، وكثر الادعاء في الدين، وعمل بالهوى، وعطلت الأحكام، وقتل القائم بالقسـط، وعنف القائل بالحق، سـمعنا مناديا ينادي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، فأجبنا داعي الله، فأقبلنا من قبائل شتى قليلين مستضعفين في الأرض، فآوانا الله وأيدنا بنصره، فأصبحنا بنعمته إخوانا، وعلى الدين أعوانا.

يا أهل المدينة، أولكم خير أول وآخركم شـر آخر، إنكم أطعتم قراءكم وفقهاءهـم، فاختانوكم عن كتاب غير ذي عوج، بتأويـل الجاهلين وانتحال المبطلين، فأصبحتم عن الحق ناكبين، أمواتا غير أحياء وما تشعرون، يا أهل المدينة، يا أبناء المهاجريـن والأنصار والذين اتبعوهم بإحسـان، ما أصح أصلكم وأسـقم فرعكم، كان آباؤكم أهـل اليقين، وأهـل المعرفة بالدين، والبصائر النافذة والقلوب الواعية، وأنتم أهل الضلالة والجهالة، استعبدتكم الدنيـا فأذلتكم، والأماني فأضلتكـم، فتح الله لكم باب الدين فسـددتموه، وأغلق عنكم باب الدنيا ففتحتموه، سـراع إلى الفتنة، بطاء عن السنة، عمي عن البرهان، صم عـن العرفان، عبيد الطمع حلفاء الجـزع، نعم ما ورثكم آباؤكم لو حفظتمـوه، وبئس ما تورثـون أبناءكم إن تمسـكوا به، نصر الله آباءكم على الحـق، وخذلكم على الباطـل، كان عدد آبائكـم قليلا طيبا، وعددكم كثيـر خبيث، اتبعتم الهـوى فأرداكم، واللهو فأسـهاكم، ومواعظ القرآن تزجركم فلا تزدجرون، وتعبركم فلا تعتبرون، سـألناكم عن ولاتكم هؤلاء، فقلتم: والله ما فيهم الذي يعدل، أخذوا المال من غير حله، ووضعوه في غير حقه، وجـاروا في الحكم، فحكمـوا بغير ما أنزل الله، واسـتأثروا

بفيئنا، فجعلوه دولة بين الأغنياء منهم، وجعلوا مقاسمنا وحقوقنا في مهور النساء، وفروج الإماء، وقلنا لكم تعالوا إلى هؤلاء الذين ظلمونا وظلموكم، وجاروا في الحكم فحكموا بغير ما أنزل الله، فقلتم: لا نقوى على ذلك، ووددنا أنا أصبنا من يكفينا، قلنا نحن نكفيكم، ثم الله راع علينا وعليكم، إن ظفرنا لنعطين كل ذي حق حقه، فجئنا فاتقينا الرماح بصدورنا والسيوف بوجوهنا، فعرضتم لنا دونهم، فقاتلتمونا فأبعدكم الله، فوالله لو قلتم لا نعرف الذي تقول ولا نعلمه لكان أعذر، مع أنه لا عذر للجاهل، ولكن أبى الله إلا أن ينطق بالحق على ألسنتكم ويأخذكم به في الآخرة.

ثم قال: الناس منا ونحن منهم، إلا ثلاثة، حاكما جاء بغير ما أنزل الله، أو متبعا له، أو راضيا بعمله»[1].

وهي كلمات إن لم تكن دالة على صفاء الطوية، وصحة المعتقد، ونقاء الفكر، واعتدال المسلك، وسلامة الهدف؛ فليس يصح في الأذهان شيء، فإن كل جملة منها يشع من مفرداتها نور الإيمان، وتعبر عما يعتمل بين حنايا قائلها من الغيرة على حرمات الله، والحرص على طاعته، والنصح لعباده، وكل ما دعا إليه فيها هو من صميم الدين، له أصل أصيل في كتاب الله المبين، وسنة نبيه الهادي الأمين، صلوات الله وسلامه عليه، وهو عين ما دعا إليه السلف الصالح وتمسك به.

وقد أبان فيها أنه لم يكن الهدف من قيامه وقيام أصحابه حاجة في نفوسهم، أو غرضا دنيويا يحققونه، أو إثئارا ممن أصابهم بسوء، وإنما كان همهم كله في إقامة الدين الذي اندرس، وتحكيم الكتاب الذي عطل، وإحياء السنة التي أميتت، والحفاظ على الحقوق التي أهدرت، وصون

---

(١) المرجع السابق، ج٤، ص١٣٢ - ١٣٣، وينظر: جمهرة خطب العرب، ج٢، ص٤٧٦.

الحرمات التي انتهكت، وإعزاز الحــق الذي أذل، وإذلال الباطل الذي أعز، ورفع مقامــات أولياء الله وخفض أقدار أعدائــه، وأن تكون الطاعة لله ولمن أطاعه، وأن تكون القسمة بالسوية شاملة جميع طبقات الرعية.

وأبان أن خروجهم إنما كان استجابة لداعي الرحمن لما دعا، وأنهم أتوا من قبائل شــتى تشــد بعضهم إلى بعض رابطة الإيمان وصلة التقوى، وقد آواهم الله فقواهم بعد الضعف وأعزهم بعد الذل.

وتضمنت خطبته تذكير أهل المدينة بما كان لهم من ســابقة في الخير وأعراق في الفضيلة، فآباؤهم المهاجرون والأنصار، الذين شدوا أزر رسول الله ﷺ، ونصــروا الدين فنصرهم الله، وكيف انقلبوا علــى أعقابهم فانحرفوا عن ذلك النهج ونكصوا عن تلكم الوجهة، وهي كلمات تعرب عن الأســى والحســرة لما وصلت إليه مدينة رســول الله ﷺ، إذ أصبحت بــؤرة للغناء والفساد، وقد ألهى ذلك أهلها عن القيام بالحق، والوقوف في وجه بني أمية الذين ســاموا الناس الخســف وجرعوهم كؤوس الهوان، على أن أعمالهم بالمدينة المنورة لم تكــن من هؤلاء ببعيد، فإن جرائمهم في واقعة الحرة لا تزال مشــاهدها الأليمة منطبعة في ذاكرتهم، وصورها الموحشة مرتسمة في خيالهم، فما بالهم مع ذلك يعضدونهم على باطلهم؟!!.

على أن الخطبة تنم عن حوار سبق بينه وبينهم، صرحوا فيه أن بني أمية يحكمون بالهــوى ويقتلون بالظنة، وأنهم مســتأثرون بالفــيء دونهم، وقد جعلوه دولة بين الأغنياء منهم وســخروه في شهواتهم، وأن أبا حمزة عرض عليهم القيــام فاعتذروا بالعجز عــن ذلك! فوعدهــم أن يكفيهم بمن عنده مؤونة ذلك، وأن يكون الحكم بعد ذلك إلى شــريعة الله العادلة، وأن يتولاه من يزن بموازين القسط ويسير في منهج العدل، ولكنهم عندما قاموا لذلك عرضــوا لهم دونهم وأبــوا إلا أن يقاتلوهم، فآثروا أن يكونوا شــادين على

عضد الظلمة، الذين أخذوا الحكم عنوة بغير حق، وعاثوا في الأرض فسادا.

هذا؛ وقد تضمنت بعض روايات الخطبة أنه دعاهم إلى حكم القرآن وطاعة الرحمن، قبل التلاحم بين الطرفين، ودعوه إلى خلاف ذلك، فكان مما تضمنه هذا النص قوله: «ثم لقينا رجالكم بقديد، فدعوناهم إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن، ودعونا إلى طاعة الشيطان وحكم مروان وآل مروان، شتان لعمر الله ما بين الغي والرشد، ثم أقبلوا يهرعون ويزفون، قد ضرب الشيطان فيهم بجرانه وغلت بدمائهم مراجله وصدق عليهم ظنه، وأقبل أنصار الله عصائب وكتائب بكل مهند ذي رونق، فدارت رحانا واستدارت رحاهم، بضرب يرتاب منه المبطلون، وأنتم يا أهل المدينة، إن تنصروا مروان وآل مروان يسحتكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا، ويشف صدور قوم مؤمنين»[1].

وقال أيضا: «يا أهل المدينة، سألناكم عن ولاتكم هؤلاء، فأسأتم لعمر الله فيهم القول، وسألناكم: هل يقتلون بالظن؟ فقلتم: نعم، وسألناكم: هل يستحلون المال الحرام، والفرج الحرام، فقلتم: نعم، فقلنا لكم: تعالوا نحن وأنتم فنناشدهم الله أن يتنحوا عنا وعنكم، ليختار المسلمون لأنفسهم، فقلتم: لا تفعلون، فقلنا لكم: تعالوا نحن وأنتم، نلقاهم فإن نظهر نحن وأنتم نأت بمن يقيم فينا كتاب الله وسنة نبيه، وإن نظفر نعمل في أحكامكم ونحملكم على سنة نبيكم ونقسم فيئكم بينكم فأبيتم، وقاتلتمونا دونهم..»[2].

وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على تردده عليهم ـ ولعل ذلك في

(١) الأغاني، ج٢٣، ص٢٤٩.
(٢) نفس المرجع، ج٢٣، ص٢٤٨.

مواسم الحج ـ، لتذكيرهم بحقوقهم المهدرة، ووجوب القيام عليهم لنصرة الحق كما نصـــره آباؤهم الأقدمون، ولكنه لم يعيـــروه إلا آذانا صما، لذلك صب عليهم قوارع الإنكار في كلامه، وقد أقام عليهم الحجة بتذكيرهم بحق الله تعالى فيما بأيدي الناس من المال، حيث قال: «يا أهل المدينة، أخبروني عن ثمانية أســـهم، فرضها الله تعالى في كتابه على القـــوي للضعيف، فجاء التاسع وليس له منها ولا ســـهم واحد، فأخذ جميعها لنفسه مكابرا محاربا لربه، ما تقولون فيه وفيمن عاونه على فعله؟!»[١].

ولم يزل وهو ثاو في المدينة يســـتنفر من أهلها نخواتهم، ويحرك أوتار مشاعرهم وشـــعورهم، بتذكيرهم ما هم عارفوه من ســـيرة أسلافهم، ومقارنة ذلك بســـيرتهم، وكان مما قاله في ذلك: «يا أهل المدينة، مالي رأيت رســـم الدين فيكم عافيا وآثاره دارســـة، لا تقبلون عليه عظـــة ولا تفقهون من أهله حجة، قد بليت فيكم جدته وانطمســـت عنكم ســـنته، تـــرون معروفه منكرا والمنكـــر من غيره معروفا، إذا انكشـــفت لكم العبر وأوضحـــت لكم النذر، عميت عنها أبصاركم وصمت عنها أسماعكم، ســـاهين في غمرة لاهين في غفلة، تنبسط قلوبكم للباطل إذا نشر، وتنقبض عن الحق إذا ذكر، مستوحشة من العلم مستأنسة بالجهل، كلما وقعت عليها موعظة زادتها عن الحق نفورا، تحملون منها في صدوركم كالحجارة أو أشـــد قسوة من الحجارة، أو لم تأن لكتاب الله الذي لو أنزل على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله.

يا أهل المدينة، ما تغني عنكم صحة أبدانكم إذا ســـقمت قلوبكم، إن الله قد جعل لكل شيء غالبا يقاد له ويطيع أمره، وجعل القلوب غالبة على الأبدان فإذا مالت القلوب ميلا كانت الأبدان لها تبعا، وإن القلوب لا تلين لأهلها إلا بصحتهـــا، ولا يصححهـــا إلا المعرفة بـــالله وقوة النيـــة ونفاذ البصيـــرة، ولو

---

(١) نفس المرجع، ج٢٣، ص٢٥١ - ٢٥٢.

استشعرت تقوى الله قلوبكم لاستعملت بطاعة الله أبدانكم، يا أهل المدينة، داركم دار الهجرة ومثوى رسول الله ﷺ، لما نبت به داره وضاق به قراره وآذاه الأعداء وتجهمت له، فنقله إلى قوم لعمري لم يكونوا أمثالكم، متوازرين مع الحق على الباطل ومختارين للآجل على العاجل، يصبرون للضراء رجاء ثوابها، فنصروا الله وجاهدوا في سبيله، وآووا رسول الله ﷺ ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، وآثروا الله على أنفسهم ولو كانت بهم خصاصة، قال الله تعالى لهم ولأمثالهم ولمن اهتدى بهداهم ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، وأنتم أبناؤهم ومن بقي من خلفهم، تتركون أن تقتدوا بهم أو تأخذوا بسنتهم، عمي القلوب صم الآذان، اتبعتم الهوى فأرداكم عن الهدى، وأسهاكم فلا مواعظ القرآن تزجركم فتزدجروا، ولا تعظكم فتعتبروا، ولا توقظكم فتستيقظوا، لبئس الخلف أنتم من قوم مضوا قبلكم، ما سرتم بسيرتهم ولا حفظتم وصيتهم ولا احتذيتم مثالهم، لو شقت عنهم قبورهم فعرضت عليهم أعمالكم لعجبوا كيف صرف العذاب عنكم»[١].

وكل هذه العبارات المتدفقة بالحجج إنما كانت تنبعث من الحسرة والأسى على ما أصاب الدين من التبديل، وما لقيت الأمة من الظلم، وما شاع بين الناس من الاستخذاء والاستكانة للظالمين، فزادهم ذلك جرأة على ركوب الظلم والإغراق فيه، وكثيرا ما كان يتعرض لبيان الظلم الذي وقعت فيه الأمة، والفساد الذي انحطت إليه، كقوله في تعداد مثالب بني مروان: «أكلوا مال الله أكلا، ولعبوا بدين الله لعبا، واتخذوا عباد الله عبيدا، يورث ذلك الأكبر منهم الأصغر، فيالها أمة ما أضيعها وأضعفها والحمد لله رب العالمين، ثم مضوا على ذلك من أعمالهم واستخفافهم بكتاب الله تعالى، قد نبذوه وراء ظهورهم»[٢].

(١) نفس المرجع، ج٢٣، ص٢٤٩ - ٢٥٠.

(٢) نفس المرجع، ج٢٣، ص٢٥٤.

وفي استرسـاله في ذكر طغاتهم قال:«ثم ولي يزيد بن عبد الملك، غلام ضعيف سفيه، غير مأمون على شيء من أمور المسلمين، لم يبلغ أشده ولم يؤانس رشده، وقد قال الله ﷻ: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء: ٦] فأمر أمة محمد في أحكامها وفروجها ودمائها أعظم من ذلك كله، وإن كان ذلك عند الله عظيما، مأبون في بطنه وفرجه، يشرب الحرام ويأكل الحرام ويلبس الحرام، ويلبس بردتين، قد حيكتا له وقومتا على أهلهما بألف دينار وأكثر وأقل، قد أخذت من غير حلها وصرفت في غير وجهها، بعد أن ضربت فيها الأبشار وحلقت فيها الأشعار، واستحل ما لم يحل الله لعبد صالح ولا لنبي مرسل، ثم يجلس حبابة عن يمينه وسلامة عن شماله، تغنيانه بمزامير الشيطان ويشرب الخمر الصراح المحرمة نصا بعينها حتى إذا أخذت مأخذها فيه، وخالطت روحه ولحمه ودمه، وغلبت سورتها على عقله، مزق حلتيه، ثم التفت إليهما، فقال: أتأذنان لي أن أطير؟ نعم، فطر إلى النار، إلى لعنة الله وناره، حيث لا يردك الله»[1].

وهي شهادة أدلى بها أمام الجمهور، بما كان يرتكب من قبل المتسلطين من محارم الله تعالى، وما كانوا يتلاعبون به من ماله الذي جعل فيه حقوقا لعباده، ومن المعلوم أن أهل المدينة الذين كان يخاطبهم بهذا كانوا عارفين بجرائم أولئك المتسلطين، وقد أراد أبو حمزة بهذا أن يقيم الحجة عليهم، بأنه لا يسوغ لهم أن يكونوا مع هذه الفئة بعدما انكشفت جرائرها، ووضح لذي عينين ما كانوا يأتونه جهارا من نقض عرى الدين وهتك حرماته.

ولم يكن أبو حمزة ـ مع صبره وصلابته وقوته وجلادته ـ بعيدا عن تأثير العاطفة على نفسه، فقد كان وهو بالمدينة المنورة يدور في ذاكرته شريط ذكريات صاحب الرسالة العظمى، التي أشرق نورها على العالم كله

(١) نفس المرجع، ج٢٣، ص٢٥٤ - ٢٥٥.

من خلال دعوتــه الصادقة في تلك الأرض الطهور، فلــم يكن يملك عينيه وهو تجيش في نفسه هذه الذكريات العزيزة، وتســتأثر بقلبه تلك المواقف العظيمة، ويقارن بين حال المدينة عندما كانت مأرز الإسلام وقلعته الصلبة وحماه المصون، وما آلت إليه عندما تولى شأنها المفسدون ـ كما تولوا شأن الأمة جميعا ـ، فاجتمع فيها الخنا والمجون وعادت مســرحا للهو والغناء، ومظهرا للانحلال والميوعة، عندما عد من أعلامها دلال وطويس وأمثالهما.

فعندمــا أتى أبو حمزة منبر رســول الله ﷺ، وضع جبهتــه في الموضع الذي كان رسول الله ﷺ يضع قدمه فيه، وبكى فاشــتد بكاؤه، ثم قال: «ها، كَمْ قَدم عاص لله، عاملة بغير كتاب الله، مؤثرة هواها على رضى الله ورسوله؛ قد وطئت موضع قدم رسول الله ﷺ ـ بأبي هو وأمي ـ».

ثم استهل خطبته العصماء بحمد الله والثناء عليه، والصلاة والسلام على نبيه ﷺ، وذِكْرِ طَرَفٍ من مناقبه عليه الصلاة والسلام، وكان مما قاله: «إن رسول الله ﷺ أنزل عليه الكتاب وبين له فيه السنن وشــرع له فيه الشرائع، وبين له فيه ما يأتي وما يــذر، فلم يكن يتقــدم إلا بأمــر الله ولا يحجم إلا عن أمــر الله، يمده بملائكتــه ويضمن ظفر عاقبة الأمور، وأمر بالجهــاد فصدع بأمر الله ومضى فيما أمره من مجاهدة أعدائه، ثم قبضه على منهج أنبيائه بعد تبليغه الرسالة وإنذاره وقيامه بالحجة، وقد أعلم الناس معالم دينهم، وأدى الذي عليه من الحق لهم، ولم يذرهم في لبس ولا شــبهة من أمر دينهم، ثم قبضه ﷺ وقد أدى الذي عليه، لم يدعكم من أمركم في شبهة»[1].

(١) كشــف الغمة الجامع لأخبار الأمة، ســرحان بن ســعيد الأزكــوي، ج٥، ص٢٢، تحقيق وتقديم أ. د. محمد حبيب صالح، د. محمود بن مبارك السليمي، ط١، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م. وينظر: المجاهد أبو حمزة الشاري، مجموعة بحوث، ندوة من أعلامنا الثانية، عن المجاهد أبي حمزة الشاري، ص١٠٣، المطابع العالمية، سلطنة عُمان، روي، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.

ومن المعلوم، أن معظم الناس ركنوا إلى الباطل واستساغوا المنكرات وعافوا المعروف، ولهذا كانت نظرتهم إلى أبي حمزة الشاري وأصحابه ـ الذين جاؤوا ليُقَوِّمُوا عودهم ويردوهم إلى جادة الحق ـ نظرة سلبية، ولم يجدوا ما يحطون به أقدارهم إلا أن سوادهم الأعظم كان من فئة الشباب!! فرشقوهم بسهام الاتهام أنهم أهل طيش وسفه، فكانوا يقولون: «هؤلاء شباب أغمار سفيهة أحلامهم»، وقد شاع ذلك حتى نما إلى مسامع أبي حمزة، فوقف في بعض خطبه منبريا للدفاع عن هؤلاء الشباب، مؤكدا أنهم وإن كانوا في مرحلة الشباب فإنهم يجللهم الوقار، ويحليهم الإيمان وتستأثر بهم عبادة الله، ويحدوهم إليه الشوق الملح، فهم رهبان بالليل ليوث بالنهار، وقد أقام الحجة على خصومهم بأن أصحاب النبي ﷺ كانوا أيضا شبابا.

وقد ألبس هؤلاء الشباب من حلية الأوصاف التي صاغتها عباراته المستأثرة بالألباب، المدهشة للعقول، ما عدَّ مثالا حيا لما يجب أن يكون عليه الشباب الصالح، ويتصور أن يرقى إليه من مدارج الكمال ومعارج الشرف.

وقد اختلف الكاتبون فمنهم من ذهب إلى أن هذا الانتقاص كان بالمدينة المنورة، فدافع عنهم أبو حمزة قائلا: «يا أهل المدينة، بلغني أنكم تنتقصون أصحابي قلتم شباب أحداث وأعراب جفاة، ويلكم يا أهل المدينة، وهل كان أصحاب رسول الله ﷺ إلا شبابا؟!.. شباب والله مكتهلون في شبابهم، غضية عن الشر أعينهم ثقيلة عن الباطل أقدامهم، قد باعوا الله ﷻ أنفسا تموت بأنفس لا تموت، قد خالطوا كلالهم بكلالهم، وقيام ليلهم بصيام نهارهم، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن، كلما مروا بآية خوف شهقوا خوفا من النار وإذا مروا بآية شوق شهقوا شوقا إلى الجنة، فلما نظروا إلى السيوف قد انتضيت والرماح قد شرعت وإلى السهام قد فوقت وأرعدت الكتيبة بصواعق الموت؛ استخفوا وعيد الكتيبة، لوعيد الله ﷻ، ولم

يستخفوا وعيد الله لوعيد الكتيبة فطوبى لهم وحسن مآب فكم من عين في منقار طائر فاضت في جوف الليل من خوف الله ﷻ، وكم من يد زالت عن مفصلها طالما اعتمد بها صاحبها في سجوده لله، وكم من خد عتيق وجبين رقيق فلق بعمد الحديد، رحمة الله على تلك الأبدان، وأدخل أرواحها الجنان، أقول قولي هذا وأستغفر الله من تقصيرنا وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب»[1].

ومنهم من عزاه إلى أهل مكة، وذكر أن أبا حمزة خاطبهم بقوله: «يا أهل مكة تعيروني بأصحابي، تزعمون أنهم شباب، وهل كان أصحاب رسول الله ﷺ إلا شبابا؟!.. أما إني عالم بتتابعكم فيما يضركم في معادكم، ولولا اشتغالي بغيركم ما تركت الأخذ فوق أيديكم، نعم شباب مكتهلون في شبابهم، ثقال غبية عن الشر أعينهم، بطية عن الباطل أرجلهم، قد نظر إليهم في جوف الليل، منثنية أصلابهم بمثاني القرآن، إذا مر أحدهم بآية فيها ذكر الجنة بكى شوقا إليها، وإذا مر بآية فيها ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم في أذنيه، قد وصلوا كلالهم بكلالهم، كلال ليلهم بكلال نهارهم، قد أكلت الأرض جباههم وأيديهم وركبهم، مصفرة ألوانهم ناحلة أجسامهم من طول القيام وكثرة الصيام، مستقلين لذلك في جنب الله، موفون بعهد الله منجزون لوعد الله، إذا رأوا سهام العدو فوقت ورماحهم قد أشرعت وسيوفهم قد انتضيت وأبرقت الكتيبة وأرعدت بصواعق الموت استهانوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله، مضى الشاب منهم قدما حتى تختلف رجلاه عن عنق فرسه، قد رملت محاسن وجهه بالدماء، وعفر جبينه في الثرى،

(١) تفسير الطبري، ج٤، ص٣٢٩ - ٣٣٠، الأغاني، ج٢٣، ص٢٥٠، وص٢٥٦، الكامل في التأريخ، ج٥، ص٥٠، شرح نهج البلاغة، ج٥، ص٦٣ وص٦٦، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢١، ص٣٥، جمهرة خطب العرب، ج٢، ص٤٧٥.

وأسرعت إليه سباع الأرض، فكم من عين في منقار طائر طال ما بكى صاحبها من خشية الله، وكم من كف قد بانت بمعصمها طالما اعتمد عليها صاحبها في سجوده في جوف الليل لله، وكم من خد رقيق وجبين عتيق قد فلق بعمد الحديد، رحمة الله على تلك الأبدان، وأدخل أرواحها الجنان»[١].

ولعل هؤلاء وهؤلاء نزعوا هذا المنزع في الاستخفاف بهذه الفئة المؤمنة، التي كان شبابها جمالا لها ووقارا، لأنهم من الصنف الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «وشاب نشأ في عبادة الله»[٢]، فهم موعودون بأن يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله، وقد انبرى قائدهم أبو حمزة يدفع في صدور متهميهم بهذه الحجج الدالة على أن شبابهم لم يكن عارا عليهم، وإنما كان شرفا وفخارا، إذ لم يكونوا من جنس الشباب اللاهي الذي لا هم له إلا أن يتسكع في الطرقات، وأن يغازل الحسان ويحسو الخمور وينغمس في أوحال الرذيلة، ولكنهم كانوا شبابا يتزاحم في قلوبهم خوف الله ورجاؤه، فنذروا لله حياتهم وقدموا إليه مهجهم، ودفعوا في حياتهم ضريبة العرق والأرق والدمع والدم ثمنا لجنة عرضها السموات والأرض.

ونجد الناس مبهورين ببلاغة أبي حمزة، مأخوذين بطلاوة أسلوبه وقوة سبكه في عباراته، ولذلك صارت خطبه من بين الخطب المشهورة في العالم، وصار معدودا من أبرز خطباء العرب، وتصدرت خطبه النصوص الأدبية التي تدرس في فن الأدب، لا سيما المقطع الذي فيه وصف أصحابه

(١) تاريخ ابن خياط، ص٣٨٦، أنساب الأشراف، ج٣، ص٢٣٩، العقد الفريد، ج٤، ص١٣١.

(٢) أخرجه الربيع، ص٣٩ رقم ٤٨، وأحمد (٤٣٩/٢، رقم ٩٦٦٣)، والبخاري (٢٣٤/١، رقم ٦٢٩)، ومسلم (٧١٥/٢، رقم ١٠٣١)، والنسائي في الكبرى (٤٦١/٣، رقم ٥٩٢١)، والترمذي (٥٩٨/٤، رقم ٢٣٩١)، وابن حبان (٣٣٨/١٠، رقم ٤٤٨٦). ابن خزيمة (١٨٥/١، رقم ٣٥٨).

والدفاع عنهم، والحق أن أبا حمزة كان علما في بلغاء العرب، وكانت عباراته من جواهر الكلمات التي تزين العربية، ولكن السرَّ في قوة تأثير عباراته وامتلاكها الألباب، ليس في كلامه فحسب، وإنما هو في الروح الحية الدافقة السارية في كل كلمة من كلماته، وهي روح الصدق والإيمان، والإخلاص لله تعالى والتفاني في نصرة الحق، فلم تكن كلماته تصنعا أو تجملا ليلفت انتباه الناس إليه ويشدهم إلى شخصيته، وإنما كانت نابعة من صميم قلبه وعمق فطرته، بل كانت نبضاتِ قلبه وإيحاءاتِ مشاعره وأحاسيسه، وقد صدقها عمله، وزكاها إخلاصه، وزينها صدقه وأمانته، فكانت كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٢٤ - ٢٥]، فهي كلمات لا تنم إلا عن الحقيقة، ولا تحكي إلا الصدق:

وَإِنَّ أَشْعَرَ بَيْتٍ أَنْتَ قائِلُهُ ... بَيتٌ يُقالَ إِذا أَنْشَدتَهُ صَدَقا

ولم يكن وصفه لأصحابه اعتباطا، وإنما كانت أعمالهم وأحوالهم ترجمة حية لما قاله فيهم.

أبو حمزة وأصحابه في مواجهة أهل الشام:

ما كان للطغاة في الشام أن يسكتوا عن هذا الأمر الجلل، الذي وقع باليمن والحجاز، فأقلقهم وأقض مضجعهم، فإنهم بلا ريب يدركون أن طالب الحق وأبا حمزة لم يكونا ليدعاهم يمرحون في غيهم ويسرحون في هواهم، وإنما قاموا لينتزعوا هذا الأمر من يد الظلم، ويرفعوا عن الناس وطأة العسف والجور، ويعيدوا الحق إلى نصابه، ويحيوا ما أميت من حكم الله ويميتوا ما أحيي من حكم الطاغوت، لهذا أعد مروان الطاغية لمواجهة

هذه الفئة عدته، وأغرى أتباعه بما أجراه عليهم من المال وما زودهم به من العطايا، وكان على رأس جنده عبدالملك بن محمد بن عطية السعدي، وودع أبو حمزة أهل المدينة قائلا: «يا أهل المدينة، إنا خارجون لحرب مروان، فإن نظهر نعدل في أحكامكم ونحملكم على سنة نبيكم ونقسم بينكم، وإن يكن ما تمنون لنا فسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون»(١).

وهو بهذا يؤكد الهدف الأسمى الذي خرج من أجله، وهو العدل بين الناس، وحملهم على سنة النبي المصطفى ﷺ، والقسمة بينهم بالسوية.

هذا؛ مع عدم الذهول عن الغاية الكبرى التي ينشدها هو وأصحابه، وهي الشهادة في سبيل الله، للفوز برضوان الله والانقلاب إلى جنة عرضها السموات والأرض، وعندما التقى الزحفان تجلى الصبح لذي عينين، فوضح لكل أحد ما يحمله كل فريق من فكر ويسعى إليه من هدف، فقد «ذكر ابن الماجشون أن ابن عطية لما التقى بأبي حمزة، قال أبو حمزة لأصحابه: لا تقاتلوهم حتى تختبروهم، فصاحوا فقالوا: يا أهل الشام، ما تقولون في القرآن والعمل به؟ فقال ابن عطية: نضعه في جوف الجوالق، قالوا: فما تقولون في اليتيم؟ قالوا: نأكل ماله ونفجر بأمه، في أشياء بلغني أنهم سئلوا عنها، فلما سمعوا كلامهم قاتلوهم حتى أمسوا»(٢).

نعم؛ إن الفرق لواضح وإن البون لشاسع بين الفئتين، فأبو حمزة ومن معه إنما يقاتلون لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، وما

---

(١) الأغاني، ج٢٣، ص٣٦٢، جمهرة خطب العرب، ج٢، ص٤٨١، شرح نهج البلاغة، ج٥، ص٦٨.

(٢) تاريخ الطبري، ج٤، ص٣٣١، المنتظم، ج٧، ص٢٧٨، الكامل في التاريخ، ج٥، ص٥١، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢١، ص٣٢٥، شرح نهج البلاغة، ج٥، ص٦٨، الأغاني، ج٢٣، ص٣٦٢.

لهم من هم إلا تطبيق القرآن، واتباع هدي الرسول ـ عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسلام ـ، وإنصاف المظلومين، ورعاية اليتامى والمساكين، وإحياء البر وإماتة الفجور، أما ابن عطية ومن معه ممن بعثهم الطاغوت الأكبر بالشام فإن قدر القرآن عندهم أن يلقوه في جوف الجوالق، إذ لا شأن لهم بهدايته ولا أثر له في نفوسهم، فهم حرب عليه وعلى حزبه، وما خرجوا إلا لطمس معالمه والصد عن هدايته والحيلولة بين الناس وبينه، وما حق اليتيم عندهم إلا أن يأكلوا ماله ويفجروا بأمه، وما ذلك إلا لأنهم كذبوا بالدين وسهوا عن الصلاة وغرقوا في شهوات أنفسهم، فلم يحسبوا للآخرة حسابا ولم يقيموا للدين وزنا، ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ١ ـ ٧].

وهل بعد هذا كله، يبقى في نفسك ـ أيها القارئ الكريم ـ ريب أو التباس في الفئة المحقة والفئة المبطلة من هاتين الفئتين، ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

وترى أن أبا حمزة الشاري وأصحابه لم يستبيحوا قتال أهل الشام إلا بعد إقامة الحجة عليهم، مع أنهم ـ بلا ريب ـ آتون لحربهم، وقد سألوهم أولا عن كتاب الله الذي هو الميزان الحق والحكم العدل والقول الفصل، وكان ردهم عليهم ما علمت، وسألوهم عن اليتيم فردوا عليهم ذلك الرد الوقح، الذي لا يدل إلا على غاية الصلف ومنتهى الاستكبار، وهل تبقى بعد هذا لهم من حرمة تمنع من قتالهم؟..

وما كان هذا الموقف الحذر من أبي حمزة ومن معه إلا إمعانا في الحذر من إراقة قطرة دم، إلا بحجة بينة وبرهان من الله تعالى، وليت شعري؛ أي حرمة لدماء هؤلاء تبقى، بعد هذه البذاءة في الكفر والمجاهرة بالفساد والغلواء في العناد؟!.. ولا أعجب إلا ممن استمات في الدفاع عنهم، وتسفيه خصومهم وتضليلهم، بعد قيام هذه الحجج وانكشاف خباياهم، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

وبعد ما أبلى أبو حمزة وأصحابه الشراة بلاء حسنا، أكرمهم الله تعالى بالشهادة، ليجمع لهم كلتا الحسنيين، فقد أكرمهم الله أولا بالنصر والتمكين، لتقوم بأعمالهم الحجة وتتضح بسلوكهم المحجة، ولتشع كلماتهم التي ترددت في الحرمين الشريفين نورا، إذ كانت شهبا تجمع بين سناء النور ولهيب النار، فهي نور يهدي إلى الحق والحقيقة، ونار تشتعل في قلوب الحاقدين، وقد حفظتها ذاكرة التأريخ ووعاها قلب الزمن، لتكون حجة في كل جيل، يهتدي بها المهتدون وينكص عنها الناكصون، وأكرمهم بعد ذلك بالشهادة ليفوزوا برضوانه، ويبوؤا إلى جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا.

بايع صحبه على الشرا وما	طال زمانه إلى أن أكرما
نالوا الشهادة التي قد طلبوا	وبرضى الرحمن فيها انقلبوا

وعندما انقلبوا إلى الله تعالى خفت صوت الحق، الذي كان يجلجل من ألسنتهم بالدعوة إلى الله، وإقامة حجته على عباده، وإيضاح المحجة الصحيحة لهم، إذ عاد الفساد برمته إلى الحرمين الشريفين، فبرز المغنون والمفسدون من جديد، فتجددت حياة الترف والمجون التي امتلأت بها دواوين القصص والأدب ككتاب (ألف ليلة وليلة)، و(الأغاني)، و(محاضرات الأدباء)، و(العقد الفريد).

وبعد أن عـادت الكرة لحـزب الباطل، أعادوا سـيرتهم في التشـفي والانتقام وهتك حرمات الإنسانية، فقد حزوا الرؤوس وقدموها إلى الطاغية في الشـام، ولم يكتفوا بقتل خصومهم وإنما كانوا يصلبونهم، فظل شهداء الحق مصلوبين، إلى أن آل الأمر إلى بني العباس، فأنزلوهم ودفنوهم.

ومع حسـن معاملة أبي حمزة لأهـل المدينة، وصفحـه عنهم، وعدم مؤاخذتهم بجريرة مقاتلتهم له بعد أن وضعت الحرب أوزارها، ما كان منهم بعد أن بلغهم مصرعه إلا أن انقضوا على أصحابه يقتلونهم تقتيلا، حتى من اقتنع بدعوته من أهل المدينة أنفسهم كان جزاؤه القتل.

فكان من بين الذين قبلـوا دعوته من أهل المدينة بشكسـت النحوي، فانقلب عليه أهل داره وقتلـوه فيمن قتلوا، قال ابن الماجشـون: «وقد كان اتبعه على رأيه قوم من أهل المدينة وبايعوه، منهم بشكسـت النحوي، فلما جاءهم قتله وثب الناس على أصحابه فقتلوهم. وكان ممن قتلوه بشكسـت النحوي، طلبوه فرقي في درجـة دار، فلحقوه فأنزلوه، وقتلوه وهو يصيح: يا عباد الله، فيم تقتلونني»[١].

وهذا مما يعزز نظرة أبي الحـر علي بن الحصين عندما اقترح على أبي حمزة أن يؤاخذ أهل المدينة بعد فرارهم ويجهز على أسراهم، لأنهم أخذوا وهم يقاتلون، ولهم مـأوى يرجعون إليه، وقال: «فإن هؤلاء أشـر علينا من أهل الشام، فلو جاؤوك غدا لرأيت من هؤلاء ما تكره»[٢].

وهذا الذي وقع فعلا، ولكن أبا حمـزة كان أحرص على الاحتياط في

(١) ينظر: شـرح نهج البلاغة، ج٥، ص٦٨، ومختصر تاريخ دمشـق، ج٥، ص٦٥، الأغاني، ج١، ص٢٨١ وج٢٣، ص٢٦٢.

(٢) الأغاني، ج٢٣، ص٢٤٤، شرح نهج البلاغة، ج٥، ص٦١.

دينه منه على الحزم في سياسته، ولذلك رد على أبي الحر بقوله: «لا أفعل، ولا أخالف سيرة أسلافنا»، وقد سجل كل واحد من الفريقين بفعله صفحته فكانت صفحة أبي حمزة والحمد لله بيضاء نقية، بينما كانت صفحات خصومه سوداء معتمة.

أبو حمزة الشاري (بين شهادات المنصفين وافتراءات الحاقدين)

من شأن الناس أن يتباينوا في المواقف، بين شاهد بالحق وجاحد له، وهذه هي سنة الله في خلقه، فهؤلاء رسله المصطفون الأخيار لم يسلم أحدهم من قادح حرص على تشويه سمعته وتسفيه دعوته، وحسبنا نبينا ﷺ الذي وصفه من وصفه بالسحر والكهانة، ووصموه بالجنون، واتهموه بافتراء الكذب، مع معرفتهم بصدقه وأمانته، وبروز معجزته التي أخفقت محاولاتهم أن يطمسوا نورها ويخفتوا صوتها، فلا غرو مع هذا إذا وجدنا الناس في أمر حركة طالب الحق وأبي حمزة الشاري بين معجب بها شاهدٍ بأنها كانت على ذروة الحق، وآخر حاقد عليها لا ينطق لسانه فيها إلا بما يغص به صدره من السخيمة والحقد، ولا نريد أن نتعرض للذين سبقوا وتحدثوا عن هذا من أبناء القرون الخالية، وإنما نذكر نماذج وأمثالا مما قاله معاصرون.

شهداء القسط:

لقد شهد لهؤلاء شهداء لم يرعوا في شهادتهم إلا أمانة الكلمة، وصدق الحديث والاعتراف بالحقيقة، وأداء ما فرض الله عليهم من القيام بالقسط والشهادة بالحق، وهذه أمثلة من هؤلاء: ـ

١ ـ المجاهد البطل العلامة الصدوق الشيخ عبدالمعز عبدالستار، الذي وجه إليَّ رسالة عندما دعوته للمشاركة في ندوة أبي حمزة الشاري، التي

عقدت في عام ١٤١٠هـ بمسقط عاصمة سلطنة عُمان، وقد احتوت رسالته ما هو جدير بأن يقال في أبي حمزة، وقد صدر بها بحثه المعنون بـ«تطبيق المبادئ الإسلامية في المواقف العسكرية، بحث مقدم إلى ندوة الاحتفال بالإمام أبي حمزة الشاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ»، ولأهمية هذه الرسالة أنقلها إلى القارئ الكريم، بنصها وفصها:

«بسم الله الرحمن الرحيم

تحية.. وتهنئة.. وتقدير

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه.

سماحة الأخ الجليل العلامة الشيخ أحمد الخليلي مفتي عُمان حفظه الله.. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وعلى آلكم وعامة الأحبة عندكم، حفظكم الله وزودكم التقوى، وجمعنا وإياكم على خير ما يحب ويرضى.

تلقيت بكل اعتزاز وتقدير هذه الدعوة الكريمة، للمشاركة ببحث عن تطبيق الشريعة في المواقف العسكرية، في الندوة التي تقيمها السلطنة الفتية الرشيدة، بلفتة من القائد الموفق السلطان قابوس حفظه الله، احتفالا بذكرى البطل الجاهد المجاهد المختار أبي حمزة الشاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقد سرني هذا الاتجاه الكريم الموفق في السلطنة ورجالها وقادة الشباب فيها لبعث أمجادنا واستعادة تاريخنا وإحياء السير العطرة لرجالنا وأعلامنا، فذلك أمر طبيعي فيكم منتظر منكم، لما جبلكم الله عليه من الوفاء لدينكم والاعتزاز بإسلامكم والتمسك بعقائده وأحكامه وفضائله وآدابه، وما عرف به أسلافكم من الدعوة والجهاد، وهو أهم ما نحتاج إليه اليوم.

إن شـبابنا اليوم في حاجة شـديدة لمثل هذا الولاء لسلفهم، والتعرف على أمجادهم وتاريخهم واتخاذ الأسوة الحسـنة منهم، فنحن في زمن قل فيه الهداة بيننا، فما بد أن نطلبهم من تاريخنا، وقد كان (ابن مسـعود) ﷺ يقول: «من كان مقتديا فليقتد بمن مات؛ فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة».

وقد كان أكثر ما سـرني أن تختار الندوة شـخصية المختار أبي حمزة الشـاري ﷺ، أصدق من آمن بحق وعمل به ودعا إليه وجاهد في سـبيله ونـذر حياته لجهاد الطغاة وشـرى نفسـه ابتغاء مرضـاة الله، حتى قتل فيه وصلب وقتلت معه زوجه في ميدان البطولة والفداء.

إن الشـباب بحاجة إلى أن يتعرفـوا إلى أبي حمـزة وأمثاله في صدق الإيمـان وتطبيق القرآن وقـوة البيان وتحـدي الجبارين وجهـاد الظالمين بالحجة والبيان والسيف والسنان إلى آخر قطرة من دم، حتى صاروا أعلاماً للبطولة والفداء والمقاومة والتحدي.

وما أكثر هذه المثل الرفيعة عند الإباضية والخـوارج، وإن كان كثير من الإباضية يرفضون أن يعدوا فرقة من الخوارج، وهذا صحيح إن أريد بالخوارج الأزارقة والنجدات ومن على شـاكلتهم ممن كفَّرُوا وشـرَّكُوا من عداهم من المسلمين، واستحلوا دماءهم وأموالهم وذرياتهم وديارهم، وانقلبوا كالإعصار المدمر والريح العقيم التي ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم.

ولكن هؤلاء كانوا شـذوذا في القاعدة وفسـادا في التطبيق، فلذلك ما أسرع ما انتهوا وبادوا.

وبقي الإباضية يمثلون الوجه الجميل للخروج على الطغاة والجهاد في سـبيل الله، يرتقون قمة الكمال الإنسـاني في تصنيف البشـر، فما لهم في الناس من نظير.

فالناس ثلاثة أصناف كما قسمهم العلماء:

١ ـ صنف يفنى في ذاته وملذاته وأنانيته وشهواته، ثم لا يبالي إن وسع داره أن يهدم جاره، وهم يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم، وهذا صنف هالك نعوذ بالله منه ولا حديث لنا عنه.

٢ ـ وصنف صلح في ذات نفسه واشتغل بعبادة ربه وتحصيل رزقه، ومن بيته لمسجده ولا شأن له بغيره، وهذا لا بأس به فقد أصلح أمره وعزل عن الناس شره.

٣ ـ وصنف اشتغل بإصلاح نفسه وكسب رزقه كسابقه، لكنه لم يكتف بهذا، بل اشتغل بإصلاح غيره تطوعا واحتسابا، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، وهذا صنف يعتبر بأرفع درجات الكمال الإنساني، الذي يتبوأ ذروته النبيون والمؤمنون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله.

وهم ينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، ولا نعلم قوما انتدبوا لمثل هذا العمل واحترفوا مقاومة الطغيان واحتسبوا تغيير المنكر بالسيف والسنان مثل الخوارج، أو على الأصح الإباضيين، منهم فهم الذي أخذوا أنفسهم بالإسلام عقيدة وشريعة ومنهاجا وتطبيقا بكل إخلاص وقوة، وألزموا أنفسهم الجد والزهد والجهاد في سبيل الله والمستضعفين احتسابا وقربى، في زمان فتحت على الناس فيه الدنيا بزينتها وفتنها كما يدخل الليل على النهار فأزلتهم وأذلتهم، إلا هؤلاء الشراة الذين اعتصموا بالله، فقد بقوا على فطرتهم وثباتهم وصلابتهم، شاكي أسلحتهم كلما سمعوا هيعة طاروا لها. قال ابن عبد ربه: «ليس في الفرق كلها أشد بصائر من الخوارج، ولا أشد اجتهادا ولا أوطن أنفسا على الموت منهم».

ونحن في فتنة الدنيا وبريق الحضارة التي دخلت على المسلمين اليوم بحاجة إلى مسة منهم تكسينا حصانة ومناعة، وتجعل من أبنائنا امتدادا لحياة آبائنا الأولين، وسبيلنا لذلك أن نُحفِّظهم مآثرنا ونربط حاضرهم بماضينا، ورضي الله عن سعد بن أبي وقاص فقد كان يقول: إن كنا لنروي لأبنائنا مغازي رسول الله وسيرته كما نحفِّظهم السورة من القرآن.

ويقيني أن ما أمسك أبا حمزة وأضرابه على الحق والمقاومة إلا روح القرآن والنبي ﷺ وأصحابه، وإنما ابتليت هذه الأمة بالوهن وحب الدنيا وكراهية الموت، لما انقطعت من نبيها وسلفها، وابتليت بمن شوهوا تاريخها وأمجادها، وصنعوا لأعدائها أمجادا كاذبة وبطولات زائفة، فكانوا كما قال شوقي رَحِمَهُ اللهُ:

مثل القوم نسوا تاريخهم   كلقيط عي في الحي انتسابا

فلذلك نحن نستبشر خيرا ونؤمل في جيل جديد من الأباة والحماة والشراة الصادقين، يقفون سدا منيعا في وجه الغزو المادي والمعنوي، ويعيدون لهذه الدعوة مدها وللأمة مجدها، بفضل جهودكم والرجال الصادقين المخلصين من أمثالكم، ونسأل الله أن يزيدكم ثباتا في الخير وعزيمة على الرشد.

وهو سبحانه ولي المحسنين، ويتولى الصالحين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وأصحابه، ومن دعا بدعوته وعمل بسنته ونصح لأمته وجاهد في الله. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

من محبكم عبد المعز عبد الستار

القاهرة ـ غرة صفر ـ ١٤١٠هـ».

* * *

هذه كلماته التي تترجم ما في حنايا نفسه وطوايا ضميره، من الإعجاب والتقدير لشـخصية أبي حمزة وجهاده وسلامة فكره وحسن طويته واستقامة منهجه، وأنه كان مثـال صدق للتعلق بالقرآن والتـزام خطته، والارتواء من معينه والاسـتهداء بنوره، وهي بعض مـن كل من شـهاداته الصادقة لهذه الشـخصية المؤمنة وأصحابها المؤمنين، وكان لبحثه في الندوة ومداخلاته في وقائع النـدوة وأعمالها أثر في إبراز الحقيقة التـي يجادل فيها كثير من الناس فيما يتعلق بأبي حمزة وفكره.

وقـد تولى طبع هـذا البحث على حسـابه، وقدمه هدية إلى الشـباب العُماني عامة، بمناسبة افتتاح جامع السـلطان قابوس الأكبر في شهر صفر ١٤٢٢هـ، وأدلـى بتصريـح لتلفزيون سـلطنة عُمان ربط فيه بيـن المآثر الحاضـرة والأمجاد الماضية، وأشـاد بدور أبي حمـزة التأريخي مذكرا به الشباب الحاضر ليتخذ منه قدوة صالحة وأسوة حسنة.

٢ ـ الداعية المخلص المجاهد الشـيخ الدكتور إبراهيـم زيد الكيلاني، الذي أعدَّ بحثا تضمن دراسـة تحليلية لخطب أبي حمزة الشاري، وقدم بين يدي هذه الدراسة ما نصه: «إن الدارس لخطب أبي حمزة الشاري يجد جذوة من وهج العقيدة ونورها، ثبتت للخطوب جميعا واسـتعصت على الأحداث جميعا، تخاطب المؤمن بإيمانه وتستثير ساكن وجدانه، وتذكر في قلبه معاني قرآنه، وتهتف به أن ينصر الحق كما نصره أصحاب رسول الله ﷺ، وتتخذ من آيات الكتاب وسيرة المصطفى ﷺ وسير أصحابه رضوان الله عليهم منطلقات للدعوة، وحججـا للداعية يظهر بها الحـق وتبطل الباطـل، وتواجه الحكام الظالمين بظلمهم وتعلن منذ ذلك العصر أن السـيادة للشرع، والسلطان للأمة المطالبـة بإقامة أحكام الله، فإذا ما خرج الحاكم عـن حكم الله تعالى، وجب على الأمة صاحبة السلطان التي فوضت الحاكم بالإمامة أوالخلافة عزله.

وحتى تعرف الأمة حقها وتدافع عنه وتضحي من أجله، لا بد أن يقوم العلماء ورجال الأدب والفكر بالتوعية الإيمانية، التي يوظفون فيها الأدب لخدمة الدعوة، وهذا ما نجده في خطب أبي حمزة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

والدارس لخطب أبي حمزة دراسة متدبرة يمكن أن يجد الخصائص التالية:

١ ـ جذوة متوقدة تحملها خطبه المستعرة بهموم المجتمع الإسلامي، لم تخمد ولم تمالئ ولم تهادن، ولم تقبل بأنصاف الحلول.

٢ ـ استثارة مبادئ العقيدة وقيمها من أجل التوعية والإعداد لمقاومة الظالمين، فمبادئ التوحيد والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر معالم واضحة في خطبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٣ ـ حسن الاستشهاد بالنصوص القرآنية وحوادث التأريخ لنصرة الحق ومقاومة الباطل.

٤ ـ الحوار مع الشعب من أجل تبصيره بقضاياه وتوعيته للمطالبة بحقوقه.

٥ ـ تصوير الظلم والاستبداد بأبشع صوره.

٦ ـ مواجهة الحكام الظالمين بجرائمهم.

٧ ـ مواجهة الشعب بأمراضه، ومنها سكوته على الظالمين، في سبيل بعث الوعي الثوري في نفوس الجماهير.

هذا أبو حمزة وهذه خطبه: جذوة مضطرمة يختلف عليها الليل والنهار، وتتعاقب عليها السنون وهي متوقدة لا تخبو نارها، ولا يضعف وهجها، هذه الجذوة المضطرمة التي استعصت على الموت لأن الفكر الذي حملها فكر حي، والقلب الذي حملها قلب خافق بمعاني العقيدة الحية، والدماء التي

سالت من أجلها لا تزال فوارة في قلوب المؤمنين تمدها بأسباب الحياة.

فكتب الله الخلود لخطب أبي حمزة الشاري، ولا تزال الأجيال تتلوها وتعيش معها حرارة المواجهة مع الباطل ونار المعركة ودروس الإيمان والصبر في مواجهة الظلام والظالمين، هذه الجذوة الخالدة هي التصوير الصادق لأدب أبي حمزة الشاري وخطبه وحياته.

إنه القلب الموصول بالله.. الموصول بكتابه، المتلظي بهموم دعوته المستعلي على الباطل وبهرجته وطغيانه وسلطانه وجنده، الذي يجعل من الخطوب المتلاحقة والهموم الثقال، والبأساء والضراء تنتابه وتنتاب أخوانه؛ وسيلة كريمة لإذكاء روح المقاومة والجهاد، ليمس بها قلوب الناس ومشاعرهم ويستثير بنارها هممهم وعزائمهم.

وإذا أعطت خطبه وآثاره في حياته عطاءها، فإنها بقيت بعد موته تشهد بحياة أصحابها، كما يشهد هذا الملتقى الفكري بحياته بعد قرابة نيف وثلاثة عشر قرنا، وما أجل تعبير شهيد الإسلام سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن هذا المعنى بقوله: «إن كلماتنا عرائس من الشمع، إذا متنا في سبيلها أضاءت ودبت فيها الحياة».

اقرأ هذه الخطب.. كأنها بنت عصرنا هذا، تقرأها حية جديدة خصبة معطاءة متصلة تصور صاحب العقيدة صلبا لا يعرف المرونة، ماضيا لا يعرف التردد ثابتا في الحق لا يعرف لينا، لا يتلون تلون الحرباء حسب الظروف والمناسبات ويلبس لكل عهد لبوسه ولكل حكم جبته».

ثم أضاف إلى ذلك قائلا:

«ويحسن وصف شخصية أبي حمزة الشيخ أبو العباس أحمد بن سعيد الدرجيني رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيقول: «أما أبو حمزة، فأسد في الحرب، المستعد للطعن

والضرب، ليث في الهيجاء إن ركب وغيث في الآراء إذا وهب، وبحر عجاج إذا وعظ واختطب، الحصر يعدوه قصر أو أسهب، ذو رفق ولين لأولياء الله المتقين، وذو غلظة على الشاقين، وجميع إخوانه على هذه الطرائق متخلقون بمحمود الخلائق، ليس من الكل إلا جاهد أو مجاهد محالف الأرق ساهد، قاطع ليله في الهجود، بالركوع والسجود، وتلاوة القرآن والضراعة إلى الرحمن، والحراسة في سبيل الله، وكف أعداء الله، منفذ أيام العمر في إحياء العلوم وإنجاد المظلوم ومحو ما ارتسم للباطل من الرسوم، هاجروا في سبيل الله الأوطان والمال وربوا بأنفسهم عن اتخاذ النشب والمال، وآثروا أولياء الله وقاتلوا أولياء الشيطان، وشرفوا أنفسهم ابتغاء الرضوان، فلم يلتفتوا إلى زهرة الحياة الدنيا، حتى فارقوا ثوب المحيا، فودع كل منهم حميدا».

ويبين لنا من هذا النص الصفات التالية:

١ ـ التقوى والعبادة.

٢ ـ كرم النفس والرفق واللين لأولياء الله.

٣ ـ الشدة والحزم في مواجهة أعداء الله.

٤ ـ الجهاد في نصرة الدعوة والهجرة في سبيل الله والتضحية بالنفس والمال.

٥ ـ إفناء سني عمره في إحياء العلوم وإنجاد المظلوم ومحو ما ارتسم للباطل من الرسوم.

ونجد صفات أبي حمزة هذه نموذجا كريما للشخصية الإسلامية التي وصفها الله بقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩].

كما نجد أبا حمزة في خطبته التي وصف فيها أصحاب النبي الكريم. وكان أبو حمزة بهذه الأخلاق أهلا لأن يقود جماعته، وتكون خطبه صادرة من قلب صادق مخلص محترق بهموم المسلمين، وما خرج من القلب دخل إلى القلب بغير استئذان، وهكذا كانت خطب أبي حمزة في حرارتها ووهجها وصدقها صورة ناطقة عن قلبه المحروق، ونفسه الملتهبة وعطشه لنصرة الحق، وإقامة معالمه.

ولعل هذه الأبيات التي أنشدها أبرهة بن الصباح الحضرمي رفيق أبي حمزة وعضده في مواجهة جيش عبدالله بن عطية، تصور تصويرا رائعا عظم المواجهة وحرارة الموقف التي عاشها أصحاب العقيدة في نصرة الحق:

أنا الغلام الحضرمي الشاري مهذب لا يصطلي بناري

جوركم جنبني قراري وجاء بي من وطني وداري

حب جلاد القوم في الصحاري». اهـ[1]

وهي شهادة حق ما أريد بها إلا وجه الله من قلب مفعم بحب الحق، ولسان ناطق بالصدق، جسدت الواقع وصورته كما ينبغي أن يتصور، وبددت ما نسجته أحقاد المغرضين من الصورة الكاذبة المشوهة لهذه الشخصية المؤمنة الفذة.

٣ ـ العالم المفكر الكاتب المخلص الشيخ الدكتور عبدالعزيز المجدوب (من علماء جامع الزيتونة بتونس الخضراء) أعد بحثا بعنوان «أبو حمزة الشاري حركته وأبعادها وأسباب انحسارها»، جاء فيه ما نصه:

«إن أبا حمزة الشاري من أصدق أسلافنا إيمانا وأخلصهم عملا،

---

(١) المجاهد أبو حمزة الشاري، ص ٢٧ ـ ٣٠.

وأخشاهم لله في خلقه وأشدهم عطفا وغيرة على الناس، ومن أكثرهم حرصا على إنقاذهم مما يعنتهم، وما كانوا يرزحون تحته من ظلم النفس وظلم الإخوان وظلم السلطان، أو هو كما وصفته بعض المصادر: ليث في الهيجاء إذا ركب، وغيث في الآراء إذا وهب، وبحر عجاج إذا وعظ واختطب، ذو رفق ولين لأوليائه المتقين، وغلظة على الشاقين»[١].

ثم قال مبينا ظروف ثورة أبي حمزة ودوافعها: «إن هذه الثورة في واقع أمرها تعد امتدادا لثورات متتابعة أو لكفاح متواصل لم ينقطع منذ قامت الدولة الأموية إلى أن انقرضت، فهي حركة تصحيحية أو إصلاحية كان لا بد أن تظهر، وقيض لها الله من يشري نفسه ابتغاء مرضاته، وبيد الأقدار بعد ذلك وقبله أن تنجح أو تفشل».

وأضاف إلى ذلك: «قامت دولة بني أمية على غير ما يرضي الله ورسوله وألغت الخلافة وما فيها من مبدأ الشورى وحولتها إلى ملكية بل قيصرية أو كسروية، تسلم فيها يزيد مقاليد الأمور من بعد أبيه، وهو من سقط المتاع!! ومن أحقر الناس خلقا وسلوكا!! ثم كان من بعده آل مروان تداولوا الحكم فيها واحدا من بعد آخر، إلى آخر خليفة فيهم مروان بن محمد، الذي على يديه دالت دولتهم، وقامت على أنقاضها الدولة العباسية، وعليه وعلى ولاة الأمر لديه كانت ثورة أبي حمزة.

وأهم ما كان سببا في قيام أبي حمزة وخروجه ما أمست عليه الأحوال في ذلك العهد، فقد ساءت على المستوى الديني والخلقي والاجتماعي، وبعد ما بينها وما كانت عليه في فجر الإسلام وفي زمن الرسول ﷺ، يؤكد ذلك التأريخ، وقد ألح في وصفه أبو حمزة في سائر خطبه ويلمسه كل من

(١) المصدر السابق، ص١٣.

يعود إلى خطبه التي ألقاها بمكة أو بالحـرم النبوي بالمدينة أو بغير هذين الموضعين، وكل من يقف على محاوراته مع خصومه أو مع عموم الناس»(١).

ثم صور الواقع تصويرا حياً مقتبسا ومضات من كلام أبي حمزة في خطبه، ثم عاد وأثبت أن الناس رأوا في حكم طالب الحق باليمن وأبي حمزة الشاري أسلوبا جديدا في تدبير الأمور وفي سياسة الرعية وأضاف: «هذا الأسلوب الذي عرفته الأمة في ظل الخلافة الراشدة ثم اختفى، أمن الناس فيه على أنفسهم وأموالهم، ونال فيه المستضعف حقه ولقي فيه الظالم جزاءه»(٢).

ثم أخذ يصف كيف اشترى بنو أمية ضمائر الناس حتى صرفوهم عن الحق، فلم تجد فيهم موعظة أبي حمزة البليغة وحجته الدامغة، ولم يؤثر فيهم لطف معاملته لهم وحسن تصرفه في شؤونهم، وكان مما قاله في هذا:

«إن من اشترى بنو أمية هممهم وامتلكوا قلوبهم حتى أضحوا يعتبرون الشراة أعداء لله لا يمكن أن يقنعوا أن أعداء الله هم الذين لم يجعل الله لهم طاعة على الخلق، فاستبدوا وظلموا.

والناس بمقتضى سياسة بني أمية ألفوا الخضوع والاستكانة واستمرأوا حياة الاستسلام واللامبالاة، وطاب لهم عيش اللذائذ ومقارفة المعاصي... كل ذلك أمسى في اعتقادهم قدرا لازما ما دام حكام البغي وأعوانهم وعمالهم قد علموهم أن الجبر حكم الأقدار، وأنه لا حرية للعبد ولا اختيار، وطبيعي فيمن كان هذا شأنهم أن لا يغيروا ما بأنفسهم، لذلك حرص أبو حمزة أن يجوس خلال النفوس ويحاول أن يبعث فيها حافز الخير

(١) المصدر السابق، ص١٤ – ١٥.

(٢) المصدر السابق، ص١٨.

والإحساس بالواجب، ويحيي فيها الشعور بالمسؤولية، فطالب وهو بمكة وبالمدينة في شخص واليه، كل فرد من أفراد الأمة بأن يرعى الأوامر والنواهي الدينية، وأن يؤمن بأنه حر ومسؤول عما يفعل، وأن لا يستمع لدعوى أن الله يكلف عبده ما لا طاقة له به، وتؤكد الآثار المكتوبة أن الأحوال تحسنت تحسنا واضحا ملموسا، وأن عمل الصالحين المصلحين قد أثمر رغم قلة عدد المتعاطفين، وما كان للأغلبية إلا أن تخضع وتظهر الطاعة، وإن هي أخفت حقدا دفينا وعداء ظهرت آثاره يوم خروج الإباضية من المدينة ثم من مكة، فيما أظهروا من شماتة وما ألحقوا بهم من ألوان التنكيل والتقتيل!!»[1].

ثم عرج على الأسباب التي أدت إلى تقويض دولة الشراة مع ما كانوا يتصفون به من حسن السياسة مع الشجاعة النادرة والتضحية في جهاد الأعداء، وحصر الأسباب فيما يلي:

أولاً: ما شهدت به الأخبار وأثبتته المصادر أن الشراة أبعد الناس عن العدوان والظلم، وأبعدهم كذلك عن الانتقام لا في حرب ولا قتال ولا في حالة السلم، شأنهم التسامح والعفو والتزام سيرة السلف الصالح في ذلك، وما يستلزمه التعاطف الأخوي في الدين، كل هذا وإن كان مكرمة بل واجبا فهو لا يقابل من قبل اللئام إلا بالاستخفاف من إضمار الحقد وتحين فرصة الغدر، جاء في كتب الشراة التي قدم بها أبو حمزة على عبدالله بن يحيى هذه الوصية: «إذا خرجتم فلا تغلوا، واقتدوا بسلفكم الصالحين، وسيروا سيرتهم، فقد علمتم أن الذي أخرجهم على السلطان العيب لأعمالهم»، ولما انهزم أهل صنعاء أراد أبرهة بن الصباح اتباعهم فمنعه طالب الحق الذي «جمع الخزائن والأموال وأحرزها» بدل تبذيرها وإضاعتها. وأرجع عامل مروان على المدينة

---

(١) المصدر السابق، ص١٩.

رسول أبي حمزة وقد جاءه واعظا داعيا إلى الخير قائلا له: «ارجع إلى أصحابك فليس بيننا وبينهم إلا السيف» فما زاد أبو حمزة على أن قال: «كفوا عنهم ولا تقتلوهم حتى يبدأوكم بالقتال»، وموقف عنهم مأثور ومنهم معروف وهو أنهم لم يقاتلوا إلا من يبدأ بمقاتلتهم، وألح علي بن الحصين على أبي حمزة أن يأذن له بملاحقة أهل العدوان منهم ومعاقبتهم فأبى أبو حمزة رغم قوله له: «إن هؤلاء شر علينا من أهل الشام، فلو قد جاؤوك غدا لرأيت من هؤلاء ما تكره»، فما كان جواب أبي حمزة إلا أن قال: «لا أفعل ولا أخالف سيرة أسلافنا»، بل إنه هم أن يطلق سراح بعض الأسرى لولا أن منعه ابن الحصين وقال له: «إن لكل أهل زمان سيرة، وإن هؤلاء لم يؤسروا وهم هراب، وإنما أسروا وهم يقاتلون، ولو قتلوا في ذلك الوقت لم يحرم قتلهم وكذلك الآن قتلهم حلال» وبعد الهزيمة بسبب مكر أهل مكة وتعاونهم مع جيش مروان، ذكَّر ابن الحصين إمامه أبا حمزة بأن هذا ما كان ليحدث لو أنه مارس الشدة مع من أخذهم باللين، بل إنه قد كان حذره من شرهم من قبل المعركة، قال: «إني قد أشرت عليك اليوم أن تضع السيف في هؤلاء، فإنهم كفرة فجرة، ولو قدم عليك ابن عطية لكانوا أشد عليك منه، فقال: «لا أرى ذلك لأنهم قد دخلوا في الطاعة وأقروا بالحكم، ووجب لهم حق الولاية. قال: إنهم سيغدرون فقال: أبعدهم الله ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح: ١٠].

ثانياً: السبب الثاني وليس بمنفصل عن الأول في الحقيقة هو الغدر، وقد كان لا بد من توقعه وتوقيه من أهل المكر ممن ألفوا الرياء. كان هذا سببا واضحا لحصول الهزيمة وفشل الجماعة.

ثالثاً: وفاء أبي حمزة بالعهد رغم استشعار الخطر، قال في بعض المواقف التي يضعف فيها الرجال ويخونون «معاذ الله أن ننقض العهد أو نخيس، والله لا أفعل ولا أفعل ولو قطعت رقبتي هذه».

الرابع: لجوء الأعداء من الأمويين إلى شتى الوسائل التي يمكن أن تحقق أهدافهم، من ذلك ما يبذلون من رشاوى بلا حساب لاصطناع الجيش واشتراء همم الناس».

الخامس: وهو سبب محتمل، يمكن استنتاجه من خبر أورده (فلهوزن)، وفحواه أن الشراة قد سمحوا لغير الإباضية من الفرق والطوائف الأخرى أن يدخلوا في زمرتهم ليكونوا أعوانا على الأمويين، إن صدق هذا الخبر فإن من بين الداخلين في زمرة الشراة من قد يكون من طبعه الغدر والمخادعة؛ الأمر الذي ربما ساهم فيما أصاب الجماعة وفي حصول ما حصل، لا سيما إذا أدركنا مقصد الباحث بقوله: «لكن هذا مبدأ سياسي ولا يتفق مع مذهب الخوارج» ويشير بذلك إلى المبدأ الذي يقول «من ليس ضدنا فهو معنا» فإذا ما سلمنا بذلك وأضفنا إليه قوله في نفس الموضع «لم يشأ أبو حمزة أن يتخذ إجراءات شديدة لحماية نفسه من غدر أهل مكة، ولهذا كانت مقاومته عبثا» فإنه يمكن القول بأن أبا حمزة وإن كان مقاتلا مقداما وفارسا مغوارا فإنه ليس عسكريا ـ بالمعنى المستحدث ـ أي أنه لم يكن سفاحا يستعذب التقتيل، تواقا إلى اضطهاد الناس، وأن ثورته لم تكن حركة ثورية تمردية اعتسافية، لا من حيث دوافعها ولا من حيث أهدافها، بل إنه ليس من الخطأ إذا قلنا مع من قال إن هذه الثورة أقل أهمية من سابقاتها من الناحية السياسية ولكنها أقرب إلى مذهب الخوارج، وهو يعني أنها ثورة ثقافية إن جاز هذا التعبير، لهذا كان من اللازم أخذ الاحتياطات، بل إن من العصمة حماية مثل هذه الثورات بما ينبغي لها من وسائل الحماية المادية»[(١)].

ثم أضاف إلى ذلك: «وأحسب أنه يحق لي القول: إن الشراة إلى جانب ما سجلوا من نتائج باهرة على المستوى الإصلاحي دينيا وخلقيا واجتماعيا..

(١) المصدر السابق، ص٢٠ - ٢٢.

فإنهم أقاموا ـ ولو لمدة وجيزة ـ دولة إباضية وسعت الحجاز ومعظم أطراف الجزيرة، وهذا غنم سياسي يضاف إلى قائمة ما استطاعوا أن يقيموا من دول بالمشرق والمغرب، وهو كذلك غنم لا يوصف إذا ما استحضرنا أن بزوال هذا الحكم قد زال حكم بني أمية، وهو الهدف الأساسي من قيام هذه الثورة وما سبقها منذ قامت دولتهم». اهـ[1].

وهي كسابقاتها من الشهادات الصادقة صدرت من قلب يؤمن بما يقول من الحق، فلم يبال إن رضي الناس عما يقوله أو سخطوا، وإنما المهم هو رضى الله تعالى القائل: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾ [الأنعام: ١٥٢].

٤ ـ الشيخ الفاضل الوفي محمد شحاته أبو الحسن (من جمهورية مصر العربية) المدرس بمعهد القضاء الشرعي سابقا، وقد أعد بحثا بعنوان «أبو حمزة الشاري المختار بن عوف القائد الداعية» وبحثه من أوله إلى آخره مليء بذكر مناقب أبي حمزة وصدق لهجته وإخلاصه في دعوته، وحرصه على نصرة الحق، وهو مليء كذلك بذكر جرائم الطرف الآخر الذي قام عليه أبو حمزة، وإمامه طالب الحق، وكان مما قاله:

«فمن لنا بأبي حمزة وأمثاله...

يوقظ الهمم ويوحد الجهد ويدعو الأمة إلى ما أراده الله لها خير أمة أخرجت للناس، تحمل تكاليف دينها راضية، وتقف في وجه تيارات الإلحاد التي سلبت البشرية كل فضيلة، وتجاهد في سبيل الله ليكون الدين كله لله.

إن المتأمل في خطب أبي حمزة يجد أنها تتميز بالدعوة إلى منهج الله، وهي تتسم بهذه السمات في جميع مراحلها واتجاهاتها»[2].

(١) المصدر السابق، ص٢٣.

(٢) المصدر السابق، ص٨٣.

وقال أيضـا: «إن المتأمل في نهج أبي حمزة الشـاري الذي بينه وأعلنه على منبر رسـول الله ﷺ يجد أن حديثه لم يكن خطبة منبرية، ولا نصا أدبيا يتناوله النقاد بالدراسة، ويستعرضون ما فيه من بلاغة وقوة تعبير.

لقد كانت خطبته عرض منهج يشرح فيه ـ بصدق وأمانة ـ الدافع الذي أخرجه وصحبه من ديارهـم وأموالهم، إنهم لم يخرجوا طلاب دنيا أو ملك يخوضون فيه.

إنهم طلاب حق يعلمون أنهم قلة، وكذلك أتباع الحق في كل زمان ومكان، وما مدح الله الكثرة في أي موقف، وهـل كان أصحاب الأنبياء والصالحين إلا قلة، وقد قال الله فـي أصحاب طالـوت﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩ ـ ٢٥١].

وقد ثبّت رسول الله ﷺ دعائم الدين بالمؤمنين القلائل الذين واجه بهم ومعهم ـ في قلة من العَدَدِ وضعف من العُدَدِ ـ قوى الشرك على ـ تنوعها ـ وملأوا الدنيا بكلمة التوحيد.

وكما قال عبد الله بن الزبير: أما بعد.. فإنه لـم يعز من كان الباطل معه، ولو كان معه الأنام طرا، ولم يذل من كان الحق معه، ولو كان فردا.

حقا أرأيتم بلج بن عقبة، معه ستمائة من أمثاله ـ فتوة وعقيدة ـ يقابلون جيشـا يأكل الفضائل ويطمس معالم الحق ولا تأخذه لومة لائم، فيقابلونهم غير هيابين لا تهمهم النتائج، فهي بين يدي الله يفعل بهم ما يشاء، إنها الفئة المؤمنة في كل وقت وزمان تواجه الباطل لا يعنيها انتفاشه وبطره وفجوره، بل يعنيهم أداء الواجب على أحب ما يريد الله.

قال مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: خطبنا أبو حمزة خطبة شكك فيها المستبصر وردت المرتاب.

قال: أوصيكم بتقوى الله وطاعته والعمل بكتابه وسنة نبيه ﷺ وصلة الرحم وتعظيم ما صغرت الجبابرة من حق الله وتصغير ما عظمت من الباطل، وإماتة ما أحيوا من الجور وإحياء ما أماتوا من الحقوق وأن يطاع الله ويعصى العباد في طاعته، فالطاعة لله ولأهل طاعة الله، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ والقسم بالسوية والعدل في الرعية، ووضع الأخماس (الزكاة) في المواضع التي أمر الله بها.

إنها الدعوة إلى منهج الله الذي يحيي هذه الأمة، إنه إعلان المبادئ الذي يعلنه أبو حمزة الشاري من فوق منبر رسول الله ﷺ، تلقَّاه من طالب الحق وعاهده على أن يدعو إليه حياته.

أين هذا القول الخاشع الصادق من قلب يخاف الله ويتقيه ويدعو إلى تصورات الإسلام الصحيحة ويوصي بالتقوى وطاعة الله ورسوله والعمل بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ مثل قوله: «فالطاعة لله ولأهل طاعة الله»، وكذلك «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

أين هذا الموقف الكريم من صاحب دعوة تعشقها؟!.

أين تلك الوصية التي تفيض بمعاني الإيمان وحبه من فجور بلغ حدته، ومن أمراء خانوا الأمانات وضيعوا حلاوة التطبيق لكل ما جاء به الإسلام من خير؟! إن مخازيهم مزرية...

بلغ هشام بن عبدالملك أن ابنه سعيد يزني ويسكر، فأشخصه وقال له: يا ابن الخبيثة (هكذا!!) تزني وأنت ابن أمير المؤمنين!! ويلك! أعجزت أن

تفجر فجور قريش!! أوتدري ما فجور قريش لا أم لك؟ قتل هذا وأخذ مال هذا؟، أرأيتم هذه واحدة من مفاسد هشام.

هل هذه وصيـــة خليفة يربي ابنه على أن يفجر فجـــور قريش؟ أن يقتل نفوسا حرم الله قتلها إلا بالحق، وأن يسلب الناس أموالهم.

أما مخازي الوليد بن يزيد بـــن عبدالملك فلا تقل جرأة على حدود الله عمن سبقه، فقد كان أشد على الأمة من فرعون على قومه.

تعشق سعدى وسلمى ابنتي سعيد بن عمرو بن عثمان بن عفان، عكف على البطالة وحب القيان والملاهي ومعاشقة النساء.

وإن المرء ليستحيي مما تذكر كتب التاريخ من مخازيه (عدو الله)... ذكر ابن عبد ربه قال: قال إســـحاق بن محمد الأزرق: دخلـــت على منصور بن جمهور الكلبي بعد قتل الوليد بن يزيد بـــن عبدالملك وعنده جاريتان من جواري الوليد، فقال لي اســـمع من هاتين الجاريتين ما تقـــولان، قالتا: قد حدثنـــاك، قال: بل حدثاه كمـــا حدثتماني، قالت إحداهمـــا: كنا أعز جواريه عنده، فنكح هذه وجـــاء المؤذنون يؤذنونه بالصلاة فأخرجها وهي ســـكرى جنبة متلثمة فصلت بالناس.

نستغفر الله العظيم، ونعوذ به من فعل هذا الفرعون.

هذا الذي دفع أبا حمزة الشـــاري وأصحابه إلى أن يتحملوا مسؤولياتهم فجزاهم الله عنا وعن الأمة أجزل الثواب»[1].

وبعد تطواف طويل في أحوال بني مروان ومـــا عانته الأمة منهم، عرج على خطـــب أبي حمزة المختـــار يحلل جواهر كلمها، ويكشـــف عن القيم

(١) المصدر السابق، ص١١٠ - ١١٢.

الإيمانية التي احتوت عليها، وعندما جاء إلى خطبة له قصيرة قال: «يمكننا أن نعتبر هذه الخطبة ذات اتجاه في الدعوة غايته أن يعد الداعية ويربي نفسه تربية إيمانية تشعر المؤمن بتبعاته وواجباته نحو عقيدته ودينه، إنه يفتح بصيرة المجاهد من فتيانه على ما يحيط به من خروج على الحق وانتشار الفتنة، حتى طال ظلام ليلها وملأت شدتها صدور المؤمنين هموما، أين المخرج وكيف الخلاص، ولقد تجبر أهل الباطل فقادوا الناس إلى مهاوي الهلاك حتى أعمت أعينهم وصموا، فغفلوا عما أوقعهم فيه غلاتهم ولم يستبينوا النصح لا ضحى الغد ولا بعده... لأن القائم ألقى شباكا معقدة أحكم رتاجها على أصحاب الحق، يراقبهم ويعد خطواتهم ويتأول أفعالهم وأقوالهم بما يجد فيه مبررا لإحكام القبضة ونشر الباطل حتى ساد الظلام ودب اليأس في النفوس....

ثم قال: ولله في خلقه شؤون وهو سبحانه مدبر الأمر، بيده تدمير كل جبار عنيد، يهد أعمدة الظلم وينزع أوتاد الباطل ويقيض بفضله وكرمه من يحمي حماها ويهب نفسه لنشر ضياء الإسلام في ربوعها، يتصل بالله اتصال عزة، ويستمد منه العون على حمل الأمانات، يفاصل بين منهج حياته وحياة المشايعين للباطل.

إنها منهاج تربية ونظام حياة لعبد اصطفاه الله ليكون هو الذي ينقذ الأمة مما تقاسيه، ما أحوجنا لهذا النوع من عباد الله الذي يمن بهم على أمة نبيه ليجددوا الأمل في أن تتبوأ مكانتها وتتسلم قيادة البشرية إلى نور الله سبحانه.

إنها كلمة، رغم إيجازها، كبيرة القدر كثيرة المعاني عميقة الإخلاص، قال: «أما بعد.. فإنك في ناشئ فتنة وقائم ضلالة، قد طال جثومها واشتدت عليك همومها وتلوت مصائد عدو الله منها، وما نصب من الشرك لأهل الغفلة عم في عواقبها، يهد عمودها.

ولن ينزع أوتادها إلا الذي بيده ملك الأشــياء وهو الرحمن الرحيم، ألا وإن لله بقايا من عباده لم يتحيروا في ظُلَمِهَا ولم يشايعوا أهلها على شبهها، مصابيح النور في أفواههم تزهو وألسنتهم بحجج الكتاب تنطق، ركبوا منهج السبيل وقاموا على العلم الأعظم، هم خصماء الشيطان الرجيم، بهم يصلح الله البلاد ويدفع عن العباد، طوبى لهم وللمستصبحين بنورهم»[1].

واختتم بحثه بذكر المعاني الســامية التي يتحلى بها عباد الله المؤمنون ثم قال: «كل هذه المعاني الســامية الرفيعة، والمثل العليا تشــربها وعاشها وتلقاها القائد الفقيه الداعية مــن إمامه طالب الحق الإمام عبدالله بن يحيى. لقد التقيا على طريق الحق، وتوحد هدفهما من أول الطريق.

أبو حمزة الشــاري رضــع مبادئ الحــق والعدل والمســاواة من تربته المعطاء، في مركز الإشــعاع الإســلامي في ذلك الزمن الفتي الناضج، في ذلك الموضع الوضيء المبارك بالبصرة فتربى... وربى: ـ

تربى علــى يد أبي عبيــدة وأصحابه، يتلقى منهم ومعهــم معنى البذل والتضحية في سبيل المبدأ، ويتعلم كيف يحمل الحق وينفح عنه، وكان من ثمرات هذا التلقي؛ أن أبا حمزة عشق الحق، وباع نفسه لله يكافح عن دينه، ويدفع عن المســلمين مظالم بني مروان، ولم يقف عند حد الدعوة النظرية بالكلمــة ينادي بكلمــة الحق فــي بيئته كما يفعــل الناس، ممــن وجدوا مسئوليتهم تقفز عند حد القول.

لا لم يفعل ذلك وحده.

ولكنه تدرج مع المنهج الحركي للإســلام ومراحله «كان يوافي في كل سنة ـ في موســم الحجيج ـ يدعو إلى خلاف مروان بن محمد وآل مروان»

---

(١) المصدر السابق، ص١٢٣ ـ ١٢٤.

وظل على هذه المرحلة الحركية حتى أراد الله أن تتحول إلى كفاح مسلح بالسيف.

ولم يقف عند هذا الحد.

بل إلى جانب تلقيه وتربيته على يد علماء المذهب بالبصرة كان يربي، يربي فتيته فيمزج القيم والمبادئ والمثل العليا، بالعمل والجهد والصبر، وتحمل الشدائد، ونشأ شباب «مكتهلون» كما قال.

وإنك لتمتلئ نفسك اعتزازا بفعل الإسلام في هذه النفوس، الفتى فيهم بألف، هيأهم أبو حمزة جميعا لتحمل أمانة الأمة، يزيحون عنها ركام سني طغاة آل مروان، مهمة شاقة ومواجهة غير متكافئة.... ماذا يفعل فتية قليلو العدد والعدة في مواجهة متعددة الاتجاهات، أمة متخاذلة، وتبلدت عقول أبنائها وشمل التنازع كل حياتهم. وولاة لا يخافون الله في الأمة ولا يرقبون إلا ولا ذمة، سلطوا عبيدهم وجبابرتهم المأجورين على الناس فساموهم سوء العذاب.

وعلى الجانب الحضرمي كانت إرادة الله سبحانه تقدم للحق طالباً.

وألهم الله سبحانه ـ بفضله ومنه وكرمه ـ عبدالله بن يحيى الكندي ـ أحد بني عمر ابن معاوية المجاهد العابد الزاهد، وانتدبه الله سبحانه لأمر جلل. «وكان يقول قبل أن يخرج: ـ لقيني رجل، فأطال النظر إلي، وقال: ممن أنت؟ فقلت: من كندة... قال: والله لتملكن، وتبلغن خيلك وادي القرى... فذهبت أتخوف ما قال، وأستخير الله، فرأيت باليمن جورا وظلما وعسفا شديدا وسيرة في الناس قبيحة، قال: ما يحل لنا المقام على ما نرى، ولا يسعنا الصبر عليه.

والتقى الداعيان؛ طالب الحق الإمام، أمكنه الله من طغاة الولاة باليمن،

وتلميذه طالب عدل الإسلام، بعثه أبو عبيدة وأصحابه ـ في رجال من الإباضية ـ حيث بايعوه، وشاركوه جهاده، فخلصوا اليمن من سيطرة آل مروان.

وإنك لتجد في مثل هذا العمل، اتجاه الدعوة، وأسلوبها، مما يجعل كل تصرفاتهم دعوة إلى الله، وهذه النصوص تؤيد: ـ

١ ـ ينصح أبو عبيدة وأصحابه طالب الحق وقواده فيقولون: إن استطعت أن لا تقيم يوما واحدا فافعل، فإن المبادرة بالعمل الصالح أفضل، ولست تدري متى يأتي عليك أجلك، ولله خيرة من عباده يبعثهم ـ إذا شاء ـ لنصرة دينه، ويخص بالشهادة منهم من يشاء.

٢ ـ منذ وضع أبو حمزة ورجاله بيعتهم بين يدي إمامهم طالب الحق، ووجهتهم الجهاد، يزيلون به كل الحواجز والمظالم والسخائم التي طمس بها آل مروان رونق هذا الدين، وبهجته وسماحته وضياءه. ساروا في طريق التضحية إلى أن كتب الله لهم ـ مع إمامهم ـ الشهادة. لم تثن عزيمتهم كثرة الجراح، ولا إعراض البلهاء، ولا فجور المرتزقة الذين بثهم مروان في كل ثنية وشعب.

٣ ـ إن الداعية يضع الدعوة إلى الله والحق والعدل في الدرجة الأولى من اهتماماته، لأنه يُرضي ربه بجهاده.

فَهِم ذلك أبو حمزة الشاري وفتيانه، وفهمه إمامهم طالب الحق، وفهمه مستشاروه من علماء الإباضية في البصرة، يقولون له ولهم في كتب أحضرها أبو حمزة: «إذا خرجتم فلا تغلوا ولا تغدروا، واقتدوا بسلفكم الصالحين وسيروا سيرتهم، فقد علمتم أن الذي أخرجهم على السلطان، العيب لأعمالهم.

وكذلك الإمام طالب الحق، أبى أن يتبع أهل صنعاء بعد انهزامهم. ودعا الناس إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وإجابة من دعا إليهما، وقد أحسن السيرة في الناس وألان لهم جانبه، ومارس الدعوة إلى الله على أوفى ما تكون.

وكذلك فعل أبو حمزة: اتقى الله في الناس، ودعاهم بالحسنى وتجنب البطش بهم ـ رغم استحقاقهم ـ ولم يبدأ مرة بقتال، ولم يغفل عن ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن، وكان يوصي رجاله: «أكثروا ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن ووطنوا أنفسكم على الصبر» وعندما التقى الجمعان تحرج أن يقاتل القوم قبل أن يدعوهم، ويوضح لهم هدفه، وقد أرسل قائده بلج بن عقبة ليدعوهم:

فذكرهم بلج الله، وسألهم أن يكفوا عنهم، وقال لهم: خلوا سبيلنا لنسير إلى من ظلمكم وجار عليكم في الحكم، ولا تجعلوا حدنا بكم، فإنا لا نريد قتالكم، نحن إنما خرجنا لنكف أهل الفساد، ونقاتل من قاتلنا واستأثر بالفيء، فانظروا لأنفسكم، واخلعوا من لم يجعل الله له طاعة، فإنه لا طاعة لمن عصى الله، وادخلوا في السلم، وعاونوا أهل الحق.

ولما لم يقبل أهل المدينة النصح وأصروا على القتال قال أبو حمزة: «كفوا عنهم ولا تقاتلوهم حتى يبدأوكم بالقتال»... فرمى رجل من أهل المدينة بسهم جرح رجلا في معسكر أبي حمزة فقال: «شأنكم الآن، فقد حل قتالهم».

وعندما نصحه علي بن الحصين أن يتبع المنهزمين ويجهز على الجرحى، قال: «لا أفعل ولا أخالف سيرة أسلافنا».

إنهم دعاة، همهم أن يسمع المدعو القضية، ويتدبر تفاصيلها ويدرك غاياتها، إنها الإسلام. إنه منهج الله يريد به الطغاة شرا، والناس منهم في

أحد مواقف ثلاثة: أن يشـــارك الشـــراة في الدعوة إلى تطبيق الإسلام على الوجه الذي كان عليه في ســـيرته الأولى، أو يقيم فـــي داره، أو ثالث يكف نفسه عن الوقوف في وجه دعاة الحق.

لقد أحســـن أبو حمزة الســـيرة في أهل المدينة، حتى ســـمع الناس له وأدركوا غايته، وعلموا صدقه، علموا أنه ممن عاهدوا الله ســـبحانه، وأن هذا العهد بيعة لا يبقى للمؤمن بعدها شـــيء في نفســـه ولا في ماله، دون الله، ودون الجهاد في سبيله، لتكون كلمة الله هي العليا، وليكون الدين كله لله.

علموا من ســـيرته وأصحابـــه، أنهم يتصفـــون بصفات تتصـــل بذوات أنفســـهم، فهم لم يصلوا إلى تلك الدرجة الســـامية، إلا بعـــد أن حققوا ما يجعلهم أهـــلا للاستشـــهاد أو النصر، هـــذا بالإضافة إلـــى صفات تختص بتكاليف البيعة، والدعوة إلى تحقيق دين الله في الأرض.

فهم تائبون؛ ولو دون ذنب اقترفوه.

وهم عابدون واصلوا كلال ليلهم بنهارهم.

وهم حامدون لأن الله انتدبهم لمهمة مقدسة.

وهم ســـائحون خرجوا من ديارهم مستضعفين وقد اســـتجابوا لمنادي الحق وطريق مستقيم.

وهم صائمـــون؛ صاموا عن مخـــازي الدنيا وملذاتها وانشـــغلوا بالمهام العظام التي كلفوا بها.

لقد صدق في وصف فتيانـــه: ينظر الله إليهم في جـــوف الليل، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن الكريم..

والسؤال الآن..........

هل خسر أبو حمزة وإمامه وأصحابه، وهم يجودون بأنفسهم، في مواجهة باطل مروان وزبانيته؟.

هل يضار الحق وأصحابه عندما يتكالب عليهم الغوغاء المأجورون، يحاولون طمس معالم الحق، وإبادة أصحابه؟!.

هل تضيع الدماء الزكية التي جاد بها أصحابها في ميدان الشرف والكرامة يجاهدون في سبيل الله؟..

هل ينتصر أصحاب الباطل بحيلهم ومكرهم وأموالهم التي يشترون بها الذمم، ويعبئون جيوش المرتزقة ضد أصحاب الدعوة الإسلامية في كل زمان؟

كلَّا كلَّا.

لقد أعلن أبو حمزة عن نهجه ونهج إمامه، في كل تحركاته يحض الناس ويدعوهم إلى إعزاز الدين.

وكذلك أعلن عبدالملك بن محمد بن عطية خادم مروان وصنيعته؛ الذي اشتراه ورجاله ليقابلوا أصحاب الحق في عدد وعدة تفوقهم أضعافا كعادة بني مروان، يوجهون فيء ومال المسلمين في محاربة من يقف في وجه طغيانهم، ويحاول تخليص الأمة من مفاسدهم.

أعلن ابن عطية عن وجهته ووجهة سيده، عندما سأله أبو حمزة عن سلوكهم ونهجهم في سياسة حياة الأمة.

قال أبو حمزة لرجاله: لا تقاتلوهم حتى تختبروهم، فصاح بهم: ما تقولون في القرآن الكريم والعمل به؟ فصاح ابن عطية: نضعه في جوف الجوالق!!

يا سبحان الله ولا حول ولا قوة إلا بالله!!

هكذا تكون الجرأة على الله، وعلى كتابه الكريم، وهكذا يظهر هدف ابن عطية وأسياده، إنهم يحادون الله ورسوله وكتابه، ومن ينتسب إليهم، ويؤمن بهم ويلهج بالدعوة إليهم.

قال أبو حمزة: ما تقولون في مال اليتيم؟..

قال ابن عطية: نأكل ماله، ونفجر بأمه.

هكذا تضيع قيم الإسلام ومبادئه بين أيدي هؤلاء الفجرة. فعل يخالف كل تصور وأمر وخلق يدعو إليه هذا الدين الحنيف. هل بقي في ابن عطية ذرة من دين، وهو ينطق بكلمة الكفر ويعلن فجوره؟.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

وابن عطية يفجر ويتجبر ويعلن عن سلوك أميره، ويعترف بما يفعلون في يتامى الأمة ومال الأمة. ويقول سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢].

وابن عطية يعلن الفجور، ويبين سلوكهم مع الحرائر المحصنات المؤمنات الغافلات.

لقد وضحت غاية الفريقين، ووضح الصبح لذي عينين.

لقد أدى المؤمنون المجاهدون ما عليهم من عهد، ووفوا وراحت أرواحهم إلى بارئها راضية، مطمئنة إلى وعد ربها وجزائه الحسن.

وراح أصحاب الباطل إلى دنياهم، فبئس البيع، خالفوا بدنياهم أمر ربهم، وخانوا عهدهم مع أمتهم، وأكلوا مال اليتيم ظلما، وسلبوا الناس

أموالهم واعتدوا على أعراضهم، وأهانوهم في كرامتهم، وقتلوا الأبرياء، وأزهقوا أرواح الشهداء، واستحلوا الحرمات.... و. و. و. و.

ولم يتمتعوا بدنياهم، لأن الله من ورائهم محيط، لقد لقي ابن عطية حتفه وتجرع كأس الموت في حسرة من أصحابه في سفره، ومنعة عن جنده، وقتل مغلوبا حقيرا.

أما سيده مروان بن محمد بن مروان، فقد جعل الله على يده إدبار بني مروان وبني أمية، وقتل مروان وفرَّ عنه ابناه عبيد الله وعبدالله. وهاموا في بلاد النوبة، والسودان، وتفرقوا في الشعاب، وضاعت دولة بني مروان كما ضاعت دولة أبناء عمومتهم.

وتركت لنا فيها العبرة والعظات...

فماذا خسر أبو حمزة؟ كلا لقد خسر هنالك المبطلون، أما هؤلاء المجاهدون فهم في الحالة التي وصفهم فيها ربنا ﷻ في كتابه العزيز: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧١].

ألا رحم الله تلك الأرواح الطاهرة.

ورحم الله أرواح المجاهدين في سبيله في كل زمان ومكان.

وأسكن أصحابها الجنان، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا». اهـ[١].

---

(١) المصدر السابق، ص١٢٦ - ١٣٢.

هذا كلامه، وهو ينبئ عن إيمان كاتبه بالحق، وحرصه على شهادة الصدق، فلم يؤثر الباطل على الحق ولا الكذب على الصدق، وإنما سجل بيده شهادة يلقى بها الله يوم القيامة، فنعمت الشهادة ونعم الشاهد.

٥ ـ الأستاذ المربي البصير كرامة مبارك سليمان بامؤمن في كتابه القيم: «الفكر والمجتمع في حضرموت».

فقد سجل في كتابه هذا عدة شهادات لهذه الفئة، وكان مما قاله: «وكان من أهم قادة وأئمة الإباضية جابر بن زيد الأزدي البصري وأبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي الذي وافق شيوخ الإباضية في البصرة على قيام الثورة الإباضية المسلحة ضد بني أمية، واختير عبدالله بن يحيى الكندي الحضرمي إماما للثورة الإباضية التي أعلنت من حضرموت، ولقب بطالب الحق».

ثم أضاف إلى ذلك قوله: «كان الجو مهيأ في اليمن كله لالتفاف اليمنيين حول الثورة المسلحة التي أعلنها عبدالله بن يحيى الكندي من حضرموت نتيجة الظلم والقهر والمعاناة التي عومل بها اليمنيون من قبل الولاة الأمويين المتغطرسين، والذين أثقلوا كاهل الشعب اليمني بالضرائب المضاعفة المأخوذة منهم من غير وجه حق، ونتيجة للمعاملة السيئة التي مارسها الخليفة الأموي مروان بن محمد ضد اليمنيين جميعا في الدولة الإسلامية الأموية، وتفضيل القيسية عليهم.

وجه عبدالله بن يحيى الكندي رسالة إلى إمام الإباضية في البصرة أبي عبيدة مسلم وبقية شيوخ الإباضية فيها، يستشيره في إعلان الإمامة والخروج على بني أمية، فجاء الرد سريعا بالتحرك في أقرب وقت ممكن قائلا له: «إن استطعت أن لا تقيم يوما واحدا فافعل، فإن المبادرة بالعمل الصالح أفضل،

لست تدري متى يأتي عليك أجلك، ولله خيرة في عباده يبعثهم إذا شاء لنصرة دينه، ويخص بالشهادة منهم من يشاء»، كما أوصاه بالسيرة الحسنة والسلوك الطيب قائلا له: «إذا خرجتم فلا **تغلوا** ولا **تغدروا**، واقتدوا بأسلافكم الصالحين، وسيروا سيرتهم، فقد علمت أن الذي أخرجهم عن السلطان **العيب لأعمالهم**»[1].

أرسل أبو عبيدة وبقية مشايخ الإباضية بالبصرة الرجال والأموال والسلاح إلى حضرموت لمؤازرة عبدالله بن يحيى الكندي وكان من أبرز الإباضية الذين جاؤوا من البصرة إلى حضرموت بلج بن عقبة الأزدي وأبو حمزة المختار بن عوف الأزدي».

وأتبع ذلك قوله: «انطلقت الثورة الإباضية من حضرموت عام ١٢٩هـ بقيادة عبدالله بن يحيى الكندي واستولت على حضرموت دون مقاومة تذكر من قبل **إبراهيم بن جبلة بن مخرمة الكندي**، فتم القبض على إبراهيم بن جبلة ثم أطلق سراحه لكسب عشيرته الكندية، وللتعبير عن سماحة الثورة، وبعد سقوط حضرموت في أيدي الثوار الإباضيين، كاتب عبدالله بن يحيى الكندي **إباضية صنعا** يخبرهم بقدومه ويحثهم على الاستعداد واليقظة، واستخلف على حضرموت عبدالله بن سعيد الحضرمي وتوجه نحو صنعاء ومعه مستشاروه من القادة الإباضيين البصريين، كأبي حمزة الإباضي، وفي «أبين» ألتقى الجيش الإباضي البالغ عدده نحو ألفي مقاتل بالجيش الأموي البالغ عدده نحو ثلاثين ألف مقاتل تحت قيادة الوالي الأموي القاسم بن عمر الثقفي، وانهزم الجيش الأموي وعاد قائده إلى صنعاء، فلحق به عبدالله بن يحيى الكندي وألحق به هزيمة أخرى اضطر بعدها القاسم بن عمر الثقفي إلى العودة إلى الشام مع بقية جيشه، ودخل الإمام الإباضي

(١) الخطوط من وضع المؤلف كرامة مبارك سليمان بامؤمن.

عبدالله بن يحيى الكنـــدي صنعاء منتصرا عـــام ١٢٩هـ، وفي صنعاء التف اليمنيون حول الثورة الإباضية وعامل طالب الحق الناس معاملة حسنة ورفع المظالم وأجزل العطاء مما قد غنم وثبت الســلطة الإباضية في اليمن، وفي جامع صنعاء ألقى القائد المنتصر خطبته المشـــهورة التي أورد فيها سياسته وأفكاره الإباضية المعتدلة.

وفي موســـم الحج من عام ١٢٩هـ وجه طالب الحـــق قائده أبو حمزة المختار علـــى رأس جيش الإباضية إلـــى الحجاز وانضم إليـــه **عبدالله بن الحصين** مع رجاله في الحجاز، والذي كان من دعاة الإباضية المتسترين في الحجاز وفوجئ والي مكة والمدينة عبدالواحد بن ســـليمان بن عبدالملك بظهور رجال أبي حمزة في عرفات بعمائمهم الســـوداء، وعارضهم لكنه لم يفلح واســـتولى الجيش الإباضي على مكة في اليوم العاشر من ذي الحجة ١٢٩هـ دون قتال، وفي شهر صفر من عام ١٣٠هـ توجه أبو حمزة الإباضي إلـــى المدينة المنورة مســـتخلفا على مكـــة إبراهيم بن الصبـــاح الحميري، وتمكن من هزيمة الجيش الأموي ودخل المدينة المنورة منتصرا ومن على منبر رسول الله ﷺ وفي مسجده ألقى أبو حمزة خطبته المشهورة»[١].

وأخذ بعـــد ذلك يحلل الخطـــب التي ألقاها طالب الحـــق باليمن وأبو حمزة الشاري بالحجاز ويستخرج منها المبادئ القيمة التي قامت عليها هذه الثـــورة، وما انبثـــق منها من منهـــج قرآني علـــى هدي النبـــي ﷺ وخلفائه الراشدين، سار عليه رجال الثورة حتى لقوا الله تعالى[٢].

ثم أضاف إلى ذلك قوله: «إذا تم القضاء على دولـــة الإباضية كدولة ونظام

(١) الفكـــر والمجتمع في حضرمـــوت، كرامـــة مبارك ســـليمان باموْمـــن، ص١٢٧-١٢٩، الجمهورية اليمنية، الطبعة الأولى.

(٢) ينظر: المصدر السابق، ص١٣٢-١٤١.

سياسي، فإنه ليس من السهل بمكان محو الفكر الإباضي من معتقد الناس بنفس السهولة وبنفس السرعة والزمن، ولا سيما أن هذا الفكر يحمل قيما إنسانية من عدل ومساواة وعقائد توحيدية أساسها القرآن الكريم والسُّنَّة النبويّة»[١].

وهذه الشهادة كسابقاتها، تسجل لطالب الحق وأبي حمزة وأصحابهما أطيب الثناء على قيامهم بالحق، ومقاومتهم للبغي والظلم، ونشرهم للعدل والتزامهم له في الحكم وعدم حيفهم على أحد، بخلاف ما كان عليه الوضع عند الجبابرة المتسلطين، الذين ساموا الناس الخسف وسقوهم كؤوس الهوان، وأنت ترى في هذه الشهادة ما يدلك على أن الفكر الذي كان عليه هؤلاء الشراة كان يحمل قيما إنسانية، من عدل ومساواة وعقائد توحيدية، أساسها القرآن الكريم والسُّنَّة النبويّة، وماذا عسى يبتغى من المسلم إلا التحلي بهذه القيم والتزام هذا النهج؟!

وبالجملة؛ فإن هذه الشهادات جميعا إنما تدل على طيب معدن الشهداء الذين أدلوا بها، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا، فجزاؤهم عند الله وحده، وإنما الذي نملكه لهم هو طيب الثناء وحسن الدعاء.

مَن يَفعَلِ الخَيرَ لا يَعدَم جَوازِيَهُ لا يَذهَبُ العُرفُ بَينَ اللهِ وَالناسِ

افتراءات الحاقدين:

كثيراً ما أطلق الحاقدون لخيالهم العنان، في نسج أنواع من الافتراء الكاذب على أهل الحق، فحاولوا أن يشوهوا سمعة أبي حمزة وأصحابه، وأن يدنسوا عرضه بما عزوه إليه من الأكاذيب، كما حاولوا أن يجعلوا مما قاله من الحق باطلا، وإليك نماذج من ذلك:

---

(١) ينظر: المصدر السابق، ص١٤١.

١ ـ محشـي «الإسـعاف»، وهو رجل مجهول علق على كتاب «إسعاف الأعيان في أنساب أهل عُمان» للشيخ سـالم بن حمود السيابي، الذي طبع قبـل نحو نصف قرن علـى نفقة أمير قطر الأسـبق الشـيخ أحمد بن علي آل ثاني، وقد أساء في تعليقاته على هذا المشروع الخيري، وشوهه بما أودع عباراتـه من الأكاذيـب التي افتراها، بإمـلاء من حقده الدفيـن على الحق ورجالـه، وكان مما ادعاه أن هؤلاء الشـراة خرجوا على الدولة الإسـلامية وهاجموا الحرمين الشـريفين، وقتلوا كثيرا من المسـلمين بمكة والمدينة، وممن قتلوا عدد من التابعين غير قليل[1].

كما أضـاف إلى هذا: أن أهل الحرمين عرفوا أبـا حمزة وأصحابه حين هاجـم الحرمين الشـريفين وقتل من أهـل الحرمين من قتـل، وأن الإمام مالك بن أنس عرفه كما عرفه أهل الحرمين ضالا عن طريق المسلمين باغيا عليهم[2].

وهذا هذر، يكفي لفضحه أن يعرف القارئ الكريم ما هي الدولة الأموية التي يعزوها إلى الإسلام، وما هي أفعالها في الأمة، وأن يعرف ما هو الدور الذي قام به أبو حمزة وأصحابه في الحرمين وغيرهما.

أما الدولة الأموية فإن نسبتها إلى الإسلام خزي وعار يلصق بالإسلام وهو منه براء، فهل من الإسلام ما فعله عاملها مسرف بن عقبة من انتهاك حرمة حرم النبي ﷺ، وقتله أكثر من عشـرة آلاف من سـكان المدينة المنـورة من بقايا المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسـان؟! وهل من الإسلام انتهاك هذا المسـرف المجرم حرم نسـاء المدينة، من بنات المهاجرين والأنصار، وافتراع

(١) إسـعاف الأعيان في أنسـاب أهل عُمان، سـالم بن حمود السيابي، منشـورات المكتب الإسلامي، ص٩٣، تعليق رقم ٢، ١٣٨٤هـ.

(٢) نفس المصدر، ص٩٥ تعليق رقم ١.

نحو ألف عذراء منهن؟!! وهل من الإســلام أخذ البيعة من أهل المدينة قسـرا للطاغية يزيد، على أنهم مماليك أرقاء له يتصرف فيهم كيف يشـاء، ومن أبى ذلك أو قال إنه يبايع على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ قطع رأسه فورا؟!!!

وهل من الإســلام أن يشــمت الطاغية يزيد بضحايا قائده، عندما أرسل إليه رؤوســهم فأخذ ينكت فيها بعصاه، وينشــد أبيات ابــن الزبعرى جذلا مسرورا بتمكنه من أخذ ثار طواغيت الكفر الذين قتلوا في يوم بدر؟!.

وهل من الإسلام قتلهم لسبط رسول الله ﷺ، وتمثيلهم به وإرسال رأسه إلى الطاغية، لينكت فيه بعصاه وينشد أيضا أبيات ابن الزبعرى؟!

وهل من الإســلام هتك حرمة البيت الحرام، وشنهم الحرب في الحرم الآمن من أجل التســلط فــي الأرض، وقصف الكعبة المشــرفة بالمجانيق، وأخذهم الناس بالبطش الشديد في حمى الحرم الشريف؟!

وهل من الإســلام تأله أولئك الطغاة في الأرض، وتسلطهم على الناس تســلط ربوبية، حتى يعلن عاملهم بأنه لو علم أن رضاهــم في هدم البيت لنقضه حجراً حجرا؟!

وهل من الإسلام أن يتوعد عبدالملك بن مروان من يقول له: «اتق الله»، بقطع رأسه؟!

وهل من الإسلام أن ترسخ في الناس عقيدة أن الطغاة مهما فعلوا لا حساب عليهم ولا عقاب، وأنه يباح لهم ما لم يبح لنبي مرسل ولا لولي صالح؟!

وهل من الإســلام أن يرموا بكتاب الله في جــوف الجوالق، وأن يأكلوا مال اليتيم ويفجروا بأمه كما أعلن ذلك قائدهم ابن عطية؟!

وهل من الإسلام التمثيل بالقتلى وحز رؤوسهم وصلبها؟!

وهل من الإسلام إبادتهم للرجال والنساء والأطفال، وسبيهم نساء الأمة وأطفالها واغتصابهم أموالها في حروبهم؟!

وهل من الإسلام اتخاذهم عباد الله خولا وماله دولا وتبذيرهم الأموال في شهواتهم الدنيئة، وشربهم الخمور وإتيانهم الفجور، وتحويلهم الحرمين الشريفين إلى مسرح للهو والغناء، وبؤرة للفساد والانحراف؟!

ليت شعري؛ هل يرى هذا المعلق المأفون أن هذا هو الإسلام الذي جاء به القرآن، ونادى به الرسول ـ عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسلام ـ ودعا إليه وورَّثه خلفاءه وأصحابه؟!

إن هذه كلها حقائق سبق بيانها وتوثيق مراجعها، ولم تكن هذه المراجع بأقلام الشراة ومن على فكرهم، وإنما هي بأقلام الذين يحسبون على تيار السياسة الأموية نفسها، فماذا عسى أن يقولوا فيها؟!

أما ما عزاه إلى أبي حمزة وأصحابه من البغي ومهاجمة الحرمين الشريفين وقتله أهلهما، فيكفي في بيان إفكه ما سبق من الشهادات التأريخية التي سجلها المؤرخون من أصحاب المدارس الأخرى، أنه ما خرج إلا للإصلاح ونصرة الحق، وإغاثة الملهوفين والقبض على أيدي الظلمة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحياء ما أماتته الجبابرة من الحق وإماتة ما أحيوه من الباطل، ناهيك بما فعلوه في صنعاء من توزيع الأموال بين أهلها، وما كان منهم بالحرمين من تفادي القتال وكف الأيدي عمن تصدى لهم، حتى بعد إقامة الحجة عليه إلى أن يبدأ الطرف الآخر بالقتال، وأنهم لم ينتقموا ممن قاتلهم بعدما وضعت الحرب أوزارها، مع أنهم متمكنون من رقابهم قادرون على إنفاذ ما شاءوا فيهم، وأنهم آثروا الاحتياط في الدين على الحزم في الحرب، فكانوا مثالا للتسامح مع خصومهم.

هذا هو نهج أبي حمزة ومن معه، الذين يصفهم المعلق بالبغي ويلصق بهم تلك الجرائم التي افتراها، وذلك هو نهج خصومه بني أمية الذين يصف المعلق دولتهم بالإسلام!! وكفى بالتأريخ الصادق الأمين حكما بين الفئتين.

٢ ـ الفقيهي الحشــوي الذي اتخذ من مقولة أبي حمزة التي جاءت في كتاب الأغاني بنص: «يا أهل المدينة الناس منا ونحن منهم إلا مشركا عابد وثن أو كافرا من أهل الكتاب أو إماما جائرا»[١] ســهما مســموما حاول أن يصمي به أبا حمزة وفكره وأصحابه، استنكارا منه أن يلز بالإمام الجائر مع المشرك والكافر من أهل الكتاب في قرن، من حيث البراءة منهم.

وقد يعجب الإنسان من استنكار المسلم ـ الذي يعترف بالقرآن وبالسُّنَّة النبويّة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ـ البراءة من الإمام الجائر، ولكن يتلاشى عجبه عندما يدرك أن مستنكر ذلك هو صاحب فكر نشأ في أحضان الجور ونبت في تربة الظلم، وسقي بسفك الدماء البريئة بدءا بدماء الصحابة والتابعين في واقعتي صفين والحرة وغيرهما، فما بعدها من دماء المسلمين الأبرياء، وتعزز بهتك حرماتهم ونهب أموالهم، فهو لا ريب يســتهين بالحق ويســتخف بالعدل ويقدس الظلم والظلمة، وليس اعترافه بالقرآن والسُّنَّة إلا خداعا للذين آمنوا، وإلا فمنهج القرآن واضح وســنة رسول الله ﷺ لا غبار عليها في ذلك.

دلالة السُّنَّة النبويّة على براءة النبي ﷺ من الظلمة:

دونك طائفة من الروايات التي جاءت بهذا منها قوله ﷺ:

«اســمعوا، هل ســمعتم؟ إنه ســيكون بعدي أمراء، فمــن دخل عليهم

---

(١) الأغاني، ج٢٣، ص٢٤٩.

فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه وليس بوارد على الحوض، ومن لم يدخل عليهم ولم يعنهم على ظلمهم ولم يصدقهم بكذبهم فهو مني وأنا منه وهو وارد على الحوض»[١]، وقوله: «إنها ستكون بعدي أمراء يكذبون ويظلمون، فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه، وليس بوارد على الحوض، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه، وهو وارد على الحوض»[٢]، وقوله ﷺ: «تكون أمراء يظلمون ويكذبون، يغشاهم غواش من الناس، فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم؛ فليس مني ولست منه، ومن لم يدخل عليهم ولم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم؛ فهو مني وأنا منه»[٣]، وقوله ﷺ: «يا عبدالرحمن، أعاذك الله من أمراء يكونون بعدي، من دخل عليهم فصدقهم، وأعانهم على جورهم، فليس مني ولا يرد علي الحوض»[٤]، وقوله: «يا كعب بن عجرة، أعاذك الله من إمارة السفهاء أمراء يكونون من بعدي، لا يقتدون بهديي ولا يستنون بسنتي، فمن دخل عليهم وصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم؛ فأولئك ليسوا مني، ولست منهم، ولا يردون علي حوضي، ومن لم يدخل عليهم، ولم يصدقهم بكذبهم، ولم يعنهم على ظلمهم، فأولئك مني، وأنا منهم، وسيردون على حوضي»[٥]، وقوله: «إنه سيكون عليكم أمراء يكذبون

---

(١) أخرجه النسائي (١٦٠/٧، رقم ٤٢٠٨)، والترمذي (٥٢٥/٤، رقم ٢٢٥٩) وقال: صحيح غريب. وابن حبان (٥١٢/١، رقم ٢٧٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٣/٤، رقم ١٨١٥١)، والبيهقي (١٦٥/٨، رقم ١٦٤٤٥).

(٣) أخرجه أحمد (٢٤/٣، رقم ١١٢٠٨)، وأبو يعلى (٤٦٥/٢، رقم ١٢٨٦)، وابن حبان (٥١٩/١، رقم ٢٨٦).

(٤) أخرجه الحاكم (١٤١/٤، رقم ٧١٦٢) وقال: صحيح الإسناد. والخطيب (١٠٩/١٢).

(٥) أخرجه أحمد (٣٢١/٣، رقم ١٤٤٨١) قال الهيثمي (٢٤٧/٥): رواه أحمد والبزار ورجالهما رجال الصحيح. وعبد بن حميد (ص٣٤٥، رقم ١١٣٨) والدارمي (٤٠٩/٢، =

ويظلمون؛ فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني، ولا أنا منه، ولن يرد على الحوض، ومن لم يدخل عليهم ولم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم؛ فهو مني وأنا منه، وهو وارد على الحوض»[1].

وإذا كان هذا في الداخل على الظلمة ومن أعانهم، فكيف بالظلمة أنفسهم؟! على أن هذه الأحاديث صريحة في براءته ﷺ ممن دخل على الظلمة وأعانهم، فما بالك بمن ارتكب الظلم كيف تبقى له ولاية عند المسلمين!!

والقرآن الكريم شاهد على أن من تولى أحدا فله حكمه فقد قال تعالى في اليهود والنصارى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، ونص على أنه لا يتولى الظلمة إلا الظالمون، فقد قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٩]، وقد بين النبي ﷺ مصير من ظلم رعيته بقوله: «لا يسترعي الله عبدا رعية فيموت يوم يموت وهو لها غاش، إلا حرم الله عليه الجنة»[2]، وقوله: «لا يسترعي الله عبدا رعية، قلَّت أو كثرت، إلا سأله الله عنها يوم القيامة، أقام فيهم أمر الله أم أضاعه، حتى يسأل

= رقم ٢٧٧٦)، وأبو يعلى (٤٧٥/٣، رقم ١٩٩٩) قال الهيثمي (٢٣٠/١٠): رجاله رجال الصحيح غير إسحاق بن أبي إسرائيل وهو ثقة مأمون. وابن حبان (٣٧٢/١٠، رقم ٤٥١٤)، والحاكم (٤٦٨/٤، رقم ٨٣٠٢) وقال: صحيح الإسناد. والطبراني (١٤١/١٩، رقم ٣٠٩)، وأبو نعيم في الحلية (٢٤٧/٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٦/٧، رقم ٩٣٩٩).

(١) الترمذي (٥٢٥/٤، رقم ٢٢٥٩)، وأحمد (٣٨٤/٥، رقم ٢٣٣٠٨).

(٢) أخرجه أحمد (٢٥/٥، رقم ٢٠٣٠٦) ومسلم (١٢٥/١، رقم ١٤٢)، والطبراني (٢٠٢/٢٠، رقم ٤٥٧).

عن أهل بيته خاصة»[١]، وقوله: «ما من عبد يسترعيه الله يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته، إلا حرم الله عليه الجنة»[٢].

وقد تبين بهذا من هو على منهج رسول الله ﷺ، بين الفقيهي الأفاك المتعصب للظالمين الموالي لهم، وبين أبي حمزة الشاري المتبرئ منهم، فليهنأ الفقيهي أن يكون مصيره مع الظالمين يوم القيامة ويحشر مع أئمة الجور.

وإذا كان الركون إلى الظلمة موجبا لعذاب النار، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: ١١٣]، فما بالك بموالاتهم، بل ما بالك بأهل الظلم أنفسهم، كيف لا يستحقون البراءة من المؤمنين.

ثبوت براءته ﷺ من كل من ارتكب كبيرة:

نجد في النصوص الشرعية ما يدل على براءة النبي ﷺ من كل من ارتكب كبيرة وأصر عليها، فقد قال ﷺ: «من سل علينا السيف فليس منا»[٣]، ولا فرق في هذا بين أن يكون حاكما أو محكوما، فمن سل السيف على المسلمين بغير حق فهو ليس من الله في شيء، وتجب على المؤمنين البراءة منه اقتداء برسول الله ﷺ.

وقال ﷺ: «ألا ومن غشنا فليس منا، ومن لم يرحم صغيرنا ولم يوقر

(١) أخرجه أحمد (١٥/٢، رقم ٤٦٣٧).
(٢) أخرجه البخاري (٢٦١٤/٦، رقم ٦٧٣١)، ومسلم (١٤٦٠/٣، رقم ١٤٢).
(٣) أخرجه أحمد (٤٦/٤، رقم ١٦٥٤٧)، والدارمي (٣١٥/٢، رقم ٢٥٢٠)، ومسلم (٩٨/١، رقم ٩٩)، وابن حبان (٤٤٨/١٠، رقم ٤٥٨٨)، أبو عوانة (٦١/١، رقم ١٥٩).

كبيرنا فليس منــا، يعني ليس بولي لنا»[١]، وجاء فــي رواية أن النبي ﷺ مر بسوق المدينة على طعام أعجبه، فأدخل يده في جوف الطعام، فأخرج شيئا ليس بالظاهر فأفف رســول الله ﷺ بصاحب الطعام، ثم نادى: أيها الناس، لا غش بين المسلمين، من غشــنا فليس منا»[٢]، وفي رواية: «ما هذا يا صاحب الطعام؟! أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس، من غش فليس مني»[٣].

وإذا كان هذا في مطلق الغش، فكيف بمن غــش الأمة كلها؟!.. بظلمه إياها وتبديل حكــم الله تعالى في معاملتها، وحرمانهــا مما لها من الحقوق المالية والسياســية والاجتماعية كما جرى ذلك في حكــم الجبابرة الظلمة المستبدين، الذين جعلوا مال الله دولا واتخذوا عباده خولا، والله المستعان.

وقال ﷺ: «ليس منا من لم يجل كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه»[٤] وفي لفظ: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويعرف شــرف كبيرنا»[٥] وفي آخر: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويوقر كبيرنا»[٦]، وفي رواية: «ليس

---

(١) مسند الربيع، ص٢٣١ رقم ٥٨٢.

(٢) الدارمي (٣٢٣/٢، رقم ٢٥٤١)، والقضاعي في الشهاب (٢٢٨/١، رقم ٣٥١)، وابن عدي (٢٠٧/٧)، وأحمد (٥٠/٢، رقم ٥١١٣)، والطبراني في الأوسط (٦٣/٣، رقم ٢٤٩٠).

(٣) أخرجــه مســلم (٩٩/١، رقم ١٠٢). وأبــو يعلــى (٣٩٩/١١، رقم ٦٥٢٠)، وابن حبان (٢٧٠/١١، رقم ٤٩٠٥)، وابــن منــده (٦١٦/٢، رقم ٥٥١)، والبيهقــي (٣٢٠/٥، رقم ١٠٥١٤).

(٤) أخرجه أحمد (٣٢٣/٥، رقم ٢٢٨٠٧)، قال المنذري (٦٤/١): إســناده حســن. والحكيم (١٨٧/١)، والحاكــم (٢١١/١، رقم ٤٢١) وقال مالك بن خيــر الزيادي مصرى ثقة وأبو قبيل تابعي كبير. وأخرجه أيضا: البخاري في التاريــخ الكبير (٣١٢/٧، ترجمة ١٣٢٩)، والرافعي (١٧٦/٤) والضياء من طريق الطبراني (٣٦١/٨، رقم ٤٤٥).

(٥) أخرجه أحمــد (٢٢٢/٢، رقم ٧٠٧٣)، والترمــذي (٣٢٢/٤، رقم ١٩٢٠) وقال: حســن صحيح. والحاكم (١٣١/١، رقم ٢٠٩) وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٦) أخرجه الترمذي (٣٢١/٤، رقم ١٩١٩).

منا من لم يرحم صغيرنا، ويوقر كبيرنا، ويأمر بالمعروف وينه عن المنكر»[(١)]، وفي أخرى: «من لم يرحم صغيرنا، ويعرف حق كبيرنا، فليس منا»[(٢)].

وقال ﷺ: «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية»[(٣)] وهذا مما اجتمع في بني أمية وحزبهم، وقال ﷺ: «ليس منا من خبب امرأة على زوجها، أو عبدا على سيده»[(٤)] وفي رواية: «ليس منا من أجلب على الخيل يوم الرهان، وليس منا من خبب عبدا على سيده، وليس منا من أفسد امرأة على زوجها»[(٥)]، وفي أخرى: «من خبب خادما على أهلها فليس منا، ومن أفسد امرأة على زوجها فليس هو منا»[(٦)] وروي عن النبي ﷺ: «ليس منا من خصى، أو اختصى، ولكن صم ووفر شعر جسدك»[(٧)]، وقال ﷺ: «ليس منا من سلق، ومن حلق، ومن خرق»[(٨)]، وفي رواية: «أنا بريء ممن حلق، وسلق، وخرق»[(٩)]، وقال ﷺ: «ليس منا من

(١) أخرجه أحمد (٢٥٧/١، رقم ٢٣٢٩)، والترمذي (٣٢٢/٤، رقم ١٩٢١) وقال: حسن غريب. والطبراني (٧٢/١١، رقم ١١٠٨٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٥٨/٧، رقم ١٠٩٨٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٨٦/٤، رقم ٤٩٤٣)، والحاكم (١٩٧/٤، رقم ٧٣٥٣) وقال: صحيح الإسناد.

(٣) أخرجه أبو داود (٣٣٢/٤، رقم ٥١٢١).

(٤) أخرجه أبو داود (٢٥٤/٢، رقم ٢١٧٥)، والحاكم (٢١٤/٢، رقم ٢٧٩٥) وقال: صحيح على شرط البخاري. والبيهقي في شعب الإيمان (٣٦٧/٤، رقم ٥٤٣٣).

(٥) المطالب العالية، ج٩، ص٣٨٣، نيل الأوطار، ج٨، ص٢٤٤.

(٦) أخرجه أحمد (٣٩٧/٢، رقم ٩١٤٦)، والبيهقي (١٣/٨، رقم ١٥٥٩١).

(٧) أخرجه الطبراني (١٤٤/١١، رقم ١١٣٠٤).

(٨) أخرجه أبو داود (١٩٤/٣، رقم ٣١٣٠)، والنسائي (٢١/٤، رقم ١٨٦٥)، أخرجه الطبراني (١٧٥/٢٥، رقم ٤٢٩).

(٩) أخرجه مسلم (١٠٠/١، رقم ١٠٤)، والنسائي (٢١/٤، رقم ١٨٦٦)، وابن ماجه (٥٠٥/١، رقم ١٥٨٦) وأحمد (٤١٦/٤، رقم ١٩٧٤٤)، والطيالسي (ص٦٩، رقم ٥٠٧).

انتهب، أو سلب، أو أشار بالسلب»[١]، وقال ﷺ: «ليس منا من تشبه بالرجال من النساء، ولا من تشبه بالنساء من الرجال»[٢]، وجاء عنه ﷺ أنه قال: «إن الله حرم عليكم شرب الخمر وثمنها، وحرم عليكم أكل الميتة وثمنها، وحرم عليكم الخنازير وأكلها وثمنها، فقصوا الشوارب وأعفوا اللحى، ولا تمشوا في الأسواق إلا وعليكم الإزار، إنه ليس منا من عمل سنة غيرنا»[٣].

والروايات في هذا كثيرة، أغلبها صحيح، والضعيف منها يعتضد بالصحيح، وهي دالة على براءته ﷺ ممن فعل ذلك، مع أن الجرائر المذكورة فيها لا تصل إلى جريرة من انتزى على الحكم فسلبه أهله، وتمادى في عتوه وجبروته وعلوه وفساده، ينهب الأموال وينتهك الحرم ويعطل الشريعة، ويسلب الناس حرياتهم وحقوقهم المشروعة، ويأتي محارم الله تعالى، فهل ينكر البراءة منه إلا من كان فاسد العقيدة مظلم الفكر منحرف السلوك متعفن الفطرة؟! وكفى بهذا شاهدا أن أبا حمزة رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنما هو متبع سبيل النبي ﷺ وسبيل المؤمنين، وقد قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

أما من أنكر عليه ذلك وشنع عليه قوله فهو مشاقق للرسول ومتبع لغير سبيل المؤمنين، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥].

---

(١) أخرجه الطبراني (١٠٧/١٢، رقم ١٢٦١٢)، والحاكم (١٤٧/٢، رقم ٢٦٠٥) وقال: صحيح. والضياء (٥٥٣/٩، رقم ٥٤٦).
(٢) أخرجه أحمد (١٩٩/٢، رقم ٦٨٧٥).
(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٥٢/١١، رقم ١١٣٣٥). وفي الأوسط (١٦٢/٩، رقم ٩٤٢٦).

ثبوت لعن النبي ﷺ لبعض أهل الكبائر:

لم يقف النبي ﷺ في حدود البراءة من مرتكب الكبيرة فحسب، وإنما ثبت عنه لعن كثير من مرتكبي الكبائر، ولا يخفى على ذي بصيرة أن اللعن هو الطرد من رحمة الله تعالى، ففي اللسان: «اللعن: الإبعاد والطرد من الخير»(١)، وكم من كبيرة صرح النبي ﷺ بلعن آتيها من ذلك قوله: «لعن الله آكل الربا ومؤكله وشاهديه وكاتبه هم فيه سواء»(٢)، وفي رواية: «لعن الله آكل الربا، ومؤكله، وكاتبه، ومانع الصدقة»(٣)، وقال ﷺ: «لعن الله الخمر، وشاربها، وساقيها، وبائعها، ومبتاعها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه، وآكل ثمنها»(٤)، وقال ﷺ: «لعن الله من لعن والديه، ولعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من أوى محدثا، ولعن الله من غير منار الأرض»(٥)، وقال ﷺ: «لعن الله من والى غير مواليه، لعن الله من غير تخوم الأرض، لعن الله من كمه أعمى عن الطريق، ولعن الله من لعن والديه، ولعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من وقع على بهيمة، ولعن الله من عمل عمل

(١) لسان العرب، ج١٣، ص٣٨٧.

(٢) أخرجه أحمد (٣٠٤/٣، رقم ١٤٣٠٢)، ومسلم (١٢١٩/٣، رقم ١٥٩٨).

(٣) أخرجه أحمد (١٠٧/١، رقم ٨٤٤)، والنسائي (١٤٧/٨، رقم ٥١٠٣).

(٤) أخرجه الربيع، (٢٤٦/١ رقم ٦٢٥) من طريق ابن عباس، وأخرجه أبو داود (٣٢٦/٣، رقم ٣٦٧٤)، والحاكم (١٦٠/٤، رقم ٧٢٢٨) وقال: صحيح الإسناد. والبيهقي (١٢/٦، رقم ١٠٨٢٨) من طريق ابن عمر، وأخرجها أخرجه الترمذي (٥٨٩/٣، رقم ١٢٩٥)، وقال: غريب. وابن ماجه (١١٢٢/٢، رقم ٣٣٨١) من طريق أنس، وأخرجه الطبراني في الكبير (٥٨/٩، رقم ٨٣٨٧). وفي الأوسط (٢٤٣/٤، رقم ٤٠٩٠) من طريق عثمان بن أبي العاص، وروي بألفاظ أخرى عند أخرجه الطيالسي (ص٢٦٤، رقم ١٩٥٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/٥، رقم ٥٥٧٠)، أخرجه ابن أبي شيبة (٢٧١/٧، رقم ٣٦٠٠٠).

(٥) أخرجه أحمد (١٥٢/١، رقم ١٣٠٦)، ومسلم (١٥٦٧/٣، رقم ١٩٧٨)، والنسائي (٢٣٢/٧، رقم ٤٤٢٢).

قوم لوط، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط»[١]، وقوله ﷺ: «لعن الله الراشي، والمرتشي، والرائش الذي يمشي بينهما»[٢]، وقال ﷺ: «لعن الله المتشبهات من النساء بالرجال، والمتشبهين من الرجال بالنساء»[٣]، وجاء بلفظ: «لعن الله الرجل يلبس لبسة المرأة، والمرأة تلبس لبسة الرجل»[٤]، وبلفظ آخر: «لعن الله الرجلة من النساء»[٥]، وقال ﷺ: «لعن الله الواشمة والمتوشمة، والواصلة والمستوصلة، والنامصة والمستنمصة، والواشرة والمستوشرة، والمانع الصدقة»[٦]، وقال: «لعن الله

---

(١) أخرجه أحمد (١٠٨/١، رقم ٨٥٥)، والطبراني (٢١٨/١١، رقم ١١٥٤٦)، والحاكم (٣٩٦/٤، رقم ٨٠٥٢)، وقال: صحيح الإسناد. والبيهقي (٢٣١/٨، رقم ١٦٧٩٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢٧٩/٥، رقم ٢٢٤٥٢)، والطبراني (٩٣/٢، رقم ١٤١٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٩٠/٤، رقم ٥٥٠٣) والديلمي (٤٦٣/٣، رقم ٥٤٣٨)، أخرجه الحاكم (١١٥/٤، رقم ٧٠٦٧).

(٣) أخرجه الطبراني (٢٠٤/١١، رقم ١١٥٠٢)، وأحمد (٣٣٠/١، رقم ٣٠٦٠)، وأبو داود (٦٠/٤، رقم ٤٠٩٧)، والترمذي (١٠٥/٥، رقم ٢٧٤٨)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (٦١٤/١، رقم ١٩٠٤)، (٦١٣/١، رقم ١٩٠٣). والطبراني كما مجمع في الزوائد (١٠٣/٨).

(٤) أخرجه أبو داود (٦٠/٤، رقم ٤٠٩٨)، والحاكم (٢١٥/٤، رقم ٧٤١٥)، وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٥) أخرجه أبو داود (٦٠/٤، رقم ٤٠٩٩).

(٦) أخرجه الربيع (ص٢٧٢ رقم ٩٧٥) مرسلا، وأحمد (٣٣٩/٢، رقم ٨٤٥٤)، والبخاري (٢٢١٦/٥، رقم ٥٥٨٩) من طريق أبي هريرة، وأخرجه أحمد (٢١/٢، رقم ٤٧٢٤)، والبخاري (٢٢١٨/٥، رقم ٥٥٩٦)، ومسلم (١٦٧٧/٣، رقم ٢١٢٤)، وأبو داود (٧٧/٤، رقم ٤١٦٩)، والترمذي (٢٣٦/٤، رقم ١٧٥٩) والنسائي (١٨٧/٨، رقم ٥٢٤٩)، وابن ماجه (٦٣٩/١، رقم ١٩٨٧) من طريق ابن عمر، وأخرجه أخرجه أحمد (٢٥٧/٦، رقم ٢٦٢٤٩)، والبخاري (٢٢١٧/٥، رقم ٥٥٩٠)، ومسلم (١٦٧٧/٣، رقم ٢١٢٣)، والنسائي (١٤٦/٨، رقم ٥٠٩٧) من طريق عائشة، وأخرجه أحمد (١١١/٦، رقم ٢٤٨٤٨)، والبخاري (٢٢١٨/٥، رقم ٥٥٩٧)، ومسلم (١٦٧٦/٣، رقم ٢١٢٢)، والنسائي (١٨٧/٨، رقم ٥٢٥٠)، وابن ماجه (٦٣٩/١، رقم ١٩٨٨) من طريق أسماء بنت أبي بكر، وأخرجه =

المحلل، والمحلل له»[١]، وقال ﷺ: «الجالب مــرزوق والمحتكر ملعون»[٢] وقال: «لعن الله من أحدث في الإسلام حدثا، أو آوى محدثا».[٣] وفي رواية: «فمن أحدث حدثا، أو آوى محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه عدل ولا صرف»[٤].

والروايات في هذا كثيرة يشد بعضها بعضا، ومن المعلوم قطعا أن اللعنة إن صدرت من أحد لأحــدٍ لا يمكن أن تجامعها مودتــه، فكيف يمكن أن يكون الملعون متولىً للاعنه؟!!

نُصُوصُ القُرآن تَدُلُّ على وجوب البَرَاءة مِنْ مُرْتَكِبِ الكبيرة:

هذا؛ وقد دلت نصوص القرآن ـ أيضًــا ـ على وجوب البراءة ممن أصر

= أخرجه الطبراني (١٣٠/٨، رقم ٧٥٩٥) من طريق أبي أمامة. وأخرجه الطبراني (٢٠٤/١١، رقم ١١٥٠٢) من طريق ابن عباس.

(١) أخرجه الترمذي (٤٢٧/٣، رقم ١١١٩) من طريق جابر بن عبد الله وأخرجه ابن أبي شــيبة (٢٩٢/٧، رقم ٣٦١٩٣)، وأحمــد (٨٧/١، رقم ٦٦٠)، وأبو داود (٢٢٧/٢، رقم ٢٠٧٦)، والترمذي (٤٢٧/٣، رقم ١١١٩)، وابن ماجه (٦٢٢/١، رقم ١٩٣٥)، والبيهقي (٢٠٨/٧، رقم ١٣٩٦٢) مــن طريق علي، وأخرجــه أحمد (٤٤٨/١، رقم ٤٢٨٣)، وابن أبي شــيبة (٢٩٢/٧، رقم ٣٦١٩٠)، والترمذي (٤٢٨/٣، رقم ١١٢٠)، وقال: حسن صحيح. والنسائي (٣٢٥/٣، رقم ٥٥٣٦)، والبيهقي (٢٠٨/٧، رقم ١٣٩٦٣) من طريق عبد الله بن مســعود، وأخرجه ابن أبي شيبة (٢٩٢/٧رقم ٣٦١٩٢) بزيادة والمحللة.

(٢) أخرجه الدارمي (٣٢٤/٢، رقم ٢٥٤٤)، وابن ماجــه (٧٢٨/٢، رقم ٢١٥٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٣٠/٦، رقم ١٠٩٣٤)، وفي شعب الإيمان (٥٢٥/٧، رقم ١١٢١٣).

(٣) أخرجه الربيع (ص٣٦ رقم ٤٢).

(٤) أخرجه الطيالسي (٢٦/١، رقم ١٨)، وعبد الرزاق (٢٦٣/٩، رقم ١٧١٥٣)، والبخاري (١١٦٠/٣، رقم ٣٠٠٨)، ومســلم (٩٩٤/٢، رقم ١٣٧٠)، وأبــو داود (٢١٦/٢، رقم ٢٠٣٤)، والترمــذي (٤٣٨/٤، رقم ٢١٢٧)، وأبو يعلى (٢٢٨/١، رقم ٢٦٣)، وأبو عوانة (١: ٢٣٩/٣، رقم ٤٨١٢)، والطحاوى (١٩١/٤)، وابن حبان (٣٢/٩، رقم ٣٧١٧)، والبيهقي (١٩٦/٥، رقم ٩٧٣١).

على الكبيرة، ناهيك من ذلك قوله تعالـــى لنوح ﷺ في ابنه: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]، فإن قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾ لا يعني إلا أنه يجب أن يتبرأ منه، وقد جاء هذا الرد الحاسم من الله تعالى على كلمة نوح: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [هــود: ٤٥]، وأنت ترى أن تعليل هـــذا الحكم إنما كان مبنيا على عمله غيـــر الصالح، وهو دليل قاطع على أن كل من عمل غير صالح فهذا حكمـــه، لأن الجملة المصدرة بـ(إن) إن وليـــت جملة فيها حكـــم فهي علة لذلـــك الحكم، وهذا مـــا دلت عليه الشواهد وقعَّدَهُ أهل البلاغة.

قال إمام البلاغة عبدالقاهر الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز): «روي عن الأصمعي أنه قال: كنت أســـير مع أبي عمرو بن العلاء وخلف الأحمر. وكانا يأتيان بشـــارا فيســـلمان عليه بغاية الإعظام، ثم يقولان: يا أبا معاذ ما أحدثت ؟ فيخبرهما وينشدهما، ويسألانه ويكتبان عنه متواضعين له، حتى يأتي وقـــت الزوال. ثم ينصرفـــان. وأتياه يوما فقالا: ما هـــذه القصيدة التي أحدثتها في سلم ابن قتيبة؟ قال: هي التي بلغتكم. قالوا: بلغنا أنك أكثرت فيها مـــن الغريب. قال: نعـــم بلغني أن ســـلم ابن قتيبة يتباصـــر بالغريب، فأحببت أن أورد عليه ما لا يعرف. قالوا: فأنشـــدناها يا أبا معاذ. فأنشدهما، من الخفيف:

بَكِّـــرا صَاحِبَـــيَّ قَبْـــلَ الهَجِيرِ   إِنَّ ذاكَ النَّجَـــاحَ فـــي التَّبْكِيرِ

حتى فرغ منهـــا، فقال له خلف: لو قلـــت يا أبا معاذ مـــكان (إن ذاك النجاح في التبكير): (بكرا فالنجاح في التبكير)؛ كان أحســـن. فقال بشار: إنما بنيتها أعرابية وحشـــية، فقلت: (إن ذاك النجاح في التبكير)، كما يقول الأعراب البدويون. ولو قلت: (بكرا فالنجاح) كان هذا من كلام المولدين،

ولا يشبه ذاك الكلام، ولا يدخل في معنى القصيدة. قال: فقام خلف فقبل بشارا بين عينيه»[١].

وقال الإمام عبدالقاهر أيضا: «واعلم أن من شأن (إن) إذا جاءت على هذا الوجه أن تغني غناء الفاء العاطفة مثلا، وأن تفيد من ربط الجملة بما قبلها أمرا عجيبا. فأنت ترى الكلام بها مستأنفا غير مستأنف، مقطوعا موصولا معا. أفلا ترى أنك لو أسقطت (إن) من قوله: (إن ذاك النجاح في التبكير)؛ لم تر الكلام يلتئم؟ ولرأيت الجملة الثانية لا تتصل بالأولى، ولا تكون منها بسبيل حتى تجيء بالفاء فتقول: بكرا صاحبي قبل الهجير، فذاك النجاح في التبكير؟ ومثله قول بعض العرب، الرجز:

فَغَنِّها وهي لكَ الفداءُ إنّ غناء الإبل الحداء

فانظر إلى قوله: إن غناء الإبل الحداء، وإلى ملاءمته الكلام قبله، وحسن تشبثه به، وإلى حسن تعطف الكلام الأول عليه. ثم انظر إذا تركت (إن) فقلت: فغنها وهي لك الفداء، غناء الإبل الحداء؛ كيف تكون الصورة؟ وكيف ينبو أحد الكلامين عن الآخر؟ وكيف يشئم هذا ويعرق ذاك حتى لا تجد حيلة في ائتلافهما، حتى تجتلب لهما الفاء فتقول: فغنها وهي لك الفداء، فغناء الإبل الحداء؟ ثم تعلم أن ليست الألفة بينهما من جنس ما كان، وأن قد ذهبت الأنسة التي كنت تجد، والحسن الذي كنت ترى». اهـ[٢].

ولهذا شواهد كثيرة من القرآن الكريم، لو تتبعناها لبلغت المئات، من ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ

(١) دلائل الإعجاز، الإمام عبدالقاهر الجرجاني، (ت: ٤٧١هـ)، ص٢١١-٢١٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. التنجي.

(٢) المرجع السابق، ص٢١٢.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]، فإن قولهم ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾، تعليل لقولهم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾، وقوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]، فإن قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تعليل لقوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ وقوله تعالى فيما يحكيه عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧ - ١٢٩]، فإن قولهما: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ تعليل لقولهما: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾، وقولهما: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، تعليل لقولهما: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾، وقولهما: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تعليل لقولهما: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]، فإن قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ تعليل لقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾، وقوله: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، فإن قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ تعليل لقوله: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨]، فإن قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ تعليل لقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، وقوله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣]، فإن قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تعليل لقوله: ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾.

وقوله: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٨١]، فإن قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ تعليل لقوله: ﴿فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ

يُبَدِّلُونَهُۥ﴾، وقولــه: ﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقـرة: ١٨٢]، فـإن قولــه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ تعليل لقولــه: ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [البقـرة: ١٩٠]، فقولــه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ تعليل لقوله: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ﴾.

ومثــل ذلــك قولــه: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقـرة: ١٩٥]، وقوله: ﴿وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [آل عمـران: ٨]، وقولــه: ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمـران: ٢٦]، وقوله: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمـران: ٣٨]، وقولــه: ﴿قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمـران: ١١٩]، وقولــه: ﴿وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ [آل عمـران: ١٥٥]، وقولــه: ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقوله: ﴿وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤].

وقولــه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النســاء: ١]، وقوله: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا﴾ [النســاء: ٢]، وقولــه: ﴿فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٦]، وقوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [النســاء: ٢٤]، وقوله: ﴿فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾ [النساء: ٣٤]، وقوله: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا﴾ [النســاء: ٣٥]، وقوله: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النســاء: ٧٦]، وقوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ١٠٦].

وقولــه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ

إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ [المائدة: ١]، وقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [المائدة: ٤]، وقوله: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: ١٣]، وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٩]، وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١]، وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [المائدة: ١١٦].

وفي الآية قراءتان، فقد قرأ الجمهور: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود: ٤٦]، بفتح ميم «عَمَل» على أنه مصدر مرفوع خبرا لـ«إن»، و«غير» مرفوع على أنه وصف لعمل، وقرأ الكسائي وهو من السبعة: ﴿إِنَّهُۥ عَمِلَ غَيْرَ صَٰلِحٍ﴾ بكسر ميم «عَمِل» وبنائه على الفتح لأنه فعل ماض، ونصب «غَيْرَ» على أنه مفعول له، وبهذا قرأ يعقوب وهو من العشرة، وهي مروية عن أربعة من الصحابة وهم علي وعائشة وابن عباس وأنس ﵃، وكلتا القراءتين مفادهما واحد، وإنما قراءة الجمهور خارجة مخرج المبالغة كما قالت الخنساء:

تَرتَعُ ما رَتَعَتْ حَتّى إِذا ادَّكَرَت فَإِنَّما هِيَ إِقبالٌ وَإِدبارُ

كأنما ابن نوح نفسه كان عملا غير صالح، وتفسر ذلك قراءة الكسائي، ومعنى أنه عَمِل غير صالح عصيانه لأبيه عندما دعاه إلى الركوب معه كما هو مروي عن سعيد بن جبير[١].

وإذا كانت الجملة المصدرة بإنَّ تفيد تعليل ما قبلها فإن هذا مما يفيد القطع على أن هذا الحكم إنما منشؤه عمل ابن نوح الذي لم يكن صالحا،

(١) تفسير الطبري، ج١٢، ص٥٢.

وهو أنه عصى أباه إذ لم يمتثل لأمره عندما قال له: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾ [هود: ٤٢]، ورد عليه بقوله: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ [هود: ٤٣]، ولم تشر الآية من قريب ولا بعيد إلى أنه كان كافرا برسالة أبيه، ولو أنه كان متلبسا بذلك لم يكن معنى لتعليل هذا الحكم بما هو أدنى منه، إذ لا يترك السبب الأكبر ويعدل عنه إلى ما هو أصغر منه، ومن المتبادر للذهن أن نوحا ﷺ لو علم من ابنه أنه كان كافرا برسالته لما دعاه إلى الركوب معه، مع أنه بنفسه قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، وبناء على زعم من يزعم أن الكبيرة التي هي دون الشرك لا توجب البراءة لا يبقى وجه لتعليل هذا الحكم بأنه عَمِل غيرَ صالح. ولما علل بهذا، ظهر بكل وضوح أن العمل غير الصالح عندما يصدر من أحد فهو موجب للبراءة قطعا.

ولا يقال بأن هذا مما يرجع إلى الشرائع السابقة على شريعة نبينا ﷺ، فلسنا متعبدين به، لأننا نقول إن هذا من الأصول الثابتة التي تشترك فيها جميع شرائع الله، ولا يصح النسخ فيها كالتوحيد ومكارم الأخلاق، لأن هذا من الغيرة على دين الله والغضب لانتهاك محارمه والتعدي على أوامره ونواهيه، فلا يسوغ التساهل في ذلك في أي شريعة من شرائعه، وهذا مما أمرنا أن نقتدي فيه برسل الله المصطفين الأخيار ومواقفهم الصلبة الناشئة عن غيرتهم على الدين، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام: ٩٠]، على أن القرآن الكريم جاءت نصوصه متوائمة مع هذه القاعدة التشريعية التي تستفاد من قصة نوح مع ابنه، فقد قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡ﴾ [المجادلة: ٢٢]، ويا ترى أليس الإمام الجائر الذي عاث في الأرض فسادا، وبدل أحكام الله، وانتهك حرمه، وظلم عباده؛ محادا لله تعالى ولرسوله.

والنبي ﷺ نفسه أخبر عن قطع الصلة بقرابته غير الصالحين، حيث قال: «ألا إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء، إنما وليي الله، وصالح المؤمنين»[(١)].

وقد تعزز هذا بما في القرآن الكريم من التشديد في موالاة الفساق والرضا عنهم، فقد قال تعالى: ﴿فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦]، وأنت ترى أن الله تعالى لم يقل: فإن الله لا يرضى عنهم، وإنما قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، لأجل التنصيص على أن علة عدم رضاه عنهم إنما هي الفسوق الذي تلبسوا به، وهذا يرجع إلى ما قاله الأصوليون وغيرهم من أن الحكم على المشتق يؤذن بأن أصل ذلك الاشتقاق علة لذلك الحكم[(٢)]، وهذا النص مَسُوقٌ في سياق التحذير عن الرضى عنهم.

(١) أخرجه البخاري (٢٢٣٣/٥، رقم ٥٦٤٤)، ومسلم (١٩٧/١، رقم ٢١٥). وأخرجه أيضا: أحمد (٢٠٣/٤، رقم ١٧٨٣٧)، وأبو عوانه (٩٠/١، رقم ٢٧٦).

(٢) **المستصفى في علم الأصول**، محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، (ت: ٥٠٥هـ)، ج١، ص٣٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، **المحصول في علم الأصول**، محمد بن عمر بن الحسين الرازي، (ت: ٦٠٦هـ)، ج٢، ص٩٠، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٠٠هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: طه جابر فياض العلواني، **رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب**، تاج الدين أبي النصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي، (ت: ٦٤٦هـ)، ج٣، ص١٣٥، عالم الكتب، لبنان، بيروت، ١٤١٩هـ /١٩٩٩م، الطبعة: الأولى، تحقيق: علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود، **الفروق أو أنوار البروق**، ج٣، ص٣٥٦، **والإبهاج في شرح المنهاج على منهاج الوصول إلى علم الأصول** للبيضاوي، علي بن عبد الكافي السبكي، (ت: ٧٥٦هـ)، ج١، ص٣٧٤، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٤هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: جماعة من العلماء، **والكوكب الدري فيما يتخرج على الأصول النحوية من الفروع الفقهية**، عبد الرحيم بن الحسن الأسنوي أبو محمد، (ت: ٧٧٢هـ)، ص٣٠٨، دار عمار، عُمان، الأردن، ١٤٠٥هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. محمد حسن عواد، **التمهيد في تخريج الفروع على الأصول**، عبد الرحيم بن الحسن الأسنوي أبو محمد، (ت: ٧٧٢هـ)، ص٢٨٥، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٠هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. محمد حسن هيتو، **حواشي الشرواني على تحفة المحتاج بشرح المنهاج**، =

والفسوق وصف يشتمل على كل خروج عن طاعة الله ففي (اللسان)، ما نصه: «الفِسْق: العصيان والترك لأمر الله ﷻ والخروج عن طريق الحق. فسَق يَفْسِقُ ويَفْسُقُ فِسْقاً وفُسوقاً وفَسُقَ الضم عن اللحياني، أي فجر، قال: رواه عنه الأحمر، قال: ولم يعرف الكسائي الضم، وقيل: الفسوق الخروج عن الدين، وكذلك الميل إلى المعصية كما فسق إبليس عن أمر ربه. وفسق عن أمر ربه أي جار ومال عن طاعته، قال الشاعر: فواسقا عن أمره جوائرا، الفراء في قوله ﷻ: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾، خرج من طاعة ربه، والعرب تقول إذا خرجت الرطبة من قشرها. قد فسقت الرطبة من قشرها، وكأن الفأرة إنما سميت فويسقة لخروجها من جحرها على الناس. والفسق: الخروج عن الأمر. وفسق عن أمر ربه، أي خرج»[1].

ونصوص القرآن الكريم شاهدة على شمول الفسوق لكل معصية يتلبس بها الإنسان ويصر عليها، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ بِئْسَ

= عبدالحميد الشرواني، ج١، ص٢٠، دار الفكر، بيروت، **شرح فتح القدير**، كمال الدين محمد بن عبدالواحد السيواسي، (ت: ٦٨١هـ)، ج٢، ص٣٥٨، دار الفكر، بيروت، الطبعة: الثانية، **الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**، أبو البقاء أيوب ابن موسى الحسيني الكفومي، (ت: ١٠٩٤هـ)، ج١، ص١٠٥٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري، **حاشية رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار في فقه أبي حنيفة**، ابن عابدين، (ت: ١٢٥٢هـ)، ج٦، ص١٢٠، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، البحر المحيط، ج٤، ص٢٩٥، **حاشية العطار**، حسن ابن محمد العطار، (ت: ١٢٥٠هـ)، ج٢، ص٤٤٣، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، (ت: ١٢٧٠هـ)، ج٢٣، ص٢٤٨، دار إحياء التراث العربي، بيروت، **إجمال الإصابة في أقوال الصحابة**، خليل بن كيكلدي العلائي، ص٦١، جمعية إحياء التراث الإسلامي، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ، تحقيق: د. محمد سليمان الأشقر. **طلعة الشمس**، عبدالله بن حميد بن سلوم السالمي، ج٢، ص٢٧٣.

(١) **لسان العرب**، ج١٠، ص٣٠٨.

ٱلِاسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١١]، وقوله: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقوله في الذين يرمون المحصنات: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النور: ٤ - ٥].

وقد بين الله تعالى في كتابه أن رابطة الولاية التي تشد المؤمنين والمؤمنات بعضهم إلى بعض لها مقومات لا بد منها، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله، فقد قال تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [التوبة: ٧١]، فلا بد من استجماع هذه الخصال كلها لاستحقاق الولاية، ومن أخل بشيء منها لم يكن من ولاية المؤمنين في شيء، وهو ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥].

على أن المسلم لا يتولى إلا من تولاه الله ورسوله، وقد علمت براءة الرسول ﷺ من أهل الظلم والفساد، ونص القرآن على أن ولاية الله إنما هي للمتقين وحدهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٩]، وقوله: ﴿إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]، ومثله قوله: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]، فهو نص على أن ولايته تعالى للصالحين، ويدل بمفهومه على أن من عاداهم ـ وهم المفسدون ـ ليس لهم من ولايته من شيء.

وقد سبق ما قاله المحققون من المفسرين في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ

عَهۡدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وتقدم أن من تولى ظالما فله حكمه لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٩].

هذا؛ وإن من طبع المؤمن أن يحب الإيمان ويكره الفسوق والكفر والمعصية كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾ [الحجرات: ٧]، ومن أحب شيئا من الأعمال أحب فاعله ومن كرهه كره فاعله، فلا يكون الإنسان مؤمنا حقا حتى يحب المؤمنين ويكره الكفار والفساق والعصاة، وهكذا يكون الترابط بين فئة المؤمنين؛ فإنها تتواد بما يكون بينها من علاقة التقوى والإيمان، وتكون المفاصلة بينها وبين أهل الكفر والفسوق والعصيان، والله المستعان.

ومما يؤسف له أن يندفع في هذا التيار، فيتجنى على أبي حمزة ومن معه؛ من كان جديرا بأن يقول كلمة الحق ولا يبغي بها بديلا، بما آتاه الله تعالى من علم وفقه وحنكة، وسوف نعرض لكلامه فيما يأتي إن شاء الله.

أثَرُ المَدْرَسَةِ التي ينتمي إليها طالبُ الحَقّ وأبو حَمْزَة في السِّياسة الإسلاميّة

إن المدرسة التي خَرَّجَتْ طالب الحق وأبا حمزة وأصحابهما ومَنْ سار على نهجهما هي مدرسة عريقة في الإسلام، تستمد نهجها من كتاب الله الخالد وسنة نبيه المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام، وقد أخذت على عاتقها إحياء ما أميت من الحق وإماتة ما أحيي من الباطل، فبذلت الكثير من أجل بعث العدل والإنصاف، وإقامة شرع الله تعالى حكما عادلا بين الأمة، من غير محاباة لقرابة قريب أو محبة حبيب، ومن غير حيف أو انتقاص حق بسبب شنآن بغيض أو بعد بعيد.

وقد عَرَفَ عنها كل من اتصل بها واطلع على ممارساتها، واعترف بذلك وشـهد به كل من آتاه الله تعالى حبا للخير وإنصافا لأهلـه ومنحه التوفيق لشـهادة القسـط بين الناس، وفيما تقدم ذكر صور من شـهادة القسط لهذه المدرسـة ورجالها ممن وفقهم الله لذلـك، وإليك مع ذلـك نموذجًا لهذه الشهادات فيما كتبه شاهدان، أحدهما بالمغرب وثانيهما بالمشرق.

شَهَادَةٌ مِنَ المَغْرِبِ:

كتب الأستاذ الدكتور الشـيخ العالم الجليل **عبدالعزيز المجدوب** أحد علماء الزيتونة بالجمهورية التونسية الشقيقة في كتابه القيم (**الصِّرَاع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولـة الزيرية**) ما يلي: «وأبرز مـا يتصف به الإباضيون تمسكهم الشديد بالدين بأداء فروضه وتجنب نواهيه إلى حد الغلو، وبغضهم المفرط لأصحـاب الظلم والفسـاد، وبفضل هاتين الصفتين اسـتطاعوا أن يحققوا لأنفسهم عزا دينيا ومجدا سياسـيا خلد ذكرهما التأريخ، وسنحاول الكشـف عن ذلك قاصرين الحديث على الدور الذي لعبته هذه الفرقة في بلاد المغرب عموماً وبإفريقية على وجه أخص.

بعد نشـوء هذه الفرقة وتركز قواعدها على يد صاحبها الأول في مطلع القرن الثاني ظهر منها أئمة أفذاذ برزوا فـي العلم والدين حتى بلغوا درجة الاجتهاد، فسنوا لحزبهم مبادئ وقواعد خاصة، وشرعوا له فقها وأصولا في العبادات والمعتقدات، تحولت به من حزب سياسـي ومن مجرد فرقة دينية إلى مذهب سني، وذلك لأن أتباعه حافظوا على صفاء الرسالة المحمدية في أصول مذهبهم، ولم ينحرفوا عن النهج القويم الذي كان عليه رسول الله ﷺ، وصحابته البررة في سـلوكهم وأمور معاشـهم، ولا اقترف وُلاتُهم إثما ولا مارسـوا في قيادتهم ظلما، ولا أي لون من ألوان العسف التي لم يبرأ منها إلا القليل من الولاة سواهم.

بل إن الظلم في حقهم كان مستحيلا لا لكونهم معصومين، بل لأن رجل الدين عندهم ورجل السياسة واحد، والقائم بأمر الناس فيهم هو الإمام نفسه، وتلك هي قاعدة الإسلام في الحكم، التي سار عليها الخلفاء الراشدون وعليها حافظوا ودونها نافحوا.

فمن الطبيعي أن ينتشر مذهب هذا شأنه، وأن يقبل على اتباعه الناس ببلاد المغرب ليجدوا في أكنافه الأمن والكرامة، وهم من سئموا حياة الاضطراب والظلم على أيدي الكثير من عمال بني أمية وبني العباس»[١].

هذه هي شهادته لهذه المدرسة، وهي شهادة صادقة نابعة من إيمانه بسلامة مبادئ هذه الطائفة الدينية والسياسية، وتطابقها مع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وحرص أصحابها على الخروج بهذه المبادئ من حيز التنظير إلى حيز التطبيق، بحيث لا يشذ شيء في واقع حياتهم العملية وممارساتهم السياسية والدينية عن مثالية مبادئهم ومعتقداتهم، لذلك حرصوا على التمسك بالدين بأداء فروضه واجتناب نواهيه، ولا يعد شيء من ذلك غلوا، وإن تسامح الشاهد العدل في تعبيره فسماه ـ عفى الله عنه ـ غلوا، إذ الدين لم يشرع إلا ليطبق بحذافيره من غير تفريط في اتباع أوامره أو الازدجار عن نواهيه، لأنه منهج الله الذي يجب أن يتبع، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وكذلك بغض أهل الظلم والفساد لا يعد إفراطا ما دام في حدود العدل ولم يتجاوزه إلى الجور والحيف، لا في القول ولا في العمل.

(١) **الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية**، عبد العزيز المجدوب، ص١٠٤ ـ ١٠٥ الدار التونسية، الحركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٣٩٥/١٩٧٥م.

ثم أضاف الكاتب الكريم إلى ما تقدم قوله: «ولعل أول داعية إباضي قدم هذه البلاد فارا من قبضة ملاحقيه هو سلمة بن سعد؛ الذي عرف كيف يتنقل في البلاد وأي الشعاب يسلك حتى يأمن ظلم الظالمين، ويضمن لعمله التوفيق ولرسالته الانتشار، فاختار الطرق الجبلية البعيدة عن الصحراء القاحلة وأهوالها، وعن المناطق الساحلية الخاضعة لسلطة الولاة وبجبال نفوسة ودمر ونفزاوة وما والاها من المرتفعات والجبال، وكلها مناطق آهلة بالسكان كثيرة العمران... أمكن له أن يستقر ويقوم في صفوف البربر بالدعوة، موضحا للأذهان الصورة الصحيحة للإسلام في الاعتقاد والعبادة والمعاملة، وهي غير الصورة التي شاهدها الناس في الحاكمين وأتباعهم في ذلك الوقت، فالتف من حوله الناس مستجيبين لدعوته، وراح يتنقل من مكان إلى آخر وما ارتحل من موضع إلا خلف فيه أتباعا... تكاثروا مع مرور الأيام والأعوام حتى صار لهم شأن وأضحوا يمثلون قوة يقرأ لها ألف حساب»[1].

ولا ريب ـ أيها القارئ الكريم ـ أنك اطلعت في كلامه هذا على ما يدلك على أن هذه المدرسة إنما مهمتها تصحيح طريق الإسلام بعدما حرفت، وتحسين صورته بعدما شوهت، لأجل ذلك كانت مغامرة ذلك الداعية العظيم سلمة بن سعد في تلك الأماكن الوعرة والديار السحيقة.

وأرجو أن يأذن لي الكاتب الكريم بتصحيح جزئية يسيرة من كلامه الصادق الأمين، وهي أن انطلاق سلمة بن سعد إلى بلاد المغرب لم يكن فرارا من ملاحقة خصومه بالمشرق، وإنما كان مسؤولية تحملها بنفسه، لبث الدعوة في تلك البلاد بعدما تعرضت للاضطهاد والقسوة البالغة والتمييز العنصري من قبل ولاة بني أمية، الذين لم يدخروا وسعا في إهانة العنصر البربري الذي هو المواطن الأصلي في تلك الديار، وبما أنهم يرفعون شعار

(١) المرجع السابق، ص١٠٥.

الإســلام زورا وبهتانا خيل لبعض البربر أن دين الإســلام ما جاء إلا ليهين الشعوب ويســخرها لشــهوات الحكام الطائشــة ونزعاتهم الجائرة، فكادوا يثــورون ثورة عنصريــة، ونما هذا الخبر الســيء إلى عميد هذه المدرســة وقائدها الملهم وإمامها الرباني أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي، فلم يتردد في بعث من ينقــذ الموقف، ويصحح الفكرة ويوجــه النفوس الثائرة الوجهة الصحيحة التي ترضي الله تعالى، ولعمق خبرته بأصحابه اختار لهذه المهمة الجلى سلمة بن ســعد، فاضطلع بها على أحســن وجه كما سبقت الإشارة إليه فيما تقدم.

ثم أضاف الكاتب الكريم إلى ما تقدم قوله: «ومن إفريقية انطلق شابان إباضيان ـ بعد أن تلقيا المبادئ الأولى للدين والمذهب على يد ســلمة بن ســعد ـ انطلقا إلى العراق ضمــن بعثة تضم عددا من الإباضيين ســواهما، فقضيا ســنين في طلب العلم علــى يد إمام المذهب في ذلــك الوقت أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة. فالطالب الأول من القيروان، وهو عبدالرحمن بن رســتم، أما الثاني فهو أبو داود مــن الجنوب، ولما أتمــا الطلب، واكتمل عندهما العلم، واطمأن لنباهتهما إمامهما أوصاهما خيرا، ثم سرحهما عائدين إلى موطنهما، فكان لأبي داود شــأن في عالم الإصــلاح، إذ تفرغ للجهاد الدينــي والعلمي، فأنشــأ بجهة نفزاوة وســواها من جهــات الجنوب جيلا إســلاميا فاضلا في خلقه ودينه، وكان البذرة الصالحــة لما تبعته من أجيال تمسكت بالسنة والفضيلة، وقاومت البدع والرذيلة.

أما عبدالرحمن بن رســتم فقد نبغ في العلم والاجتهاد درجة بهرت أبا عبيدة أستاذه حتى أجاز له حق الفتوى بما سمع منه وما لم يسمع، وبذلك كان اختياره لإمامة المذهب وريثا وحافظا»[1].

---

(١) المرجع السابق، ص١٠٦.

وبعد هذا عرج الكاتب الكريم على الملابسات والأحداث التي عايشت هذه الدعوة في تلك الديار، ووضع النقاط على الحروف، مبينا انحراف الولاة الأمويين نتيجة انحراف قادتهم الذين تربعوا على عرش الملك باسم الخلافة، وما نتج عن ذلك من حروب وثورات وكيف كان دور هذه المدرسة الإيجابي في خضم هذه الأحداث، فقال: «لكن شاءت الأقدار والأحداث السياسية أن يجمع عبدالرحمن بن رستم إلى جانب ذلك مهمة الاضطلاع بأعباء الحكم والسياسة، ذلك أن ظلم الولاة قد اشتد بإفريقية بعد ابن أبي المهاجر المولَّى من قبل الخليفة عمر بن عبدالعزيز، وأكثر رجالهم من السلب والنهب، واستباحوا الحرمات، حتى ثارت القبائل البربرية في وجوههم ثورات عديدة، اشتد ساعدها بنزوح الخوارج من الصفرية إليهم، فانقلبت إلى حروب حقيقية طاحنة، خاضها العمال أنفسهم، وقادوا جيوشها ضد الخوارج بأقصى المغرب وأوسطه دون جدوى، إذ كانت الهزائم تلاحقهم حيثما هجموا وأينما حلوا.

وقد كان المسؤول الأول عن هذه الفتن، وموقد نيرانها العامل عبيد الله بن الحبحاب المولى من قبل هشام بن عبدالملك، يقول ابن عذاري: وكان السبب في ثورة البربر وقيام ميسرة (المدغري) أنها أنكرت على عامل ابن الحبحاب سوء سيرته كما ذكرنا، وكان الخلفاء بالمشرق يستحبون طرائف المغرب، ويبعثون فيها إلى عامل إفريقية، فيبعثون لهم البربريات السنيات، فلما أفضى الأمر إلى ابن الحبحاب مناهم بالكثير، وتكلف لهم أو كلفوه أكثر مما كان فاضطر إلى التعسف وسوء السيرة.. اهـ، وإذا أضفنا إلى هذا ما قام به عامله بطنجة من تخميسه للبربر زاعما أنهم فيء للمسلمين، عرفنا السبب الذي من أجله ثار البربر يقدمهم الصفري ميسرة المدغري.

وتتابعت الحروب بين البربر وولاة القيروان عنيفة شديدة، أزهقت فيها

أرواح مئات الآلاف من المسلمين، وانتهكت فيها الحرمات واستبيحت النساء من الطرفين المتقابلين حتى كأن القوم ما عرفوا الإسلام، ولا طرقت أسماعهم مبادئ الإخاء والتناصح، والأمر بالتناصر والتسامح في كتاب الله وسنة نبيه الهادية.

وتأتي السنة ٧٤٩/١٣٢ فتنهار الدولة الأموية لتقوم على أنقاضها دولة بني العباس، ولئن تغيرت أوضاع الحكم والسياسة بالقيروان، فأصبح الولاة يفدون إلى أفريقية من العراق بعد أن كانوا يعينون من قبل السلطة بالشام؛ فإن الأغراض السياسية بقيت على ما هي عليه والنوايا نحو مسلمي المغرب باتت على حالها لم يتغير منها شيء، ونتيجة لذلك تواصلت المقاومة البربرية، وتتابعت الثورات أشد ضراوة. وما كان لها أن تتوقف وقد أضحت حروبا لا ضد الظلم المسلط وكفى بل حروبا عنصرية يرمي الجنس البربري من ورائها إلى القضاء على الجنس العربي، وعلى حكم القرشيين خصوصا.

وننتقل بالأحداث سريعا إلى سنة ٧٥٥/١٣٨ لنربطها بالأحداث التي تعنينا والتي لها علاقة بأصل موضوعنا، زحفت في هذه السنة بعض القبائل الصفرية على إفريقية، فتغلبوا عليها، واستولوا على مدينة القيروان، وربطوا دوابهم في المسجد الجامع، وقتلوا كل من كان من قريش، وعذبوا أهلها وأساءت ورفجومة لأهل القيروان سوء العذاب...

والغريب في الأمر أن أهل القيروان أنفسهم هم الذين بعثوا إلى الورفجومية يستعدونهم على الوالي حبيب بن عبدالرحمن بن حبيب الفهري الذي طغى، وأطلق يد أعوانه وجنده يسلبون وينهبون ويسومون الناس سوء العذاب. ولما حصل لهم على يد الورفجومية ما جعلهم يندمون استنجدوا بأبي جعفر المنصور حسب بعض الروايات، وبأبي الخطاب المعافري إمام الإباضية بطرابلس استنادا إلى رواية أخرى.

والظاهر أن أهل القيروان وقد ضاع عنهم رشدهم وانخرمت صفوفهم بفقدهم لقيادة شعبية يقوم بها شخص منهم فيوجههم إلى أقوم السبل، ويجنبهم الارتجال والتصرفات الطائشة التي تعود عليهم بالوبال؛ الظاهر أنهم قد وجدوا في شخص عبدالرحمن بن رستم قائدا رشيدا وزعيما بصيرا في هذا الظرف الخطير من حياتهم. كان عبدالرحمن متباعدا عن السياسة منكبا على التعليم والتبصير بالدين، فحركته هذه الأحداث، وهزته النكبة التي حلت بالقيروان هزا عنيفا فنهض لمحق الظلم وتطهير الأرض من إثم الحاكمين وعبث المفسدين...

فبادر يستنجد بزميل له في حلقات الدروس بالبصرة سابقا، قاوم ظلم الولاة من بني العباس بطرابلس فدانت له البلاد، واختارته إماما عليها لعدله واستقامته. هذا هو أبو الخطاب عبدالأعلى بن السمح المعافري، وجه إليه عبدالرحمن بن رستم من صور له بشاعة ما يجري بالقيروان، فهب لأداء الواجب الذي يفرضه عليه التعاطف الأخوي ويحتمه مبدأ من أهم المبادئ لمذهبه ألا وهو مقاومة أولي الأمر بالسيف، واستباحة دمائهم إذا تعدوا حدود الله ومالوا في أحكامهم إلى الهوى. وقدم أبو الخطاب في جيش عظيم تطوع لإقامة العدل ومحق الفساد والظلم الذي اقترفه عاصم الورفجومي وأتباعه... فكان له النصر.

ثم بعد أن أمن الناس حافظا أرزاقهم وأعراضهم، ولى على القيروان عبدالرحمن بن رستم ورجع إلى طرابلس. ودامت ولاية ابن رستم سنتين اثنتين ذاق المسلمون فيها بالقيروان وبإفريقية كلها طعم الأمن وعرفوا معنى العدل، وأدركوا لأول مرة تقريبا طعم العيش الكريم في ظل الحكم الإسلامي النظيف»[1].

---

(١) المرجع السابق، ص١٠٦ - ١٠٩.

وأنت ترى في كلامه هذا كيف وصل العسف بولاة الأمويين أن يستبيحوا من البربر أموالهم وأنفسهم على رغم استجابتهم لداعي الحق ودخولهم في دين الإسلام، ولم يكتفوا بسلب الأموال، وإنما تجاوزوه إلى انتهاك الأعراض، فبالله عليكم بأي وجه شرعي استباحوا تخميس البربر وانتقاء الجواري الحسان منهم لإرسالهن إلى المشرق ليستمتع بهن الخلفاء وحواشيهم؟!!..

أي إهدار لحقوق الإنسانية، وأي انتهاك لحرماتها أعظم مما وقع فيه هؤلاء!! أولا يكون هذا كله مسوغا لقيام العنصر البربري ضدهم وامتشاقه السيف لاسترداد حقه المغصوب، واسترجاع كرامته المسلوبة وصون حرماته المنتهكة؟!..

ومن حيث إن الأحلام كثيرا ما تطيش في مثل هذه المواقف الحرجة، التي تثور فيها الحفائظ وتتأجج فيها المشاعر؛ استجاب كثير من البربر للدعوة الصفرية المغالية رغبة منهم في الانتقام من ظالميهم وتخليص أنفسهم وذويهم من سلطاتهم، ولا ريب أن الحركة الصفرية كحركات الخوارج الأخرى لا تتقيد بالضوابط الشرعية في تعاملها مع الطرف الآخر، لذلك حصلت تجاوزات عديدة، ولكن دعوة أهل الحق والاستقامة أتت على أثر ذلك لترد الحق إلى نصابه، ولتنتصف لكل مظلوم من أي ظالم، فكانت حركة أبي الخطاب وعبدالرحمن بن رستم رحمهما الله مثالا حيا لذلك، وقد مهدت لحركتهما دعوة الرائد الأول لأهل الاستقامة في بلاد المغرب، ذلكم الداعية العظيم سلمة بن سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقد طبقت مبادئ أهل الحق والاستقامة التي تجسد هدي القرآن وهدي السُّنَّة النبويّة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام في التعامل مع قضية القيروان وغيرها، فتبين للناس الحق من الباطل وميزوا بين الزيف

والصحيح، وقد جاءت هذه الشـــهادة العادلة من الكاتب الكريم لتقرر هذه الحقيقـــة، ولترســـم هذه الصـــورة الإيجابيـــة المثاليـــة لمنهج أهـــل الحق والاستقامة.

وبعد كلام أضاف إلى ذلك قولـــه: «والواقع أن الإباضية قد تمكنت من فرض وجودها التأريخي فحققت عزا دينيا ذا بال، بقيت آثاره إلى اليوم في أتباعه الذين يعيشـــون بيننا، التزمـــوا خدمة الدين ومقاومـــة البدع والرذيلة حازمين في أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، كما حققت مجدا سياسيا كان له شأنه في تأريخ الإسلام بالمغرب العربي». اهـ[١].

شَهَادَةٌ من المَشْرِق:

إذا كانت هذه الشـــهادة من الكاتب الكريم الشـــاهد العدل تصور واقعا تأريخيا ببلاد المغرب قامت به هذه الفئة المنتســـبة إلى هذه المدرسة، فإن هنالك شهادة من أحد أبناء المشرق جاءت لترسم على لوحة التأريخ صورة واقعية مثالية من دور أبناء هذه المدرســـة ببلاد المشرق، ذلكم هو الأستاذ الفاضـــل الدكتور **حســـين غباش** في أطروحتـــه القيمة (**عُمـــان الديمقراطية الإسلامية، تقاليد الإمامة والتاريخ السياســـي الحديث**)، وكتابه هذا من أوله إلى آخره هو رســـم لهذه الصورة الإيجابية للدور السياســـي الذي قامت به هذه المدرسة ببلاد المشرق، وكان مما قاله:

«حركة فريدة نشـــأت وازدهرت على خلفية مذهب إســـلامي أقلي، هو المذهب الإباضـــي وانطبعت هذه الحقبة بالســـعي إلى تشـــييد إمامة عادلة وناجحة وفـــق النموذج الإباضي للدولة الإســـلامية، ولقـــد وجدت الحركة الإباضية هويتهـــا العقائدية والفكرية في زمن مبكـــر، ومن خلال محافظتها

(١) المرجع السابق، ص١١٠.

على مبدأي الشورى والانتخاب الحر للأئمة ومبدأ الإجماع والتعاقد، يمكن أن تُعَدَّ وأن تَعُدَّ نفسها الوريث الحقيقي لتقاليد نظام الخلفاء الراشدين١١هـ/٦٣٢م - ٤٠هـ/٦٦١م، وبشكل خاص الفترة الأولى منه، فترة أبي بكر وعمر بن الخطاب.

تعد دولة الخلافة هذه الفترة المثالية والنموذجية للدولة الإسلامية بعد وفاة الرسول (ص) وتمثل هذه الفترة بالنسبة للإباضيين وغيرهم المرجعية الإسلامية الوحيدة، ومنها استمدت الحركة الإباضية رؤيتها وشرعيتها ومبادئها وقوانينها الدستورية وكل ذلك في سبيل إقامة الدولة والمجتمع الإسلاميين المثاليين من خلال تشييد نظام الإمامة»[١].

ثم قال: «الدستور الإباضي هو الأول من نوعه في العالم العربي والإسلامي بل ومن الأوائل في العالم كله، فالأسس الأولى لهذا الدستور وضعت في النصف الثاني من القرن الهجري الأول (السابع الميلادي)، ويعتقد أنه كتب ثم أغني أكثر في القرنين الخامس والسادس للهجرة»[٢].

وقال أيضا: «استطاعت الحركة الإباضية بفضل حملة العلم من إطلاق أول ثورة في جنوب شبه الجزيرة العربية ١٢٨ - ١٢٩هـ/٧٤٧م امتدت من حضرموت وصنعاء إلى مكة والمدينة، ولكن هذه الثورة انتهت بعد حوالي سنتين، وفي المغرب لعب الإباضيون العُمانيون بعد الفتح الإسلامي دورا راجحا في هذه البلدان واستقرارها، وتدل كتابات الإباضية بشكل خاص على أن سلمة بن سعد كان أول من نقل إليها المذهب الإباضي.

---

(١) **عُمان الديمقراطية الإسلامية، تقاليد الإمامة والتاريخ السياسي الحديث** (١٥٠٠هـ/ ١٩٧٠م)، ص١١.

(٢) المصدر السابق، ص٢٢.

وقد توصلت الحركة الإباضية خلال النصف الأول من القرن الثاني للهجرة ومن خلال ثورات عديدة إلى تأسيس ثلاث إمامات في القيروان وطرابلس زالت جميعها إثر صراعات دموية، قدم فيها الإباضيون العديد من الشهداء، ولقد توج عملهم السري في وقت ما بقيام الدولة الرستمية ١٤٤هـ/٧٦١م إلى ٢٩٦هـ/٩٠٩م»[١].

وقال أيضا: «الفكر الإباضي عميق الجذور في الفكر الإسلامي، إذ يعود إلى دولة الخلفاء في النصف الثاني من القرن الأول للهجرة، وخلافا للمذهبين الرئيسيين الآخرين السني والشيعي، فإن الإباضية هو المذهب الوحيد الذي حافظ بإصرار عبر القرون وعن طريق نظام الإمامة على تطبيق مبدأ الإجماع والتعاقد»[٢].

وقال: «ومن بين المبادئ الأساسية التي حددتها هذه الحركة وتميزت بها، نشير هنا إلى ثلاث مبادئ هامة:

أولاً: أن الإباضية أكدت على الاعتدال كمبدأ أساسي في محاكمتها للأمور ورفضت ـ خلافا لجماعات أخرى ـ مبدأ الخروج، وبعبارة أخرى رفضت مهاجمة أية جماعة أخرى أو الدخول في حرب ضد أي طرف آخر، إلا في حال تعرضها لاعتداء. كما أقرت بالمقابل المبدأ المعروف في ذلك الحين باسم (القعود) وفضلت العمل السلمي والسري غالبا لنشر المذهب الإباضي.

ثانياً: تمسكت الحركة بعدم الثورة على الحكام القائمين، شريطة أن يكونوا عادلين وأن يراعوا الشرائع الإسلامية، وبالمقابل التزمت الحركة

(١) المصدر السابق، ص٤٢ ـ ٤٣.

(٢) المصدر السابق، ص٥١.

مذهبيا بإعلان إمامة الظهور لإسقاط حاكم مستبد وإحلال الإمامة محله.

ثالثاً: أقرت الحركة، مرحلة الكتمان كمرحلـة هامة للمحافظة على نقاء العقيدة وسلامة الحركة ضد الاضطهاد.

ويعتقد أنه خــلال هذه الحقبة التــي امتدت أكثر من نصــف قرن، أقر العلماء الإباضيــون مراحل الإمامــة أو حالاتها الأربع: الكتمان، الشــراء، الظهور، والدفاع، التي تعرف أيضا بمسالك الدين والتي لم تلبث أن تحولت إلى قواعد ثابتة في الدستور الإباضي.

امتدت مرحلة البناء العقدي والفكــري والتنظيمي أكثر من نصف قرن، وعلى هذا النحو تميزت الحركة الإباضية منــذ بداياتها بالتنظيم والتخطيط والانضبــاط، وتميزت أيضا دون شــك بالمرونة والاعتــدال، وهما صفتان لازمتا الثقافة العُمانية حتى اليوم.

ويجب أن نشير إلى أن جابر بن زيد كان يتمتع بمكانة بارزة بين علماء تلك الفترة، وقد لعب دوراً أساسيا في تنظيم الحركة وبنائها العقائدي، كما في انتشــارها. ولدى وفاته علق أنس بن مالك أحد أصحاب النبي ﷺ وأحد شيوخه قائلا: «اليوم مات أعلم أهل الأرض»[1].

وقال فــي خاتمة كتابه القيم: «إن مســارا أصيلا يميز السياســة والثقافة والتاريخ العُمانــي. ومفتاح هذه الأصالة هو ـ دون ريــب ـ الفكر الإباضي وتجربته، فالإباضية وهي المثل الأعلى للأيام الأولى ولأزمنة الشدة ولتجربة الحكم في عمر النضج تتماهــى مع تاريخ عُمان وتمتــزج به. ثلاث نتائج هامة يمكن استخلاصها من دراسة التطور السياسي لعمان:

(١) المصدر السابق، ص٦٠ - ٦١.

فأما الأولى فتدور على النموذج الأصيل للدولة الإسلامية الذي قدمه المذهب الإباضي منذ الأزمنة الأولى. وأما الثانية فلبها ديمومة (الأسطورة) ومتانة التجربة الإباضية عبر التاريخ السياسي للبلاد. وأما الثالثة فهي عمق التراث الديمقراطي الذي خلفته الإباضية للثقافة العُمانية اليوم.

إن مبدأي الشورى والبيعة ـ الإجماع والتعاقد ـ مضافا إليهما قيم المساواة الاجتماعية والمساواة أمام القانون ومبادئها تمثل ركائز الديمقراطية الإسلامية في عُمان، وفلسفة الثقافة الاجتماعية والسياسية لدولة الإمامة، وقد كان الشغل الشاغل للحركة الإباضية المتصفة بمثابرة غير عادية هو تشييد دولة ومجتمع إسلاميين على مثال دولة الخلافة.

على أن إحدى الخصائص الأولى لنظام الإمامة الإسلامي أنه لا يمكن اختزاله إلى نظام ثيوقراطي (حكومة دينية أو بالأحرى حكومة كهنوتية) قائم على الحق الإلهي، كما هو الحال في أوروبا المسيحية، فلم يكن الإمام إلا قائدا منتخباً وممثلا للأمة، يستمد شرعيته منها. وقد شكلت الممارسة الإباضية بمحافظتها على مبدأ الانتخاب الحر للإمام الذي تكرسه البيعة، مجموعة قيم وأسس ديمقراطية، قريبة جدا من حيث الجوهر مما يسمى اليوم بالديمقراطية.

لقد دخلت الديمقراطية (ديمقراطية الشورى) إلى عُمان مع المذهب الإباضي أي مع الدين، إنها إذا روح الثقافة السياسية العُمانية، ومن ثم الديمقراطية العُمانية القائمة على الانتخاب الحر للأئمة لا تمثل نموذجا سياسيا قط، بل هي فوق ذلك، سلوك اجتماعي وثقافي وقيمي. وبفضل ممارستها الطويلة أصبحت بحق تقليدا ثابتاً للمجتمع العُماني، بل قانونا للحياة الجماعية وللدولة.

وعلى مر القرون وبفضل هــذه الديمقراطية اســتطاع العُمانيون تحقيق مبادئ العدل والمساواة، وكذلك الســلام الأهلي والوحدة الوطنية، وفضلا عن ذلك أتاحت هذه الممارسة بلوغ صورة انسجام عالية بين الأمة وقادتها. وهكذا يستنتج أن تطبيق الديمقراطية الإسلامية العُمانية ضمن استمرار نظام الإمامة طــوال أكثر من ألف عام، وبدوره ضمن نظام الإمامة اســتمرار هذه الديمقراطية.

وعلى الرغم مــن أن لمنصب الإمام بصورة أساســية صبغة روحية فإن وظائف الإمام لا تقتصر أبدا على الممارسات الدينية، بل تشمل كل شؤون الدولة السياســية والعســكرية والمالية، علما أن الإمامة لم تكن حكرا على العلماء، فقد شغل هذا المنصب، في قســم كبير من تاريخ الإمامة العُماني، شخصيات وطنية مستقلة لا تنتمي إلى جماعة العلماء.

إن الحرية وســيادة الشعب هي في أســاس الثقافة السياســية العُمانية، فسلطة الإمامة السياسية تقوم على مبدأ مشاركة الشعب بمجموعه في الحياة السياسية، وذلك على كل المســتويات، المحلية والإدارية، من خلال ممثليه كالعلماء والشخصيات القبلية.

وكذلك قامت دولة الإمامة على مبدأ الفصل بين الســلطتين التشريعية والتنفيذية، على الرغم من أنه لا تمييز صريحــا بين الاثنين، ويجدر بنا أن نشــير إلى أن العلماء مثلوا (مجلسا تشــريعيا دائما) طوال التاريخ الإمامي لعمان، ومن جهة أخرى فإن تفويض الســلطة في مختلف المناطق إلى ولاة تساندهم مجالس إقليمية استشارية وقضاة مستقلون كان يعطي هذه المناطق استقلالا إداريا واســعا، ولم تكن هذه البنية اللامركزية للإمامة سوى التعبير الفعلي عن مبدأ مشاركة المواطنين الفاعلة في الحياة السياسية.

ويستخلص بوضوح من التاريخ العُماني أن العلماء أهل الحل والعقد ضمير المجتمع وممثليه لعبوا دورا مركزيا في تخليد نظام الإمامة والحركة الإباضية. وفضلا عن دورهم كمرشدين روحيين للمجتمع وكقضاة وكحراس لتطبيق مبدأي الشورى والعدالة الاجتماعية إلى غير ذلك، يعود إليهم أيضا أمر التشريع في إطار مبدأ الاجتهاد في كل مستجدات الحياة، وخاصة في الشؤون التجارية والعلاقات الخارجية. وبما أنهم كانوا الأمناء المتميزين على ثقافة بلادهم السياسية، فقد حرصوا على أن يكونوا أيضا من خلال أعمالهم النظرية والفقهية والتاريخية ذاكرة هذه الثقافة السياسية، بل ذاكرة الحضارة العُمانية ثقافة وهوية.

وللحركة الإباضية، وريثة تقاليد دولة الخلافة الرشيدة وصاحبة الرؤية الخاصة والخبرة بما يجب أن تكون عليه الدولة الإسلامية المثالية، لهذه الحركة وجهة نظر حول مسألة الخلافة تبدو لنا غاية في الأهمية إلى حد لا يمكن معه لأحد ادعاء معرفة التاريخ الإسلامي بعمق دون أخذها بعين الاعتبار.

يبقى أن الممارسة الثابتة لمبدأي الاجتماع والتعاقد على مدى اثني عشر قرنا ـ في حين كانت هذه الممارسة قد ألغيت أو علقت في المجتمعات الإسلامية الأخرى منذ الدولة الأموية أي منذ القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي ـ قد سمحت باستقرار المجتمع وسلامة نظام الإمامة واستمراره. وبالفعل فإن هذه الثقافة كانت مطبوعة بقيمها السلمية. ولسنا نجد خارج الخلافات ذات الطبيعة القبلية، سوابق تمرد على إمام شرعي، من هنا يمكن القول أيضا إن السلام كان ضمانة للسيادة.

أما مبدأ المساواة الاجتماعية والمساواة أمام القانون فمن الأعمدة الرئيسية للثقافة السياسية الإباضية التي تؤكد دون شك مكانة الإنسان

كإنسان من خلال حرصها على مصلحة المجتمع العامة، مصلحة الأمة. ذلك أنه لم يكن ممكنا لكرامة الإنســان أن تبلغ كاملة، في نظر هذه الثقافة، إلا من خــلال تحقيق كرامــة الأمة الجماعيــة. وفعلا كان الإســهام في الحياة الاجتماعية بصورة مباشــرة أو غير مباشــرة يقوي مواطنة الإنسان العُماني ويوطدها. وهنا تبرز سمة أخرى من سمات هذه الديمقراطية الأصيلة.

وأخيرا، فقد كشــف المجتمع العُماني بمركباته القبلية عن كونه منظما وذا بناء متماسك ولا ينبغي أن ننسى أن هذه القبائل المتصفة بالنزوع الحاد إلى الحرية أسهمت في توطيد لامركزية نظام الإمامة، أي تأكيد الديمقراطية العُمانية.

وإذا أضفنــا إلى هذه المركبــات بنى اقتصاد مفتوح يســتند خاصة إلى نشــاط بحري هام نتبين أن الحركة الإمامية الإباضية لم تتســبب لأي ضرر على مســتوى نمو البلاد بل على العكس من ذلك فقــد كانت عُمان خلال مرحلة الإمامــة العكس الكامل، فثقافتها السياســية القائمة على مســؤولية المواطنين وقادتهم تجعل منها أمة ذات ســيادة ومحترمة معا، بالإضافة إلى كونها مستقرة ومسالمة»[١].

وأضاف إلى ذلك: «أن التجربــة الإباضية تبقى ميراثــا وتراثا وطنيا لا يقدر بثمن، لا بالنســبة للإباضيين وحدهــم بل أيضــا وبالتأكيد لمجموع العُمانييــن، إباضيين كانــوا أو غير إباضييــن، وتبقى كذلــك تجربة عربية وإسلامية رائدة»[٢].

هذه هي شــهادته لهذه المدرسة ورجالها، وهي دالة على نجاح تجربتها

---

(١) المصدر السابق، ص٣٤٥ - ٣٤٨.

(٢) المصدر السابق، ص٣٤٩.

في المجال الديني والسياسي معا، وأنها أخذت على نفسها في كل عصر أن توائم بين التطبيق الدقيق للشريعة الإسلامية، والاستمساك الأقوى بعروة الدين، وتحقيق العدالة الاجتماعية والمساواة المطلقة الشاملة لجميع شرائح المجتمع، وبين المواكبة في كل زمان للعصر وتطوراته الحضارية.

وقد رأيت من خلال هذه الشهادة المشرقية وما سبقها من الشهادة المغربية أن هذه المدرسة كانت مثالية في متانة مبادئها، وعمق فكرها، وسلامة أهدافها، وأصالتها في الإسلام، لأنها ارتبطت كل الارتباط بعصره الذهبي عصر النبوة الهادية والخلافة الراشدة، وأنها أولت كل من كان داخل عهدتها حقه في المساواة والعدل والإنصاف كاملا غير منقوص.

وبجانب هاتين الشهادتين العادلتين، هناك شهادات صادقة في القديم والحديث، ممن خبروا هذه المدرسة ورجالها، وسبروا مبادئها وغاياتها، واكتشفوا في خزائن تاريخها نفائس الأدوار التي قام بها أئمتها العدول، وقادتها الجهابذة، وحسبي أن أشير إلى شهادتين أخريين، شهادة ترجع إلى نهاية القرن الثالث الهجري، من شاهد عيان للسيرة النيرة التي سارها هؤلاء الأئمة والقادة، وهو **ابن الصغير** الذي أرخ للأئمة الرستميين فأبدى إعجابه بممارساتهم العادلة وسيرتهم المستقيمة، رغم ما كان يطفح به من عداوة وكره لهم، بدافع عصبية مذهبية لم يستطع إخفاءها، وسأوافيك أيها القارئ الكريم إن شاء الله بنصها.

وشهادة ترجع إلى عصرنا الحاضر بطلها المغوار وشاهدها العدل هو الدكتور الفاضل **حسين مؤنس** الذي سجل في كتابه القيم (**دستور أمة الإسلام**)، بيراعه الصادق البليغ أن أمة الإسلام بعد انطواء عهد النبوة الهادية والخلافة الراشدة فقدت الحكم الإسلامي النظيف العادل إلا عند أصحاب هذه المدرسة، وأن كل ما دون فيما يعود إلى السياسة الشرعية إنما كان

لأجل ترسيخ سلطات الحكام المستبدين على حساب الحقوق الشرعية للأمة إلا ما دون بأقلام أصحاب هذه المدرسة(١).

نَمَاذِجُ حَيَّةٌ وصُوَرٌ مِثَاليّة

مِنَ الحِرْصِ على العَدَالَةِ الاجتماعيّةِ عِنْدَ أبناءِ هذه المَدْرَسَة

لقد ضرب الأئمة الذين اختيروا لقيادة الأمة ممن ينتمون إلى هذه المدرسة أروع الأمثال في العدل والإنصاف والتضحية بالنفس وبراحة الدنيا ونعيمها، من أجل مبادئ العدل والإنصاف وإضفاء الاستقرار والأمن على البلاد والعباد، فقد كانوا يتعبون ليستريح الناس، ويجوعون ليشبعوا، ويعرون ليكتسوا، كما كانوا مثالا للانقياد لداعي الحق والاستجابة لمطلب الأمة في التزحزح عن سدة الأمر وتسليم القياد إليها، ودونكم هذه الأمثلة:

١ ـ الإمامُ الجُلَنْدَى بن مَسْعُود:

الذي نصب إماما بعُمان سنة إحدى وثلاثين ومائة، فسار سيرة العدل وأنصف من نفسه ومن أسرته، وأرى الناس من نفسه الزهد في المنصب، والرغبة في إقامة الحق والعدل، فعندما بغى بعض أسرته لم يتردد في الإنصاف منهم، فقد بغى جعفر وابناه النضر وزائدة ـ وهم من أسرة الإمام ـ فما كان منه إلا أن مكن المسلمين من رقابهم فضربت أمام الجمهور، وقد سرت الرحمة إلى قلبه مما وقع بهم ففاضت عيناه بالدموع، فأنكر المسلمون ذلك عليه، وقالوا له: أعصبية يا جلندى؟! فرد عليهم: لا، ولكنها الرحمة. فقالوا له: اعتزل أمرنا، فرد إليهم الإمامة عن طواعية. وظل يغدو ويروح في

(١) ينظر: **دستور أمة الإسلام، دراسة في أصول الحكم وطبيعته وغايته عند المسلمين**، حسين مؤنس، ص٣٩ - ٤٢، دار الرشاد.

معسكر المسلمين، كأنه واحد من جنودهم، ولم يؤثر ذلك الموقف الصلب الذي وقفوه منه شيئا في نفسه، فلم يجد حرجا في قلبه أن يدع القيادة لغيره، ويكون واحدا من الأتباع يؤمر فيأتمر ويدعى فيستجيب ويقاد فينقاد، فلما تبين منه المسلمون حسن نيته وصفاء طويته ردوه إلى مكان القيادة، على الرغم، منه مع كثرة اعتذاره إليهم[١].

وفي أيامه خرج إلى عُمان شيبان الصفري الخارجي، فتصدى له الجلندى فهزمه وشرد رجاله، وقُتل شيبان في هذه الحملة، وآل إلى الجلندى وأصحابه سيفه وخاتمه، فلم يستبيحوهما لأنهم لا يستحلون أموال أهل التوحيد، ولو كانوا بغاة مارقين يأكلون مال الموحدين ويسفكون دماءهم، إذ من مبادئهم أنهم لا يعاملون المخطئ بمثل خطئه ولا يدفعون الشر بالشر، وإنما يقابلون الخطأ بالصواب والشر بالخير، وقد احتفظوا بالسيف والخاتم أمانة في أيديهم إلى أن يجدوا ورثة شيبان، وجاء على أثر شيبان إلى عُمان خازم بن خزيمة قائد السفاح، فطلب من الجلندى وأصحابه تسليم الخاتم والسيف إليه، فأبوا ذلك، فقاتلهم فتصدوا لقتاله، حتى قتل من كان مع الجلندى جميعا، ولم يبق إلا هو وهلال بن عطية الخراساني، فتقدما وقاتلا الجيش وحدهما، حتى استشهدا، ولحقا بأصحابهما[٢].

وسجل هذه القصة الإمام نور الدين السالمي في **جوهره** نظما، فقال:

قاتلـه جيـش بنـي العبـاس	في سيف شيبان الفتى الدعاس
يطلبـه المعروف باسـم خازم	في أخذ سـيفه وأخـذ الخاتم
قالـوا لـه ذلـك للـوراث	وأنت لسـت من ذوي التراث

(١) **تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان**، نور الدين عبدالله بن حميد السالمي، ج١، ص٩٠، مكتبة الإمام السالمي، السيب، ٢٠٠٠م.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٩٤.

وانتشـــبت بينهـــم الحرب فلم	ينشـــب إلى أن قتلوا فما انهزم
وقـــد بقـــي هـــلال والإمـــام	فرديـــن لـــم يغشـــهما انهزام
قـــال الإمـــام لهلال مـــا ترى	قـــال تقـــدم وأنا فيمـــن جرى
تقـــدم الإمـــام حتـــى قتـــلا	وقتـــل القاضـــي وراه مقبـــلا
كان لهم كأســـد فـــي الصولة	وكعقـــاب الجو عنـــد الجولة
تعجـــب الخصـــم ومـــن رآه	في ذلـــك الحـــال بمـــا أبداه
أبـــدى ثقافـــة تحيـــر الذهنـــا	مـــع بســـالة عليهـــا يثنـــى
فاستشـــهدوا وقد حوت جلفار	مشـــهدهم جاءت بذا الأخبار
عليهـــم الرحمـــة والرضـــوان	من ربنـــا والعفـــو والغفران[١]

وقد ذكره العلامة أبو الحسن في سيرته، فقال: «فسار الجلندى بن مسعود رَحِمَهُ اللهُ في عُمان فأظهر الحق وعمل به، وأخذ الدولة من يد أهل الجور وبرئ من الجبابرة وأشياعهم ، ودان بقتال أهل البغي ولم يستحل مع ذلك غنيمة ولا سبي ذرية، ولا استعراضاً بالقتل من غير دعوة»[٢].

وذكره العلامة منير بن النير الجعلاني رحمة الله عليه، فوصفه وأصحابه بقوله: «لم يأخذوا الصدقة بغير حقها ، ولم يضعوها في غير مواضعها ، ولم يستحلوها من الناس على غير الإثخان في الأرض والحماية والكفاية والمكافحة عن حريم المسلمين، بل أخذوا بحقها بعد إحكام الأمور التي تعنيهم في دين الله وحفظ الرعية، ثم وضعوها في مواضعها، وقسموها على أهلها بحكم القرآن، فريضة من الله، والله عليم حكيم».

(١) **جوهر النظام**، ج٣ ص ٤٧٩.

(٢) **تحفة الأعيان**، ج١، ص٨٥.

قال: «ثم بلغنا عنهم فيما استقام عليه رأيهم أن يرفضوا صدقة البحر إلا ما طاب بأنفس الناس أن يبذلوه لهم ، وذلك لما يتخوفون من الدخل عليهم في سبيل الله إذ لم يحموه، قال: ولا يولون أمرهم ولا يبعثون في حوائجهم ولا يستعملون على صدقاتهم وأهل رعيتهم ولا يستقضون على أهل ولايتهم، إلا أهل الثقة وأهل العلم والفهم والورع والتحرج المعروفون بالفضل الموصوفون بالخير من أهل البيوتات من قومهم، غير سقاط ولا أدعياء ولا متهمين ولا مقترفين.

منهم موسى بن أبي جابر والحسن بن عقبة والوليد بن خالد وموسى بن سعيد وجعفر ابن بشر ومعين بن عمر ولوط بن سام وحميم بن المغيرة والهمام بن المغلس والنير بن عبدالملك وعبدالله ابن أبيّ وعمارة بن همام ومحمد بن عبدالله بن سلوم وعمر بن يحيى وحميد بن عبدالله ويحيى بن زيد وعمر بن عبدالله، وضرباؤهم من الناس لا يتعلق عليهم بالسباب ولا يلجأ إليهم القبيح، ولا يتهمون في دينهم، مرضيون في إخوانهم متبع رأيهم، معروف فضلهم معروفون به ، قد أحكمت آراؤهم في قوة الحق وإحكام أمور الدين»[١].

وقال أيضا: «وكانوا أهل فقه وأهل علم وحلم وتؤدة وتودد ووقار وسكينة ولب وعقل وبر ومرحمة وصدق ووفاء وتخشع وعبادة؛ وورع وتحرج وصلة ونصيحة وظاهرة مقبولة؛ لا يطمعون بمطامع السوء ولا يتعاطون من الناس الحقوق ولا يدخلون في خصومات الناس؛ ولا يتعجلون على استخراج الحقوق ولا يسترشون على طلب الحوائج التي تعنيهم من أمر الرعية؛ ولا يستفضلون في الرزق على الشبعة؛ ولا يغتاب بعضهم بعضا ليس من شأنهم الغيبة ولا البغي ولا الحسد ولا التقاطع ولا التدابر ولا

(١) المرجع السابق، ج١، ص٨٦ - ٨٧.

البغضة؛ ولا شيء من أخلاق أهل الريبة ، يحرصون على معادهم في الدين ومع أهل الدين، ويكرهون العيوب ويهجرون أخلاق الفجور والمعاصي؛ هم أنواء في الأرض وغرباء في الناس يعرفون بسيماهم، وكيف لا يكون كذلك من باع لله نفسه ينتظر حتفها صباحا ومساء وليس له في شيء من الأمور؛ ولا لأحد من الناس دنت رحمه أو بعدت أو عظم خطره أو صغر، أو ارتفع شأنه أو تواضع هوى إلا ما وافق الحق»[1].

هذا بعض ما وصفهم به، وهو الثقة الأمين، وقد جاء في وصفهم بالعجب العجاب، من غير ما أوردناه من كلامه، حتى أنه ذكر أنه كان يرزق أحدهم من بيت مال المسلمين في الشهر سبعة دراهم لنفقاته في شهره، فكان يحرص على القناعة باليسير، ولربما فضل منها درهم أو درهمان، فيرد ما فضل إلى بيت مال المسلمين.

٢ ـ الإمام أبو الخَطَّاب المعافري:

الذي عقدت له الإمامة بطرابلس الغرب في شمال إفريقيا، في عام مائة وأربعين للهجرة، فأقام في الناس موازين القسط وعدل بين الرعية، وقسم بينهم بالسوية وأبى أن يعامل الخصم بمثل صنيعه، فقد استنجدته امرأة من أهل القيروان على ورفجومة ـ وهي قبيلة صفرية كانت تحكم القيروان في عصر الإمام أبي الخطاب ـ وكانت هذه المرأة تعرضت لظلم قاس من هذه القبيلة، وبما كان وصل إليها من سيرة أبي الخطاب وعدله استنجدته على أولئك، فخرج لنصرتها على رأس جيش من أصحابه، فحذر جيشه من أن يمد أحدهم يده إلى شيء من ممتلكات خصمه، لأن أموالهم معصومة بتوحيدهم لله تعالى ولو كانوا بغاة، وكونهم يستحلون أموال الموحدين

(١) المرجع السابق، ج١، ص٨٨ ـ ٨٩.

ـ حسـب اعتقادهم الباطل ـ لا يسـوغ أن يعاملوا بالمثل فتستباح أموالهم، وإن أباح بغيهم قتالهم بعد إقامة الحجة عليهم.

وقـد اعترض على أبي الخطـاب أحد أصحابه ـ وهو خالـد اللواتي ـ جنوحا منه إلى معاملتهم بالمثل، ولعله بنى رأيه على ما تراءى له من معنى في قوله تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾ [الشـورى: ٤٠]، وقوله: ﴿ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ ﴾ [البقـرة: ١٩٤]، ولكن أبا الخطاب أبى ذلك لأنهم لم يخرجـوا عن دائرة الملة، ومهما كان ضلالهم وبغيهم فـإن كلمة التوحيد تعصم أموالهم، فلمـا قال له: نأكل من أموالهم كما يأكلون من أموالنـا. قال أبو الخطاب: حقيق على الله أن يدخلنا معهـم النـار، ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٨].

وبناء على هذا المبدأ القويم، حذر أبو الخطاب أصحابه أن تمتد أيديهم إلى شـيء من أسـلاب خصومهم، وكان الناس قد عهدوا من قبل في هذه الحروب نهب الأموال وتخريب الأمتعة التي يتعذر أو يتعسـر نهبها، وكانوا يتوقعون أنهم إذا وضعت الحـرب أوزارها وخرجوا من بيوتهم، سـيلقون زروعهم وثمارهم قد حصدت أو خربت، وأسواقهم قد نهبت، وأملاكهم قد أتلفت، ولكن المفاجأة كانت غريبة بالنسبة إليهم، إذ وجدوا كل شيء على حاله كما تركـوه، إلا ما تأثر من أمتعتهم بآثـار الطبيعة نحو الغبار أو وهج الشـمس، وعجبت امرأة مرت على جثث القتلى فـي الميدان فوجدت كلا منهم بعدته لم يؤخذ من أسـلابهم شيء، فقالت: كأنهم رقود، فسميت تلك البقعة (رقادة)، وما زالت تحتفظ بهذه الاسم حتى اليوم.

وتفقد أبو الخطاب القتلى فوجد واحدا منهم مسـلوبا، فنادى مناديه: من

أخذ من القتلى شــيئا فليرده، ولما أيس من الرد دعا على من أخذ السلب أن يفضحه الله على رؤوس الأشــهاد، وحق لمثله أن يكون مستجاب الدعاء عند الله، فلما رجع قافلا إلى طرابلس أطلقوا الأعنة لخيلهم لتستبق ابتهاجا بالنصر والظفر بإقامة الحق، فانقطع حزام جميل السدراتي ـ وهو أحد جنود الإمام ـ وسقط، فظهر السلب تحت سرجه، فلم يمهله الإمام وإنما أدبه على صنيعه.

وكان هذا الموقف منه سببا لحنق السدراتي عليه، إذ لجأ إلى بني العباس ـ وكان ذلــك في أول دولتهــم ـ فألبهم على الإمام فباغتــوه بجيش عرمرم، ولكن الإمام تصدى لهم بمن كان عنده من المؤمنين، وهزمهم هزيمة نكراء، فما انتصروا عليه إلا بعد أن كادوا له مكيــدة؛ حيث أظهروا له أنهم راجعون على أعقابهم، ولما اطمأنوا أن نصراءه تفرقوا عنه بعد أن أذن لهم أن ينصرفوا إلى أعمالهم، أعــادوا الكرة عليه فتمكنوا من قتلــه وقتل كثير ممن كان هب لنصرتــه، وقد ذهبت أرواح أولئك الشــهداء ضحية المحافظــة على المبادئ وعدم التفريط فيها، إذ لــم يكن لهم في الحياة هــدف إلا أن يقيموا موازين القسط فيها ويسجلوا سطور العدل والإنصاف على صفحات تاريخها[1].

٣ ـ الأَئِمَّة الرُّسْتُمِيُّون:

الذين بويعوا بالإمامة بأرض المغرب فامتد نفوذهم في المغربين الأدنى والأوســط، فبســطوا العدل بين الناس حتى انتشــر في آفاق الأرض طيب ذكرهم، فأقبل الناس عليهم من ديار شــتى لما ســمعوا من عدلهم وحسن ســيرتهم، وقد شــهد بهذا كله من لم يكن يخفي ما يعتمل في نفســه من عداوتهم وكرههم وهو ابن الصغير، وسيأتي إن شاء الله نص شهادته، (والحق ما شهدت به الأعداء).

(١) ينظر: **السير للشماخي**، ج١، ص١١٦ - ١١٨

٤ ـ الإمَام الوَارِث بن كَعْب:

الذي بويع في عُمان في عام مائة وتسعة وسبعين للهجرة، فشمر عن ساعديه وجد في تطبيق العدل، ناهيكم مثالا على ذلك، أنه سجن جماعة من الناس بموجب حكم الشرع في مكان قريب من الوادي فسال الوادي جارفا وخشي أن يغرق السجناء بسيله العرم، فأمر بإطلاقهم، فلم يجرؤ السجانون على قطع الوادي إليهم، فقال: هم أمانتي وسأذهب إليهم بنفسي، فذهب إليهم ومعه من آزره على حفظ أمانته، فاجتاحهم الوادي، وكانوا ضحية الحفاظ على العهد ورعاية الأمانة.

وقد سجل التأريخ هذه المأثرة العظيمة لهذا الإمام العادل، ففي (**تحفة الأعيان**) للإمام السالمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما نصه: «لم يزل الوارث إماما حسن السيرة قائما بالعدل، حتى اختار الله له ما لديه، فكان سبب موته أنه غرق في سيل وادي كلبوه من نزوى، وغرق معه سبعون رجلا من أصحابه؛ وسبب ذلك أن حبس المسلمين كان عند سوقم مائل وكان ناس محبوسين، فسال الوادي جارفا؛ فقيل للإمام إن الوادي سيلحق المحبوسين فأمر بإطلاقهم، فلم يجسر أحد أن يمضي إليهم خوفا من الوادي ، فقال الإمام: أنا أمضي إذ هم أمانتي وأنا المسئول عنهم يوم القيامة؛ فمضى إليهم وتبعه ناس من أصحابه؛ فمر بهم الوادي فحملهم مع المحبوسين»[1].

وقال أيضاً في **جوهره**:

ووارث بن كعب الخروصي	فاز هنا بفضله المخصوص
كان له في السجن قوم، فجرى	سيل عليهم رآه خطرا
سار إليهم بنفسه وقد	قال أمانتي فسار وقصد

(١) **تحفة الأعيان**، ج١، ص١١٨.

فزاد ذاك السيل حتى غرقا ومن غدا وراءه منطلقا
سبعون مؤمنا مع الإمام ماتوا لأجل الحفظ للذمام[١]

٥ ـ الإمام غَسَّان بن عبدالله اليَحْمَديّ:

الذي بويع بالإمامة على أثر موت الإمام الوارث بن كعب باجتياح الوادي له، فشمر عن ساعديه، وواصل ليله بنهاره في حماية بيضة الإسلام ورفع منار الدين وإقامة موازين القسط بين الناس، بالقبض على يد القوي حتى يأخذ الحق منه، والأخذ بيد الضعيف حتى يسلمه حقه كاملا غير منقوص، من غير مراعاة لآصرة قربى أو شنآن بغيض، وقد أرقته عادة كانت متبعة في أرض الباطنة من عُمان التي تسقى جنانها بالسواني، وكان الملاك يعتمدون على عبيدهم الأرقاء في استخراج المياه والسقي بها، وكان نظام السقي قائما على السني بالليل دون النهار، لأن ذلك أنسب براحة العمال الذين يجهدهم العمل بالنهار تحت وهج الشمس، مع أن النبي ﷺ: «نهى عن استعمال العبيد بعد صلاة العتمة»[٢].

وللعلماء قولان فيما لو عوضوا بالراحة في النهار بقدر العمل بالليل، منهم من رخص في ذلك مراعاة للظروف، ومنهم من منع أخذا بظاهر الرواية، وقد حاول الإمام غسان رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يغير هذه العادة حتى لا يرزأ الأرقاء حقهم الذي عينه لهم رسول الله ﷺ، ولكن بناء الحياة العملية في البلاد كان وفق هذه العادة، فعجز عن تغييرها، وقد وجد من ذلك غصة في نفسه، فكان يقول: «عدلنا إلا في عبيد الباطنة»[٣].

---

(١) **جوهر النظام**، ج٣ ص ٤٨٨ ـ ٤٨٩.
(٢) أخرجه الربيع (ص٢٦٧، رقم ٦٨٧).
(٣) **تحفة الأعيان**، ج١، ص١٢٩.

وهو راجع إلى شدة خوفه من الله وإحساسه بالتقصير عن الوفاء بحق العدل، وقد بين هذا الخلاف الإمام السالمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، مع ذكر تحرج الإمام من ذلك في قوله:

فما له بعد العشا يستخدمه ... إلا بطيب نفسه إذ يكرمه
وجاز إن أراحه مقدارا ... خدمته أراحه نهارا
كذاك قيل ولأهل الباطنة ... في هذه الرخصة نفس ساكنة
فإنهم بالليل يزجرونا[1] ... وبالنهار الزجر يتركونا
ووقع الريب بهذا الحال ... على الإمام الكامل المفضال
سليل عبد الله غسان الفتى ... إذ ذكر العدل وما به أتى
وأن عدله ملا أماكنه ... ولم ينل منه عبيد الباطنه
وذاك منه رضي الإله ... عنه مقام الخوف ما أعلاه
أو أنه لم ير نفس الرخصة ... فرأيه الأخذ بقول الشدة[2]

٦ ـ الإمَام الصَّلْت بن مَالِك:

الذي حكم عُمان بالعدل منذ بويع في عام مائتين وسبعة وثلاثين، واستمر حكمه إلى عام مائتين وثلاثة وسبعين للهجرة، وسار في الناس سيرة جمع فيها بين الحزم والأخذ بأسباب القوة، والاحتياط في الدين والحرص على إنصاف كل أحد حتى الخصوم الألدين، ففي وقته غدر نصارى سقطرى بواليه فيها، فقتلوه واستولوا على البلاد وعاثوا فيها فسادا، ولعل نصارى الحبشة شجعوهم على ذلك وأمدوهم بالسلاح والرجال، وقد صورت هذه

---

(١) أي يسنون أخذا من زجر الدابة عند السني، وهو اصطلاح عند العمانيين.
(٢) **جوهر النظام**، ج٢ ص ٢٥١ ـ ٢٥٢.

الواقعة الأليمة امرأة مسلمة كانت تعيش في سقطرى، في قصيدة بثت فيها مشاعرها المحزنة وأرسلتها إلى الإمام هذا نصها:

قل للإمام الذي ترجى فضائله ... ابن الكرام وابن السادة النجب
وابن الجحاجحة الشم الذين هم ... كانوا سناما وكانوا سادة العرب
أمست سقطرى من الإسلام مقفرة ... بعد الشرائع والفرقان والكتب
وبعد حيّ وهلّا صار مغتبطا ... في ظل دولتهم بالمال والحسب
لم تبق فيها سنون المحل ناضرة ... من الغصون ولا عودا من الرطب
واستبدلت بالهدى كفرا ومعصية ... وبالأذان نواقيسا من الخشب
وبالذراري رجالا لا خلاق لهم ... من اللئام علوا بالقهر والغلب
جار النصارى على واليك وانتهبوا ... من الحريم ولم يألوا من السلب
إذ غادروا قاسما في فتية نجب ... عقوى مسامعهم في سبسب خرب
مجندلين صراعا لا وساد لهم ... للعاديات لسبع ضاري كلب
وأخرجوا حرم الإسلام قاطبة ... يهتفن بالويل والإعوال والكرب
قل للإمام الذي ترجى فضائله ... بأن يغيث بنات الدين والحسب
كم من منعمة بكر وثيبة ... من آل بيت كريم الجد والنسب
تدعو أباها إذا ما العلج هم بها ... وقد تلقف منها موضع اللبب
وباشر العلج ما كانت تضن به ... على الحلال بوافي المهر والقهب
وحل كل عراء من ملمّتها ... عن سوءة لم تزل في حوزة الحجب
وعن فخوذ وسيقان مدملجة ... وأجعد كعناقيد من العنب
قهرا بغير صداق لا ولا خطبت ... إلا بضرب العوالي السمر والقضب
أقول للعين والأجفان تسعدني ... يا عين جودي على الأحباب وانسكبي

ما بال صلت ينام الليل مغتبطا … وفي سقطرى حريم باد بالنهب

يا للرجال أغيثوا كل مســلمة … ولو حبوتم على الأذقان والركب

حتى يعود عماد الدين منتصبا … ويهلك الله أهل الجور والريب

وثم يصبح دعا الزهراء صادقة … بعد الفسوق وتحيا سُنة الكتب

ثم الصلاة على المختار سيدنا … خيــر البرية مأمــون ومنتخب

فأنجدها الإمام من عُمان بأسطول يتكون من مائة سفينة وسفينة، وجعل إمرة الجيش إلى رجلين ممن يطمئن إلى عدالتهم وأمانتهم في الدين، وهما محمد بن عشيرة وسعيد بن شــملال، وكتب في هذا عهدا ســلمه إليهما فيه من الدقة في الأحكام الحربية في الإســلام، ومراعاة حقوق البشــرية ما تحــار منه الألباب، وجدير بهذا العهد أن يعدَّ نظاما إسلاميا تأخذ به الأمة في ممارساتها العسكرية.

وقد اطلــع أخونا العزيز (**الدكتور محمد علي البار**) عليه، فشــده ما فيه من الدقة المتناهية في التعامل مع المعتدين بالعدل والإنصاف، اللذين كثيرا ما يذوبان حتى يتلاشــيا بوهج الحمــاس، الذي تؤججــه عزيمة الحرب، خصوصا عندما تكون على معتدين من أصحاب ملة أخرى، وقد دعاه ذلك إلى كتابة مقال عــن هذه القضية، ونشــره في العديد مــن الصحف داخل المملكة العربية الســعودية وخارجها، أبدى فيه إعجابه البالغ بهذا الإنصاف للخصم في مثــل هذا الموقف الثائــر، الذي يؤدي إلى فقــدان التوازن في التفكير، كما أعرب فيه عن سمو هذا العهد فوق كل التنظيرات التي احتوتها المواثيق الدولية في القضايا الحربية.

وعندما ألف كتابا بعنوان (**معاملة غير المســلمين، الحوار والتسامح في الإسلام، شــواهد من التأريخ**) أشــاد بهذا العهد وتناول جانبا منه بالتعليق، وكان مما قاله: «وقد تحقق للإمام الصلت ما أراد، فنصر الله ﷻ جنده وأعز

دينه، وهزم الفئة الباغية الناقضة للعهود من نصارى الحبشة ومن شايعهم من نصارى سقطرى، وعادت راية الإسلام عالية وارتفع ذكر الله من المآذن، وحقق الله لعباده الذين اصطفى النصر والعز والتمكين، وانتشرت بذلك عدالة السماء في الأرض، ودخل الناس في دين الله أفواجا، لما رأوه من الأخلاق الربانية التي لم تعهد لبشر من قبل حيث قابل المسلمون الإساءة بالإحسان، والغدر بالوفاء والثبات عند اللقاء، فتم بذلك نصر الله والفتح، وانتشر دين الله في آفاق الأرض».

ثم قال: «وتعتبر وصية الإمام الصلت وثيقة من أرقى الوثائق في الشؤون الدولية، وخاصة في كيفية محاربة الأعداء والإنذار إليهم، ومعاملتهم بالحسنى إن هم استجابوا لنداء الحق وتابوا وثابوا، رغم ما فعلوه من جرائم فظيعة بالمسلمين من قتل وسفك دماء واعتداء على الحرمات، فهم إخواننا لهم ما لنا وعليهم ما علينا، فإن أبوا ذلك، دعوناهم للعودة إلى العهد والاستمساك به، وأداء الجزية، ومعاقبة الناكثين والتفريق بين من نكث العهد وبين من لم ينكث، وأن لا يؤخذ بريء من هؤلاء النصارى بجريرة وجريمة القتلة والسفاكين منهم، فإذا انتصرنا عليهم وجبت المعاملة بالحسنى، وتسليم الأمر إلى الإمام وأن تعود الأمور إلى سابق عهدها.

وهذا بالفعل ما أدى إلى عودة نصارى سقطرى إلى حظيرة العدل وإلى دخول بعضهم في دائرة الإسلام، ومن بقي منهم على دينه كفلت له الدولة المسلمة الحرية التامة في أداء دينه وشعائره، وبقوا على ذلك حتى الغزو البرتغالي عام ١٥٠٧م الذي أدى في النهاية إلى محاربة أهل سقطرى من النصارى للبرتغاليين وإلى الدخول في دين الإسلام داخرين»[1].

---

(١) **معاملة غير المسلمين، الحوار والتسامح في الإسلام، شواهد من التأريخ،** للدكتور محمد علي البار، ص٩٦ - ٩٨، دار القلم دمشق، الدار الشامية بيروت.

كانت هذه شهادة عادلة من الدكتور البار لهذا الموقف العادل من الإمام الصلت الذي عامل النصارى بسقطرى هذه المعاملة الطيبة، رغم نكثهم العهود وسفكهم الدماء وانتهاكهم الحرمات، وقد ترك لهم حرية المعتقد والدين كما جاء في القرآن الكريم، وإذا قارن المنصف بين هذه المعاملة ومعاملة البرتغال لهم، وجد البون الشاسع بين المعاملتين على رغم أنهم جميعا نصارى، وكفى من ذلك أن البرتغال لم يتركوا أهل سقطرى من النصارى على ما كانوا عليه من المذهب الأرثوذكسي، بل أجبروهم على الانتقال عنه إلى المذهب الكاثوليكي الذي هم عليه وعمدوهم من جديد كرها، وهذا ما ذكره القائد البرتغالي البوكيرك الطاغية المجرم السفاح في مذكراته(١).

وجدير أن لا ننسى ذكر عهد الإمام إلى قائدي جنده الذين حرروا سقطرى من أيدي المحتلين، وما اشتمل عليه من الوصايا بتقوى الله تعالى والتزام عبادته، والعدل بين عباده وإنصاف الأعداء، وعدم تجاوز الأحكام الشرعية في التعامل معهم، غير أنه عهد طويل قد نثقل على القارئ الكريم عندما نأتي به بحذافيره، وإنما ندع الميدان لأخينا الأستاذ الدكتور محمد علي البار ليجول فيه ببيانه المنصف وشهادته العادلة فيما يتعلق بهذا العهد، فقد أورد منه فقرات في كتابه القيم بنصها، واكتفى بالإشارة إلى فقرات أخرى، مع ما كان يورده من عبارات تنم عن عظيم إكباره لهذا الموقف العادل من الإمام مع ألد الأعداء وأنكى الخصوم، فقد قال ما نصه:

«يبدأ الإمام الصلت عهده العظيم بذكر الله وتوحيده، حيث يقول: «بسم الله الرحمن الرحيم: إني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ومقاليد

---

(١) ينظر: **سجلات أفونسو دلبوكيرك**. ترجمة: د. عبدالرحمن عبدالله الشيخ. هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، الإمارات. الطبعة الثانية ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م. ص٥٩.

كل شيء عنده، الواحد، الأحد العلي الجد، الذي ليس لعظمته حد ولملكه عد، ولا لقدره صاد ولا لأمره راد، ولا له نظير ولا مضاد تفرد بفطر الخلق ونصر الحق ورتق الفتق، وعلا فدنا ودنا فنأى وسمع ورأى وأعلم وأحصى وقدر وقضى وأعز وأذل».

ثم صلى على المصطفى وآله وكيف أقام الله به الحجة وتبر به الأوثان، وشـرع به شـرائع الإيمان، ودفع به حزب الشـيطان. ثم أمر قواده وجنوده بإخلاص التوبة لله، والمبادرة بإخلاص العمل لله:

«والزموا تقوى الله في الغيـوب، وداووا بها داء العيوب، وتجهزوا للقاء الله بالطهارة من الذنوب، فإن الله يغفر لمن يحوب... فتوبوا إلى الله من سيء ما مضى، وأصلحوا فيما بقي بما عنكم به يرضى، وصونوا دينكم ولا تبيعوا دينكم بدنياكـم ولا بدنيا غيركم، وقفوا عن الشـبهات وأحرموا عن محارم الشـهوات، وغضوا أبصاركم عـن مواقعة الخيانة، واحفظـوا فروجكم عن الحرام، وكفوا أيديكم وألسـنتكم عن دماء الناس وأموالهم وأعراضهم بغير الحق، واجتنبوا قول الزور، وأكل الحرام ومشـارب الحرام، وجماعة السوء، ومداهنة العدو، وأدوا الأمانـات إلى أهلها، وإن قلتـم فاعدلوا ولو كان ذا قربى، وبعهد الله أوفوا، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون».

وأمرهم طويلا بإقامة الصلاة في أوقاتها، والخشـوع فيها وكيفية صلاة الحرب، وعند الخوف، ثم قال: «واعلموا إني وليت عليكم يا معشر الشراة ـ أي الذين شروا أنفسـهم ـ والمدافعة على جميع سـقطرى أهل السلم منها وأهل الحرب؛ وعلى الصلاة، وقبض الزكاة والجزية، والمصالحة والمسالمة والمحاربـة لأهل النكث من النصـارى أو من حاربكم من المشـركين في سـفركم أو في مسـتقركم على الأمر والنهي، وإعطاء الحـق ومنع الباطل، وإنصاف المظلوم من الظالم، ووضـع الأمور في مواضعها، وإعطاء كل ذي

حق نصيبه من العدل من قريب الناس وبعيدهم، وقسم ثلث الصدقات على أهلها؛ وتزويج النساء التي لا يصح لهن أولياء في مواضعهن بمن رضين به إذا كان لها كفؤا على ما تراضوا به من الصدُقات، ولا يكون الصداق أقل من أربعة دراهم، وإقامة الوكلاء لليتامى والأغياب الذين لا أوصياء لهم ولا وكلاء في أموالهم، وفرض الفرائض لليتامى في أموالهم، وللنساء النفقات على أزواجهن بالعدل والمعروف.

(وليت عليكم) محمد بن عشيرة وسعيد بن شملال فاسمعوا لهما وأطيعوا لهما، في طاعة الله وفيما دعياكم إليه من حق الله، ومجاهدة أعدائه مجتمعين أو متفرقين في بر أو بحر، ولتصدق نياتكم وتحسن رعايتكم وتلووا على الحق قلوبكم، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم...».

ثم ذكرهم بآيات الله، والنصح لمن وليهم وأن ينتصحوا ولا يتباغضوا ولا يغش بعضهم بعضا، ولا يتفاخروا في الأحساب ولا الأنساب وأن يكونوا يدا واحدة على كلمة واحدة كالبنيان يشد بعضه بعضا، وكالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، وذكرهم بأنهم خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ثم قال: «وقد بغى هؤلاء النصارى وطغوا ونقضوا عهدهم ونرجو أن يديل الله عليهم.. فإذا سرتم أو نزلتم فأكثروا ذكر الله فإن بذكر الله تطمئن القلوب.. وشدوا على ربابنة السفن أن لا يتفرقوا ولا يسبق بعضهم بعضا.. حيث يسمع بعضهم دعاء بعض، فإن عناهم معنى تكيفوا ووازر بعضهم بعضا إن شاء الله، فإذا أقدمكم الله الجزيرة فتناظروا وتشاوروا، وأرجوا أن لا يجمعكم الله على ضلال...».

ثم أمرهم بأن يقتربوا من القرية الناكثة، فيحاصروها ويرسلوا إلى أهل العدل الذين لم ينقضوا عهدهم.. «فأعلموهم أنهم آمنون على أنفسهم

ودمائهم وحريمهم وذراريهـم وأموالهم، وأنكم وافون لهـم بالعهد والذمة والجزية علـى الصلح الذي يقـوم بينهم وبين المسـلمين فيما مضى؛ ولا ينقض ذلك ولا يبدلـه، وأمروهم بإحضار جزيتهم إليكـم، واختاروا إليهم رجالا من خيارهـم، من يثبت إلى الصـلاح منهم، فوجهوهـم إلى هؤلاء الناقضين لعهدهم الناكثين على المسـلمين ببغيهم، واجعلوا ممن توجهون رجلين صالحين ممن يوثق بهم من أهل الصلاة، فإن لم يمكنكم بعث اثنين صالحين مـن أهل الصلاة فواحـد، فتأمروهم أن يصلوا إلـى الذين نقضوا العهد فتدعوهم عن لساني وألسنتكم إلى الدخول في الإسلام وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة مع حقوق الله والانتهاء عن معصيته، فإن قبلوا ذلك فهي أفضل المنزلتيـن لهم؛ وذلـك يمحو ما كان مـن حدثهم.. وإن كرهـوا أن يقبلوا الإسـلام ويدخلوا فيه، فلتدعوهم إلى الرجعة عن نكثهم والتوبة من حدثهم إلى الدخول في العهد الأول الذي كان بينهم وبين المسلمين، على أن لهم وعليهم الحق بحكم القرآن وحكم أهل القرآن مـن أولي العلم بالله وبدينه من أهل عُمان ممن نزل إليهم أمر المسـلمين، فإن أجابـوا وتابوا فلتقبلوا ذلك منهم ولتأمروهم بترك ما في أيديهم وأيدي أصحابهم من أهل الحرب من نساء مسلمات، ثم لا يتزوج رسلكم من عندهم حتى يقدم معهم رؤساء أهل الحرب ويسـلموا إليهم النسـاء المسلمات اللاتي سـبوهن؛ واجعلوا لرسلكم أجلا في رجعتهم لمن أجابهم، وبالسـبايا إلى ذلك الأجل، أن لا يظلموهم ولا يخادعوهم ولا يماكروهـم بالمطل والتواني في ذهاب الأيام، فإن وصلوا إليكم بمـن أجابهم من أهل الحرب وقد استسـلموا وتابوا من حدثهم وجاءوا بالنسـاء المسـلمات فاقبلوا ذلك منهم، ولا تعرضوا لأحد ممن جاءكم تائبا مستأمنا مستسلما بسـفك دمه ولا انتهاك حرمته ولا سبي ذريته ولا غنيمة ماله، وليكونوا مثلكم آمنين».

يا الله!! هذه القمة السامقة في معاملة قوم غدروا وفجروا، وقتلوا الأبرياء، ونقضوا العهد، وأخذوا أشراف المسلمين ونساءهم سبايا، وقد أمرهم الإمام الصلت أن يدعوا أولا القوم الذين لم ينكثوا العهد ولا يخلطوا بين الفريقين، بل يعاملوا الباقين على العهد بالأمان والوفاء، ثـم يختاروا من هؤلاء القوم أرشدهم ويبعثوا منهم رسـلا إلى الناكثين مع اثنين أو واحد من أهل الصلاة (أي أهل الإسـلام)، لينذروا الناكثين ويدعوهم إلى الإسلام، فإن هم أجابوا فذلك يمحو حدثهم وقتلهم المسـلمين، وهم إخوة للمسـلمين لهم ما لهم وعليهم مـا عليهم. ولهم بعد ذلك المنزلة العلا عنـد الله ويتوبوا ويتوب الله على من تاب، فإن هم أبوا إلا البقاء على دينهم فلهم ذلك ولكن يطالبونهم بالعودة والوفاء بالعهد الذي كان وأن يسـلموا السـبايا من المسلمات، فإن أجابوا لذلك فعفا الله عما سـلف: «ولا يضاروا ولا ينتقم منهم، بل إن طلبوا أجلا للنظر في هذه الأمور فأعطوهم الأجل وحددوا لهم الزمن».

وفي تلك الفترة حذرهم أشد التحذير من الخديعة والظلم والكذب. بل لا بد أن يحترم المسلمون أجلهم ومدتهم، فإن رضي هؤلاء الكفار الناكثون للعهد الذين سـفكوا الدماء وسـبوا نسـاء المسـلمين وذراريهـم بإحدى الحسـنيين: الإسـلام أو العودة للعهد، فقد أمرهم بقبول ذلك منهم والعفو عما سـلف من جرائمهم، وأن يؤمنوا علـى أموالهم وأنفسـهم وذراريهم، ويوفـى لهم العهد، وإن أبـوا إلا القتال، قد أمرهم بمقاتلتهم والاحتسـاب والصبر، بعـد التيقن والتثبت وعدم الاسـتعجال والتأكد أنهم مصرون على النكث ونقض العهد.

وقد أمرهم بعدم قتل النسـاء والأطفال والشـيوخ والذيـن لا يقاتلون، والزمنى والمرضـى والقسـس. «وأن لا يقاتلوا موليـا إلا أن يقاتلهم، فإن استأسر أخذوه ولم يقتلوه».

وأمرهم بالصبر والمصابرة والثبات عند اللقاء، وذكر لهم في ذلك من آيات الله في كتابه الكريم وما جاء على لسان نبيه ورسوله من أجر المجاهدين والصابرين.

ثم أعلمهم بما يفعلون في الغنيمة مذكرا بقول الله تعالى: ﴿ ۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الأنفال: ٤١]، ونهاهم عن الغلول، وأن تقسم أربعة أخماس الغنيمة على المقاتلة بالسواء، ويعزل الخمس للإمام (الدولة) وأما السلاح والنساء والذرية ممن ولدوا بعد نقض العهد، فيحملون إلى الإمام ليرى فيهم رأيه. وأما من ولد من هؤلاء الكفار من النساء والذرية قبل نقض العهد فلا سبيل عليهم ولا يحملون إلى الإمام، بل يبقون في بلدتهم:

«وإذا التحمت الحرب بينكم وبينهم، فلا تقتلوا صبيا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة.. ومن قتلتموه عند المحاربة فلا تمثلوا به، فإن رسول الله ﷺ نهى عن المثلة».

وأمرهم بالمحافظة على الصلوات والذكر: «ثم لا تغفلوا عن الحرس في الليل، واجعلوه نوائب بينكم في كل ليلة حول قريتكم، فإنه يقال إن الله يباهي بنفر من عباده من أهل أرضه ملائكته، منهم مقدمة القوم إذا حملوا (أي على العدو) وحاميهم إذا انهزموا، وحارسهم إذا ناموا».

وذكر لهم كيف يؤدون الصلاة في الحضر والسفر وفي الأمان والخوف وعند اشتداد القتال. ووجه القادة إلى منع مجالسة اللهو والخمر والطرب فمن شرب الخمر أقيم عليه الحد إلا من تاب منهم واستغفر فاقبلوا توبته، وأقيلوا عثرته وردوا عليه نفقته ورزقه: «لا يحل لأحد من المسلمين نكاح نساء النصارى من أهل سقطرى، ولا نساء من أهل العهد منهم، ولا نساء

أهل الحرب إلا نساء الذين يقرؤون الإنجيل.. منهم» ذلك لأن من لا يقرأ الإنجيل فقد بعد بهم العهد عن النصرانية وأشبهوا المشركين من غير أهل الكتاب في ذلك، فلذا أخذوا حكمهم: «فلا يحل نكاح نسائهم ولا أكل ذبائحهم ولا طعامهم».

ثم ينهي الإمام الصلت وصيته مرة أخرى بقوله: «لا تختلفوا في آرائكم ولا في سلمكم ولا في حربكم، وليكن رضاكم واحدا وغضبكم واحدا ووليكم واحدا وعدوكم واحدا.. فإني أسأل الله أن يهديكم للائتلاف وأن يؤمنكم ويؤمن بكم من المخاوف، فإنه يعيذكم ويعيذ بكم من الارتجاف والاختلاف، وأن يكسيكم كل خلق واف وكل علم كاف وكل عمل صاف»..

وقد تحقق للإمام الصلت ما أراد، فنصر الله ﷻ جنده وأعز دينه وهزم الفئة الباغية الناقضة للعهد من نصارى الحبشة ومن شايعهم من نصارى سقطرى، وعادت راية الإسلام عالية وارتفع ذكر الله من المآذن وحقق الله لعباده الذين اصطفى النصر والعزة والتمكين.. وانتشرت بذلك عدالة السماء في الأرض، ودخل الناس في دين الله أفواجا لما رأوه من الأخلاق الربانية التي لم تعهد لبشر من قبل، حيث قابل المسلمون الإساءة بالإحسان والغدر بالوفاء والثبات عند اللقاء، فتم بذلك نصر الله والفتح، وانتشر دين الله في آفاق الأرض»[١].

هذا ما أورده الدكتور ـ حفظه الله ـ من عهد الإمام، وما أتبعه من خواطره وأحاسيسه تجاه هذا العهد، والحق أن هذا العهد يعد تأليفا مستقلا حافلا بأحكام الحرب وما يجب على المسلمين التحلي به من مكارم الأخلاق في مواجهة العدو؛ لتكون أخلاقهم رسل دعوة إلى دينهم الحق

(١) المصدر السابق، ص٨٨ – ٩٧.

تقنع عدوهم بصحة هذا الدين، وتكشف له محاسنه وفضائله.

وإذا كانت هذه وصية الإمام الصلت بن مالك إلى من عهد إليهم بحرب الكفار الناكثين، الذين ارتكبوا الجرائم، فسفكوا الدماء، واغتصبوا النساء ونهبوا الأموال؛ فما ظنك بوصيته إلى من يوليهم أمر المسلمين، وقد حفظ لنا التاريخ عهده إلى أحد ولاته ـ وهو غسان بن جليد ـ عندما ولاه بعض البلاد التي كانت تحت نفوذ إمامته، وقد جاء في عهده له ما نصه:

«أني أوصيك بتقوى الله في سرك وجهرك، وأن تكون على أمر الله حدبا وفي مرضاته راغبا، وأن تعمل بالعدل في الرعية، وأن تقسم بينهم بالسوية ، وأن تأمر بالمعروف وتحث أهله عليه، وتنهى عن المنكر وترده على من عمل به، وتنزل كل ذي حدث حيث أنزله حدثه، وأن تقيم فيهم كتاب الله وتحيي فيهم سنة نبي الله ﷺ، وتسير فيهم بسيرة أئمة الهدى في حد الغضب منك والرضا؛ ولا يخرجك غضبك من الحق ولا يدخلك رضاك في الباطل؛ ولا تتعاط من الناس عند قدرتك عليهم ما لم يأذن الله به لك فيهم، ولا تخف في الله لومة لائم.

واجعل الناس عندك في الإنصاف سواء، واحذر أن يستميلك إلى أحد منهم هوى، ولا تركن إلى أهل الجهل والباطل والطمع والغي، فإن الله قد حذر نبيه محمدا صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]. وقال: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣]، وقال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٨ ـ ١٩].

ولا تتخذ مـن الأصحاب إلا الأمناء، الذين تؤمنهـم على ما يغيبون به عنك من أمانتـك فيما يرفعونه إليـك عن رعيتك؛ فإني قـد ائتمنتك على أمانتي ووثقت بك على حمايتي بالقيام بالقسط في رعيتي؛ والمساعدة لي على ما أنا قائم لسبيله من أمر ربي ، وكن كما رجوت فيك وعند ظني بك فإنك عين لي على ما غاب عني، والله شهيد عليك وعليّ وناظر إليك وإليّ؛ وسائلك وسائلني فلست بمغن لك من الله ولا أنت بدافع ولا نافع لي عند الله إلا بحفظ أمانته، ورعاية حقوقه والصدق عليه، فبالله فاكتف ومنه فاستحي وإياه فاتق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم... إلخ»[1].

وهو عهد لا يدل إلا على رسـوخ الإيمان ومتانته فـي نفس من عهد، وعلى عمق خشيته من الله وحسن تعلقه به سبحانه.

٧ ـ الإمام سَعِيد بن عَبْدالله بن مُحَمَّد بن مَحْبُوب:

وهو من أسرة قرشـية مخزومية عريقة في العلم، بويع بالإمامة في عام ثلاثمائة وعشرين للهجرة، فأحيى السـنن وأمات البدع ونصر الحق وأخمد الباطل، وكان حريصا على العـدل مع القريب والبعيد والقاصي والداني، لا يتجاوز في نصرته للحق حدود ما أذن بـه الله، وقد جاء إلى الحكم بعد أن سـيطر على عُمان ردحا من الزمن عمال بني العباس، فأسـاؤوا فيها السيرة وخربوا البلاد وأشاعوا فيها الفساد، فأنقذها الله ببيعة هذا الإمام.

وكان من عدله في خصومه أنه افتتح مركزا كانوا يسـيطرون عليه فأدال الله له منهم، وشكا إليه أحد جنودهم أنه فقد حلقة حديدية من باب، فحرص الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ على البحث عنها حتى وجدها فردها إلى صاحبها، ولم يستبحها بسبب ما ارتكبوه في الناس من الظلم والعسف، وإنما وسعهم بعدله ووكل

(١) **تحفة الأعيان**، ج١، ص١٨١ - ١٨٢.

جزاءهم على جورهم إلـى الله تعالى.[(١)] وعاقب قوما بالحبس على منكر ارتكبوه فرآهم في الشمس وغضب من ذلك، وقال: أمانتي في الشمس؟![(٢)] لأنه يشعر بالمسؤولية أمام الله لو عاقبهم بأكثر مما يستحقون.

٨ ـ الإمام رَاشِد بن سَعِيد اليَحْمَديّ:

الذي بويع بالإمامة بين عام ٤٤٢هـ ـ ٤٤٥هـ، فأقام موازين القسط وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، ووجه نصائحه إلى عماله كما نصح من وجه إليه خطابه من المسلمين حتى في بلاد الهند، وهذا نموذج من نصائحه لعماله، وجهه إلى أبي المعالي قحطان بن محمد بن أبي القاسم، جاء فيه ما نصه:

«إني أوصيك يا أبا المعالي قحطان بن محمد بن أبي القاسم بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ والانتهاء عما حرم الله عليك في زواجره والعمل بما أمرك الله به من أوامره فيما ساءك أو سرك، أو نفعك أو ضرك، وأن تأمر بالمعروف وتعمل به؛ وتنهى عن المنكر وتقف عن فعله، ولتحذر من خدائع الشيطان ومن يوازره على ذلك من الأعوان، احذرهم ونفسك وهواك، وشهوتك ودنياك، فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٣]، وقال: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقال: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٢٧]، وقال: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا

---

(١) المصدر السابق، ج١، ص٢٧٦.

(٢) المصدر السابق، ج١، ص٢٧٨.

ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

واذكر حق الله عليك واشكر نعمته لديك، ولا تذهب بك حمية، ولا تمنعك تقية أن تساوي في الحق بين وضيع الناس وشريفهم، وقويهم وضعيفهم، وبغيضهم وحبيبهم، وبعيدهم وقريبهم، وقد جعلت حماية صحار وما يتصل بها من العفة إلى صلان إليك وعولت فيها عليك، فقم فيما وليتك من ذلك حق القيام، واستفرغ الطاقة منك بالجهد التام، وشمر فيه عن ساق الجد، واحسر معه عن ذراع الشد، من غير أن تتعدى في ذلك محظورا أو تركب فيه منكرا، أو تقترف فيه ظلما، أو تكسب فيه حوبا وإثما، إلا ما تعتمده من منع ظالم في حال عداوته من غير أن تعاقبه بشيء على عصيانه؛ بل ترفعه إلى القاضي بصحار، حتى يحكم عليه بما يلزمه من فعله ويعاقبه بما يستحقه على فعله»[1].

وهو يدل على الدقة المتناهية في إنزال كل شيء منزله، فقد ولى أبا المعالي ما يتعلق بالجانب الإداري والمالي والعسكري، لما رآه فيه من الكفاءة والخبرة والشجاعة، مع اطمئنانه إلى أمانته وثقته، لكن لم يكل الأحكام إليه، فلم يسوغ له أن يعاقب أحدا إلا بحكم من القاضي الشرعي حذرا من الخطأ، إذ لم يكن بمكان من العلوم الشرعية يتمكن به من القضاء بين الناس، وفي هذا ما يدل على أن الجانب السياسي والإداري إنما يخضع للحكم الشرعي، وليس للمسؤول عنه أن يقضي فيه بموجب ما يراه من المصلحة.

٩ ـ الإمام عُمَر بن الخَطَّاب الخَرُوصِيّ:

الذي بويع بالإمامة في عام ثمانمائة وخمسة وثمانين للهجرة، اجتمع

(١) المصدر السابق، ج١، ص٣١١ - ٣١٢.

عليه العلمـــاء والفضلاء، فحمَّلوه تبعـــة الإمامة من جهـــاد المعتدين وقطع أيديهم عن الفساد في الأرض وســـفك دماء الأبرياء ونهب أموالهم وانتهاك حرماتهم، وهـــو من ذرية الإمـــام الصلت بن مالك الخروصـــي الذي بويع بالإمامة في القرن الثالث الهجري.

وكانت بلاد عُمان قبله ترزح تحت نير الجور؛ إذ تســـلط عليها الجبابرة من بني نبهان الذين علوا في الأرض وأشـــاعوا فيها الفساد واستباحوا دماء الأبريـــاء وأموالهم، فلما بويع هـــذا الإمام كان أول إجـــراء اتخذه هو جهاد الجبابرة واســـترداد الحقوق المســـلوبة من أيديهم ومصادرة ما بأيديهم من أموال؛ لأن مظالمهم اســـتغرقت كل ما تحت أيديهـــم، وكان هذا عن رأي علماء عصره الذين حكموا بهذا الحكم وحملوا الإمام مسؤولية تنفيذه، على أن يرد كل مال مغصـــوب إلى صاحبه عندما يكـــون معروفا، وإن لم يعرف صرف في مصالح المســـلمين، وكتبوا في ذلك وثيقة قضاء حررها الشـــيخ علي بن محمد بن علي بن عبد الباقي وأمضاها غيره من العلماء[1].

وهو بهذا ناهج نهج عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي رد ما أخذ من الأموال بغير حق إلى بيت مال المسلمين، فكان له شرف التشبه بالفاروق في اسمه وفعله، وفي هذا يقول الإمام السالمي رحمه الله:

وفي بنى اليحمد من أسد الشرى	إمـــام صـــدق كان يدعى عمرا
كـــذا أبـــوه يدعـــى بالخطاب	مســـاميا لعمـــر الصحابـــي
من نســـل شـــاذان وذاك العلم	دوخ أهل الظلـــم حين ظلموا
فقد قـضـــى على بنـــي نبهانا	جبابـــرا كانـــوا علـــى عمانـــا
قـضى بـــأن مالهـــم لمن ظلم	مـــن العُمانيين لكـــن ما علم

(١) المصدر السابق، ج١، ص٣٧٩.

فجعلــوا ذلــك بيــت مــال لجهلهــم بمالــك الأمــوال
وكان ذا يعــرف بالتغريــق ما أشــبه الفــاروق بالفاروق
شــابهه في الاســم والتصلب على أولي الظلم فلا تستعجب[١]

١٠ ـ الإمَام نَاصِر بن مُرْشِد:

الذي بويع بالإمامــة في عام ألــف وأربعة وثلاثين للهجــرة وهو ابن عشــرين عاما، وكانت بيعته في وقت عصيب إذ توزعت ولايات عُمان إلى إمارات، على رأسها جبابرة لا يرعون حقا لله ولا حرمة لعباده، وكان من بين هؤلاء أسرة الإمام التي تحكم الرستاق، فبدأ أولا بتحرير الرستاق من قبضة عمه الذي كان أحد الجبابرة، ثم والى الفتوحات التي شــملت أنحاء عُمان حتى امتدت إلى الساحل الذي كان واقعا تحت الســيطرة الحديدية للدولة البرتغالية التي كانت ســيدة البحار، وكانت كالإعصار المدمر تأتي على كل شــيء حيثما نزلت، وقد انتزع الله الرحمة من قلوب أهلها، فما كانوا يرقون لأحد ولا يبقون على شــيء، إذ كل همهم أن يَدَعوا الناس يعانون أقصى ما يتصور من الشــر والدمار، ويكابدون أقســى ما ينزل عليهــم من قبلهم من هلاك وإبادة.

وقد شــرع هذا الإمام في الهجوم عليهم، وبعدمــا كانوا يتصورون أنهم قوة لا تقهر وقضاء لا يرد؛ شــعروا أمام زحف جند الحق أنهم في مواجهة مع قدر إلهي لا صاد لــه ولا راد، فأرجفت الأرض تحت أقدامهم وأوجفت منهم قلوب كانت أثبت من الراســيات وأقســى من جلاميدها الصلدة، فلم يجــدوا إلا أن يطلبوا من الإمــام ـ ممثلا في قائــده العالم التقي الشــيخ مسعود بن رمضان ـ أن يصالحهم على ما تبقى في أيديهم من القلاع، بعدما

(١) **جوهر النظام**، ج٢ ص ٣٥٨.

انتزع من قبضتهــم أكثرها فغادرها قاعا صفصفــا، فوافقهم على الصلح إلى أمد، واشــترط عليهم فك ما بأيديهم من أموال المســلمين، وكان من بينها أموال الشيعة[١] بصحار.

وفي هذا أكثر من درس للأمة، فهو يدل:

أولاً: على أن هذه المدرسة ترعى حقوق جميع الأمة، ولا تميز في ذلك بين مدارســها المختلفة، فمهما كان من اختلاف في الفكر والاعتقاد أو في الفقــه والاجتهاد بين أبناء هذه المدارس، فإن الهــم يجب أن يكون واحدا، وأن لا يقسمهم ذلك إلى طوائف عزين، تسعى كل طائفة إلى دمار الأخرى.

ثانياً: أن الانتصاف يجب أن يكون من الظالم لكل مظلوم، وأن ينال كل مظلوم حقه غير مبخوس، فإن العدل واجب مقدس يرعاه الذين يخشون الله ويتقونه، وكل الناس في موازينه سواء.

ثالثاً: أن المحافظة على نسيج المجتمع ـ كيف ما كان متنوعا ـ ضرورة اجتماعية لتماسك هذا النسيج وتكامله وشد بعضه أزر بعض.

وقد شاء الله تعالى أن تكون هذه بداية لدحر قوى الكفر ـ في ذلك العهد ـ وزعزعة معاقله وهشم يافوخه الطافح بالغرور، ثم توالت بعد ذلك الفتوحات العظيمة على أيدي خلفاء هذا الإمام من الأئمة العظام، الذين لم يقفوا دون أن يغزوا البرتغاليين الجبابرة المتكبرين في معاقلهم، التي كانت قواعد انطلاقهم لغزو الشعوب وتدمير الأمم، إذ لم يأل هؤلاء الأئمة جهدا في جهادهم بكلمة الله حتى أنزلوهم من صياصيهم أذلة، وأخرجوهم من مستعمراتهم في شواطئ أرض الهند والشــرق الإفريقي، فذاقت الشــعوب المنكوبة بهم طعم العدل، وتفيأت ظلال الكرامة، ورفرفت على رؤوسها رايات العز.

---

(١) **تحفة الأعيان**، ج٢، ص١٠.

وللإمام ناصر بن مرشد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ عهود حررها إلى ولاته الذين حملهم تبعة القيام بالحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنصاف المظلومين والانتصاف من الظالمين، وبسط العدل والإحسان في الأرجاء التي ولاهم فيها وائتمنهم عليها، وعهوده جميعا تدور حول هذا المحور، فهي وإن اختلفت ألفاظها تتحد معانيها، لذلك نقتصر على نموذج منها يدل على سائرها، فها هو ذا عهده للشيخ أبي سعيد صالح بن سعيد المعمري الذي ولاه شرقية عُمان من إبرا إلى صور، فقد كتب إليه ما نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم: الحمد لله الذي أوضح شهاب الحق بالبراهين المنيرة والدلائل المستنيرة، ودمر دعوة المظالم بالآيات الواضحة والحجج الباهرة اللائحة، وأعز دولة نبيه بالأنوار الساطعة والأسنة القاطعة، أحمده على ما أضاء نور ديننا بأفق كتابه وبين لنا غرائب مشتبهاته من معاني كلامه وخطابه، وأشكره شكر من أناب وخضع وسجد وركع، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة ثابتة بالجنان مكررة باللسان، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أرسله إلى كافة الثقلين وطهره من الدرن والشين، لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين، صلى الله عليه وعلى آله الأبرار الأتقياء الأخيار ما غرد عندليب على غصون الأشجار وأناب منيب بغياهب الأسحار.

أما بعد: فهذا ما يقول المعتصم بالله المتوكل عليه إمام المسلمين ناصر بن مرشد بن مالك إلى الشيخ الوالي أبي سعيد صالح بن سعيد المعمري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأوصيك ونفسي وجميع المسلمين بتقوى الله واللزوم على طاعته، فأقول لك يا أبا سعيد إني قد وليتك على بلدة صور وإبرا وما اشتمل عليهما من الأماكن والقرى، على أن تظهر دين الله عَزَّ وَجَلَّ في هذه البلدان والقرى وتحيي سنة نبيه

محمد ﷺ، حتى تأخذ من الظالم للمظلوم حقه، وتوفي من مال الله لكل فقير نصيبه ورزقه، وتأمر من بهذه القرى والبلدان، حضرهم وبدوهم؛ بالمعروف والإحسان وتنهاهم عن الفجور والبهتان، وتعلمهم أن من ظلم أحدا مثقال ذرة أو أقل منها أو أكثر فاقتد في عقابه بآثار الأئمة الفضلاء الذين جعلهم الله ورثة الأنبياء، يقودون الناس إلى الخيرات وأفضل منازل الدرجات ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وأن توالي في الله وتعادي في الله ولا تأخذك بهما رأفة في دين الله، ولا تخف لومة لائم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم؛ وعلى أن تجتهد في إصلاح أهل ولايتك، وإصلاح دينهم، وعمارة مساجدهم، والرأفة بهم، والتجاوز عن مسيئهم، وحسن السياسة لأمورهم، والصبر في نفسك على أذاهم ما وسعك من ذلك.

وإياك يا أبا سعيد والعجلة في أمورك، وكن حذرا وقورا صابرا شاكرا على العطاء، ساترا عيوب من أخطأ غافرا زلة من عثر رءوفا بمن أناب واستغفر قابلا لمن رجع إليك واعتذر، مدمدما على من أصر واستكبر، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر، هينا لينا لمن آخيته من جميع الشراة، لا بفظ ولا غليظ، واصبر وما صبرك إلا بالله وتوكل على الله حق التوكل واجتهد في ذلك ولا تكن من الغافلين.

وأوصيك يا أبا سعيد أن تختص من خيار إخوانك أن يسيروا في البلاد ويردوا الظلم عن العباد، ويصرفوا عنهم المناكر والفساد ويسوسوهم إلى الصلاح والرشاد، ويقبضوا الزكاة من أغنيائهم ويعطوها فقراءهم فيواسوهم من مال الله بما يسد جوعهم ويستر عورتهم؛ ولا تدعهم يتكففون إليك حزنين باكين، وابعث إلى كل بلدة وقرية ثقة أمينا ورعا يتحسس عن المكثر والمقل، ليأخذ من المكثر زكاة الله ويواسي منها المقل، لأن كثيرا من

الأغنياء لم ينصف من نفسه في أداء الزكاة، وكثيرا من الفقراء لم تحمله نفسه ليجيء إليك.

فاجتهد يا أبا سعيد في الأخذ من هذا والعطاء لهذا؛ فإن لهم علينا حقا واجبا أوجبه الله ﷻ في كتابه لقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [التوبة: ٦٠]، فإذا أردت المسير إلى بلدة صور من قرية إبرا، فاترك في قرية إبرا من يحفظ أمانتك ويخاف الله حق الخوف من ذات نفسه، وأنت لا تجاوز بلدة ولا غبرة ولا مزرعا ولا عجوزا في عنة ولا بدويا بغار إلا وأخذت من الظالم للمظلوم وواسيتهم من مال الله ما وسعك من ذلك؛ فإن مات أحد جوعا أو مظلوما فهو في رقبتك دون رقبتي وأنت المأخوذ به دوني.

فإني أعزني الله بالإسلام، ونيتي أنني لو قدرت أن أملأ الأرض عدلا وصلاحا، وإرادتي أن أدمر كل ظالم وأشتت كل جماعة اجتمعوا على المناكر والفجور، والخوض في أفاحش الأمور؛ فإنه لا أثرة عندي لظالم ولا حيف لمسلم، وقد جعلت لك أن تتصرف في جميع أمور المسلمين ما يجوز لي أن أتصرف فيه، فإن خالفت إلى غير ذلك فأنا ومال المسلمين بريئان منك وأنت الرهين به؛ والسلام عليك ورحمة الله وبركاته؛ والحمد لله حق حمده، والصلاة على خير خلقه محمد ﷺ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[١].

وهو عهد غني عن التعليق والشرح، فعباراته تكشف طواياه وتزيح الستار عن محتوياته، وهو مبني على تقوى الله يلزم بها الإمام واليه كما التزمها، مع

(١) المرجع السابق، ج٢، ص٣٢ - ٣٥.

رعاية حقوق الله تعالى وحقـوق عباده في حملهم على طاعته وكفكفتهم عن معصيته، والإنصاف بين قويهم وضعيفهـم ورد مبطلهم إلى الحق، وإنصاف مظلومهم بالعـدل وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكـر، وتعهد ضعفائهم بإيتائهم مـا لهم من حقوق في بيت مال المسـلمين وفي أمـوال أغنيائهم، والاستهداء في كل أمر بكتاب الله المبين وسنة نبيه الأمين عليه أفضل الصلاة والتسـليم، واتباع سـيرة السـلف الصالح، مع التذكير بـالله واليوم الآخر، والتحذير من التفريط فيما أمر الله به أو الاجتراء على ما نهى عنه.

وبالجملة؛ فهو عهد يجسـد ما يعتمل بين حنايا قلب عاهده من خوف الله ورجائه، والرغبة في نصـرة دينه وإصلاح عباده وإحقاق كل حق وإزهاق كل باطل، لم يكن هـم عاهده الجبايات التي تسـاق بالباطـل إلى قصور المتسـلطين الغارقين في شـهواتهم إلى الأذقـان، وإنما همـه أن يلقى الله سبحانه خفيف الظهر من الأوزار، مبيضة صحيفته بالبر والتقوى، وأن يعيش حياته مرهقا لنفسـه لأجل راحة غيره، يجوع ليشـبعوا، ويعرى ليكتسـوا، وينصب ليطمئنوا، ويخاف ليأمنوا، وهكذا كان شأن الأئمة البررة ممن سبقه أو جاء بعده، سواء من ذكرنا منهم ومن لم نذكر.

١١ ـ الإمام عزان بن قيس بن عزان بن قيس بن الإمام أحمد بن سعيد البوسعيدي.

بويع بالإمامة في عام ألف ومائتين وخمسة وثمانين، وكان عمره خمسة وعشـرين عاما، وقد بايعه أهل الحـل والعقد، وتولى صياغة البيعة شـيخ المسلمين وقدوتهم في الدين الإمام المحقق سعيد ابن خلفان الخليلي رضي الله عنه، وهذا نصها: «بسـم الله الرحمن الرحيم: قد بايعناك على طاعة الله ورسـوله، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ ونصبناك إماما علينا وعلى الناس

على سبيل الدفاع وعلى شـــرط أن لا تعقد راية؛ ولا تنفذ حكما ولا تقضي أمرا إلا برأي المسلمين ومشورتهم؛ وقد بايعناك على إنفاذ أحكام الله تعالى، وإقامة حدوده، وقبض الجبايات وإقامة الجمعـــات ونصرة المظلوم؛ وإغاثة الملهوف وأن لا تأخذك في الله لومة لائــم، وأن تجعل القوي ضعيفاً حتى تأخذ منه حق الله، والعزيز ذليلا حتى تنفذ فيــه حكم الله، وأن تمضي على ســبيل الحق، وأن تفني روحك فيه؛ وأن تعطينا على ذلك عهد الله، وميثاقه لنا، ولجميع المسلمين»[١].

ويعلق الدكتور غباش على هذا النص في البيعة بقوله: «ومهما يكن من أمر فمن المهم أن نشير إلى أن شـــروط هذه البيعة لا تقلل من موقع الإمام بل على العكس تعززه، كما تعزز نظام الإمامة ذاته، لأن الرجوع إلى مجلس الشورى ضمانة أساسية للمشاركة في الحكم ولتطبيق مبدأ الإجماع، وجملة الممارســة هذه هي التي يقوم عليها التقليد الديمقراطي العُماني، وهي التي تمنحه قيمته»[٢].

ويضيف إلى ذلك قوله: «كان مجلس الشــورى مؤلفــا من قادة الثورة، وكانت السلطة الاستشــارية والتنفيذية العليا مركزة في هذا المجلس، وكان إلى جانب الإمام رئيس الحكومة وقائد الجيش والمسؤول عن بيت المال، ثلاث شخصيات تاريخية، الأولى شــخصية سعيد بن خلفان الخليلي الذي كان مرشد الثورة ومنظمها ومرجعها التشــريعي والقانوني ورئيس القضاة، بل الســلطة الأخلاقية العليا وأبــا للثورة، فضلا عن قيامــه بمنصب حاكم العاصمة مسقط.

---

(١) المرجع السابق، ج٢، ص٢٦٠.

(٢) **عُمان الديمقراطية الإسلامية، تقاليد الإمامة والتاريخ السياسي الحديث**، ص٢١٩ - ٢٢٠.

كان الخليلي على غرار أسـلافه، يسعى منذ شبابه إلى بناء إمامة مماثلة لإمامة الجلندى ابن مسـعود أو لإمامتي الصلت بن مالك وناصر بن مرشد في القرن السابع عشر.

تمثلت الشـخصية الثانية بصالح بن علي الحارثي، قائد قبيلة الحرث، وصالح هذا من تلامذة الشـيخ الخليلي، وقد انخرط في الثورة منذ بدايتها، كان عضوا في حكومة عزان، ولكن تأثيره على القرار السياسي كان محدودا نسبيا.

أما الشخصية الثالثة فالعالم محمد بن سليّم الغاربي وهو عضو نافذ في قبيلة آل سعد المقيمة على ساحل الباطنة.

كان لآخرين سوى هؤلاء أدوار لا يستهان بها في الحكومة، كإبراهيم بن قيس شـقيق الإمـام، وهو شـخصية عسـكرية بـارزة، وهلال بن سـعيد البوسـعيدي، ولكن الأمر الأهم هو أن المحرك الأساسـي لهذه المجموعة كان المثل الإباضي للدولة الإسـلامية، وهذا ما جعل القوة الأخلاقية لهذه الشخصيات القليلة وإيمانها وتضامنها يطبع النظام الجديد بطابع نادر»[1].

وقد وفى الإمام رضـي الله تعالى عنه بنصوص هذه البيعة، إذ أسـلس قياده لعلماء الأمة وصدق في عهده، فلم يدَّخر وسـعا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة حدود الله على من تجب عليه، وبسـط شرعه بين عباده وإنفاذ حكمه علـى القوي والضعيف والقاصـي والداني، فلم يحاب قريبا لقرابته ولم يقص بعيدا لأجل بعده، وشـمر عن ساعديه، فاتصل كلاله بكلاله وليله بنهاره في الجهد والجهاد والجـد والاجتهاد، فأمن البلاد بعد خوفها وحررهـا من ربقة الظالمين وبطش المسـتبدين، وكان الربان الماهر

(١) المصدر السابق، ص٢٢٠ - ٢٢١.

والقائد الأمين لسفينة المسلمين بين أمواج الأحداث العاتية، حتى لقي ربه شهيدا وعمره لم يتجاوز سبعة وعشرين عاما.

وكان في جميع حركاته وغزواته يحرص على ضبط جنده بضوابط الشرع وكف أيديهم عن إيذاء أي أحد لا علاقة له بهذا الأمر، سواء كان من المواطنين أو من الغرباء المقيمين بينهم، يقول الدكتور غباش: «يبقى أن قوات الثوار أظهرت على الرغم من مركباتها القبلية انضباطا مدهشا، فهجومها الأخير على مطرح ومسقط لم يسبب أي ضرر أو ضحية بين السكان العُمانيين أو الأقليات الهندية، ويذكر السالمي أن عزان بن قيس أعطى في خطابه أمام الجيش قبل الهجوم النهائي أوامر مشددة للجنود ومنعهم أن يمسوا أموال السكان وأملاكهم»[١].

ومما يذكر من الانضباط العجيب في جيشه أنه خرج في بعض غزواته إلى أرض الجو مرورا بصحار، فبات بفلج القبائل وقال في بلدة العوهي، وهي مشهورة بجودة فاكهة الأمبا (المانجو) حتى أن العُمانيين يضربونها مثلا في الجودة وحسن الطعم، وحال قيلولتهم بها تساقطت هذه الفاكهة بكثرة على فرشهم، فما مد أحد منهم يده ليأخذ شيئا منها، وإنما خلفوها وراءهم عندما أخذوا فرشهم حال ذهابهم، ما عدا رجلا واحدا أخذ حبة واحدة فأكلها، فأوسعه الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ تقريعا وتوبيخا، وإنما كف عنه العقاب لأنه لم يقطفها من الشجرة وإنما أخذها ساقطة على الأرض[٢]، وما هذا الانضباط إلا دليل الورع في هذا الجيش، وهو من أقوى الأدلة على استقامة قائده وزهده في الدنيا ومراقبته لله تعالى في إقدامه وإحجامه وفعله

(١) المصدر السابق، ص٢١٨.

(٢) **تحفة الأعيان**، ج٢، ص٢٧٢.

وتركه، كما قال علي ـ كرم الله وجهه ـ لعمر ﷺ: «عففت فعفت الرعية[١]، ولو رتعت لرتعوا»[٢].

١٢ ـ الإمام سالم بن راشد بن سليمان الخروصي:

بويع بالإمامة في عام ١٣٣١هـ وعمره المبارك لم يتجاوز العقد الثالث، ولم يكن قبل مبايعته يشار إليه بالبنان أو معنيا بطموح إلى قيادة أو منصب، وإنما كان من هذه الناحية رجلا عاديا، ولكن كانت ميزته بما يتأجج بين جوانحه من الغيرة على حرمات الله وشدة الخوف من التقصير في جنبه، وكان وقته موزعا بين العناية بطلب العلم والقيام بالعبادات، إذ عرف منذ طفولته البريئة بحب العبادة والاجتهاد فيها والاحتراز في المعاملات من كل الشبهات، وقد صدق واصفه بقوله:

يطوي عزائم بالتقوى وينشرها كأنهن لخصم الله نيران
أصاره علمه بالله محض هدى وغير بدع هدى يذكيه عرفان
لم يترك العلم منه موضعا كدرا يمثل الشمس منه الذات والشان
ما زال تمحصه التقوى ويمحصها فسره ملك والشخص إنسان
حتى تمحض نورا لا يكدره خير وشر وأغيار وأغيان[٣]

وقد اختاره أهل العلم والفضل لتحمل هذا المنصب، وعلى رأسهم

(١) **تاريخ الطبري**، ج٢، ص٤٦٦، فضائل الصحابة للدارقطني، ص٢٠، **الحجة في بيان المحجة**، ج٢، ص٣٨٥، **الكامل في التاريخ**، ج٢، ص٣٦٢، **البداية والنهاية**، ج٧، ص٦٧، مختصر تاريخ دمشق، ج٦، ص٣٩، **والإكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء**، أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي، (ت: ٦٣٤هـ)، ج٤، ص٢٧٥، عالم الكتب، بيروت، ١٤١٧هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. محمد كمال الدين عز الدين علي.

(٢) **شرح نهج البلاغة**، ج١٢، ص١٠، **مجموع فتاوى ابن تيمية**، ج٢٨، ص٢٦٨.

(٣) **ديوان أبي مسلم**، ناصر بن سالم بن عديم الرواحي، ص ٣٠٥، دار المختار، ١٩٨٦م.

الإمام المجدد علامة المعقول والمنقول نور الدين عبدالله بن حميد السالمي رضي الله عنه، وكان اختياره له بعدما خبر حقيقته واستشف سريرته، لأنه تربى في بيته وتغذى بمعارفه وتكيف وفق منهجه، وقد جرب فيه صلابة إرادته وعفة جيبه وزهده في الدنيا وتعلقه بالله والدار الآخرة، ولم يكن بحال يتطلع إلى قيادة يتبوأها أو منصب يتبجح به، لأن الدنيا كلها لا تساوي في عينه شيئاً.

لذلك عندما وقع عليه الاختيار ونودي باسمه في الحضور خرَّ صريعا على الأرض، لهول الأمر الذي سيكلفه وثقل المسؤولية التي سيطوقها، وقد اعتذر بكل المعاذير فلم تقبل منه للإجماع عليه، حتى آذنوه بقتله إن لم يتقبل، لأن رفضه تشتيت للكلمة بعدما اجتمعت، وتفريق للشمل بعدما توحد، كما أوصى الفاروق رضي الله عنه في أمر الستة الذين أوصى إليهم أن يختاروا الخليفة من بعده، وقد سل الحسام في وجهه فلم يثنه ذلك عن موقفه، حتى تبين له أنه إن قتل سيكون في براءة المسلمين، فهاله ذلك، وتحملها كارها وهو يسفح دموعه على خديه.[1] ولسان حال القدر السعيد يناديه:

يا (سالم) الدين والدنيا ابن راشد خذ	أمانة الله والأقدار أعوان
أنت الضليع بها حملا وتأدية	إذ كل أمرك تدبير وإتقان
احدر وأصعد وأيقن أن صاحبها	سيف من الله لا تحويه أجفان
يسوسها مؤمن بالله معتصم	وخير ما دبر الأملاك إيمان
للاستقامة في تقديره قبس	فظنه تحت نور الله إيقان[2]

وقد كان في رضاه وسخطه ومكرهه ومنشطه وسلمه وحربه مثالا

(١) ينظر: ابن حميد السالمي، **نهضة الأعيان بحرية عُمان**، ص١٢٤، دار الجيل، بيروت.
(٢) **ديوان أبي مسلم**، ص ٣٠٦.

لتحقيق العدالة والحرص عليها، بلا تمييز بين بعيد وقريب وبغيض وحبيب.

حدثني أحد جلسائه ورجال دولته أنه كان بسمائل، وقد نزل بها تاجر من الشيعة الإمامية ـ وكان الوحيد من بين سكان سمائل على المذهب الشيعي ـ وأخذ يمارس التجارة في سوقها، فاقتحم متجره بعض اللصوص وسرقوا بعض المتاع، فحضر إلى الإمام شاكيا بحضور شيخ المسلمين العلامة المحقق نور الدين السالمي وحضور والي سمائل آنذاك السيد الفاضل الغيور سعود بن حمد البوسعيدي، فتحركوا جميعا وأولوا قضيته كل اهتمامهم إلى أن توصلوا إلى المجرم، فشدوا عليه حتى رد إلى الشيعي كل ما سرق منه واستوفى حقه غير مبخوس، وأنزلوا بالسارق العقاب الشرعي[١].

وكفى بهذه القصة وأمثالها شاهدا على أن هذه المدرسة التي ينتمي إليها هؤلاء القادة هي فذة في مراعاة حقوق الله وحقوق عباده، وإنصاف أي مظلوم من أي ظالم، من غير التفات إلى الفكر الذي يعتنقه والنهج الذي يتبعه، وإنما المعيار هو ميزان القسط، فكل ضعيف عندهم قوي حتى يؤخذ الحق له وكل قوي ضعيف حتى يؤخذ الحق منه.

وكان ـ أيضا ـ مثالا للثقة بالله ووعده والتوكل عليه في العسر واليسر والخوف والأمن، ناهيك بجوابه لممثل الدولة البريطانية ـ الميجر ناكس ـ الذي تلقى منه تهديدا باسمها ـ وكانت بريطانيا في ذلك الوقت سيدة البحار ومالكة القرار بلا منازع ـ فكان من جوابه له: «وأنتم معشر هذه الدولة يجب عليكم أن تكفوا عن أمر المسلمين، ويلزمكم أن لا تعتدوا علينا ومن اعتدى علينا فالله يعيننا عليه، وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ومن كان مع الله كان الله معه، ومن يتوكل على الله فهو حسبه، إن

(١) قصة سمعها المؤلف أكثر من مرة من الشيخ أبي بشير محمد ابن نور الدين السالمي.

الله بالغ أمره قد جعل لكل شيء قدرا، وإن ينصركم الله فلا غالب لكم»[١]، وقد صدر جوابه بقوله تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١].

١٣ ـ الإمام مُحَمَّد بن عَبْدِالله بن سعيد الخَلِيليّ:

الذي بويع بالإمامة بعد استشهاد الإمام سالم بن راشد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في عام ١٣٣٨هـ، فبقي في الإمامة أكثر من ثلث قرن من الزمن، لا يدخر وسعا في الإصلاح ورتق الفتق، وتأليف القلوب ونشر العدل، وإغاثة الملهوفين ونصرة المظلومين.

وكان على قدر من الثراء لأن آباءه كانوا من الأثرياء، فانتقل إليه بالإرث من تركتهم ما كان يعد به من كبار أثرياء عصره في مصره، فسخر ثروته كلها في مصالح الأمة، وأخذ يقتطع منها في كل نائبة تنزل بها ما يقدمه بين يديه يقرضه الله قرضا حسنا، وعندما نقله الله إليه ما كان يملك من ثروة الدنيا شيئا، وإنما كانت نظرته إلى الدار الآخرة، وقد اجتمع فيه من غزارة العلم وحصافة الرأي وحسن التدبير بجانب الورع والتقوى ما فاق به أقرانه.

يقول المؤرخ الأمين الشيخ أبو بشير السالمي: «في ضحى يوم الثالث عشر والجمعة من شهر ذي القعدة من سنة ١٣٣٨ ثمان وثلاثين وثلاثمائة وألف، اجتمع العلماء والأعيان وأرباب الحل والعقد بجامع نزوى، وأجمعوا على مبايعة الإمام محمد بن عبدالله الخليلي لعلمهم أنه أفضل الموجودين اليوم بعُمان وأعلمهم، وأنه جمع الشروط الشرعية التي تتوافر في القائد، وأنه القادر ـ بإذن الله ـ على عبء ما سيتحمله، وذلك بعدما امتنع من القبول لأمرهم وإصرارهم على إلزامه، ولم يأخذوا عليه تعهدا ولا شروطا

(١) **نهضة الأعيان**، ص١٧٧.

كما كانت تؤخــذ على الإمام الضعيف، إذ كان يحظــى رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالثقة المطلقة قبل انتخابه، مأمون الجانــب على تقاليد الإمامة، وكان أعلم الجماعة الذين معه بل أعلم من العاقدين عليه»[١].

وقد كانت بيعته لما للشمل ورأبا للصدع، فقد كاد الزمام ينفلت والبنيان يتصدع، والخطى تتعثر، وإنما كان تدارك الموقف بتقليد هذه المسؤولية في عنقه وتتويج هامته بها، وكأنما لسان حال الدهر كان يناديه:

محمد ما كنت الضليع بشأنها — لتهنأ بها بل كي تكون لها الوقا
دعيت إليهــا بعد ما جد جدها — وكادت عصا الإسلام أن تتشققا
فقمت لها مستحقب الصبر صامداً — إلــى الله فيها بالتقــى متخلقا
وأعملت أنضاء القوى في سبيلها — سرى فحمدت الحال صبحك مـشرقا
وشيدت مبناها وحطت كيانها — وأسقيت مغناها فطاب وأورقا
وأنفقت فيهــا النفس لله جاهدا — فلله من أضحى وللنفس منفقا
وجمعت شمل المسلمين بسوحها — وكنت لشمل المال فيهم مفرقا»[٢]

وكانت أعماله وأقواله ترجمة حية لثقته بالله وتعويله عليه دون الناس، وإنما كان يحرص على محاسبة النفس ومجاهدتها حتى تستقيم على صراط الله، فكان مما كتبه إلى بعض إخوانه: «أخوف ما نخافه شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، ولا يضرنا كيد من كاد، ولا اعتمدنا على بشر، فنحن نعلم ضعفنا وضعف هؤلاء»[٣].

---

(١) المصدر السابق، ص٣٠١.

(٢) من قصيدة لابن أخيه الشــاعر الكبير الشــيخ عبد الله بن علي الخليلــي يرثيه بها، ينظر: ديوانه **وحي العبقرية**، ص ٤٤٣، ط٢، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

(٣) **الفتح الجليل من أجوبة الإمام أبي خليل**، جمع وترتيب ســالم بن حمد الحارثي، ص٢، طبع بإشــراف عز الدين التنوخي، مجمــع العلمي العربي بدمشــق، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م، الطبعة العمومية بدمشق.

وكتب أيضا: «والعدو لا نســتحقره من قلة، ولا نستعظمه من كثرة، إنما النظر إلى نصرة الدين وإغاثة الملهوفين وتقويم الحائدين، والله نسأله العون والتمكين وهو حسبنا ونعم الوكيل»[١].

وكتب نصيحة إلى إحدى العشــائر، جاء فيها: «بلغنــي تفرقكم، وتلك عقوبة البغي وهي أول العقوبــات، فالمراد أن تراجعــوا دينكم وتتراجعوا، وتؤدوا الحقوق فيما بينكم وفيما بينكــم وبين الخصم، وتتوبوا إلى الله من خيانة العهود، وكونوا يدا واحدة على الحق ـ إلى أن قال ـ ونحن إن شاء الله لا نجد بدا عن مناصرة الدين، والله ﷻ نســتمده النصــر والتأييد والتوفيق والتسديد، وهو حسبنا ونعم الوكيل»[٢].

وكتب لهم أيضا: «أرى أن بغيكم قد تناهى، وكل أمر ينتهي يرجع، ولا يهمنا أمر البغاة ولا نســتعظم شــأنهم، فإن على الباغي تدور الدوائر، هذا ونســأل الله أن نكون ممن ينصره، والله ناصر من ينصره لا محالة، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[٣].

وكتب لعشــيرة أخرى: «ونعلم يقينا أن كثيرا مــن الناس لا يحبون ذلك، وليس من يكره الحق يعطى ســؤله، نحن علينا مناصرة الحق ولا نصرنا الله إن لم ننصر الحق، والله لم يضيع المسلمين في موطن، نصرهم في مواطن على ضعفهم، فنحن على يقيــن أن الله ينصر من ينصره، وما النصر إلا من عند الله، إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركــم من بعده، وإن جندنا لهم الغالبــون، اللهم اجعلنا من

(١) المصدر السابق، ص١٤.
(٢) المصدر السابق، ص١٢ - ١٣.
(٣) المصدر السابق، ص١٣.

جندك الموقنين بوعدك، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[١].

وقد كان رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ مثالا في سعة الصدر واحتمال الأذى من رعيته، لذلك كان يوصي بهذا ولاته وعماله، فقد كتب إلى أحد ولاته: «اعلم أن من دخل في أمر لا بد من أن يتحمل، والناس سيقولون ويقدحون، ولو كان المرء كالقدح المقوم لقال الناس فيه وفيه، وبشدة القلب تتلقى الكلمة العوراء ويصفح عن قائلها، فلا تكن ضيق القلب»[٢].

وحدثني جماعة من معاصريه أنه باع بعيرا له لبدوي ليسد بثمنه بعض حاجات المسلمين، وذهب البدوي لإحضار الثمن فأطال الغيبة ـ وكان الإمام في شيخوخته، وقد تزاحمت عليه هموم النفس وكثرة الأشغال ـ فباع البعير لمشتر آخر، لأنه نسي بيعته السابقة، وبعد برهة من الزمن حضر البدوي وبيده الثمن فلم يجد البعير، فأغلظ القول على الإمام وحاول بعض من حوله أن يسكته، فقال الإمام: دعوه فإن لصاحب الحق مقالا، وتركه حتى أفرغ كنانته وسكنت جائشته، فقال له: إني ما بعت البعير لأغمطك حقك، وإنما بعته وقد عزب عن ذهني ما كان بيني وبينك، والخيار في هذا الأمر راجع إليك، فإن شئت الصلح بيني وبينك، فأنا على استعداد أن أرضيك وإن شئت أن تقاضيني فما علي حرج أن أدين بكل ما يقضى به لك علي، فجنح البدوي إلى مقاضاته، فرفع قضيته إلى أحد القضاة، فما كان من الإمام إلا أن وقف بجانب البدوي موقف الخصم أمام القاضي، فلما رأى خصمه ذلك نزل عن دعواه، فأكرمه الإمام بما سر خاطره وذهب بما في نفسه.

---

(١) المصدر السابق، ص١٨.

(٢) المصدر السابق، ص١٩.

وهو موقف يدل على هضم النفس وإنصاف الخصم والدينونة بالحق، ومما اشتهر عنه أنه كان في بعض أسفاره وحوله عدد من الناس كل على راحلته، فرأى بين الركب فقيرا عليه ثياب رثة يمشي على قدميه ولم يعرض عليه أحد الركوب على راحلته، فما كان من الإمام إلا أن نزل عن راحلته ودعا ذلك الفقير ليركب عليها، وهناك بادر الركب كل يعرض راحلته ليركب عليها الفقير، فأبى الإمام إلا أن يركب على راحلته ويغبر الإمام قدميه بالمشي.

وكان مع كثرة صيامه معتادا تأخير طعام عشائه حتى يطمئن إلى الكل أنه أتاه رزقه، فإن وجد من لم يصب عشاءً آثره برزقه، واكتفى بالتمر والماء أو مع السمك المجفف، كما قال راثيه:

تناول فيهم بلغة القوت راضيا بميسوره إذ كان في الله أخلقا
تبيت خميص البطن زهدا وتتقي برزقك بطن الدهر أن يتعمقا[١].

وبجانب هذه الدماثة في الأخلاق واللين في المعاملة، فقد كان شديدا على كل من خالف الحق من قريب أو بعيد.

ومن ذلك أنه أغلظ القول في بعض رسائله على عشيرة كانت لها سابقة في نصرة الدولة، ولكن عزم على الانتصاف منها لأنها حادت عن نهج الحق، فكان مما كتبه في حقها ـ بعد الدعوة إلى القيام عليها ـ: «ولا قريب ولا بعيد ولا بغيض ولا حبيب، إلا الاستقامة أو عدمها»[٢].

وقد أجمل القول في وصفه راثيه حيث قال:

تخلقت بالخلق العظيم تأسيا بأحمد لما شئت أن تتخلقا

(١) **وحي العبقرية**، ص٤٤٣.

(٢) **فتح الجليل**، ص٤٦.

إذا أغلقت أبواب كسرى وقيصر فبابك دون الناس لم يُلف مغلقا
وإن ساد بالسلطان والعنف معشر فبالعدل والإحسان قد سدت مطلقا
حلمت فلم تترك لذي الحلم موضعاً وطلت فلم تترك لذي الطول مرتقى
وصلت فلم تترك على الأرض آمناً وجدت فلم تترك من الناس مملقا
ورضت فذللت الخطوب وكيدها وقلت فبرزت الحقيقة مفلقا
وألبست من نسج التواضع حلة وكنت بموضون الهدى متمنطقا
إذا الأمر أعيى الناس رأياً وخبرة سللت له من نير الفكر أبرقا
وإن ذاب من حر الوغى قلب ماجد فقلبك أقوى صخرة أن يفلقا[1]

وكان مع هذا كله يتمنى أن لو وجد فرصة لتسليم زمام الأمر إلى غيره، وحل ما بعنقه لتطويقه عنق غيره، فقد توفي في عهده واليه على مدينة الرستاق وتوابعها، فأراد الإمام بمشورة من بعض أعيانها أن يولي من بعده شبل الوالي الراحل، ولكن طلبة العلم الذين كانوا يدرسون على الشيخ العلامة الضرير محمد بن حمد الزاملي اتفقوا مع شيخهم على عدم قبولهم أن يولى عليهم نجل الوالي السابق، فأدلوا برأيهم إلى الإمام، فقال لهم: إنكم لم تجربوه حتى تعدو عليه ما يعيب سيرته أو يخل بأمانته أو يهوِّن من جده في القيام بمسؤوليته، فما عليكم إلا أن تجربوه فإن ثبت عليه ما يقتضي عزله عزلناه إن شاء الله.

ولكن الطلبة مع شيخهم الزاملي أصروا على موقفهم، وكان الشيخ هو الذي يخاطب الإمام باسمهم، وقد عرف بحدته البالغة، فما كان منه إلا أن خاطب الإمام بشدة وجرده من لقبه، قائلا له: يا محمد إن المسلمين لن يتركوا الأمر لتتصرف فيه كما تريد، وإن كنت لا تعير خطابنا اهتماما فسلم

(١) **وحي العبقرية**، ص ٤٤٢.

إلينا السيف الذي بيدك، وهو يعني به سيف الإمامة الذي يحمله من ناء بمسؤليتها، فما كان من الإمام إلا أن قال له: دونكم السيف وما يتبعه، فابتدر أحد طلاب العلم وقال: ما هذا الذي أردنا، ولا حدثتنا أنفسنا أن نجردك من مسؤليتك، إذ لا نجد لها من هو أكفأ منك، وإنما نرجو أن لا تخيبنا فيما نرى، فرجع الإمام عن رأيه إلى رأي طلاب العلم وخيرهم في الوالي الذي يريدونه، فرشحوا له من توسموا فيه الأمانة والجد، فأحله الإمام محل الوالي المفقود.

هذه أمثلة شاهدة على سلامة الفكر واستقامة المنهج واعتدال الرأي للمدرسة التي أنجبت طالب الحق وأبا حمزة، وكم فيها من نماذج تصور لنا الإسلام الصحيح في جماله واعتداله وخلقه الرفيع ومثله العُلْيا، وإنما اقتصرت على ما ذكرته من الأمثلة تفاديا لطول الحديث وسآمة القارئ، وإننا بحمد الله لا نزال هنا بسلطنة عُمان نتفيأ ظلال هذه المدرسة، وتنعكس على سكان السلطنة آثار مُثُلها، فمع تنوع نسيج المواطنين يحظى الكل بالعدالة والإنصاف من غير تمييز، كما أن الوافدين أيضا على تنوع مشاربهم يتمتعون بهذا الخير وينعمون بهذا الاستقرار، وهذا ما شهدت به ألسنتهم وخطته أقلامهم.

رَفْضُ هذه المدرسة للغُلُوِّ في الفِكْرِ أو السُّلوك:

مع ما تميزت به هذه المدرسة من شدة التمسك بالدين، والاعتصام بحبله المتين، وعدم تساهلها في شيء من حدوده وواجباته؛ تأبى كل الإباء أن تغلو في أمر الدين، وأن تتجاوز حدوده التي رسمها الشارع الحكيم، لذلك كانت في سلمها وحربها مثالا للتسامح وعدم الاستقصاء في تعاملها مع غيرها في السلم والحرب، والمكره والمنشط، والسعة والضيق، والشدة والرخاء.

وقد تبينت أيها القارئ الكريم كيف كان سلوك أبنائها عندما يتعرضون لعدوان أو يواجهون خصومة، فإنهم يحرصون على الاحتراز وضبط النفس والتحكم في العواطف الثائرة والمشاعر الهائجة، حتى لا تدفعهم إلى الحماقة والخروج عن حدود الاعتدال، وفيما ذكرته من الأمثلة أعظم شاهد على ذلك، وكم تجد من شهادة عادلة على هذا النهج من أهل الصدق والأمانة من المنتسبين إلى المدارس الأخرى.

وبسبب هذا؛ كان البون سحيقا بينهم وبين الغلاة الذين حكموا على أهل ملة التوحيد بأحكام المشركين، فاستباحوا منهم سفك الدماء وغنم الأموال وسبي الذراري، وقد كان استنكارهم لهذا الغلو منذ بداية بروزه، ناهيكم أن الإمام **أبا الشعثاء جابر بن زيد** رَحِمَهُ اللَّهُ الذي كان رائد هذه المدرسة ومنظرها، كان يحتج على أولئك الغلاة، فقد ذكر البدر الشماخي في سيره عن ضمام أنه قال: «كان جابر يأتي الخوارج، فيقول لهم: أليس قد حرم الله دماء المسلمين بدين؟ فيقولون: نعم، وحرم الله البراءة منهم بدين؟ فيقولون نعم، فيقول: أوليس قد أحل الله دماء أهل الحرب بدين بعد تحريمها بدين، فيقولون: بلى، فيقول: وحرم الله ولايتهم بدين بعد الأمر بها بدين؟ فيقولون نعم، فيقول: هل أحل ما بعد هذا بدين؟ فيسكتون»[(١)].

وذكر أيضا أن **عبدالله بن إباض** كانت له مناظرات مع الخوارج[(٢)].

وبسط **سالم بن ذكوان الهلالي** ـ وهو من أعلام هذه المدرسة في نهاية القرن الأول وبداية الثاني ـ الحجج الدامغة التي أتت على شبه هؤلاء الغلاة في «**سيرته**» القيمة، حيث قال: «ثمَّ خرج من بعدهم ابن الأزرق وأصحابه،

(١) **السير للشماخي**، ص٧٢.

(٢) المرجع السابق، ص٧٣.

فمكثوا ما شاء الله، يسيرون بسيرة من كان قبلهم من الخوارج، ثمَّ إنَّهم جرمهم شنآن قومهم أن أنزلوهم بمنازل عبدة الأوثان، فقطعوا الميراث منهم وحرموا مناكحتهم، وقد ناكحهم من يتولون ووارثهم، فإن يكن ذلك هدًى وعمل به من يتولون فقد خالفوهم فيه ودانوا اليوم بالبراءة مِمَّن عمل به وإن يكن ذلك ضلالة ضلّوا بتوليهم من عمل به.

واستحلّوا سبي قومهم واستنكاح نسائهم وخمس أموالهم وقتل ذراريهم واستعراضهم، ولم يكن من يتولون يستحلون شيئًا من ذلك من قومهم، فإن يكن الذي عمل به من يتولون من قومهم هدى فقد خالفوهم. وأبوا أن يجيروا من استجارهم من قومهم حتَّى يسمع كلام الله وهم يشهدون أنَّهم بمنازل عبدة الأوثان، وقال الله لنبيه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

فقالوا: قد سمع قومنا كلام الله فلا نجيرهم، وقد سمع المشركون الذين أمر الله بجوارهم كلام الله، فقالوا: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ [الأنفال: ٣١]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، وقالوا: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥]، ثمَّ أجارهم نبيّ الله كما أمره وجعلوا للقوم محنة، وأبوا أن يقبلوا مِمَّن أتاهم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإقرارهم بحكمهم، وهم يزعمون أنَّه حكم الله. وقال الله لنبيه: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥].

وكفروا بالرجم، وقد رجم رسول الله رجلا من أسلم ومضت به السنة، وبرئوا من كلِّ أعرابي، وإن كان يتولّاهم ويشهد لهم بالنجاة، ويسأل الله أن يرزقه مثل الذي رزقهم من جهاد أعدائه، وقد قال الله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ

ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ٩٩]، وكفَّرُوا قعدتهم واستحلُّوا دماءهُم وأموالهم وحرَّمُوا ولَايتهم والاستغفار لهم، وتولوا قوما كانوا يتولون قعدتهم ويحرمون دماءهم وأموالهم ويستحلون مواريثهم والاستغفار لهم، وقد علموا ذلك منهم، فإن يكن ذلك هدى عمل به من يتولّون فقد خالفوهم فيه.

وكفروا من يتولى اليوم عليه، وإن يكن من يتولون تولىَّ كافراً فقد كفروا، وكفروا هم بوَلايتهم إيَّاهم على تولّي الكّفار فزعموا أنما يكفرون قعدتهم بكتمهم إيمانهم ودينهم وقد أمرهم الله أن يثبتوا.

فقد مكثَ مؤمن آل فرعون ما شاء الله أَن يمكثَ كاتماً إيمانه فلم يردد الله عليه بكتمانه إياه، وقد قالَ الله: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ﴾ [آل عمران: ٢٨]، فحرضّ الله المؤمنينَ على التّقية، وكيف يتَّقي المؤمنونَ الكفّارَ إلّا بِأَنَّ يظهرُوا لهم ما يحبون ويكتموهم دينهم، مع أنّهم إذا خرجوا كانوا أكتم ما كانوا قطُّ لدينهم، وذلك الرجل يأتيهم فيقول: اعرضوا عليَّ دينكم فيقولونَ: لَا، إنا إذا نكفر، ولكن أخبرنَا أَنتَ به، فإن أَخطأَ شيئًا ممّا في أنفسهم قتلوه في شيء من أمور المعاصي ليسَ كلّها تحصى من استحلال أكل الأمانات التي أمرَ الله بالوفاء بها، وأَوفى بها المؤمنونَ ويشهدون أن النفاق قد رُفعَ وأن أحدًا لَا يستطيع أن يكون منافقًا ويشهدونَ أن اللهَ يغفرُ للزاني والسارقِ إن يكونا منهم، ولو كانت صحابة تجيرُ من النفاق أجارت صحابة نبيّ الله إن قبلوا ما دعاهُم إليهِ من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وهو الإسلام ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ثم كان من بعدهم أهل اليمامة نجدة وأصحابه، فشهدوا على قومهم أنهم بمنزلة عبدة الأوثان، ثم استحلوا من نكاح نسائهم وأكل ذبائحهم ما حرم الله من نساء المشركين وذبائحهم، فإن قالوا: إنا ننزل قومنا بمنازل أهل الكتاب الذين أحل الله لنا طعامهم ونساءهم، فإنهم يحرمون أخذ الجزية منهم بعد قول الله للمؤمنين: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، وأوفوا بعهد قومهم في أهل الذمة وهم يشهدون بالشرك عليهم، فإن يكن وفاء بعهودهم حقا فليس يحل لهم أن ينزلوهم بمنازل عبدة الأوثان، وإن يكونوا بمنازل عبدة الأوثان يضلوا بوفائهم بعهدهم، وذلك أن المسلمين لو وجدوا عبدة الأوثان قد عاهدوا اليهود والنصارى والمجوس لم يوفوا بعهد أحد منهم، وزعموا أن عليهم هجرة من دار قومهم كهجرة النبي وأصحابه من مكة، وقد انقطعت الهجرة عام الفتح، وصار الأمر إنما هو جهاد.

بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لا هجرة بعد اليوم ولكن جهاد ونية»[1]، فزعموا أنها حق عليهم هجرة بعد هجرة، وهو على هجرة لا من فتنة يصيبونها تبطل هجرتهم الأولى، فهذا من أمرهم ورأيهم مختلف، وقال الله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، واستحلوا فعل سبي قومهم وقتل ذراريهم وخمس أموالهم واستعراض وقطع الميراث

(١) الحديث مروي بلفظ: "لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا" أخرجه مسلم (١٤٨٨/٣، رقم ١٨٦٤)، وابن أبي شيبة (٤٠٨/٧، رقم ٣٦٩٣٢) من حديث عائشة. وأخرجه أحمد (٤٠١/٣، رقم ١٥٣٤١)، والنسائي (١٤٥/٧، رقم ٤١٦٩)، من حديث صفوان، وأخرجه أحمد (٢٢٦/١، رقم ١٩٩١)، وابن أبي شيبة (٤٠٧/٧، رقم ٣٦٩٣٠)، والترمذي (١٤٨/٤، رقم ١٥٩٠) وقال: حسن صحيح. والنسائي (١٤٦/٧، رقم ٤١٧٠). والبخاري (١٠٢٥/٣، رقم ٢٦٣١)، وأبو داود (٣/٣، رقم ٢٤٨٠) من حديث ابن عباس.

لهم، ولم يحكم من يتولون من المسـلمين يوم قتلـوا عثمان ويوم الجمل ومن يتولون من الخوارج الأولى بشـيء من هـذه الأحكام، فإن يكن الذي عمل به من يتولونهم هدى فقد خالفوهم فيه ورغبوا عن سبيلهم وكفروا من اقتدى بهداهم، وإن يكن غير هدى فقد تولوهم عليه.

فإن قالوا: إن أولياءنا إنما تركوا سـبي قومهم أنهم كانوا أمنوا أحياءهم، فإنهم لم يسـبوا ذرية من قتلوا منهم، ولم يستنكحوا نساءهم، ولم يخمسوا أموالهم، ولم يحكموا في عثمان ومن قتلوا معه بشيء مما تقولون.

فإن قالوا: إن أولياءنا تنزهوا عن ذلك واستألفوا الناس به. فإن المسلمين لم يكونوا ليتنزهوا عـن أن ينفذوا حكم الله الذي أمرهم به، وقد علموا أنما يقتدي من يقتدي من أوليائهم في ذلك بفعلهم، فلم يكونوا ليستألفوا الناس بأحكام هي ضلالة لهم، ولمن اقتدى بهم من بعدهم من أتباعهم.

ونعلم بحمد الله أنهم لو كانوا يستحلون سبي قومهم وخمس أموالهم ما تركوا سهمان مساكين فقراء بهم حاجة وفاقة إلى أنصبائهم، ولا سهمان أبناء سـبيل بعيدي الشـقة لم يمروا عليهم فيحملوهم منها فيأذنوا لهم فيها، ولا سـهمان يتامى صغار لم يعقلوا فيأذنوا لهم في سهمانهم. وقد أمرهم الله أن يوفروا على اليتامى أموالهم، وأن يحسنوا ولايتهم، فمن قال منهم: كان ذلك بهم جهالة وقصر بصر لا يضلنا إن توليناهم.

فكيف يزعمـون أنه لا يضلهم تولي قوم يبـرأون اليوم من قوم يعملون بمثل عملهم، ويشـهدون عليهم بالشـرك، وتولوا الزاني والسارق وشارب الخمر وقاذف المحصنة، وقاتـل النفس التي حرم الله بغيـر الحق متعمدا، وآكل أمـوال اليتامى والربا علـى علم، وتارك الصلاة، وقـد علم حكم الله فيها، والحاكم بغير ما أنزل الله فـي كتابه، وآكل الميتة والدم ولحم الخنزير

وما أهل لغير الله به عن غير ضرورة، وهو يعلم أن الله قد حرمه، وناكح أمه وابنته وأخته وعمته وخالته وأمه التي أرضعته وأخته من الرضاعة، وهو يعلم أن الله قد تقدم الحكم منه في ذلك، وسبقت منه الموعظة في أشياء كثيرة، وليس كلها تحصى في أدلة المال واستحلال أكل الأمانة ومحنة الرجال، وتحريم ملك الأناثي من نساء قومهم، والتقرير بالنفاق لمن ثقل منهم عن القتال، فإن أقر به أمن عليه عندهم وحرموا دمه، وإن برئ من النفاق وزعم أنه مسلم استحلوا دمه فأمن عندهم بالذي كان يخاف به عند رسول الله، ويحل به دم من فعله، وخاف عندهم الذي كان يأمن به عند رسول الله ويحرم به دم من فعله، لقلة علمهم بالله وبجهالتهم بكثير من أمره.

ومنها تكفيرهم الراجع منهم واستحلالهم دمه وماله، وتكفير من تولاه منهم، ثم رجعوا هم بعد ذلك إلى ولايته، فزعموا أنهم يوم برئوا منه وكفروا من تولاه منهم واستحلوا دمه وماله، ويوم رجعوا إلى ولايته وبرئوا ممن كفره منهم واستحلوا دمه وماله، مهتدون في المنزلتين كلتيهما، وقد مضى منهم ناس كثير وهم يبرأون منه. وفارقوا الدنيا على ذلك، ونعلم بحمد الله أنهم لو كانوا مهتدين يوم برئوا واستحلوا دم من تولاه منهم وماله لكانوا اليوم ضلالا برجوعهم إلى ولايته، وأنهم لو كانوا اليوم مهتدين برجوعهم إلى ولايته وبتكفيرهم من يتولاه منهم لكانوا ضلالا بتوليهم إياه، وشهادتهم أنهم كانوا يبرأون منه ويستحلون دم من تولاهم منهم مهتدون ولضل من مات وهو يبرأ منه يوم فارقه.

ثم فارقه داود وأصحابه، وعطية وأصحابه، وأبو فديك وأصحابه، في أمور نقموها عليه وزعموا أنه قد ضل بها، وليس الذي فارقوه فيه بأكثر من الذي جامعوه عليه، من سبي أهل القبلة وقتل ذراريهم واستنكاح نسائهم وخمس أموالهم واستعراضهم وقطع الميراث منهم، فكلهم بحمد الله ضال

تارك للحق متبع لهواه بغير هدى من الله. وهم في ذلك معترفون فيما بينهم.

ويجمع ابن الأزرق وأصحابه، ونجدة وأصحابه، وداود وأصحابه، وعطية وأصحابه، وأبا فديك وأصحابه فيما تعارفوا من الضلالة مخالفتهم إلى ما ينهون عنه، وعملهم بما يكفرون عليه. ويضلهم مع ذلك تحريفهم في قومهم كلام الله ﷻ عن مواضعه، وشنآن قومهم، ويضلهم خلاف سنة نبيهم فيهم وتركهم في قومهم سيرة قوم يتولونهم، ويضلهم تفرقهم بينهم، ويضلهم ما أحدثوا من البدع في قومهم بعد أوليائهم.

ومن بدعتهم قطعهم الميراث من قومهم إذا خرجوا وأظهروا أمرهم، وقد كانوا يستحلون موارثتهم ما كانوا بين أظهرهم، ويضلهم موارثة قوم يستحلون خمس أموالهم، ويضلهم خمس أموال قوم يحرمون موارثتهم، ويضلهم نكاح نساء قوم مشركين لا يأخذون منهم جزية وأكل ذبائحهم، ويضلهم ترك الجزية في قوم مشركين يستنكحون نساءهم، ويضلهم أيضا وفاؤهم بعهود قوم مشركين فكل هذا من بدعهم مضلهم، ويضلهم إن كانوا غير مشركين كما يقولون لهم، ويضلهم إن كانوا غير مشركين شهادتهم بالشرك عليهم، ويضلهم سباؤهم ويضلهم قتلهم ذراريهم، ويضلهم استنكاح نسائهم، ويضلهم استعراضهم.

ويضلهم خمس أموالهم، ويضلهم انتحال الهجرة من دارهم وقد مات فيها طوائف من أصحاب نبيهم بعد أن كفروا قومهم، يرونهم ماتوا على هجرتهم منهم: عبدالرحمن بن عوف وعبدالله بن مسعود وأبو ذر وناس كثير من المسلمين. فإن يكن أولئك ماتوا على هجرتهم فليس تحل لهم الهجرة من ديارهم، وإن يكونوا ضلوا فقد ضلوا هم بتوليهم على ضلالهم، فكان هذا من بدعهم مضلهم، ويضلهم إن كانوا غير مشركين ما ابتدعوا من السر فيهم، ويضلهم أن لو كان شركهم ظاهرا فأحدث طائفة منهم مثل

أحداث قومهم اليوم، إن سيرتهم اليوم في قومهم وإن سيرهم هذه المفترقة وبدعهم المحدثة إنما أضلهم فيها شهادتهم بالشرك على قومهم ثم انتقاضهم شهادتهم بعد في سيرتهم». اهـ[(١)].

وعُنِيَ ـ في زمانه ومِنْ بَعْدِهِ ـ قادةُ الفكر والرأي من أبناء هذه المدرسة بنقض فكر هؤلاء الغلاة وتفنيد شبههم وتسفيه رأيهم، حتى جاء الإمام المجدد العلامة الرباني **أبو نبهان** رحمه الله تعالى، فعني بنقض هذا الفكر والنداء عليه بالضلال في كثير من مؤلفاته، وكان مما قاله في هذا: «ألا فاتقوا الله بأداء ما أمر والانتهاء عما عنه زجر، ولا تركنوا إلى من دعاكم إلى متالف الردى تاركين لما كان عليه أئمة الهدى، فإنهم أقرأ منكم للتنزيل وأعلم بالتأويل وأدل بالطريقة المثلى إلى منازل العلا.

وقد ضربوا في منارها الصوى فبصروا من العمى وأمروا بالتقوى ونهوا عن متابعة الهوى، وأوضحوا لكم في دين الله ما لا مزيد عليه من الهدى، فدلوكم على المحجة البيضاء التي كان عليها سيد الأنبياء، فعرفوكم ما تأتونه فرضا ونفلا، وما تذرونه نية وقولا وفعلا، وبينوا لكم من زاغ عنها من أهل الجهالة، فجادلوا أهل الزيغ بالتي هي أحسن لما بها من دلالة على صحة ما هو به وعليه وفساد ما عداه، حتى ظهر الحق وبطل ما خالفه من دعوى العماة، فأنى يكون الشك فيما هم به ودعوا إليه.

وقد زال الالتباس فلا عذر لمن خالف من الناس، أولئك هم أولو الألباب الذين هداهم الله لدينه الذي ارتضاه لعباده من فضله، فلم يغيروه عن أصله بل اتبعوا فيه أثر النبي عليه الصلاة والسلام، ومن بعده أبا بكر وعمر وغيرهما من

(١) **منهج الدعوة عند الإباضية**، محمد صالح ناصر، ص٣٦٥ - ٣٧٢، مكتبة الاستقامة، مسقط، سلطنة عُمان، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

الصحابة والتابعين صفوة الأنام، فجاهدوا عن أمر الله من كان من المشركين حتى يسلم، أو يقتل على إصراره، أو يعطي الجزية عن يد لصغاره، إلا من لا يقبل منه إلا الدخول في الإسلام أو القتل على حال، وقاتلوا من بغى من المنافقين في إقراره حتى يفيء إلى أمر الله أو تفنى روحه في أوزاره، فبذلوا الأموال في جهادهم وجادوا بالأرواح لإزالة فسادهم.

فلم يستحلوا من هؤلاء الباغين في قتالهم سبي ذرية ولا غنيمة مال لحرامهما في أهل القبلة شرعا، وهذا ما لا يجوز أن يختلف في المنع من جوازه قطعا، وإنما أجازهما نافع بن الأزرق خلافا في دين الله لمن قبله جزاه الله شرا على ما ابتدعه، ما أضله! حتى انتحل الهجرة وشرّك أهل القبلة واستعرض الناس بالسيف على غير دعوة، فاستحل السبي والغنيمة في أهل الإقرار بالجملة وأزلَّ من اتبعه فصار مثله». اهـ[1].

وبين محجة الحق في هذا الإمام **نور الدين السالمي** رحمه الله تعالى حيث قال:

ومال أهل البغي لا يحل	وإن يكن قوم له استحلوا
خوارج ضلت وصارت مارقة	من دينها صفرية أزارقة
فحكموا بحكم المشركينا	جهلا على بغاة المسلمينا
فعرضوا للناس بالسيف كما	قد استحلوا المال منهم مغنما
وأمة المختار فارقتهم	وضللتهم وفسقتهم
ووردت فيهم عن المختار	جملة أخبار مع الآثار
وفيهم المروق يعرفنا	ومنهم لاشك نبرأنا[2]

وقال أيضا: «ولا نرى استعراض قومنا بالسيف ما داموا يستقبلون القبلة،

(١) من **مخطوطة لأبي نبهان** يحذر فيها من الحكم على أهل القبلة بأحكام المشركين.

(٢) **جوهر النظام**، ج٣ ص ٥١٢ ـ ٥١٣.

ولا نرى قتل الصغير من أهل قبلتنا ولا غيرهم، ولا نستحل فرج امرأة رجل تزوجها بكتاب الله وسنة نبيه حتى يطلقها زوجها أو يتوفى عنها ثم تعتد عدة المطلقة أو المتوفى عنها زوجها.

ولا نرى انتحال الهجرة من دار قومنا لهجرة النبي وأصحابه من دار قومه، ولكن يخرج من خرج منا مجاهدا في سبيل الله على طاعته، فإن رجع إلى دار قومه توليناه إذا كان قائما بحق الله في نفسه وماله»[١].

وقال شيخنا الإمام العلامة **أبو إسحاق إطفيش** رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «الخوارج طوائف من الناس في زمن التابعين وتابع التابعين، رؤوسهم نافع بن الأزرق، ونجدة بن عامر، وعبدالله بن الصفار ومن شايعهم.

وسُمُّوا خوارج لأنهم خرجوا عن الحق وعن الأمة؛ بالحكم على مرتكب الذنب بالشرك فاستحلوا ما حرم الله من الدِّماء والأموال بالمعصية متأولين قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]، فزعموا أن معنى الآية وإن أطعتموهم في أكل الميتة، فأخطأوا في تأويلهم، والحق أن معنى الآية: وإن أطعتموهم في استحلال الميتة، والاستحلال لما حرم الله شرك. وحين أخطأوا في التأويل لم يقتصروا على مجرد القول، بل تجاوزوه إلى الفعل، فحكموا على مرتكب المعصية بالشرك، فاستحلوا دماء المسلمين وأموالهم بالمعصية، فاستعرضوا النساء والأطفال والشيوخ.

وقد كان الإمام الحافظ الحجة الربيع بن حبيب بن عمرو البصري الفراهيدي الإباضي، صاحب المسند الصحيح رَحِمَهُ اللهُ حين بلغ إليه أمرهم يقول: دعوهم حتى يتجاوزوا القول إلى الفعل، فإن بقوا على قولهم فخطؤهم محمول عليهم، وإن تجاوزوه إلى الفعل حكمنا فيهم بحكم الله.

---

(١) **تحفة الأعيان**، ج١، ص٧٩.

فلما ظهرت بدعتهم طردهم أصحابنا من مجالسهم، وطاردوهم في كل صوب، معلنين البراءة منهم. فلمـا تجاوزوا بالقول إلى الفعل أعلنوا الحكم بكفرهم ـ لأن الكفر في استحلال ما حرم الله نص في كتاب الله قطعي، وقد استشرى فعلهم يومئذ فاشـتدوا على أهل التوحيد بفتنتهم، فسلوا السيوف على الرقاب بغير ما أنزل الله، فعظمت محنتهم، فكانت بلاءً عظيما». اهـ[1].

وفي هذه النصوص التي نقلناها ما يكفي شـاهدا على أن هذه المدرسة لم تخرج عن خط الاعتدال، فلم تستبح في يوم من الأيام غنيمة مال موحدٍ ولا سبي ذريته أو أهله مهما كان فجوره، وإذا بغى فإنما يقتصر في رد بغيه بمقاتلته بعد إقامة الحجـة عليه من غير أن يعامل معاملة أهل الشـرك في شـيء، فلا يقطع التوارث بينه وبين المسـلمين، ولا يحرم إنكاحه النسـاء المسلمات، كما لا يحرم تزوج من كانت على نهجه من النساء.

وقد امتلأت كتبهم بشـرح ذلك، والنكير على الخـوارج الغلاة الذين حادوا عن هذا النهج، فأنزلوا بأهل القبلة من الأحكام ما يخرجهم من الملة ويلحقهم بأهل الشرك، والعياذ بالله.

كَلِمَةُ إِنْصَافٍ لا بُدَّ مِنْهَا:

لا يرتاب ذو بصيرة أن الخوارج الغلاة بغلوهم ـ فيما أنزلوه من الأحكام بأهـل القبلة ـ باينوا النهج السـليم الـذي جاء به القرآن ودلت عليه سـنة المصطفى ﷺ، ودرج عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان، لذلك تشددت الأمة في محاكمتهم علـى جرمهم فبدَّعتهم وضلَّلتهـم، وكان الإباضية في

---

(١) **الفرق بين الإباضية والخوارج**، تأليف الشيخ العلامة أبي إسحاق إبراهيم إطفيش، ص١٢، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عُمان، السيب.

مقدمة الأمة إذ وقفوا منهم هذا الموقف الصارم، وأخذوا على أنفسهم نقض أباطيلهم وتفنيد شبههم، كما أنهم لم يترددوا في دفع شرهم بالسيف عندما اقتضى الأمر ذلك، كما كان هذا بالمشرق بقيادة الجلندى بن مسعود، وبالمغرب بقيادة أبي الخطاب المعافري رحمهما الله.

ومع تصويبنا لهذا الموقف في تعرية ضلالهم ودفع شرهم، أرى أن من الضرورة بمكان أن تكون لنا كلمة إنصاف في غمرة هذا الصراع، فإن الواجب يقتضينا أن لا نقتصر في الحكم على ردود الأفعال ونغمض العين عن أسبابها التي أدت إليها، فإن العلاج يجب أن لا يكون للنتائج مع إهمال المقدمات وعدم الاكتراث بالتوقي منها.

ومن المعلوم، أن من نظر نظرة فاحصة في أسباب هذا الغلو يجد أنهم لم يغالوا إلا بسبب ما قاسوه من الظلم والجور في ظل الحكم الأموي الجائر، ناهيك بما كان من اختيار حكام بني أمية لعمالهم من بين أكثر الناس شرورا وأقساهم قلوبا وأجرئهم على الله وأنساهم لعهده وأظلمهم لعباده، كمسرف بن عقبة وزياد بن أبيه وابنه عبيد الله والحجاج وأضرابهم، وكانت وصاياهم لهم أن لا يبالوا بسفك الدم الحرام ونهب الأموال وهتك المحارم، فإن هذه الأعمال بلا ريب أورثت أولئك عقدا نفسية أدت بهم إلى الإفراط في الاتجاه المعاكس، فحكموا على هؤلاء بأحكام أهل الشرك واستباحوا منهم ما لا يستباح إلا من المشركين.

وما هي إلا ردة فعل عنيفة لما كانوا يلقونه من العسف والجور والاستبداد، ولو أنهم أُنْصِفُوا في المعاملة لأَنْصَفُوا، ولا أدل على ذلك من كف أيديهم عن القتال عندما وجدوا الإنصاف في عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، إذ لم يكن منهم إلا مسالمته لما وجدوه من عدله، وهذا الذي حفظه لنا التأريخ، فقد قال الآجري: «لما بلغت الخوارج سيرة عمر

وما رد من المظالم، اجتمعوا فقالوا: ما ينبغي لنا أن نقاتل هذا الرجل»[١].

فكيف يشك مع هذا، أنهم لو وجدوا هذه السيرة من غيره وأنصفوا من قبل أولئك لكانوا أنصفوا من أنفسهم وحدوا من غلوائهم، وكفوا أيديهم عن مقاتلة أهل القبلة وأخذ أموالهم، ولكن العنف يولد العنف، والشر لا يعقبه إلا الشر، وقليلا ما يوجد العقلاء الذين يتحكمون في عواطفهم، ويسيطرون على حفائظهم عندما تغلى مراجل الغضب، فيتمكنون من الوقوف على خط الاعتدال، كما فعل ذلك طالب الحق وأبو حمزة وسائر القادة الذين ينتسبون إلى مدرستهم، وهذا من توفيق الله تعالى.

إِزَاحَةُ السِّتار عن شُبْهَةٍ تأريخيةٍ:

قد يقول قائل: بأن هذا الغلو متأصل عند أصحاب هذا الفكر، لأن المُحَكِّمَة الأولى عزي إليهم ما يثبت غلوهم.

وجوابه: أن المحكمة كانوا أكثر الناس دقة في تطبيق تعاليم الإسلام السمحة، وتجنب ما يؤدي إلى الغلو، وإنما ألصق بهم ما ألصق من الدعايات المغرضة تشويها لسمعتهم، وترويجا للسياسة القائمة على انتهاك الحرمات وبث الظلم، فإن بني أمية كانوا يرون في فكر المحكمة ما يزعزع استقرارهم ويهد أركانهم، لذلك لم يبالوا في نسبة العظائم إليهم وهم منها براء، كما لم يبالوا في وضع الأحاديث الكثيرة عن النبي ﷺ، للتشهير بهم بما هم أبعد ما يكونون عنه[٢].

(١) **أخبار أبي حفص عمر بن عبدالعزيز**، ص٦٣.

(٢) ينظر: في هذا كتاب «**الخوارج والحقيقة الغائبة**» لناصر بن سليمان السابعي، فقد تتبع الروايات التي عزيت إلى النبي ﷺ في أمر المحكمة، وبين عدم صحة أي شيء منها، كما زيف ما عزاه المؤرخون إليهم من الأحداث التي تشيب منها الرؤوس مع براءتهم منها.

ومما يؤكد أن المحكمة الأولى كانوا أبعد ما يكونون عن الغلو والعدوان على الأنفس والأموال، ما كان عليه بقاياهم ـ الذين سلموا من القتل في واقعة النهروان، كأبي بلال المرداس ابن حدير وأخيه عروة ـ من الاحتياط الشديد في تعاملهم حتى مع ألد خصومهم، فعندما فعل زياد ابن أبيه فعلته النكراء في البلجاء ـ رحمها الله ـ إذ قطع يديها ورجليها ورمى بها في السوق، مرَّ بها أبو بلال، فقال لأصحابه: «إن الإقامة على الرضا بالجور لذنب، وإن تجريد السيف وإخافة الناس لعظيم، ولكن نسير في أرض الله ولا نجرد سيفا، وإن أرادنا قوم بظلم امتنعنا منهم، فقالوا له: أنت سيد المسلمين وبقيتهم، فخرج في ثلاثين، فلقيه عبدالله بن رياح عامل عبيد الله على الجسر وكان صديقا لأبي بلال، وفي كتاب الأعلام: كان فاضلا، فراودهم على الرجوع فأبوا، فأتوا الأهواز فأصابوا أموالا تحمل إلى ابن زياد، فأخذوا عطيتهم وردوا الباقي، فبلغ عبيد الله خروجهم، فوجه إليهم أسلم بن زرعة في ألفين.

قال يونس بن أرقم: خرجنا في جيش نريد خراسان، فدخلنا دَرْبَاً بآسَكْ فيه ثلاثة أخبية، فإذا هو أبو بلال في ستة وثلاثين رجلا، فقال ابن عمي: السلام عليكم، قالوا: وعليك أمن هذا الجيش الذين يريدون قتالنا، قلنا: لا، قال: سلمكم الله أبلغوا من لقيتم أنا لم نخرج لنفسد في الأرض ولا نقاتل إلا من أكرهنا على قتاله، ولا نأخذ من الفيء إلا أعطيتنا، فبلغهم أسلم بآسك وهم في أربعين رجلا، فقالوا له: اتق الله، فإنا لا نريد قتالا، فما تريد؟ قال: أردكم إلى ابن زياد، قال: يقتلنا وتشاركه في دمائنا، قال: نعم دماؤكم حلال، وهو محق قالوا: اللهم إن كان كاذبا فانصرنا عليه، قال حريث بن حجل: يا عدو الله أمحقّ وهو يطيع الفجرة، ويقتل بالظنة، ويخص بالفيء، ويجور في الحكم؟!!.. فرموا رجلا من المسلمين فقتلوه، قال أبو بلال:

جاهــدوا ولتكــن إلــى الله رغبتكم، واســتعينوا بــالله واصبــروا، فحملوا فانهزم». اهـ[١].

وقد كان للفكر الإرجائي الذي بثــه بنو أمية وروجوا له بين الناس دفع قوي لترويج هذه الروايات الكاذبة من أجل تحقيق المكاسب السياسية، وقد خلت الســاحة من منافس لهم، فتمكنوا من ترويج ما شــاؤا من الأكاذيب وطمس ما شــاؤا من الحقائق، وقد انســاقت دهماء الناس وراء هواهم فلم يزعهم من القــرآن وازع مع كونه يتلــى بينهم، وقد حفــظ الله نصوصه أن يتطاولــوا عليهــا بالتحريف والتبديــل، ناهيكم بتجاهلهم نصــوص القرآن الصحيحة واجترائهم على زعــم أن الخلفاء لا حســاب عليهم ولا عقاب، وتواطؤ العدد الكبير منهم على الإدلاء بهذه الشهادة المزورة من غير حساب لافتضاحهم بما يدحضها من نصوص القرآن.. أويبقى في نفسك أيها القارئ الكريم اشتباه بعد هذا في أن ما روج له من شائعات تشوه حقيقة تلك الفئة وسلوكها إنما كان من نتاج هذه السياسة الجائرة؟!

وإذا كان عصرنا هذا ـ مع ما فيه من تنافس الأطراف، وعدم خلو الساحة لفئة بعينها، وتقارب العالم فيه بما تيسر من وسائل الإعلام والاتصال ـ تجد ذوي الأغراض من مراض القلوب لا يبالون فيه أن يزوروا الحقائق ويقلبوها رأسا على عقب، فيبرئوا المجرم ويجرموا البريء تحت سمع العالم وبصره من غير مبالاة بتعري الحقائق وانكشــاف الخفايا، فمــا بالك بذلك العصر الذي سادت فيه العالم الإسلامي قوة سياسية واحدة، تزلفت إليها الأمة إما لاتقاء بطشــها وإما للطمع في دنياها؟ أوتعجب بعد هــذا إن حاولت هذه القوة أن تشــوه صورة الأبرياء الذين تحذر أن تنكشــف للنــاس حقيقتهم الناصعة، فيتأثروا بها، وتعزو إليهم كل ساقطة من الدنايا؟!!

---

(١) كتاب **السير للشماخي**، ج١، ص٧٠.

إن العاقل بلا ريب يقيس الأمور بعضها ببعض، فيستنتج من أقيسته الحقائق:

وللشيء على الشيء مقاييس وأشباه

وإلى القارئ الكريم شاهدين مما ذكرته من الافتراء البين، وإلصاق الجرم بالبريء وتبرئة المجرم منه.

الشاهد الأول:

عندما قام شباب من غلاة الحشوية، وعلى رأسهم جهيمان العتيبي، باقتحام المسجد الحرام في غرة المحرم عام ١٤٠٠هـ، حاول الحشوية أن يستروا فضيحتهم هذه وأن يلصقوا هذا الأمر ـ زورا وبهتانا ـ بالإباضية أهل الحق والاستقامة، على رغم انكشاف عوارهم واشتهار فضيحتهم، فقد نشرت جريدة (الدستور) الأردنية في عددها ٤٤١٢، بتاريخ ١٩٧٩/١٢/٢٢م مقالاً تحت عنوان (متزمتون من البياضية)، جاء فيه: «صرح مصدر سعودي في باريس، أن أعضاء الجماعة التي احتلت المسجد الحرام، فجر أول شهر عام ١٤٠٠هـ هم من طائفة الخوارج، وهذه الطائفة متعصبة ومتزمتة، ويبلغ عددهم ستمائة ألف، وهم من البياضية، يسكنون الجزائر ومسقط وأفريقيا وتونس وليبيا وعُمان»!!

فلينظر العاقل إلى هذا الكذب، كيف اجترأوا على صياغته وإخراجه في هذه الصورة!! مع أن الحقائق أظهر من أن تستر، إذ لا يمكن أن تواريها الأهواء، كما لا تواري أكف المغرضين ضياء الشمس عن الأبصار في رابعة النهار، فالعالم كله يدرك أن القائمين بهذه الجريمة هم من أصحاب هذه الدعوة أنفسهم، ورغم وجود دعوتهم في هذه البلاد التي ذكروها فإنه لم يشترك منها أحد قط في ارتكابها، ومعظم مرتكبيها هم من حشوية المملكة

العربية السـعودية، وفيهم من بعض البلاد الأخرى غير البلاد التي ذكروها، وكان الرأس المدبر لهذه الجريمة هو جهيمان العتيبي الذي ذكرته، وهو من قبيلة عتيبة المشهورة عندهم، فكيف سوغوا لأنفسهم أن يظهروا بهذه الفرية من غير اسـتحياء من الخالق ولا الخلـق، وكفى بذلك شـاهدا على عدم تورعهم أو اسـتحيائهم من مواراة الحقائق وتجريم البريء بما لم يكن منه على بال.

الشاهد الثاني:

كتب محمد بن سعد الشـويعر كتابا، سماه (تصحيح خطأ تأريخي حول الوهابية)، حاول فيـه أن يلصق جرائم الوهابية وفضائحها التي سـارت بها الركبان وتناقلتها الألسـن والأقلام بالإمـام عبدالوهاب بن عبدالرحمن بن رسـتم وأصحابه، مبرئا أصحابها منهـا، وكان مما قاله في هـذا: «كنت قد أخرجت كتابا صغيرا، باسم «تصحيح خطأ تاريخي حول الوهابية»، يقع في ١١٠ صفحات تقريبا، وطبع للمـرة الأولى بتطوان بالمغرب عام ١٤٠٧هـ، وطبعته دار المعارف بالرياض الطبعة الثانية عام ١٤١٣هـ، أوضحت فيه بأن خصوم دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وأعداء دين الله الحق، من أرباب المصالح الدنيويـة ممن يريد إطفاء نور الله، والتصـدي لمن يريد أن يحقق التوحيد الذي أمر به الله، وأرسـل به رسـله من أولهم إلـى آخرهم: دعوة وتطبيقا وتنقية من مداخل الشرك.

فوجدوا دعوة خارجية إباضية في شمال إفريقيا، نشأت في القرن الثاني الهجري، باسـم الوهابية، نسـبة إلى عبدالوهاب بن عبدالرحمن بن رستم الخارجي الإباضـي، ووجدوا فتاوى مـن علماء المغـرب والأندلس ممن عاصرها، أو جاء بعدها، فأرادوا شـيئا عاجلا يحقق الغرض وينهض الهمم

لإسكات الدعوة الجديدة، خوفا من توسع الدائرة الإسلامية، حيث قامت الدولة السعودية الأولى مناصرة للدعوة التي قام بها الشيخ محمد بن عبدالوهاب ـ فتصافحت يدا الإمامين: محمد بن سعود ومحمد بن عبدالوهاب رحمهما الله في عام ١١٥٧هـ، على القيام بهذه الدعوة، نصرة لدين الله وأداء لأمانة التبليغ. فوفق الله، ولقيت الدعوة قبولا وتأييدا حيث امتدت إلى العالم الإسلامي كله، وتأثر بها العلماء والحجاج، وبدأوا في نشرها ببلادهم..

فخاف المنتفعون دنيويا من آثارها، ووجدوا الضالة في الوهابية الرستمية المدفون خبرها في سجلات التأريخ، فنبشوا في فتاوى العلماء حولها.. وكانت فرصة بإلباس الثوب القديم للدعوة الجديدة، ووجدت الإشاعة صدى في النفوس؛ لأن أرباب المنافع الدنيوية جهدوا في التمويه والتشويه، والناس عادة يتلقفون الكذب أكثر من اهتمامهم وتحريهم للصدق. ولذا فإن للإشاعات دورا كبيرا في تغيير المفاهيم، ووضع تصورات تغاير الواقع.. بحسن نية أو سوء فهم.. وفي حدود ١٤٠٧هـ كان نقاش علمي مع أحد علماء المغرب حول دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ حقق نتيجة مرضية وصحح مفهوما تأريخيا سائدا، وقد رغَّب إليَّ أكثر من أخ كريم، ذكر سبب تأليف تلك الرسالة كتابياً، حيث تبقى حية لمن يريدها...». اهـ[1].

وقد ضمن كتابه هذا من الافتراء وتزوير الحقائق ما يأباه كل لبيب أن ينسب إليه، غير مبال بانكشاف فضيحته، ولا عجب؛ فإن الحياء فطرة لا تكون إلا في الأسوياء، أما من تعفنت فطرته وانطمست بصيرته فلا يعجب إن حرم من نعمة الحياء، وقد صدق رسول الله ﷺ القائل: «إن مما أدرك

---

(١) **تصحيح أثر تأريخي حول الوهابية**، محمد بن سعد الشويعر، ص٩، الطبعة: الثالثة، ١٤١٩هـ.

الناس من كلام النبوة الأولى، إذا لم تستحي فاصنع ما شئت»[١]، فإن الحياء إنما يحجز العقلاء من التلطخ برجس الزور والفحشاء.

وقد كان العرب في جاهليتهم يربأون بأنفسـهم أن يسجل عليهم كذب اتقاء لعاره، وإن كانوا غير مؤمنين بالله واليوم الآخر، ناهيك أن أبا سـفيان عندما كان يجيب هرقل عما يسـأله عنه من أحوال النبي ﷺ أبى أن يكذب، لا خشـية أن يكذبه قومه، ولكن خشـية أن يعثروا على كـذب في كلامه فيحفظوه عنه، كما قال: «فـوالله، لو قد كذبت مـا ردوا علي، ولكني كنت امرءا سيدا أتكرم عن الكذب، وعلمت أن أيسـر ما في ذلك، إن أنا كذبته، أن يحفظوا ذلك عني، ثم يتحدثوا به، فلم أكذبه»[٢].

ونجد السموأل اليهودي يسـتهجن تحريف الحقائق، لأنه عاش في بيئة عربية، فتخلق بأخلاقها لذلك قال:

إنـا إذا مالت دواعـي الهوى ... وأنصـت السـامع للقائـل

لا نجعـل الباطـل حقـا ولا ... نلـظ دون الحـق بالباطـل

نخـاف أن تسـفه أحلامنـا ... فنخمـل الدهـر مـع الخامل

وإذا كان هذا شـأن أهل الجاهليـة، فما بالك بالذي يتقمص الإسـلام ويدعي بأنه يؤمن بـالله واليوم الآخر لا يبالي بتحريـف الحقائق في كتاب ينشـر ويطبع ويتناقل جيلا بعد جيل، مع أن الحقيقة تأبى أن يواريها الإفك ويطمسها الهوى، كما لا توارى الشمس في رابعة النهار بأكف الجاحدين.

(١) أخرجه أحمد من طريق حذيفـة (٥/٣٨٣، رقم ٢٣٣٠٢). والبزار (٧/٢٥٦، رقم ٢٨٣٥). قـال الهيثمي (٨/٢٧): رجالـه رجال الصحيح. ومـن طريق أبي مسـعود: أخرجه أحمد (٤/١٢١، رقم ١٧١٣١)، والبخـاري (٥/٢٢٦٨، رقم ٥٧٦٩)، وأبـو داود (٤/٢٥٢، رقم ٤٧٩٧)، وابن ماجه (٢/١٤٠٠، رقم ٤١٨٣).

(٢) **فتح الباري**، ج١، ص٣٥.

ولست بصدد تتبع ترهاته التي ملأ بها كتابه، وفَضْحِهَا ببيان زيفها، فإن هذا أمر تكفل به ما في الكتاب نفسه من زيف، ولو أردت ذلك لعنيت بالرد عليه منذ بروز تلفيقاته في كتابه، ولكني أردت التنبيه على الحقائق التي تجاهلها، وهي أظهر من أن يتجاوزها الجهل أو التجاهل، فقد تولى الرد على الوهابية ـ منذ بداية ابتلاء الأمة بها ـ علماء، سجلوا كلمة الحق وكشفوا ما تنطوي عليه هذه النحلة من انحراف شوَّه صورة الإسلام، وهم أكثر من أن يحصوا.

وقد كان أوّلَ هؤلاء أخو رائد هذه الدعوة سليمان بن عبدالوهاب في كتابه المشهور (الصواعق الإلهية في الرد على الوهابية)، وقد نادى فيه على أتباع هذه النحلة بالجهل الفاضح والانحراف البين، وكان مما قاله: «ومما يدل على بطلان مذهبكم ما في الصحيحين، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ، أنه قال: «رأس الكفر نحو المشرق»[(١)]، وفي رواية «الإيمان يماني، والفتنة من هاهنا حيث يطلع قرن الشيطان»[(٢)]، وفي الصحيحين أيضا عن ابن عمر رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ، أنه قال وهو مستقبل المشرق «إن الفتنة هاهنا»[(٣)]، وللبخاري عنه مرفوعا: «اللهم بارك لنا في شامنا ويمننا، اللهم بارك لنا في شامنا ويمننا»، قالوا: أوفي

---

(١) أخرجه مالك (٩٧٠/٢، رقم ١٧٤٣)، والبخاري (١٢٠٢/٣، رقم ٣١٢٥)، ومسلم (٧٢/١، رقم ٥٢). وأخرجه أيضا: أحمد (٥٠٦/٢، رقم ١٠٥٨٧)، وأبو يعلى (٢٢٦/١١، رقم ٦٣٤٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٩٣/٣، رقم ٣٣٢٠)، ومسلم (٢٢٢٩/٤، رقم ٢٩٠٥). وأخرجه أيضا: ابن أبي شيبة (٤٠٧/٦، رقم ٣٢٤٤٠)، وأحمد (٢٣/٢، رقم ٤٧٥١).

(٣) أخرجه مالك (٩٧٥/٢، رقم ١٧٥٧)، والبخاري (١٢٩٣/٣، رقم ٣٣٢٠)، ومسلم (٢٢٢٨/٤، رقم ٢٩٠٥). وأخرجه أيضا: أحمد (١٢١/٢، رقم ٦٠٣١)، وأبو نعيم في الحلية (٣٤٨/٦).

نجدنا؟ قال: «اللهم بارك لنا في شامنا ويمننا»، قالوا: وفي نجدنا؟ قال الثالثة: «هناك الزلازل، والفتن، ومنها يطلع قرن الشيطان»[1]، ولأحمد من حديث ابن عمر مرفوعا: «اللهم بارك لنا في مدينتنا وفي صاعنا وفي مدنا ويمننا وشامنا» ثم استقبل مطلع الشمس، فقال: «هاهنا يطلع قرن الشيطان»، وقال: «من هاهنا الزلازل، والفتن»[2]. اهـ

أقول ـ القائل سليمان بن عبدالوهاب ـ: أشهد أن رسول الله ﷺ لصادق، فصلوات الله وسلامه وبركاته عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين، لقد أدى الأمانة وبلغ الرسالة، قال الشيخ تقي الدين: «فالمشرق عن مدينته ﷺ شرقا، ومنها خرج مسيلمة الكذاب، الذي ادعى النبوة وهو أول حادث حدث بعده، واتبعه خلائق، وقاتلهم خليفته الصديق». اهـ، وجه الدلالة من هذا الحديث من وجوه كثيرة نذكر بعضها.

منها: أن النبي ﷺ ذكر أن الإيمان يماني والفتنة تخرج من المشرق، ذكرها مرارا.

ومنها: أن النبي ﷺ دعا للحجاز وأهله، وأبى أن يدعو لأهل المشرق لما فيه من الفتن، خصوصا نجد.

ومنها: أن أول فتنة وقعت بعده ﷺ وقعت بأرضنا، ونقول: هذه الأمور ـ التي تجعلون بها المسلم كافرا بل تكفرون من لم يكفره ـ ملأت مكة

(١) أخرجه أحمد (١١٨/٢، رقم ٥٩٨٧)، والبخاري (٣٥١/١، رقم ٩٩٠)، والترمذي (٧٣٣/٥، رقم ٣٩٥٣) وقال: حسن صحيح غريب. وأخرجه أيضا: ابن حبان (٢٩٠/١٦، رقم ٧٣٠١).

(٢) أخرجه أحمد (١١٨/٢، رقم ٥٩٨٧)، والبخاري (٣٥١/١، رقم ٩٩٠)، والترمذي (٧٣٣/٥، رقم ٣٩٥٣) وقال: حسن صحيح غريب. وأخرجه أيضا: ابن حبان (٢٩٠/١٦، رقم ٧٣٠١).

والمدينة واليمن من سـنين متطاولة، بل بلغنا أن ما في الأرض؛ أكثر من هذه الأمور في اليمن والحرميـن، وبلدنا هذه هي أول ما ظهر منها الفتن، ولا نعلم في بلاد المسـلمين أكثر مـن فتنها قديما وحديثـا، وأنتم الآن مذهبكم، أنه يجب على العامة اتباع مذهبكم وأن من اتبعه ولم يقدر على إظهاره في بلده وتكفير أهل بلده وجب عليه الهجرة إليكم، وأنكم الطائفة المنصورة، وهذا خلاف هذا الحديث، فإن رسـول الله ﷺ أخبره الله بما هو كائن على أمته إلى يوم القيامة، وهو ﷺ أخبر بما يجري عليهم، ومنه فلو علم أن بلاد المشـرق ـ خصوصا (نجد) بلاد مسـيلمة ـ أنهـا تصير دار الإيمـان وأن الطائفة المنصـورة تكون بها، وأنها بلاد يظهـر فيها الإيمان ويخفى في غيرها، وأن الحرمين الشـريفين واليمن تكـون بلاد كفر تعبد فيهـا الأوثان وتجب الهجـرة منها، لأخبـر بذلك ولدعا لأهل المشـرق خصوصا (نجد)، ولدعا على الحرمين واليمن وأخبر أنهم يعبدون الأصنام وتبرأ منهم إذ لم يكن إلا ضد ذلك. فإنه ﷺ عم المشـرق وخص (نجدا) بأن منها يطلع قرن الشـيطان، وأن منها وفيها الفتن، وامتنع من الدعاء لها وهذا خلاف زعمكم، وأن اليوم عندكم الذي دعا لهم الرسـول ﷺ كفار، والذين أبى أن يدعو لهم وأخبر أن منها يطلع قرن الشيطان وأن منها الفتن هي بلاد الإيمـان تجب الهجرة إليها، وهذا بيـن واضح من الأحاديث إن شاء الله». اهـ[١].

فليت شعري؛ هل يرى الشـويعر أن سليمان بن عبدالوهاب يرد بكلامه هذا على عبدالوهاب ابن عبدالرحمن بن رستم؟! وهل كان هذا بأرض نجد حتى يقول فيه ما قال، أو أن الهوى يعمي ويصم؟!.

---

(١) **الصواعق الإلهيـة في الرد على الوهابية**، سـليمان بن عبدالوهاب النجدي، ص٤٣ ـ ٤٤، الطبعة الثالثة، المكتبة التخصصية في الرد على الوهابية.

ولسليمان بن عبدالوهاب أيضا كتاب آخر بعنوان (فصل الخطاب في الرد على محمد بن عبدالوهاب).

وقد توالت الردود على هذه الفئة وما بثته في الأرض من فتنة عمياء حيث حكمت على أبناء الإسلام ـ الذين يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا ﷺ رسول الله، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويصومون رمضان ويحجون البيت ـ بأحكام المشركين فاستباحت دماءهم وأموالهم بغير حق، بل جاهروا بتشريكهم، وخلع ربقة الإسلام عن أعناقهم، ولم يرعوا حقا لكلمة التوحيد ولا لإقامة شعائر الدين، وإليك طائفة من الذين أنكروا فتنتهم وحاربوا دعوتهم:

١ ـ السيد أحمد زيني دحلان مفتي الحرم الشريف في كتابه (الدرر السنية في الرد على الوهابية)، وفي كتابه: (فتنة الوهابية) وفي كتابه (خلاصة الكلام في أمراء البلد الحرام).

٢ ـ صائب عبدالحميد في كتابه (الوهابية في صورتها الحقيقية).

٣ ـ جميل حليم في كتابه (جلاء الظلام في الوهابية التي ضللت العوام).

٤ ـ سعيد الرحمن التيراهي في كتابه (الحبل المتين في اتباع السلف الصالحين).

٥ ـ غيث الغالبي في كتابه (وقفات وإيضاحات مع كشف الشبهات).

٦ ـ إسماعيل التميمي المالكي التونسي، في كتابه (رد على محمد بن عبدالوهاب).

٧ ـ الفقيه الحنبلي عبدالمحسن الأشقري في كتابه (الرد على الوهابية).

٨ ـ الشيخ إبراهيم بن عبدالقادر الرياحي التونسي المالكي في كتابه: (رد على الوهابية).

٩ ـ الشيخ سلامة القضاعي الشافعي في كتابه (البراهين الساطعة في رد بعض البدع الشائعة).

١٠ ـ مالك داود في كتابه (الحقائق الإسلامية في الرد على الوهابية بأدلة الكتاب والسُّنَّة النبويّة).

١١ ـ الشيخ محمد بن عبدالرحمن الحنبلي في كتابه (تهكم المقلدين بمن ادعى بتجديد الدين).

١٢ ـ الشيخ إبراهيم الراوي في كتابه (الأوراق البغدادية في الحوادث النجدية).

١٣ ـ الخواجه السرهندي في كتابه (الأصول الأربعة في ترديد الوهابية).

١٤ ـ الأستاذ حسيني حلمي أيشيق في كتابه (علماء المسلمين والوهابيون).

١٥ ـ الشيخ داود بن سليمان البغدادي في كتابه (صلح الأخوان في الرد على من قال بالشرك والكفران).

١٦ ـ الشيخ جميل صدقي الزهاوي في كتابه (الفجر الصادق).

١٧ ـ الشيخ أبو حامد مرزوق في كتابه (السيف الباتر لعنق المنكر على الأكابر).

١٨ ـ الشيخ إبراهيم بن عثمان السمنودي، في كتابه (سعادة الدارين في الرد على الفرقتين الوهابية ومقلدة الظاهرية).

١٩ ـ الشيخ إبراهيم حلمي في كتابه (جلال الحق في كشف أحوال شرار الخلق).

٢٠ ـ محمد عطاء الله في كتابه (الأقوال المرضية في الرد على الوهابية).

٢١ ـ شاه فضل رسول القادري في كتابه (سيف الجبار المسلول على أعداء الأبرار).

٢٢ ـ السيد محسن أمين في كتابه (كشف الارتياب في أتباع محمد بن عبدالوهاب).

وغير هؤلاء كثير أكثر من أن يحصوا، بل الردود عليهم لم تتوقف منذ نشأتهم إلى وقتنا هذا، فهل يرى الشويعر أن هؤلاء قصدوا بردودهم الإباضية أصحاب عبدالوهاب بن عبدالرحمن ابن رستم، وإنما أخطأ الفهم فظن الناس أنهم يردون على وهابية نجد!! مع أننا نجد النصوص واضحة في كونهم استهدفوا بردودهم الدعوة التي قام بها محمد بن عبدالوهاب في نجد، فقد نص على ذلك كل هؤلاء الذين ردوا عليهم وأنكروا فتنتهم وفضحوا بدعتهم، وقد نص غير واحدٍ على أنهم امتداد لغلاة الخوارج الذين استعرضوا أهل القبلة بالسيف، واستباحوا أموالهم وأعراضهم وحكموا عليهم بأحكام المشركين.

ودونك ما قاله في هذا، الصاوي في حاشيته على الجلالين، بعدما ذكر ما قيل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، ثم قال: «وقيل، الآية نزلت في الخوارج الذين يحرفون تأويل الكتاب والسُّنَّة، ويستحلون بذلك دماء المسلمين وأموالهم، كما هو مشاهد الآن في نظائرهم، وهم فرقة بأرض الحجاز يقال لهم الوهابية، يحسبون أنهم على شيء، ألا إنهم هم الكاذبون، ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩]، نسأل الله الكريم أن يقطع دابرهم». اهـ[1].

ومثله قول ابن عابدين في حاشيته: «كما وقع في زماننا في أتباع

---

(١) **حاشية الصاوي على الجلالين**، ج٣، ص٢٥٥، دار إحياء الكتب العربية، لأصحابها عيسى البابي الحلبي وشركائه.

عبدالوهاب، الذين خرجوا من نجد، وتغلبوا على الحرمين، وكانوا ينتحلون مذهب الحنابلة، لكنهم اعتقدوا أنهم هم المسلمون، وأن من خالف اعتقادهم مشركون، واستباحوا بذلك قتل أهل السُّنَّة وقتل علمائهم، حتى كسر الله تعالى شوكتهم وخرب بلادهم، وظفر بهم عساكر المسلمين عام ثلاث وثلاثين ومائتين وألف». اهـ[١].

ونحن نتفق مع هؤلاء الرادين عليهم في إنكار غلو هؤلاء الوهابية واستعراضهم الناس بالسيف واستباحتهم من أهل القبلة ما لا يستباح إلا من المشركين، وإن كنا لا نتفق مع كل ما اشتملت عليه هذه الردود من الآراء والاتجاهات، ولكل وجهة هو موليها، وإنما المهم الإنصاف في النظرة إلى كل وجهة وصاحبها، بحيث لا يتجاوز فيها حدود العدالة التي شرعها الله بين الناس وفرضها على المؤمنين بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨].

دَوْرُ عُلَمَاءِ الإباضِيَّة في كشف طَوَايا الدَّعْوَة الوَهَّابية:

لقد شارك الإباضية إخوانهم المسلمين في إنكار هذا الباطل وتسفيه هذا الضلال، وكان ممن عاصر نشأة هذه الدعوة العلامة الكبير الإمام **أبو نبهان** رَحِمَهُ اللَّهُ، فألف العديد من الرسائل والكتب في تحذير الأمة من فتنة هذه الدعوة، وكان مما قاله في ذلك: «إن هي إلا فتنة ابن الأزرق في

(١) **حاشية رد المختار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار**، محمد علاء الدين بن محمد أمين بن عمر، المدعو ابن عابدين، ج٤، ص٢٦٢، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، بيروت.

الأولين، أحياها محمد بن عبدالوهاب في الآخرين، فوازره على بثها من قد أظهرها فدعا إليها وقاتل عليها، فهي هي ما أكبرها من غير ما شكٍّ عند من أبصرها، طوبى لمن أعرض عنها فاعتزلها والويح لمن دخلها أو رضي عمن فعلها أو قدر أن يمحو أثرها فتركها وضررها، إلا لما به يعذر لأنها من أنواع جنس الباطل في الإجماع، لا جواز لها في دين ولا رأي أحد من المسلمين.

أولا تسمع بالذي بين الصحابة قد جرى يوم الدار والجمل وصفين، وما بعدها من الوقائع في التابعين؟ فإن فيه دليلا لمن يرى أنهم لا يشركون أهل قبلتهم، لأنهم لم يجاوزوا في قتالهم لمن بغى في دينونة أو انتهاك لما دان بتحريمه، ما قد أحله الله منهم إلى ما زاد عليه في المشركين من سبي ذرية ولا غنيمة مال ولا قطع موارثة ولا منع مناكحة ولا تحريم ذبيحة ولا إباحة ذات بعل، كلا بل اقتصروا على ما أذن به مولاهم ﷻ فأمرهم به حتى يفيئوا إلى أمره تعالى، لا غيره، في موضع فرض ولا نفل لبقاء ما لهم من حكم الإقرار، المقتضي في كونه لوجود بُعْدِهِم من الإنكار، الداعي إلى شرك الجحود وما به يكون الشرك من أنواع الكنود، لولا هذا لما استجازوا منهم ما لا يجوز من المشركين حال المحاربة أو قبلها أو بعدها ولا جاز لهم أن يبطلوا ما لغيرهم من الغنيمة في الحق فيضيعوا، ألا وإن من حقهم أن يحاشوا من هذا كله لعدم عدله.

ومن العجب في هؤلاء المتوهبين أنهم من جهلهم يشركون الناس قبل المعرفة بالذي هم عليه، وإذا جاز هذا لهم فأي مانع من جوازه لغيرهم فيهم قبل أن يصح معهم إسلامهم، فإن أبوا فهي المكابرة تحكما لعدم الفرق أن لو جاز، ولكنه لا يجوز بالحق لأن من حكم بمثل هذا على الغيب في شيء فلا مخرج له من العيب على حال، في نفس ولا مال.

أوليس قد كان على عهد النبي ﷺ أناس من أهل المعاصي في نفاق

أخبره الله بهم، فلم يخرجهم في شــيء من حكم المقرين، وإن لم يكن لهم ولاية فــي الجملة ولا عند من ظهــر له وصح معه ما هم بــه، بلى؛ إلا ما خص به فيهم من النهي له أن يصلي على مــن مات منهم أو أن يقوم على قبره دون غيره من المسلمين، لأن لهم في الحقوق والحدود مثلهم من غير فرق بينهــم ولو أنهــم قد بلغ بهــم إلى الشــرك لأفردهم بمــا لأهله من الخصوص من حكم في دين الإسلام، ولمنعهم النبي ﷺ بعد عام تسع من الهجرة وعلى قول آخر سنة حجة الوداع من أن يقربوا المسجد الحرام، وكل هذا لم يكن على عهده ﷺ، فأنى يجوز أن يصح جوازه من بعده، وإن كانوا في محل البراءة نازلين، أم جاز ونحن لا نعلم أن يأمره الله به فعلا فيتركه أو أن يظهره قولا فيكتمه، قل هاتوا برهانكم يا معشــر الوهابيين إن كنتم على ما تدعون من هذا صادقين.

ألا وإن من عجائبكم يا هــؤلاء أنكم على الخوارج تنكرون وأنتم بدين المارقة في هذا دائنون، وعلــى الله في تحليله تفتــرون، إنهم على مروقهم لإخوانكم في الدين، فلم لهم تكفرون ما لكم كيف تحكمون؟ لو شــئنا أن نورد على ما به من قــول الله تختصمون لأتينا فيه بما يــدل على أنكم في تأويله عن طريق الرشد ناكبون، إني لأراكم عن بصيرة قوما تجهلون، بدليل ما بأقوالكم من بعــد عن الصواب في عيــن من له أدنى بصــر نافذ، أفلا تعقلون؟ فاتقوا الله أن تقولوا ما لا تعلمون، من ذا الذي قد أجاز هذا قبلكم فاســتدل على تجويزه خطأ بمثل ما به قد اســتدللتم غير ابن الأزرق؟! فلم يوافقه على ما أحدثه في أيامه أحد من الفــرق، لأنه في باطله أظهر من أن يخفى على من له قلب يبصر، والحمد لله على ما هدى وله الحمد على كل حال في الآخرة والأولى». اهـ[١].

---

(١) من **مخطوطة بيد المؤلف**، لأبي نبهان في الرد على الوهابية.

وقال أيضا: «يا قومنا مالي أراكم قد أظهرتم اللجاج في دعاء الناس إلى هذا المنهاج، فأكثرتم من التلبيس على الضعفاء لما به من الحجاج، أفترونه صراطا مستقيما ونحن نراه ظاهر الاعوجاج، إذ قد شركتم من كان على غير ما به أنتم متأولين من قول الله رب العالمين ما لم تحيطوا به علما، فسفكتم دماءهم عدوانا وظلما وأكلتم بالباطل أموالهم غنما، واستحللتم سبي ذراريهم واتخذتم ولدانهم عبيدا، ووطئتم فروج نسائهم سفاحا، فأتيتم منه عظيما، وزعمتم أن الحق في أيديكم فأطلقتم محظورا وحجرتم مباحا، أما آن لكم أن ترجعوا إلى سماع من ينهاكم عن هذا الفساد؟ يريد لكم النجاة فيهديكم إلى سبيل الرشاد، ويحثكم إلى الرجوع إلى ربكم خوفا من عذابه الأليم في الجحيم، وطمعا فيما عنده من النعيم المقيم». اهـ[1].

وقال أيضا: «ألا وإن الوهابية كأنها تزعم في مذهبها أنها حنبلية!! وليست كذلك، لأن لهم في تشريك أهل القبلة واستحلال قتالهم وسبي ذراريهم وغنيمة مالهم، شوبا من الأزارقة، وفي هذا ما دل على أنهم لا من الحنابلة ولا الأزارقة بالكلية، فإن كانوا خلطوه من هذا وذلك، فاتخذوه من بينهم مذهبا لهم، فعسى أن يكون كذلك». اهـ[2].

وممن اعتنى بالرد عليهم تلميذ الإمام المذكور وابن ابن أخيه، الشيخ **العلامة منصور بن محمد بن ناصر بن خميس الخروصي**، ومن تآليفه في هذا رده الواسع على كتاب الشبهات، الذي ألفه رائد هذه الدعوة محمد بن عبدالوهاب.

وقد اشتهرت الوهابية فيما مضى عندنا بعُمان بالأزارقة، لعدم الفرق

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق.

بينهم وبين الأزارقة في استعراض المسلمين بالسيف، واستباحة ما لا يستباح إلا من أهل القبلة منهم، وفي هذا يقول الإمام السالمي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «وتعرفهم العامة بالأزارقة، لأنهم شابهوا الأزارقة في تشريك أهل القبلة، فلم تفرق العامة بينهم وبين الأزارقة، وهم إنما أخذوا من الأزارقة مسألة التشريك، ومن الحنابلة مسألة التشبيه؛ وأخذوا من كل مذهب أغثه، وقالوا قد أصبنا دينا كما صنعت الصابئة، وكان اعتقاد الوهابية في المسلمين أسوأ اعتقاد»[1].

ثُبُوتُ تَشْرِيك الوَهَّابيّة لأهل القِبْلَة في نُصُوصِ عُلمائها:

هذا؛ ولم يكن ما نسب إليهم من تشريك أهل القبلة وإخراجهم من ملة الإسلام وإلحاقهم بعبدة الأوثان دعوى ألصقت بهم من غير أن يقوم عليها برهان، فإن مؤلفاتهم طافحة بالنصوص الجلية الدالة على أن هذا هو اعتقادهم في هذه الأمة، فكم تجد في مراسلاتهم من إطلاق وصف الشرك على أهل التوحيد، ومن ذلك ما جاء في رسالة عبداللطيف بن عبدالرحمن إلى حمد بن عتيق، التي قال فيها:

«وبعد ذلك: أتانا النبأ الفادح الجليل، والخطب الموجع العظيم، الذي طمس أعلام الإسلام؛ ورفع الشرك بالله وعبادة الأصنام، في تلك البلاد، التي كانت بالإسلام ظاهرة، ولأعداء الملة قاهرة، وذلك بوصول عساكر الأتراك، واستيلائهم على الأحساء والقطيف، يقدمهم طاغيتهم (داود بن جرجيس) داعيا إلى الشرك بالله، وعبادة إبليس. فانقادت لهم تلك البلاد، وأنزلوا العساكر بالحصون والقلاع، ودخلوها بغير قتال ولا نزاع، فطاف بهم إخوانهم من المنافقين، وظهر الشرك برب العالمين، وشاعت مسبة أهل التوحيد والدين»[2].

---

(١) **تحفة الأعيان**، ج٢، ص٢٧٨.

(٢) **الدرر السنية في الأجوبة النجدية**، علماء نجد الأعلام، ج٨، ص٣٩٣، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ط٦.

وسئل محمد بن عبد اللطيف وسليمان بن سحمان وصالح بن عبد العزيز ومحمد بن إبراهيم ابن عبد اللطيف وكافة علماء العارض عن العجمان والدويش ومن تبعهم، حيث خرجوا من بلدان المسلمين يدعون أنهم مقتدون بجعفر بن أبي طالب وأصحابه رضي الله عنهم، حيث خرجوا من مكة مهاجرين إلى الحبشة، فأجابوا: «هؤلاء الذين ذكرهم السائل، وهم العجمان والدويش ومن تبعهم، لا شك في كفرهم وردتهم، لأنهم انحازوا إلى أعداء الله ورسوله، وطلبوا الدخول تحت ولايتهم، واستعانوا بهم، فجمعوا بين الخروج من ديار المسلمين، واللحوق بأعداء الملة والدين، وتكفيرهم لأهل الإسلام، واستحلال دمائهم وأموالهم.

إلى أن قال: وأما قول السائل: إنهم يدعون أنهم رعية الأتراك، ومن الأتراك السابقين، وأنهم لم يدخلوا تحت أمر ابن سعود وطاعته، إلا مغصوبين، فهذا أيضا من أعظم الأدلة على ردتهم، وكفرهم»[1].

وجاء في جوابهم أيضا: «وأما الدهينة، والخضري، وولد فيصل بن حميد، وأتباعهم، الذين قدموا من عند ولد الشريف، يدعون إلى ولايته، فهؤلاء لا شك في ردتهم والحال ما ذكر، لأنهم دعاة إلى الدخول تحت ولاية المشركين، فيجب على جميع المسلمين جهادهم وقتالهم، وكذلك من آواهم ونصرهم، فحكمه حكمهم»[2].

وهي نصوص دالة بلا ريب على أنهم يعدون من خالفهم من أهل الشرك، ولو أتى بأركان الإسلام الخمسة، وحافظ على شعائره، ناهيك بما جاء من النص على أن رائد هذه الدعوة إنما قاتل من قاتله لأجل ترك

(١) المرجع السابق، ج٨، ص٣٩٣.

(٢) المرجع السابق، ج٨، ص٢١٤.

الشرك، ففي الدرر السـنية ما نصه: «والشيخ محمد بن عبدالوهاب قاتل من قاتله، ليس لكونهم بغاة، وإنما قاتلهم على ترك الشرك وإزالة المنكرات»[١].

وهذا ما نص عليه أحدهم بقوله: «فلقد ظهر هذا الشيخ المجدد المجتهد ـ يعني محمد بن عبدالوهاب ـ في وقت كان أهله شرا من حال المشركين، وأهل الكتاب في زمن البعثة، من شرك وخرافات، وبدع وضلالات، وجهالة غالبة؛ فدعا إلى عبادة الله وحده، والرجوع إلى أصل الإسـلام، فأعاد نشـأة الإسلام كما كانت»[٢].

وهو ظاهر في كونهم يعتقدون أن جميع الناس كانوا على الشرك قبل أن تظهر دعوتهم!!.

وقال غيره: «إذا علمت هذا، وعلمت ما عليـه أكثر الناس، علمت أنهم أعظم كفراً وشركاً من المشركين، الذين قاتلهم رسول الله ﷺ»[٣].

تَطْبِيقُ الوَهَّابيّة أحكامَ أَهْلِ الشِّرْك على الأمّة في قتالهم لَها:

لم يقتصر الوهابية في إطلاق حكم الشـرك على أهل القبلة على التنظير فحسـب، وإنما طبقـوا عليهم أحكام أهل الشـرك في مقاتلتهـم لهم، إذ لم يقتصروا على اسـتباحة دمائهم، بل استباحوا مع ذلك أموالهم، فعدوها غنائم توزع على مقاتلتهم، كما تـوزع الغنائم المأخوذة من أموال المشـركين بعد تخميسها، وقد عدوا هذا من أمجادهم التي رفعوا عقيرتهم بالمفاخرة بها، فقد ألف أحد رجالهـم الذين يعدونهم من علمائهم ـ وهـو عثمان بن عبدالله بن

(١) المرجع السابق، ج١٢، ص٩.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص١٨.

(٣) المرجع السابق، ج١، ص١٤٨.

بشر النجدي الحنبلي الذي عاصر كثيرا من أحداثهم ـ كتابا مشتملا على أنباء ثوراتهم، سماه: (**عنوان المجد في تأريخ نجد**) يجد فيه القارئ من الجرأة على سفك الدماء ونهب الأموال باسم الدين ما يذهب بلبه.

وإلى القارئ الكريم مقتطفات من نصوص هذا الكتاب، تبرز حقائق اعتقادهم في الأمة، من ذلك قوله: «فأول جيش غزا سبع ركائب، فلما ركبوها وأعجلت بهم النجائب في سيرها سقطوا من أكوارها، لأنهم لم يعتادوا ركوبها، فأغاروا ـ أظنهم ـ على بعض الأعراب فغنموا ورجعوا!!»[١].

وذكر عن شيخه محمد بن عبدالوهاب أنه قضى من دينه أربعين ألف محمدية من غنائم الرياض!! قال: «وكان لا يمسك على درهم ولا دينار، وما أتى إليه من الأخماس والزكاة يفرقه في أوانه، وكان يعطي العطاء الجزيل، بحيث إنه يهب خمس الغنيمة العظيمة لاثنين أو ثلاثة»[٢].

وقال: «وفيها غزا عبدالعزيز السدير، وعدا على جلاجل، وأخذ سوارح غنمهم، وحصل بينهم قتال، فقتل منهم ستة رجال!!».[٣] وقال: «ثم غزا عبدالعزيز إلى الخرج، فأوقع بأهل الدلم، وقتل من أهلها ثمانية رجال!! ونهبوا فيها دكاكين فيها أموال».[٤] وقال أيضا: «فقصد الدلم والخرج وقاتل أهلها وقتل من فرع أهل البلد سبعة رجال، وغنم عليهم إبلا كثيرة!!».[٥] وقال أيضا: «وفيها سار على بلد الزلفى فأخذ غنمهم!! ولحقه الفزع وتركها لهم»[٦].

---

(١) **عنوان المجد في تأريخ نجد،** عثمان بن عبدالله بن بشر النجدي الحنبلي، ج١، ص٤٦، مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز، الطبعة الرابعة، الرياض ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق، ج١، ص٧٨.

(٤) المرجع السابق، ج١، ص٨٣.

(٥) المرجع السابق.

(٦) المرجع السابق، ج١، ص٨٥.

وقال أيضا: «وفيها أغار عبدالعزيز على مساعد بن فياض وعربانه المعروفين بالنبطة من سبيع، فأخذهم وهم بالموضع المعروف بالعتك، بين السدير والمحمل وقتل منهم عشرة رجال منهم القروي وأولاده!! وأخذ أثاثهم وغنم المسلمون منهم ثمانين ذودا!! من الإبل وجميع أمتعتهم»[١].

وقال أيضا: «وذلك أن عبدالعزيز سار بالمسلمين إليهم، ومعه غزو من أهل الرياض مع دواس بن دهام، فأغار عليهم وهم على جراب (الماء المعروف قرب السدير) فاستأصل جميع أموالهم، وقتل منهم نحو ثلاثين رجلا»[٢].

وقال: «فسابقهم عبدالعزيز وأهل الدرعية، وقاتلوهم أشد القتال، وأخرجوهم منها قسرا، وقتلوا منهم رجالا، وأخذوا منهم فرسا».[٣] وقال: «وذلك أن عبدالعزيز سار غازيا إلى بلد ثرمدا، فلما وصلها جعل له كمينا، وأغار على البلد، وأخذ أغنامهم واستاقها، فخرجوا عليه، فلما التحم القتال خرج عليهم الكمين، فانهزم أهل البلد، وقتل منهم نحوا من عشرين رجلا، منهم راشد وحمد أبناء إبراهيم بن سليمان وإمام أهل البلد محمد بن عيد»[٤].

فانظر كيف استباحوا سفك دماء أهل البلد واستياق أغنامهم، مع أنهم مسلمون يؤمهم في صلاته إمام منهم وهو نفسه لم يسلم من القتل، وإذا كان النبي ﷺ ينهى عن قتل رهبان النصارى فما بالك بأئمة الصلاة عند المسلمين؟!.

وقال أيضا: «فأخذ منهم عبدالعزيز إبلا كثيرة وأغناما وأمتعة».[٥] وقال

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٩٢ - ٩٣.

(٣) المرجع السابق، ج١، ص٩٧.

(٤) المرجع السابق، ج١، ص١٠١.

(٥) المرجع السابق، ج١، ص١٠٥.

أيضـا: «وفيها سـار عبدالعزيـز بجنود المسـلمين، وقصـد آل حبيش من العجمان، وهم في صبحا المعروفة قرب سـدير، فأغار عليهم وأخذ عليهم إبلا كثيرة، وقتل من الأعراب عدة رجال، وفيها سـار سـعود إلى الرياض فأخذ سارحة أغنام»[١].

وذكر غزو عبدالعزيز للرياض بعد فرار أهلها منها، فقال: «وحاز عبدالعزيز ما فيها من أموال الهاربين، من السلاح والطعام والأمتعة وغير ذلك».[٢] وقال: «واسـتولى عبدالله على ما فيها (القصيم) من الأمـوال».[٣] وقال أيضا: «وفيها (أي سنة ١١٩١هـ) اسـتنفر عبدالعزيز جميع رعاياه، يريد الخرج، فاجتمعوا معه في الدرعية، ومعهم غـزو أهل بلدة خرمة فأمر عبدالعزيز بالمسـير مع أسـفل الوادي إلى ناحية الخرج، فصعـد عثمان بن عبـدالله أمير حرمة إلى الشـيخ وعبدالعزيز، وقال: كيف تسـيرون إلى أهل الخـرج وبلدنا خرمة قد ظهرت منهم أمارات الردة ونقض العهد؟ وأنا لا أقدر آمر فيهم بمعروف، ولا أن أستقر عندهم على هذه الحال، إلا إن ضعضعتموهم وأمسكتم منهم رهائن تجعلونهم عندكم في الدرعية، حتى يركد جأشـي وأصـدع بالدين في البلد وآمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ولا أحاذر.

فلم يـزل بعبدالعزيز حتى نكـس الجيش معه إلى ناحيـة منيخ، فثوَّر المسلمين، وسـار بهم عبدالله ابن محمد بن سعود، فأدلجوا بالليل والنهار، وسار مسيرهم على الحيسية مع الحمادة لتعمى عنهم الأخبار حتى يبغتوهم في بلادهم، فوصلوا بلد حرمة بالليل وهم هاجعون، ففرق عبدالله رجالا في بروج البلـد والبروج التي على السـور وعلـى الدور وعلى بيبـان القلعة

(١) المرجع السابق، ج١، ص١١٨.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص١٢٠.

(٣) المرجع السابق، ج١، ص١٢٧.

والجموع في متارسها، فلما انبلج الصباح، ونادى أذان الفجر (حي على الصلاة)، أمر كل صاحب بندق يثور ما في بطنها، فثوروا البنادق دفعة واحدة فارتجت البلد بأهلها وأسقط شيء من الحوامل، ففزعوا، فإذا البلاد قد ضبطت عليهم، وليس لهم قدرة ولا مخرج»[(١)].

وهو كلام غني عن التعليق، فانظر كيف يحكمون بالارتداد على قوم ينادي مناديهم إلى الصلاة!! ويباغتونهم في صلاتهم بما يرعبهم حتى تسقط حواملهم ما في أرحامهن!!.

على أن هذا إنما كان بسبب دعوى ادعاها على هؤلاء القوم عاملهم على بلادهم، فلم يرعوا حرمة للصلاة التي نودي إليها، ولم يبالوا أن يداهموهم جميعا في حال غرتهم فيفجأوهم بهذا الحادث الجلل، وليت شعري؛ إن كان القوم مرتدين ـ كما يزعمون ـ فما هي جريمة الأجنة في أرحام النساء حتى تعرض للإسقاط، مع التفاخر بهذا الأمر، وعده من عناوين المجد؟!.

أين هذا الصنيع من هدي رسول الله ﷺ، فقد ثبت عن أنس رضي الله عنه أنه قال: «إن النبي ﷺ كان لا يغير حتى يصبح، فيستمع، فإن سمع أذانا أمسك، وإن لم يسمع أذانا أغار»[(٢)].

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص١٣١ - ١٣٢.

(٢) أخرجه الشافعي في مسنده: (٣١٧/١)، والبخاري في صحيحه (١٠٧٧/٣ رقم ٢٧٨٥)، ورقم (٢٧٨٤)، ومسلم في صحيحه (ج٢٨٨/١، رقم ٣٨٢)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣٩٣/٧ رقم ٣٦٨٧٦) وعبد بن حميد في مسنده: (٣٨٨/١ رقم ١٢٩٩)، وأحمد في مسنده (٢٣٦/٣ رقم ١٣٥٠٦)، و(٢٥٣/٣ رقم ١٣٦٧٧)، و(٢٢٩/٣رقم: ١٣٤٢٣)، وابن خزيمة في صحيحه (٢٠٨/١ رقم ٤٠٠)، وابن حبان في صحيحه (٦١/١١ رقم ٤٧٥٣)، والبيهقي في سننه الكبرى (٤٠٥/١ رقم ١٧٦٢)، و(٨٠/٩ رقم ١٧٨٧٧)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٢٠٨/٣) وغيرهم.

وهكذا كان صنيعه ﷺ حتى مع يهود خيبر، وقد كان من هديه ﷺ رعاية حرمات الأجنة ولو تكونت بسفاح، لأن لكل نسمة خلقها الله تعالى حقا فلا يجوز العدوان عليها بجريرة غيرها، فعن عبدالله بن أبي مليكة أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ، فأخبرته أنها زنت وهى حامل، فقال لها رسول الله ﷺ: «اذهبي حتى تضعي». فلما وضعت جاءته، فقال: لها رسول الله ﷺ: «اذهبي حتى ترضعيه». فلما أرضعته جاءته، فقال: «اذهبي فاستودعيه». قال: فاستودعته، ثم جاءت، فأمر بها، فرجمت. اهـ[1].

وقال أيضا: «بعدما رجع عبدالله إلى الدرعية سار بالمسلمين إلى ناحية الخرج، فأوقع بهم وقتل منه ستة رجال وعقر عليهم إبلا وأغناما»[2].

وقال أيضا: «اجتمع قبائل الظفير وغيرهم مع محسن بن خلاف رئيس السعيد وقبيلته ودهام أبا ذراع وقبيلته من الصمدة وغيرهم والجميع نحو سبعة آلاف، ونزلوا على مبائض الماء المعروف قرب السدير، فسار سعود إليهم بالجنود المنصورة من الحاضرة والبادية، فلما أشرف عليهم سعود استكثرهم فرجع إلى أرض بلد نمير، واستنفر أهل سدير ركبانا ومشاة، فنفروا إليه مسرعين، فنازل تلك العربان على مائهم وتقاتلوا قتالا شديدا، فأدال الله المسلمين منهم وانهزم تلك العربان فولوا مدبرين، وغنم المسلمون منهم غنائم عظيمة، واستأصل سعود أكثر أموالهم وحازها!!! فالأغنام نحو سبعة عشر ألفا، والإبل خمسة آلاف، والخيل خمسة عشر فرسا، وأخذ جميع ما في محلتهم والأمتعة وغير ذلك، وقتل منهم قتلى كثيرة من الفرسان

(١) أخرجه مالك في موطئه: (١١٩/٥ رقم ١٥٠٧)، وعبدالرزاق (٣٢٤/٧، رقم ١٣٣٤٥)، وأخرجه الترمذي من طريق عبدالله بن بريدة عن أبيه (٢٥٩/٤ رقم ٤٤٤٤) ومسلم من طريق عمران بن حصين (١٢٠/٥ رقم ٤٥٢٩).

(٢) **عنوان المجد في تاريخ نجد**، ج١، ص١٣٣.

والرجال منهم دهام أبا ذراع وثواب ابن حلاف وغيرهم، وأخذ سعود خمس الغنيمة وقسم الباقي في المسلمين للراجل سهم وللفارس سهمان»[١].

وقال: «سار سعود بالجنود المنصورة، وقصد عالية نجد، وأغار على الصهبة من عربان مطير، وهم على المستجدة المزرع المعروف عند جبل شمَّر، فصبحهم عليها وأخذ إبلهم وأغنامهم وحلتهم وأثاثهم وأخذ عشرا من الخيل، وقتل رجالا من رؤسائهم وفرسانهم منهم دخيل الله ابن جاسر الفغم وابن عمه خلف الفغم، ثم رجع إلى وطنه».[٢] وقال: «سار سعود بالمسلمين وقصد ناحية الأحساء وصبح أهل العيون ولم يبلغهم عنه خبر، وأخذ كثيرا من الحيوانات، وأخذ من بيوتها أزوادا وأمتعة»[٣].

وقال:»سار سعود بجنود المسلمين إلى جهة الخرج، فذكر له في أثناء طريقه أن قافلة حافلة من أهل الخرج وغيره ظاهرة من الأحساء، فرصد لهم سعود على الثليما، المعروفة قرب الخرج، فأقبلت القافلة، وكانت على ظمأ وقدموا لهم ركابا ورجالا إلى الماء، فأغار عليهم سعود فقتلهم، ثم أناخت الحدرة، فنازلهم سعود واستمروا ساعة في جدال وقتال واقتتلوا قتالا شديدا، قتل بينهم قتلى كثيرة، والقافلة قريب ثلاثمائة رجل، فحمل عليهم المسلمون وأخذوا جميع ما معهم من الأموال والقماش والمتاع والإبل وغير ذلك، وقتل منه قريب من سبعين رجلا»[٤].

وقال: «سار سعود بن عبدالعزيز بالجيوش المؤيدة المنصورة من حاضرة نجد وباديها، وقصد جهة الشمال، فوافق ثويني في ديرة بني خالد من أرض

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص١٤٥ - ١٤٦.
(٢) المرجع السابق، ج١، ص١٥٢.
(٣) المرجع السابق، ج١، ص١٥٤.
(٤) المرجع السابق، ج١، ص١٥٥.

الصمان وذلــك بعدما خرج من البصرة كما ذكرنــا، ومعه قطعة من المنتفق وآل شبيب فنازلهم ســعود وأخذ محلتهم وأثاثهم» ثم قال: «سار سعود قبل هذه الغزوة بجنود المســلمين الحاضرة والبادية وقصد بني خالد، فوجدهم مجتمعيــن بأرضهم فنازلهم نحو يومين، ثم رحــل وانصرف عنهم ولم يقع قتال، لأن ســعودا خاف من خيانة بعض الأعراب الذين معه من بني خالد، ونزل علــى قراياهم التي في الطــف، فأخذ ذخائرهم التــي فيها من الطعام وغيره»[1].

وقال: «سار سعود بجنوده المنصورة والخيل العتاق المشهورة، واستلحق معه عربان الظفير وعربان العارض ومعــه زيد بن عريعر وجلوية بني خالد، وقصــد بني خالد ورئيســهم يومئــذ عبدالمحســن بن ســرداح وابن أخيه ونويحس بن عريعر وهم نازلون عند غريميل المعروف عند الأحســاء، فعدا عليهم ونازلهم ووقع القتال بينهم ثلاثة أيــام، ثم انهزم بنو خالد وأتباعهم، فكرَّ المسلمون في ســاقتهم يقتلون ويغنمون، وحاز سعود من الإبل والغنم والأمتعة والأثاث ما لا يعــد ولا يحصى، وقتل عليهم قتلــى كثيرة، وأخذ خمس الغنيمة وقسم باقيها في المسلمين، للراجل سهم وللفارس سهمان».[2] وقال: «وفي أثناء ذلك أمر عبدالعزيز على حسين بن مشاري ومعه أناس من العربان بالمغزا، فأغار على عربان الشريف فأخذ منهم إبلا»[3].

وقال: «لما انصرف الشريف من الشعرى أمر سعود محمد بن معيقيل، يتبع أثره بجماعة من المسلمين ويغير عليه من خلفه، فسار محمد خلفهم، وأغار على فريق من قحطان فأخذ عليهم إبلا كثيرة، وفزع عليه منهم خيل

(١) المرجع السابق، ج١، ص١٦٧ - ١٦٨.
(٢) المرجع السابق، ج١، ص١٧٠.
(٣) المرجع السابق، ج١، ص١٧٤ - ١٧٥.

فحصل جدال خيل بين الفرســان وأخذ المسلمون منهم خمسة عشر فرسا من عتاق خيل الأصايل، ثم رحل سعود وقصد عربان مطير، رئيسهم حسن الدويش، فأغار عليهم وحصل قتال شديد بين الرجالة والفرسان، فقتل من الأعراب نحو العشــرين وأخــذوا بعض الإبــل».[1] إلى أن قــال: «وغنم المســلمون منهم غنائم كثيرة، من الإبل والغنم والأثــاث والأمتعة، وأخذ جميع محلتهم» وقال بعد ذلك: «وتبعهم المسلمون وأخذوا جميع أموالهم من الإبل والغنــم والأمتعة، وقاموا فــي أثرهم يومين، يأخــذون الأموال ويقتلون الرجال، وحاز ســعود جميع الغنائم، الإبل أحد عشر ألف بعير، والغنم أكثــر من مائة ألف، وعزل الخمس وقســم باقيها في المســلمين، للراجل سهم وللفارس سهمان»[2].

وقال: «سار سعود غازيا بالجنود المنصورة من البادي والحاضر، وقصد القطيف وحاصر أهل ســيهات، وتسور المســلمون جدارها وأخذوها عنوة، وأخذوا مــا فيها من الأموال وغيــر ذلك مما لا يعــد ولا يحصى، وأخذوا عنوة، وقتل منهم خمسمائة رجل، ثم ســار إلى القديح وأخذه عنوة، وأخذ منهم كثيرا من الأموال، وقتل عليهم رجالا»[3].

وقال: «غزا هادي بن قرملة رئيــس عربان قحطان بأمر عبد العزيز بن سعود، وســار معه عربان قحطان وأغار على عربان من مطير، وهم على الحنابل، الماء المعروف في عالية نجد، فحصل بينهم قتال شديد، فانهزم المطران وأخذ منهم ثلاثة آلاف بعير».[4] وقال بعد ذلك: «غزا ســليمان

(١) المرجع السابق، ج١، ص١٧٦.
(٢) المرجع السابق، ج١، ص١٧٧ - ١٧٨.
(٣) المرجع السابق، ج١، ص١٧٨.
(٤) المرجع السابق، ج١، ص١٧٩.

ابن عفيصان بأمر عبدالعزيز بجيش من أهل الخرج وغيرهم، وقصد قطر المعروف بين عُمان والبحرين، فصادف غزوا منهم خمسين مطية، فنازلهم وقاتلهم فانهزموا، ولحقهم سليمان وجنوده فقتلوهم إلا قليلا، وأخذ ركابهم».

ثم قال: «وفيها كانت غزوة الشقرة، وذلك أن سعودا سار بجنوده المنصورة من البادي والحاضر، وقصد ناحية جبل شمر، وكان قد ذكر له قبائل كثيرة مجتمعة من عربان مطير وعربان حرب وغيرهم على الماء المعروف بالشقرة، قرب جبل شمر فأغار عليهم، وصبحهم فيها وأخذهم جميعهم وحاز منهم أموالا عظيمة من الإبل والغنم والأمتعة والأزواد، وأخذ منهم أكثر من عشرين فرسا، ثم رحل سعود بجميع الغنائم وأخرج خمسها، وقسم باقيها غنيمة في المسلمين للراجل سهم وللفارس سهمان»[1].

وقال: «فأرسل سعود إلى رؤساء المسلمين، واستشار في النفير أو الحضير، فقال له الرؤساء العربان: انهض وشن الغارة على أهليهم، وخذ أموالهم ومواشيهم ومحلهم، فليس دونها صاد ولا راد».[2] وقال: «فلم يلبثوا إلا أن أقبلت عليهم جموع بني خالد واردين، كأنها قطع الليل، فنهض المسلمون فرسانا وركبانا، فلم يثبتوا لهم ساعة واحدة حتى انهزموا لا يلوي أحد على أحد ولا والد على ما ولد!! فتبعهم المسلمون في ساقتهم! يقتلون ويغنمون واستأصلوا تلك الجموع قتلا ونهبا، وانهزم براك بن عبدالمحسن ومعه شرذمة قليلة من الخيالة إلى المنتفق، وهلك من بني خالد في هذه الوقعة بين القتل والظمأ خلائق كثيرة، قيل إنهم أكثر من ألف رجل، وأخذ جميع ركابهم وخيلهم وأذوادهم وأمتاعهم وفرشهم وجميع ما معهم والخيل

(١) المرجع السابق، ج١، ص١٧٩ - ١٨٠.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٢٠٠ - ٢٠١.

أكثر من مائتي فرس، وحاز سعود تلك الغنائم وأخذ خمسها، وقسم الباقي في المسلمين، للراجل سهم وللفارس سهمان»[١].

وقال بعد ذلك:» وأرسل خلفهم سعود بن غيث ومعه جيش من المسلمين، يترصدون للهارب من الأحساء، فصادفوا غزوا من أهل عُمان ومعهم خيل وإبل فقتلوهم، وأخذوا ما معهم وهم يزيدون على المائة»[٢].

وقال: «وسارت الجنود إلى بلاد ابن بطال، فوقع فيها قتال فانهزم أهلها وقتل منهم عدد كثير، وأخذ سعود ما فيها من الأمتعة والطعام والحيوان والأموال، ثم ساروا إلى بلدان الشرق، فحصل فيها قتال وجدال، وارتجف أهل الشرق وجميع البوادي الذين مع سعود وغيرهم، يدمرون في الأحساء، ويصرمون النخيل ويأخذون من التمر ويبيعونه أحمالا ويأكلون ويطعمون رواحلهم من الحاضر والبادي واجتالوا جميع البوادي من الأحساء نهبا»[٣].

وقال: «سار محمد بن معيقيل بأهل الوشم والسدير، سار معه كثير من عربان قحطان ومطير وبني حسين وكثير من الدواسر والسهول وغيرهم، فسار بهم محمد إلى عالية نجد فأغار على عربان بني هاجر، ورئيسهم يومئذ ناصر بن شري وهم نازلون في الحزم الراقي بين الذنائب والثعل، ونازلهم فوقع بينهم قتال شديد، وانهزم بنو هاجر وقتل منهم عدة قتلى منهم رئيسهم ناصر المذكور، وأخذ جميع أموالهم من الإبل والغنم والأمتعة والأزواد، ما يخرج عن العدد والإحصاء، وعزل محمد ابن معيقيل خمس الغنيمة وأرسلها إلى عبدالعزيز وقسم باقيها في غزوه للراجل سهم وللفارس سهمان»[٤].

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٢٠١ - ٢٠٢.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٢٠٢.

(٣) المرجع السابق، ج١، ص٢٠٥.

(٤) المرجع السابق، ج١، ص٢٠٧ - ٢٠٨.

وقال: «سار سعود بالجنود المنصورة والخيل العتاق المشهورة من نواحي نجد وعربانها، وقصد جهة الشمال، فأغار على عربان كثيرة مجتمعة من آل ظفير وغيرهم وهم بالحجرة المعروفة، فهزمهم، وقتل منهم رجالا كثيرة وأخذ منهم ألفا وخمسمائة بعير وجميع أغنامهم ومحلتهم وأثاثهم وذلك في شعبان، ثم قفل راجعا بعدما قسم الغنائم»[١].

وقال: «أمر عبدالعزيز على جيش من أهل الخرج وغيرهم، وسار بهم إبراهيم بن عفيصان وقصد بهم ناحية قطر، وأغار على أهله وأخذ إبلا كثيرة وأموالا من عربانهم، وأقبل بهم وباعها في الأحساء»[٢].

وقال: «سار سعود بجنوده المنصورة وأغار على عربان مجتمعة من عتيبة ومطير وهم في الحرة المعروفة في الحجاز، ورئيسهم أبو محيور العتيبي، فدهمهم فيها وهربوا في الحرة وحصل قتال شديد، فأخذ عليهم نحو مائة بعير وأغناما كثيرة، وكثيرا من الأمتعة والأزواد، وقتل أبو محيور المذكور والقدح من رؤساء مطير نحو ثلاثين قتيلا»[٣].

وقال: «فحمل هادي ومن معه على جنود الشريف، فولوا منهزمين وانحرفوا على أعقابهم هاربين، فلحقهم أولئك البوادي والجنود يقتلون ويغنمون!! ومنحهم الله أكتافهم وأموالهم، فقتل نحو ثلاثمائة رجل وغنم منهم هادي وجنوده إبلا كثيرة وغير ذلك، وأخذوا خيمة الشريف ومدفعه، وانهزم ومن معه إلى أوطانه وتفرقت أعوانه وعربانه، وعزلت الأخماس وأرسلوها إلى عبدالعزيز، وكان عبدالعزيز قد بعث محمد بن معيقيل ردءا لابن قرملة وعمونا فانفض الأمر وانقضى عند مجيئهم، فحث محمد بن

(١) المرجع السابق، ج١، ص٢١٠ - ٢١١.
(٢) المرجع السابق، ج١، ص٢١١.
(٣) المرجع السابق، ج١، ص٢١٣.

معيقيل السير في أثر الشريف وعربانه وأدرك بني هاجر وهم على الماء المعروف بالقنصلية قرب بلدة تربة، فشن عليهم الغارة وقاتلهم، فانهزموا فقتل عليهم أربعين رجلاً وأخذ جميع أموالهم، وفيها غزا مبارك بن هادي بن قرملة إلى ناحية نجران، فأغار على عربانه فحصل قتال وطعان، فانهزمت البوادي وقتل منهم ثلاثين رجلا، وأخذ جميع أموالهم، ومن الخيل أربعة عشر فرسا وعزل الأخماس وأرسلها إلى عبدالعزيز»[1].

وقال: «سار بالجيوش المنصورة والخيل العتاق المشهورة وقصد ناحية الأحساء فلما وصل إليه نزل قرب الرقيقة وهي مزارع معروفة لأهل الأحساء، وبات تلك الليلة وأمر مناديه ينادي في المسلمين أن يوقد كل رجل نارا وأن يثوروا البنادق عند طلوع الشمس، فلما أصبح الصباح رحل سعود بعد صلاة الصبح، ثور المسلمون بنادقهم دفعة واحدة فأرجفت الأرض وأظلمت السماء وثار عج الدخان في الجو وأسقط كثير من الحوامل في الأحساء!!.

ثم نزل سعود في الرقيقة المذكورة فسلم له وظهر عليه جميع أهل الأحساء على إحسانه وإساءته فأمرهم بالخروج فخرجوا فأقام في ذلك المنزل مدة أشهر يقتل من أراد قتله ويجلي من أراد جلاءه ويحبس من أراد حبسه ويأخذ من الأموال ويهدم من المحال، ويبني ثغورا ويهدم دورا، وضرب عليهم ألوفا من الدراهم، وقبضها منهم ـ إلى أن قال في وصف ما كان: ـ فهذا مقتول في البلد وهذا يخرجونه إلى الخيام ويضرب عنقه عند خيمة سعود حتى أفناهم إلا قليلا وحاز سعود من الأموال في تلك الغزوة ما لا يعد ولا يحصى»[2].

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٢١٤.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٢١٦ - ٢١٧.

مُقَارَنَة بَيْنَ أعمال الوَهَّابية وأعمال الإباضِيّة:

هذه أيها القارئ الكريم قطرات من بحر خضم مما سجله هذا الكاتب بقلمه في وصف أعمال هذه الطائفة، التي حاول الشويعر أن يلصق جرائرها بطائفة بريئة من هذه الأعمال، متجاهلا ما ارتكبه هؤلاء الذين يدافع عنهم، من إجرام في الأمة والدين، وانتهاك لحرمات الإنسانية بسفك الدماء ونهب الأموال بغير حق، حتى أن الأجنة في الأرحام لم تكن في مأمن من شرهم المستطير.

ولو أنني تتبعت ما كتبه ابن بشر مفاخرا به من أعمالهم لطال كتابي هذا، ولكن كفى ما أوردته شاهدا على مبدأ هذه الطائفة، واعتقادها في الأمة، وتطبيقها عليها أحكام أهل الشرك، على أن المشركين لا يباغتون بالقتال، حتى تقام عليهم الحجة، ويدعوا إلى الحق، كما كان عليه رسول الله ﷺ، وأصحابه رضي الله عنهم، فكيف بأهل القبلة؟! وقد رأيت أيها القارئ الكريم كيف كان شغفهم بقتل الأنفس ونهب الأموال، مع ما جعل الله للنفس البشرية من حرمة، فضلا عن النسمة الموحدة، وما جعله الله للأموال من حرمات.

هذا؛ وإذا قارنت بين هذا التأريخ الذي سجلته أقلامهم وحفظته مدوناتهم، وتأريخ الإباضية، الذين حاول الشويعر أن يلصق بهم هذا الإجرام لوجدت بونا شاسعا، أبعد من ما بين نجوم السماء وتخوم الثرى، فحسبك ما سبق لك ذكره من تأريخ الإباضية في حروبهم، كيف كانوا دقيقين في مراعاة الأحكام الشرعية، والمحافظة على حقوق البشر عامة، وحقوق أهل القبلة خاصة، فما كانوا يشهرون السيف إلا بعد أن يقيموا الحجة ويتعنت الخصم ويبدأ هو بسفك دمهم، كما وقع ذلك في قُدَيد وغيرها، وما كانوا يستحلون قتل المدبر ولا الأسير، بخلاف هؤلاء الذين كانوا يفاخرون باتباع

المدبرين لقتلهم ونهب أموالهم، ويسوقون الأسارى والمستسلمين إلى الميادين العامة لضرب أعناقهم أمام الجماهير، لما يجدونه من اللذة في القتل والمتعة في التنكيل.

أما فيما يتعلق بالأموال، فإن الإباضية أبعد ما يكونون عن استحلال مال موحد مهما كان ضلاله، بل كانوا من الورع أنهم لم يستبيحوا أن يأخذوا لأنفسهم ما وجدوه في خزائن أهل الظلم من الأموال التي جبوها من الأمة، وإنما حرصوا على ردها إلى من أخذت منهم، كما كان ذلك من طالب الحق عندما دخل صنعاء، فوزع على أهلها ما وجده من أموال جبيت قبله، مع ما كان عليه هو وأصحابه من فقر مدقع وحاجة ملحة إلى ما يقيم أودهم، إلا أنهم لم تشرئب أعناقهم أو يسل لعابهم إلى ما وجدوه في الخزائن:

تعففا منهم ومن كمثلهم ... أكرم بهم من عصبة أكرم بهم

كانوا يموتون على ما أبصروا ... من الهدى ما بدلوا وغيروا

وإن عدنا إلى الأئمة الرستميين ـ ومن بينهم الإمام عبدالوهاب بن عبدالرحمن، الذي رد إليه الشويعر نسبة الوهابية وجرائمها ـ فإننا لسنا بحاجة إلى أن نبرز الوجه المشرق من سيرتهم الغراء وعدلهم المثالي مما كتبه أتباعهم وأصحاب دعوتهم، وإنما يكفينا من ذلك ما كتبه أحد معاصريهم من خصومهم الذين لم يخفوا ما يعتمل بين حنايا صدورهم من شنآن لهم، وهو **ابن الصغير** الذي قال في تأليفه الخاص بأخبارهم: «وإن كنا للقوم مبغضين، ولسيرهم كارهين، ولمذاهبهم مستقلين، فنحن وإن ذكرنا سيرهم على ما اتصل بنا، وعدلهم فيما ولوه؛ فلسنا ممن تعجبه طلاوة أفعالهم ولا حسن سيرهم»[1].

(١) **أخبار الأئمة الرستميين لابن الصغير**، ص٣١، تحقيق وتعليق د. محمد ناصر، أ. إبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي.

وهو يدل على عصبيته العمياء ضدهم، وما تأصل في نفسه من كرههم، ولكنه اعترف بحسن سيرتهم وعدلهم في رعيتهم، حيث قال: «ليس أحد ينزل بهم من الغرباء إلا استوطن معهم، وابتنى بين أظهرهم، لما يرى من رخاء البلد، وحسن سيرة إمامه وعدله في رعيته، حتى لا ترى دارا إلا قيل: هذه لفلان الكوفي، وهذه لفلان المصري، وهذه لفلان القروي، وهذا مسجد القرويين ورحبتهم، وهذا مسجد البصريين، وهذا مسجد الكوفيين»[1].

وهاك شهادة ممن نشأ في المحيط الوهابي وخبره، فعرف طواياه كظواهره، ودرس المذهب الإباضي بعمق، وهو الدكتور **حسين غباش** الذي قال: «فالحركة الوهابية التي كانت تقدم نفسها بوصفها موحدة، لم تتردد في استعمال كل الوسائل لفرض مذهبها ومد نفوذها، وهو ما يؤكده المؤرخون السعوديون أنفسهم. وبالفعل، فإن المؤرخين الوهابيين (مثل ابن بشر) ذكروا الهجمات السعودية التي شنت ضد مدن الخليج والعراق الثرية. ووصفوا بروح الفخر الغنائم التي استولوا في هذه الغزوات. لن نتطرق هنا لمسألة الخلافات العقائدية بين الإباضية ـ وهي مدرسة فكرية خاصة ولدت في حضن الدولة الإسلامية الأولى، وذات تقاليد عريقة ـ وبين الوهابية وهي فرقة حديثة... إلخ»[2].

ومن المعروف بداهة، أن لكل مقدمة نتيجة ولكل علة معلولا، ومن المعلوم لكل ذي بصيرة أن ما عم العالم الإسلامي اليوم من مصائب التكفير والتفجير ليس هو إلا نتيجة هذا الفكر المنحرف الذي يدافع عنه الشويعر، وإذا كان استطاع أن يكابر الحقيقة ويتعامى عنها، فيقلب الأمر

(١) المرجع السابق، ص٣٦.

(٢) **عُمان الديمقراطية الإسلامية تقاليد الإمامة والتاريخ السياسي الحديث** (١٥٠٠، ١٩٧٠)، ص١٥٣ ـ ١٥٤.

حتى يجعل المجرم بريئا والبرئ مجرما بالنظر إلى أحداث الماضي فماذا عسى أن يقول في أحداث الساعة، التي ضجت منها الدنيا بأسرها ولاكها إعلامها، مما يرتكبه الشباب الذي فرخهم هذا الفكر، ونشرهم في العالم من التكفير والتفجير، هل هؤلاء تربوا على الفكر الإباضي، أو على الفكر الوهابي الحشوي؟! إن الحقيقة أظهر من أن تحتاج إلى بينة أو تسند بدليل:

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

وليت شعري؛ هل الشويعر لم يعرف الذين حكموا عليه بالشرك، فراح يفتش عنهم في خبايا التأريخ فخيل له أنهم الإباضية؟!! كلا؛ إنما هم الوهابية النجديون الذين يدافع عنهم، ودونك شهادة على ذلك، ممن عاصر حركاتهم وتعاطف معها، حتى صار أعقابهم يعتزون بما كتبه عنهم وينشرونه، وهو **الجبرتي** في تأريخه الذي قال فيه: «وفيه وصل ثلاث دوات من جدة إلى ساحل السويس فيها أتراك وشوام وأجناس آخرون، وذكروا أن الوهابي نادى بعد انقضاء الحج أن لا يأتي إلى الحرمين بعد هذا العام من يكون حليق الذقن، وتلا في المناداة قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ﴾ [التوبة: ٢٨] وأخرجوا هؤلاء الواصلين إلى مصر»[(١)].

وهو كلام غني عن التعليق، فتراهم لم يقتصروا في تشريك أهل القبلة على من خالفهم في القضايا العقدية، بل أدخلوا الأعمال في ضمن القضايا الشركية، ولم يكن ذلك أمرا نظريا فحسب، بل طبقوه في الواقع فأقصوا الوافدين إلى البيت الحرام ممن كانوا حالقي الذقون وأخرجوهم إلى مصر، وهل يرى الشويعر والمروجون لكلامه أن الإباضية أصحاب عبدالوهاب بن

---

(١) **تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، عبدالرحمن بن حسن الجبرتي، ١٢٣٧هـ، ج٣، ص١٩٣ دار الجيل، بيروت.

عبدالرحمن بن رستم هم الذين حكموا مكة المكرمة في عهد الجبرتي، حتى يسوغ له أن يلصق بهم التهم الشائعة عن الوهابية، أو أن الهوى يعمي ويصم؟!!.

وإن عجبت فاعجب أن يرى هؤلاء أن حلق الذقون ينزل بأصحابه إلى حضيض الشرك، ولا يروا حرجا في ظلم الظالمين وبطشهم بالأمة وانتهاكهم حُرَمَ دينها، وعدوانهم على أصحاب رسول الله ﷺ، بالقتل والإهانة في المدينة المنورة التي حرمها صاحبها عليه الصلاة والسلام، كما حرمت قبلها مكة، كما لم يروا حرجا في أفعال الذين انتهكوا حرمة الحرم المكي نفسه، فقصفوا الكعبة المشرفة بالمجانيق، وحالوا بينها وبين الطائفين والعاكفين، فما هذه التناقضات الغريبة في المفاهيم، وما هذا الاضطراب في الفهم؟؟!!

هذا؛ مع غض النظر عن جرائمهم التي ارتكبوها بأنفسهم من قتل الأبرياء ونهب أموالهم، وتخريب ديارهم وتشريدهم منها.

مَا أَشْبَهَ اللَّيْلَةَ بالبَارِحَةِ:

إذا أدركت ـ أيها القارئ الكريم ـ مدى هذه الجرأة ـ في الشاهدين اللذين ذكرتهما ـ من هؤلاء القوم على دفع الجرائر التي يرتكبونها عن أنفسهم، وإلصاقها بالأبرياء الذين لا صلة لهم بها قط لا في قبيل ولا دبير، أدركت بكل وضوح أن ما عزي إلى المحكمة الأولى من الغلو والإقدام على سفك الدماء ليس هو من الحقيقة في شيء.

فإذا كانوا اجترأوا على طمس الحقيقة وقلبها رأسا على عقب الآن ـ مع تقارب العالم، ويسر الاطلاع على حقيقة الأحداث، واكتشاف الخفايا من خلال وسائل الإعلام، وانفتاح الشعوب بعضها على بعض ـ فما بالك بذلك العهد

الذي كان العالم الإسلامي فيه واقعا تحت سلطة استبدادية واحدة، وقد انساقت وراءها الدهماء إلى حد أن يجتمع أربعون شيخا فيشهدوا أن الخليفة لا حساب عليه ولا عقاب، مهما ارتكب من الموبقات وأتى من الظلم، متجاهلين نصوص القرآن والسُّنَّة القطعية في دلالاتها وثبوتها، أيبقى في نفسك شك أن القوة السياسية المستبدة كانت وراء حبك هذه الفرية وإلصاقها بالأبرياء وترويجها عنهم وهي تخشى كل الخشية أن تشيع في الناس أفكارهم التي تأبى أن يروج في الناس الظلم ويطأطئوا معه رؤوسهم للظالمين المستبدين؟!!

إن العاقل بلا ريب لا يهمل قياس القضايا بعضها على بعض، وإذا كان مما قيل قديما: «ما أشبه الليلة بالبارحة»، فإن القياس يقتضي أن يقال: «ما أشبه الماضي بالحاضر»، وقد كانت عقيدة الإرجاء التي تمثلت في قولهم: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ و﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ أقوى دافع لهم على اختلاق الإفك وقلب الحقائق، كما كان ذلك ممن سبقهم إلى هذه الأماني فأزلتهم عن سواء الصراط، ورمت بهم في مهامه سحيقة من الباطل.

عَوْدٌ على بدء

بعد هذا الاستطراد الطويل نعود إلى أصل حديثنا فيما صاحب الثورات العربية من تضارب في الآراء وازدواجية في المعايير لدى فقهاء العصر، فإن منهم من عارض هذه الثورات بشدة مهما عانت الشعوب من ظلم وإعنات وبطش وحرمان، وقد وجدنا من هؤلاء من كان موقفه صارما، حتى في المسيرات السلمية للمطالبة بالحقوق، وأعطوا الحكام الذين انبنى حكمهم على نظام انتخابي إلى زمن موقوت ـ ولو كان صوريا ـ أن يخرجوا بالحكم عن نظامه الأساسي، ويحولوه إلى نظام وراثي يتسلسل في أعقابهم من بعدهم، كما جاء في هذه الفتوى التي صدرت من الشيخ: محمود لطفي

عامر، رئيس جمعية أنصار السنة المحمدية، المشجعة للرئيس المصري السابق حسني مبارك أن يورث الحكم لابنه جمال، الذي قال:

«إن فتواه ليست ابتداعا أو اجتهادا جديدا، وإنما هي وفق ما استقر عليه السلف الصالح، وهم خير القرون الثلاثة الأولى المفضلة من تاريخ الإسلام»، ووصف الرئيس مبارك بأنه (أمير المؤمنين)، وأضاف: «أن التوريث بدأ في عهد معاوية ولم يعترض غالبية الصحابة، وعلى رأسهم ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهما» وعدَّ هذا الأمر اجتهادا من الخليفة معاوية، ولعدم شق عصى الجماعة وافق المسلمون على ذلك، واستمر الحال قرونا باستخلاف ولي للعهد، ولم ينكر هذا الصنيع أي إمام من أئمة أهل السُّنَّة والجماعة كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل»، وانتقد الشيخ عامر: «من يثيرون الناس على مسألة توريث جمال مبارك الحكم»، وقال: «إن ورَّث مبارك ابنه فقد ورَّث من هو خير منه قبل ذلك، ولم يعترض عليه الصحابة، وهو معاوية كاتب الوحي، فماذا تقولون وبماذا تعترضون»، وأكد بأن الفتوى التي قالها بجواز التوريث شرعا «جاءت لدرء فتنة الصراع على السلطة، فإن تولاها جمال مبارك، فإننا معشر السلفيين سنسمع ونطيع في المعروف لجمال مبارك»، وتابع حديثه قائلا: «إن عقيدة السلفيين تحذر العلمانيين والإسلاميين من هذا الصراع، فتقر هذه القاعدة التي نص عليها الإمام أحمد في أصول السنة، وهي السمع والطاعة لأمير المؤمنين سواء كان أميرا ببيعة أو بغلبة، وعدم جواز الخروج عليه، فهذه عقيدة الإسلام تجاه الحاكم، سواء كان بارا عادلا أو غير ذلك، وسواء جاء للحكم ببيعة وشورى أو جاء بغلبة وسيطرة، ودانت له المؤسسات العسكرية والمدنية». اهـ[1].

---

(١) ينظر: **تطور الفكر السياسي السني نحو خلافة ديمقراطية**، ص١٩، نقلا عن العربية نت، القاهرة، ٢٠٠٨/٢/٢٥م.

وتجده في فتواه هــذه وبنائها على صنيع معاويــة، يتجاهل ما كان من اعتراض على صنيعه ممن بقي من أصحاب رســول الله ﷺ، ومن بينهم ابن عمر وابن عباس اللذان ذكرهما، وقد ســبق بيان ذلك بما فيه كفاية، وليس اســتدلاله بهذا إلا تصامما عن إنكار مــن أنكر على معاويــة، وتعاميا عن الحقيقة التي هي أوضح من أن تحتاج إلى برهان.

غير أن هؤلاء أنفســهم، عندما قامت الحركات وتحققت غاياتها، كانوا أسرع الناس إلى جني ثمارها وإحراز غنائمها، ومن المعلوم أن ما بني على الباطل فهو باطل، فإن كانت هذه الحركات في ذاتها محرمة فإن ثمارها أيضا تكون محرمة عليهم، فكيف يســتبيحونها؟! على أن أصحاب هذا الفكر لم يألوا جهــدا في إثارة الشــغب والتحريض عليــه في كثير مــن البلاد التي تحسنت فيها الأوضاع بعد الثورات، ونالت شعوبها حقوقها أو بعضا منها.

هذا؛ ومــن الفقهاء المعاصرين من تشــجع وأفتى بشــرعية القيام على الظلمة المستبدين وانتزاع السلطة من أيديهم، حتى ولو كان ذلك باستخدام الســلاح ضدهم، ولكنه مع ذلك ظل متمســكا بتأييد الذين سنوا الظلم في هذه الأمة، وابتزوا الحكم عنوة من يدها، وحولوه إلى نظام كسروي قيصري! لا يرعى للدين حرمة، ولا يرقب في الناس إلا ولا ذمة، وجعلوه من بعدهم حكرا على أعقابهم، يتوارثون الأمة وما لها من حقوق كما يتوارثون المتاع والأنعام، فكان من هؤلاء من ينادي بأنه وكيل عن بني أمية، يدافع عنهم مع ما علمت من جرائرهم التي ارتكبوها في الإســلام والمسلمين، حتى كانت الأمة أهون من البهائم العجماء وكانت حرماتها أرخص من اللقا.

وقد علمت مما تقدم، ما الذي ســفكوه من دماء خيار الأمة، وما الذي انتهكوه من حرماتها، ولم يبالوا بالبيــت الحرام الذي كان معظما حتى عند الجاهلية الجهــلاء، فقد قصفوه بالمجانيق ولم يرعــوا لحرم الله حرمة. وإذا

كانت الأمة عانت من الاضطهاد والظلم، فإنهم هم الذين علموا من بعدهم من الحكام الظلم، وسنوا لهم البطش، وجرأوهم على انتهاك الحرم، «ومن سن في الإسلام سنة سيئة، فعليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيئًا»[1] فكيف يسوغ القيام على من بعدهم ولا يسوغ عليهم، وهم السابقون إلى كل مظلمة ارتكبت أو فساد أشيع؟!!

على أن هذا الذي أيدهم على ما ارتكبوه من ظلم وقارفوه من فساد لم يكتف بالدفاع عنهم وتزيين صورتهم للناس، وإنما جاوز ذلك إلى كيل أسوأ التهم والحكم بأعنف الأحكام على من ثار بالحق عليهم، وتجرد لنصرة المستضعفين ورد الحق إلى نصابه الشرعي، وإقامة دين الله في أرضه وتحكيم شرعه بين عباده، فقد وجدنا هذا الذي نصب نفسه وكيلا للدفاع عن بني أمية الظلمة المستبدين ينعت أبا حمزة الشاري وأصحابه بأبشع الأوصاف، ويزعم أنهم لم تغن عنهم عبادتهم من الله شيئا!!!

ولست أدري من أين أعطى نفسه هذا الحق الإلهي، حتى يحكم بإسقاط عبادات أداها من أداها لله تعالى، وقد استقام على الشرع الإلهي في سلمه وحربه، ورضاه وسخطه، ومكرهه ومنشطه، حتى ذهبت روحه في سبيل الله؟!! وليت شعري؛ متى كان في الإسلام لأحد من الناس منصب البابوية، فيعطي لمن شاء صكوك الغفران ويصدر فيمن شاء قرارات الحرمان، مع أن الله تعالى يخاطب نبيه ﷺ وهو أرفع الناس منزلة وأعلاهم قدرا ـ في قوم

---

(١) جزء من حديث مرفوع أخرجه من طريق جرير بن عبدالله الطيالسي (ص٩٢، رقم ٦٧٠)، وأحمد (٣٥٧/٤، رقم ١٩١٧٩)، ومسلم (٢٠٥٩/٤، رقم ١٠١٧)، والترمذي (٤٣/٥، رقم ٢٦٧٥)، والنسائي (٧٥/٥، رقم ٢٥٥٤)، وابن ماجه (٧٤/١، رقم ٢٠٣)، وابن حبان (١٠١/٨ رقم ٣٣٠٨) وأخرجه أيضًا: ابن أبي شيبة (٣٥٠/٢، رقم ٩٨٠٣)، والطبراني (٣٤٣/٢، رقم ٢٤٣٧)، والبيهقي (١٧٥/٤ رقم ٧٥٣٠)

خالفوا دينه وأعرضوا عن أمره بقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨] ؟!!!.

وإني لأعجب من هذا الدفاع المرير عن بني أمية، هل هو من أجل أنهم ابتزوا الحكم من الخليفة الشرعي وحولوه إلى ملك عضوض، أو لأنهم سنوا لعن الخليفة على منابر الجمعة وغيرها، وعدُّوه عبادة يتقربون بها إلى الله ويحملون الناس عليها، أو لأنهم استباحوا مدينة رسول الله ﷺ فقتلوا من بها من بقايا المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، واستباحوا أعراض نسائها، ففعلوا ما لم يفعله حتى اليهود في حروبهم مع المسلمين، أو لأنهم هددوا كل من يأمرهم بتقوى الله بضرب عنقه، أو لأنهم أعطوا لأنفسهم من المكانة ما لم يكن لنبي مرسل ولا لملك مقرب، إذ زعموا أنهم لا حساب عليهم ولا عقاب مهما أتوا من الجرائم، أو لأجل ما فعلوه بالأمة وما رزأوها به من المصائب في دينها ودنياها، أو لأن قيمة القرآن عندهم أن يطمروه في جوف الجوالق ومن حق اليتيم أن يأكلوا ماله ويفجروا بأمه، ليت شعري بأي شيء من ذلك استحقوا أن يستمات في الدفاع عنهم؟!!

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٠٩].

كما أنني أعجب من دعواه أن أبا حمزة وأصحابه لم تغن عنهم عبادتهم من الله شيئا، هل ذلك لأنهم أنضوا أجسامهم بخوف الله تعالى ورجائه، ووصلوا كلالهم بكلالهم في عبادته وطاعته، وباعوا أنفسهم من أجل نصرة دينه، وترفعوا عن الدنيا وحطامها حتى سوَّوا تبرها بترابها، وزهدوا في نعيمها حتى عدلوا عذبها بعذابها، واحترزوا من سفك الدماء فلم يشهروا سيفا إلا بعد الاستقصاء في النصيحة وإقامة الحجة وبدء الخصم بشن الحرب عليهم وسفك دمهم؟!!

ليت شعري؛ أهذا حكم مبني على تعاليم القرآن وهدي الرسول ﷺ، أم أنه ناشـــئ عن عصبية عمياء تصم وتعمي عن الحق، حتى لا يبالي صاحبها بما يصدر عنــه، ولا يفكر فيما يفوه بــه، ولا يبقى عنــده تمييز بين الحق والباطــل والضلالة والهدى والصلاح والفســاد؟!! أما آن لهــذه الأمة التي نكبت في تفكيرهــا، ورزئت في تصورهــا، أن تصحو من ســكرة الهوى، وتثوب إلى رشدها، وتراقب الله، فيما تعمل أو تقول؟!!!

أَثَرُ الطُّغْيَان الأمَويّ على الأمة في تَصَوُّرِهَا واضْطِرَابِ معاييرها:

كانت الحقبة التي حكم فيها بنو أمية كافية لترســيخ فكرة قبول الظلم والرضوخ له، والاستسلام للظالمين ورفع مراتبهم بين الخلق، بحيث يبوأون فــي الناس مكانا لم يصل إليــه في حكم الله ملك مقرب ولا نبي مرســل، ناهيك أنهم أسقطوا عنهم الحساب والعقاب، مع ما علمته من تشديد القرآن الكريم خطابه للنبي ﷺ، وهو أكرم الخلق على الله، بشدة الوعيد ما لو مال عن الحق شيئا قليلا، فما بالك بهؤلاء الذين هم، في حكم الله تعالى، أحقر من الذر كما جاء في الحديث الشريف[1].

وكان لنفوذ ســلطانهم وقوة بطشــهم واســتيلائهم على أزمــة الأمور ومقاليدها، وممالأة الفقهاء الرســميين لهم؛ تأثير بالغ على عقلية الجماهير من الناس لقبول هذه الأفكار المنحرفة، فترســخ فــي ألباب الناس تقديس

(١) جاء في حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: "يحشــر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يغشــاهم الذل من كل مكان يساقون إلى ســجن في جهنم يسمى بولس تعلوهــم نار الأنيار يســقون من عصارة أهل النــار طينة الخبــال"، أخرجه أحمد (١٧٩/٢، رقم ٦٦٧٧)، والترمذي (٦٥٥/٤، رقم ٢٤٩٢) وقال: حســن صحيح. وأخرجه أيضًا: الحميدي (٢٧٢/٢، رقم ٥٩٨)، والبخاري في الأدب المفرد (ص١٩٦، رقم ٥٥٧).

الظلمة وتعظيمهم وتحقير كل من لم يسر في اتجاه سياستهم، وقد استمر أثر ذلك في عقلية أكثر الناس، ولذلك عندما دالت الأيام لبني العباس واكفهرت في وجوه بني أمية وأعرضت عنهم، انساق الناس وراء السياسة العباسية، فنالوا من الأمة ما كان لبني أمية من التقديس والتعظيم، وعدُّوهم حماة الإسلام وأنصاره وخلفاء نبيه ﷺ، وتحولوا عن الحمية للأمويين إلى الحمية للعباسيين. ولم يبالوا أن يجمعوا بين الأضداد!! كيف وهم بالأمس القريب كانوا يرمون كل من ثار على بني أمية بالمروق من الدين والخروج عن الجماعة!! ويتهمونه بالسعي إلى الفساد في الأرض، ولكن بما أن الدنيا أقبلت بزهرتها وزخرفها على بني العباس كانوا معها، على الرغم مما ارتكبه بنو العباس في بني أمية من إبادة أحيائهم وإزعاج أمواتهم.

فقد أسرف السفاح في تقتيلهم، ولم يشف ذلك غيظه حتى قام إلى قبورهم فنبشها وأحرق ما تبقى من رفاتهم، وهذا ما سجله لنا التأريخ، قال ابن الوردي:

«دخل سديف على السفاح، وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك، وقد أمنه وأكرمه، فأنشد:

لا يغرنك ما ترى من رجال ... إن بين الضلوع داء دويا

فضع السيف وارفع الصوت حتى ... لا ترى فوق ظهرها أمويا

فأمر السفاح بسليمان، فقتل. ودخل شبل بن عبد اللهِ مولى بني هاشم على عم السفاح عبد اللهِ ابن علي، وقد اجتمع عنده من بني أمية نحو تسعين رجلا، فأنشد:

أصبح الملك ثابت الأساس ... بالبهاليل من بني العباس

طلبوا وتر هاشم فشفوها ... بعد ميل من الزمان وباس

لا تقلين عبد شمس عثارا واقطعن كل رقلة وغراس
ذلها أظهر التودد منها وبها منكم كحد المواسي
ولقد ساءني وساء سواي قربهم من نمارق وكراسي
أنزلوها بحيث أنزلها الله بدار الهوان والإتعاس
واذكرا مصرع الحسين وزيدا وقتيلا بجانب المهراس
والقتيل الذي بحران أضحى ثاويا بين غربة وتناسي

فأمر عبد الله بهم، فضربوا بالعمد حتى وقعوا، وبسط عليهم الأنطاع، ومد عليهم الطعام، وأكل الناس الطعام وهم يسمعون أنينهم حتى ماتوا جميعا، وأمر عبد اللهِ بنبش قبور بني أمية بدمشق، وتبع قتل بني أمية فلم يفلت إلا رضيع أو من هرب إلى الأندلس. وقتل سليمان بن علي ابن عبد الله بن عباس بالبصرة جماعة من بني أمية، وألقاهم في الطريق تأكلهم الكلاب، فتشتت من بقي منهم واختلفوا في البلاد[1].

(١) **تاريخ ابن الوردي**، زين الدين عمر بن مظفر الشهير بابن الوردي، (ت: ٧٤٩هـ)، ج١، ص١٨٣، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، الطبعة: الأولى، وينظر: **تاريخ دمشق**، ج٤٦، ص٤٥٣، وج٥٣، ص١٢٧، **ومختصره**، ج٧، ص٢، **البداية والنهاية**، ج١٠، ص٤٥، **تاريخ اليعقوبي**، ج٢، ص٣٥٦، **مروج الذهب**، ج١، ص٤٣٨، الجماهر في معرفة الجواهر، أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، (ت: ٤٤٠هـ)، ص٣٠، **شرح نهج البلاغة**، ج٧، ص٧٨، **تاريخ مختصر الدول**، غريغوريوس بن اهرون الملطي، المعروف بابن العبري (ت: ٦٨٥هـ)، ج١، ص٦٤، **المختصر في أخبار البشر**، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي، (ت: ٧٣٢هـ)، ج١، ص١٤٧، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، ج٢٢، ص٣٣، **مآثر الإنافة في معالم الخلافة**، أحمد بن عبد الله القلقشندي، (ت: ٨٢١هـ)، ج١، ص١٦٨، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ١٩٨٥م، الطبعة: الثانية، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، **محاضرات الأدباء، ومحاورات الشعراء والبلغاء**، أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني، (ت: ٥٠٢هـ)، ج٢، ص٥٥٧، دار القلم، بيروت، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، تحقيق: عمر الطباع، **صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب** =

فليت شــعري أيــن الرحمة من قلوب هــؤلاء، وأين الاســتهداء بهدي النبي ﷺ، القائل: «إن الله كتب الإحســان على كل شيء فإذا قَتَلْتُمْ فأحسنوا الْقِتْلَةَ وإذا ذَبَحْتُمْ فأحســنوا الذبح، وَلْيُحِدَّ أحدكم شَفْرَتَهُ ولْيُرِحْ ذبيحته».[1] وما لهــم وللأموات في قبورهم، فإنهم أفضوا إلــى ربهم، وهو الذي يتولى حسابهم وجزاءهم، ولكن الإنســان إذا لم يتقيد بمنهج الله خلع عنه كل ما زينه الله به من فطرة سوية وقيم مثلى.

وإذا كان بنو العباس قادهم الحقد الأســود إلى أن يفعلوا ببني أمية هذه الأفاعيل النكراء فإن العجب إنما من أولئك الذين محضوا بني أمية ولاءهم وعدوهم عدة الإسلام وقوته، كيف انقلبوا مع خصومهم الألدين، فمحضوهم من الولاء ما محضوا أولئك، ورفعوهم إلى المقام الأعلى في مراتب الدين، وجمعوا بين الفريقين في الحب والولاء، ونشــروا مــن الدعايات لهم ما لا يقبله العقل ولا يصدقه الواقع، حتى زعموا أن أحد أكابر مترفيهم كان يحج عاما ويغزو عاما!![2].

= **الروض المعطار في خبر الأقطار**، أبو عبدالله محمد بــن عبدالله بن عبدالمنعم الحميري، (ت: بعــد ٨٦٦هـ)، ص٢٣١، وص٤٧٣ دار الجيل، بيروت، لبنــان، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، الطبعة: الثانية، تحقيق: إ. لافي بروفنصال.

(١) أخرجه الطيالســي (ص١٥٢، رقم ١١١٩)، وأحمــد (١٢٣/٤، رقم ١٧١٥٤)، والدارمي (١١٢/٢، رقم ١٩٧٠)، ومســلم (١٥٤٨/٣، رقم ١٩٥٥)، وأبــو داود (١٠٠/٣، رقم ٢٨١٥)، والترمــذي (٢٣/٤، رقم ١٤٠٩) وقــال: حســن صحيح. وابن أبي شــيبة (٤٥٥/٥، رقم ٢٧٩٢٩)، والبيهقي في شــعب الإيمان (٤٨٢/٧، رقم ١١٠٧١). والنسائي (٢٢٧/٧، رقم ٤٤٠٥)، وابــن ماجــه (١٠٥٨/٢، رقم ٣١٧٠)، والطبرانــي (٢٧٤/٧، رقم ٧١١٤)، والبزار (٣٩٤/٨، رقم ٣٤٦٨)، والديلمي (١٧٣/١، رقم ٦٤٨).

(٢) ينظر: **أســماء الخلفاء والولاة وذكر مددهم**، أبو محمد علي بن أحمد بن ســعيد بن حزم الأندلســي، (ت: ٤٥٦هـ)، ج٢، ص١٤٩، المؤسسة العربية للدراســات والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٨٧م، الطبعة: الثانية، تحقيق: د. إحســان عباس، و**جوامع السيرة**، نفس المؤلف، =

والكل يعلم أنه يستحيل أن يغزو بلادا يحكمها، وقد كانت رقعة دولته تمتد إلى آفاق من الأرض، لو حاول أن يصل إلى أطرافها في ذلك الوقت لاستغرق زمنا غير يسير، فكيف يمكنه أن يغزو في كل عامين مرة، على أنه لو كان يحج عاما ويغزو عاما ـ كما قالوا ـ لتعذر عليه أن يبقى في تخت مملكته ليديرها؟!!

ومن المعلوم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ مع ورعه البالغ، وشدة حرصه على الطاعات ـ لم يحج في خلافته إلا حجة واحدة، ولم يخرج من المدينة المنورة لغزو إبان حكمه، إلا عندما خرج إلى الشام لاستلام بيت المقدس من الروم، كل ذلك من أجل حرصه على حسن إدارته لأمر المسلمين من مقر حكمه.

وقد عدوا من مناقب العباسي، أنه قال لسحابة: «أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك»[1]، مع أن ذلك ـ لو عقلوا ـ ليس من المنقبة في شيء،

= ص٣٦٩، **وترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك،** أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي الأندلسي، (ت: ٥٤٤هـ)، ج١، ص١٧٠، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، الطبعة: الاولي، تحقيق: محمد سالم هاشم، **ونور القبس،** أبو المحاسن يوسف بن أحمد بن محمود اليغموري (ت: ٦٧٣هـ)، ص٤٩، **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب،** إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون اليعمري المالكي، (ت: ٧٩٩هـ)، ص١٣١، دار الكتب العلمية، بيروت، **سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي،** عبدالملك بن حسين بن عبدالملك الشافعي العاصمي المكي، (ت: ١١١١هـ)، ج٣، ص٤٠٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، علي محمد معوض، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب،** ج١، ص٢٩٦.

(١) **شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة، محمد حسن عبدالغفار،** دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية. الدرس٦١، المكتبة الشاملة، شرح تفسير ابن كثير، عبدالعزيز بن عبدالله بن عبدالرحمن الراجحي، الدرس٢٦، المكتبة الشاملة، **شرح سنن أبي داود،** =

فإنه لا يدل إلا علـــى أن همه كان في الخراج، وقد ذهـــل هؤلاء عن مقولة عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه «إن الله بعـــث محمدا داعيا، ولم يبعثه جابيا»[1]، وإن كانوا يعدونه من المفاخر لأنه دليل على سعة النفوذ، فقد كانت بريطانيا إبان أوج قوتها وانتشار استعمارها أكثر نفوذا من ذلك، إذ لم تكن الشمس تغيب عن مستعمراتها، فهل هذا يعد من مفاخرها؟!

إنما فخر أمة الإســـلام ليس بامتداد رقعة حكمها من غير أن تقيم حكم الله فيها، ولكنه في تطبيق شرع الله، وإغاثة الملهوفين، ونصرة المظلومين، والضرب على أيدي المفسدين، وقطع يد الجبارين، وحسن الدعوة إلى الله بالقول والعمل، وبســـط العدل للقريب والبعيد والصديق والعدو، فإن اتفق ذلك مع اتساع رقعة الحكم فما أحســـنه، وإلا فإن انحصـــار النفوذ في رقعة محـــدودة مع توفر هذه المناقب هو أولى بالافتخار، فإن الحكم الإســـلامي في عهد رســـول الله ﷺ لم يتجاوز جزيرة العرب، وأي فخر للأمة يساوي فخرها في ذلك الوقت؟!!

إنما فخر الأمة ـ أيها الناس ـ ليس هو بما يساق من الخراج من أطراف الأرض إلى خليفتها لينعم به هو وحاشـــيته، الذيـــن يتملقون له ويزينون له المنكرات، مع أن الســـواد الأعظم من الناس يقاســـون الحرمان، ويكابدون مشـــقة الجور والظلم، ويفرض عليهم الذل والهـــوان، وإنما فخرها الذي لا يسامى عندما تنشر بينها هداية ربها ويسودها العدل والإنصاف، وتنطلق من بينها دعوة الحق، التي تشـــع نورا يشـــرق على الأرض فيطوي منها سجاف الظلام، ويبدد هداه حنادس الضلال.

= عبدالمحسن بن حمد بن عبدالمحسن بن عبدالله بن حمد العباد البدر، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية، درس ٤٨٦.

(١) **الطبقات الكبرى**، ج٥، ص٣٨٤، أنساب الأشراف، ج٣، ص٦٤، **أحكام القرآن للجصاص**، ج٤، ص٢٩٧، سير أعلام النبلاء، ج٤، ص٢٩٧، البداية والنهاية، ج٩، ص١٨٨.

ومن المعلوم أن بني العباس لم تقف خصومتهم لبني أمية عند حدِّ ما فعلوا بأحيائهم وأمواتهم وإنما كانوا حراصا على تشويه صورتهم بالحق والباطل، إذ نسبوا إليهم من الجرائم فوق ما ارتكبوا، وعزوا إلى رسول الله ﷺ ما لم يقله فيهم.

ناهيك؛ بالكتاب الذي كتبوه فيهم لنشر مثالبهم وتقبيح صورتهم، وقد مر ذكر بعضه، وهاك ما احتواه من غير ما تقدم: «وأولهم في كل حرب ومناصبة، لا يرفع على الإسلام راية إلا كان صاحبها وقائدها ورئيسها، في كل مواطن الحرب، من بدر وأحد والخندق والفتح أبو سفيان ابن حرب وأشياعه من بني أمية، الملعونين في كتاب الله، ثم الملعونين على لسان رسول الله في عدة مواطن، وعدة مواضع، لماضي علم الله فيهم وفي أمرهم، ونفاقهم وكفر أحلامهم، فحارب مجاهدا، ودافع مكابدا، وأقام منابذا حتى قهره السيف، وعلا أمر الله وهم كارهون، فتقول بالإسلام غير منطو عليه، وأسر الكفر غير مقلع عنه، فعرفه بذلك رسول الله ﷺ والمسلمون، وميز له المؤلفة قلوبهم، فقبله وولده على علم منه، فمما لعنهم الله به على لسان نبيه ﷺ، وأنزل به كتابا قوله: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠]، ولا اختلاف بين أحد أنه أراد بها بني أمية.

ومنه قول الرسول ﷺ، وقد رآه مقبلا على حمار، ومعاوية يقود به، ويزيد ابنه يسوق به: لعن الله القائد والراكب والسائق ومنه ما يرويه الرواة من قوله: يا بني عبد مناف تلقفوها تلقف الكرة، فما هناك جنة ولا نار، وهذا كفر صراح يلحقه به اللعنة من الله كما لحقت ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [المائدة: ٧٨]، ومنه ما يروون من وقوفه على ثنية أحد بعد ذهاب

بصره، وقوله لقائده: هاهنا ذبينا محمدا وأصحابه، ومنه الرؤيا التي رآها النبي ﷺ فوجم لها، فما رئي ضاحكا بعدها، فأنزل الله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]، فذكروا أنه رأى نفرا من بني أمية ينزون على منبره، ومنه طرد رسول الله ﷺ الحكم بن أبي العاص لحكايته إياه، وألحقه الله بدعوة رسوله آية باقية حين رآه يتخلج، فقال له: كن كما أنت، فبقي على ذلك سائر عمره، إلى ما كان من مروان في افتتاحه أول فتنة كانت في الإسلام، واحتقابه لكل دم حرام سفك فيها أو أريق بعدها. ومنه ما أنزل الله على نبيه في سوره القدر: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣]، من ملك بني أمية... إلخ»[1].

وهو كتاب حافل بخصومة لبني أمية غير منضبطة بضوابط الشرع، وقد تناول حكامهم فردا فردا بالهجوم العنيف الذي يخرجهم عن دائرة الإسلام رأسا، وقد قيل إن المعتضد العباسي هم بنشر هذا الكتاب والأمر بقراءته على المنابر، لولا أنه خُوِّفَ أنه لو فعل ذلك لمال الناس إلى العلويين من بني عمومتهم لما فيه من تمجيدهم، فترك ذلك مراعاة لهذا الجانب السياسي.

ولا يخفى على من تأمل هذا الكتاب ما اشتمل عليه من تحريف التأويل لبعض آيات الكتاب، والافتئات على النبي ﷺ فيما يدرك بداهة عدم صدوره عنه، كدعوى أنه ﷺ لعن أبا سفيان ومعاوية ويزيد، عندما رأى أبا سفيان راكبا ومعاوية يقود به ويزيد يسوق به، مع أنه لم يكن ليزيد وجود في عهده ﷺ قط.

هذا؛ ولم يكن جور بني العباس في الحكم وفسادهم في الأمة أقل مما

(١) **تاريخ الطبري**، ج٥، ص٦٢١ - ٦٢٢.

كان من بني أمية، فإنهم لم يتورعوا عن سفك الدماء حتى دماء بعضهم البعض!! وعن اللعب بثروة الأمة وخيراتها في ملذاتهم وشهواتهم، بل أصاب بني عمومتهم من العلويين من بطشهم ما جعلهم يستقلون معه بطش بني أمية، ويستعذبون عذابهم المر، ويتطلعون إلى عهدهم المشؤوم على كثرة ما كابدوه منهم، حتى قال قائلهم:

يا لَيْتَ جَوْرَ بَنِى مَرْوَانَ عاد لنا وأَنَّ عَدْلَ بَنِي العَبّاس في النارِ[1].

ومع هذا، فإن انبهار الناس بما يتخيلونه من أمجاد للمستكبرين في الأرض، دفعهم إلى أن يهيلوا الثناء لبني العباس كما كان منهم لبني أمية!!! وأن يعدُّو دولتيهم دولتين إسلاميتين أعز الله بهما دينه، وحفظ بهما كتابه!!، وأن يعدُّو من أمجادهم ما كان من مظاهر ترفهم وفجورهم.

هذا؛ والمتتبع لأحوال هؤلاء القوم يجد أنهم لا يبقون على وجهة سياسية واحدة، وإنما يتقلبون سلبا وإيجابا بحسب ما تتجه الأحداث من إقبال على أحد أو إدبار عنه، فلا يلبثون أن يتحولوا من عداوة من يعادون وسبابه إلى ولايته وإطرائه إذا دالت له الأيام وأقبلت عليه الدنيا، وحسبكم هذه القصة التي أوردها جماعة من المؤرخين:

«ذكر هِشَام بن مُحَمَّدٍ، عن أبي مخنف، أن حصيرة بن عبدالله وأبا زهير العبسي حدثاه أن الأزارقة والمهلب، بعد ما اقتتلوا بسولاف ثمانية أشهر أشد القتال، أتاهم أن مصعب بن الزبير قد قتل، فبلغ ذلك الخوارج قبل أن

(١) **الشعر والشعراء**، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت: ٢٧٦هـ)، ص١٦٥، **أنساب الأشراف**، ج٢، ص١٢، **المحاسن والمساوئ**، إبراهيم بن محمد البيهقي، (ت: بعد ٣٢٠هـ)، ص١٨٦، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عدنان علي، الأغاني، ج١٧، ص٣٣٣، **محاضرات الأدباء**، ج١، ص٢٢٣، **شرح نهج البلاغة**، ج٩، ص٣٠.

يبلغ المهلــب وأصحابــه، فناداهم الخــوارج: ألا تخبروننا مــا قولكم في مصعب؟ قالوا: إمام هدى، قالوا: فهو وليكم في الدنيا والآخرة؟ قالوا: نعم، قالوا: وأنتم أولياؤه أحياء وأمواتا؟ قالوا: ونحن أولياؤه أحياء وأمواتا، قالوا: فما قولكم في عبد الملك بن مروان؟ قالــوا: ذلك ابن اللعين، نحن إلى الله منه برآء، هو عندنا أحل دما منكم، قالوا: فأنتم منه برآء في الدنيا والآخرة؟ قالوا: نعم كبراءتنــا منكم، قالوا: وأنتم له أعداء أحيــاء وأمواتا؟ قالوا: نعم، نحن له أعداء كعداوتنا لكم، قالوا: فإن إمامكــم مصعبا قد قتله عبد الملك ابن مروان، ونراكم ســتجعلون غدا عبد الملك إمامكم، وأنتم الآن تتبرأون منه، وتلعنون أباه! قالوا: كذبتم يا أعداء الله، فلما كان من الغد تبين لهم قتل مصعب، فبايع المهلب الناس لعبد الملك بن مروان فأتتهم الخوارج، فقالوا: ما تقولون في مصعب؟ قالوا: يــا أعداء الله، لا نخبركم ما قولنا فيه، وكرهوا أن يكذبوا أنفســهم عندهم، قالوا: فقد أخبرتمونا أمس أنه وليكم في الدنيا والآخرة، وأنكم أولياؤه أحياء وأمواتــا، فأخبرونا ما قولكم في عبد الملك؟ قالــوا: ذاك إمامنا وخليفتنا ـ ولم يجــدوا إذ بايعوه بدا مــن أن يقولوا هذا القول ـ قالت لهــم الأزارقة: يا أعداء الله، أنتم أمس تتبــرأون منه في الدنيا والآخــرة، وتزعمون أنكــم له أعــداء أحياء وأمواتــا، وهو اليــوم إمامكم وخليفتكم، وقد قتــل إمامكم الذي كنتــم تولونه! فأيهمــا المحق، وأيهما المهتدي، وأيهمــا الضال! قالوا لهم: يا أعــداء الله، رضينا بذاك إذ كان ولي أمورنا، ونرضــى بهذا كما رضينــا بــذاك، قالــوا: لا والله ولكنكم إخوان الشياطين، وأولياء الظالمين، وعبيد الدنيا». اهـ[1].

(١) **تاريخ الطبري**، ج٣، ص٥٢٧، **أنســاب الأشــراف**، ج٣، ص٩، **نثر الدرر**، ج٥، ص١٥٢، **الكامل في التاريخ**، ج٤، ص١١١، **شــرح نهج البلاغــة**، ج٤، ص١٠٠، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، ج٢١، ص٧٧.

فتراهم يرقصون على كل وتــر، ويهيمون فــي كل واد، وينقادون لكل طاغية، ويســبحون بحمد كل من أقبلت عليه الدنيا، فقد كانت في أعناقهم بيعة لمصعب بن الزبير ولم يلبثوا أن يتحولوا إلى عدوه وقاتله، فيصبحوا له أوليــاء!! لأن ميلولتهــم إنما هي إلى الدنيــا، وركونهم إلــى حطامها، ولا يحسبون حسابا للآخرة، ولا يقيمون وزنا لقيم الدين، والله المستعان.

انقِلابُ مَوَازِين الأمة حوَّلَ المَسَاوِئَ أمْجَادًا:

إن الإنســان ليعجب من أمة أوتيت القرآن، وعرفــت هدي النبي ﷺ، ونهــج خلفائه الراشــدين، كيف تنقلــب موازينها، فتعد المســاوئ أمجادا، وتلحقها بصميم الدين، وترفع عقيرتها مفاخرة بها بين الناس.

كنت في زيارة للقطر العراقي العزيز، وكان مما تســنى لي زيارته مدينة سامراء، وكنت مع لفيف من رجال الفكر والفقه والسياسة والأدب، فاطلعنا في سامراء على آثار لبني العباس اكتشــفت تحت الأنقاض، من بينها بركة للســباحة، لا أذكر أنني رأيت قبلها مثلها في سعتها وعمقها، وتحتها خنادق لإيقاد النار لتسخين مائها إبان الشتاء، وهي من آثار المتوكل، فأثارت رؤيتها إعجاب المشــاهدين، وأخذت الأريحية أحد الفقهاء، فقال باعتزاز: «ما هذه العظمة للإسلام!!».

فعجبت من هذا التفكير في أن عظمة الإســلام تتمثــل في هذه البركة، حيث كانت تتراقــص الجواري العاريات، بشــهود المتــوكل أو غيره ممن أخلدوا إلى هذا الترف، واغتروا بهذا النعيم!!! فقلت: أين إذا عظمة الإسلام في عهد رسول الله ﷺ وفي عهد خلفائه الراشــدين، إذ لم يكن لأحد منهم مثل هذه البركة أو ما يدانيها من مظاهر الترف؟! ولو كانت عظمة الإســلام في مثل هذه الآثار لكان أســبق إليها زمنا وقدرا، أولئك الذين نعتهم القرآن

بالفساد والعلو في الأرض، من الفراعنة والأكاسرة والقياصرة، وما كان منها لرسول الله ﷺ حظ أو نصيب.

إن عظمة الإسلام ـ أيها الناس ـ في الاعتصام بأمر الله والتسمك بدينه والعدل بين عباده، والترفع عن حطام الدنيا، والرغبة فيما عند الله، وتتجلى يوم كان خليفة المسلمين يأوي إلى كوخ متواضع، وقد فتحت له خزائن الأرض، وجاءته كنوز كسرى وقيصر، فلم يفتح عليها عينه، ولم يسل من أجلها لعابه، ولم ينبهر بسببها عقله، وكانت تهتز من هيبته عروش الأكاسرة والقياصرة.

يا من رأى عمرا تكسوه بردته ... والزيت أدم له والكوخ مأواه

يهتز كسرى على كرسيه فرقا ... من بأسه وملوك الروم تخشاه

العلاقة بتن التَّرَف والتَّلَف:

من العجب أن يعجب مسلم بمظاهر الترف، ويعدها من أمجاد الإسلام ومن عنوان عظمته في التأريخ، ويتجاهل ما ذكره القرآن في الترف والمترفين، وكيف كان مآلهم، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، فالقرآن صريح ظاهر في دلالته بأن الترف يؤدي إلى عذاب الدنيا والآخرة، فقد ذكر الله تعالى أصحاب الشمال ووصفهم أول ما وصفهم بالترف، حيث قال بعد وعيدهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة: ٤٥]، وقد سبق أن مثل هذا التعبير إنما يدل على تعليل الحكم الذي سبقه، فالترف إذا علة ما آلوا إليه من العذاب، وقرن عذاب الدنيا أيضا بالترف في قوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ١١ - ١٣]، وقال سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٤].

وبين أن فساد المترفين هو الذي يؤدي إلى هلاك الأمم عندما تدعهم وشأنهم، ولا تقبض على أيديهم لمنعهم من الانغماس في الترف، وذلك في قوله: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦]، وبين في آيات عديدة أن الترف هو الذي يصد عن الإيمان بالرسل، منها قوله: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [المؤمنون: ٣٣ - ٣٨].

وهو دليل على أن ترفهم هو الذي جعلهم يستكبرون على دعوات الحق ونداء المرسلين، وأن إخلادهم إلى ما هم فيه من شهوات الحياة الدنيا أعماهم عن التفكير في الدار الآخرة فكفروا بها، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [سبأ: ٣٤]، وقد كان منشأ ذلك غرورهم بما هم فيه من النعيم وما أوتوه من الأموال والأولاد، كما دل عليه قوله: ﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [سبأ: ٣٥]، وأتبع ذلك من تقريعهم في الخطاب ما يدل على أن ما أوتوه من الأموال والأولاد ليس مما يبشرهم بالخير، إذ لا يقربهم من الله ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ: ٣٦ - ٣٧].

ومثل ذلك قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣].

وكذلك شأن المترفين أن يعترضوا دعوات الخير في الأمم ممن يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، كما يعترضون على دعوات المرسلين، وشاهد ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦].

وإذا كانت للحروف التي يتركب منها الكلم إيحاءات من خلال تركيبها فيما تدل عليه الكلمات من المعاني، فإن التقارب اللفظي بين كلمتي الترف والتلف يوحي بما بينهما من الترابط السببي والتآخي المعنوي، فالترف طريق للتلف وسبب يدفع إليه، وهذا لأن الانغماس في شهوات الحياة الدنيا منشأ البطر ومن بطر نعمة الله أهلكته، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨].

تَحْذِيرُ القُرآن من الرُّكُونِ إلى الدُّنْيَا:

إن إخلاد النفس إلى الحياة الدنيا والتعلق بزخرفها يجتذب النفس ـ بلا ريب ـ إلى شهواتها ويعميها عن الدار الآخرة ونعيمها وجحيمها، لذلك ضرب الله الأمثال في هذه الدنيا، فقال: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤]، ولأجل تنبيه العقول من غفلتها أتبع الله ذلك دعوته عباده إلى دار السلام، حيث قال: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥].

ثم أتبع ذلك بيان منقلب الناس في الدار الآخرة إلى النعيم أو الجحيم بحسب ما قدموا في الدنيا في قوله: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [يونس: ٢٦ - ٢٧]، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف: ٤٥]، وأتبعه قوله: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف: ٤٦].

وكذلك قوله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠]، وأتبع ذلك دعوته لعباده بأن يتسابقوا إلى ما أعده للصالحين منهم في الدار الآخرة، حيث قال: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

والقرآن الكريم، بين مآل من تعلق بالدنيا ومن تعلق بالآخرة، فقد قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥ - ١٦]، وقال: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم

مَّشۡكُورٗا ﴾ [الإسراء: ١٨ - ١٩]، وقال: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى: ٢٠]، وقال: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ - ٤١].

كل هذا ـ بلا ريب ـ شاهد ودليل على أن الاغترار بما كان فيه أولئك المترفون من النعيم، والانبهار بمعالم الترف التي خلفوها من بعدهم، إنما هو دليل على عدم رسوخ معاني القرآن في أذهان الناس، وإلا فإن مشاهدة تلك المشاهد هي في ذاتها داعية إلى حسن الاعتبار وباعثة على كثرة الاستعبار، فقد روي أنه لما «مر رسول الله ﷺ بالحجر، قال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، إلا أن تكونوا باكين، أن يصيبكم مثل الذي أصابهم»، ثم قنع رسول الله ﷺ رأسه، وأسرع السير، حتى أجاز الوادي»[1].

فما أجدر العاقل أن يعتبر ويستعبر، عندما يرى أي مشهد من هذه المشاهد، لا أن يباهي ويفتخر، ﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ﴾ [الأنعام: ٦].

والقرآن الكريم شاهد ودليل على أنه لولا لطف الله بعباده، وأنه لم يرد لهم أن يكونوا جميعا أمة واحدة في الكفر، لفتح الدنيا على أعدائه الكفرة فتحا يؤدي بالناس إلى الاغترار بهم، والانسياق وراء كفرهم، لما يرونه

(١) أخرجه عبدالرزاق (٤١٥/١، رقم ١٦٢٤)، ورواه البخاري (١٤٩/٤ رقم ٣٣٨٠) بلفظ: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، لا يصيبكم ما أصابهم» وعند مسلم (٢٢٨٦/٤ رقم ٣٩) بلفظ قريب.

عندهم من زينة الحياة الدنيا، ناهيك من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٣٣ - ٣٥].

رُسُوخُ إِعْجَابِ الأُمَّة بالمستكبرين في الأَرْضِ أنسَاهَا ما ذَكَرَهُ القرآن فيهم:

إن مما يدعو للأسف على هذه الأمة أن يترسخ فيها الإعجاب بالمستكبرين في الأرض، من عهد بني أمية فمن بعدهم، حتى أدى بها ذلك أن تعجب بالمستكبرين من الأمم السابقة، الذين ملأوا الأرض فسادا، وتطاولوا على الله فادعوا أنهم أرباب من دونه، فكم نجد من الثناء العاطر على هؤلاء المتكبرين، تنشق به حناجر ممن يحسبون على الإسلام، ويعدون معالم بارزة في تأريخ الأمة، كأنما لم تقرع آيات القرآن مسامعهم بما وصمت به هؤلاء المتكبرين من نعوت الفساد.

ناهيك أن شاعرا فحلا يعد من الشعراء الإسلاميين، تشرف بمشاركة الذين مدحوا النبي عليه أفضل الصلاة والسلام، نجده يندفع إلى الثناء على الفراعنة، ووصفهم بأحسن الأوصاف، وتحليتهم بأجمل النعوت، عادا ما كانوا فيه من العلو في الأرض مجدا تأريخيا لا يسامى، ومدافعا عنهم فيما وصفوا به من الظلم إلى حد أن يقول:

فَكانوا الشُهبَ حينَ الأَرضُ لَيلٌ ... وَحينَ الناسُ جِدُّ مُضَلَّلينا

مَشَت بِمَنارِهِم في الأَرضِ روما ... وَمِن أَنوارِهِم قَبَسَت أَثينا

مُلوكُ الدَهرِ بِالوادي أَقاموا ... عَلى وادي المُلوكِ مُحَجَّبينا

فَـرُبَّ مُصَفَّـدٍ مِنهُـم وَكانَت ... تُسـاقُ لَـهُ المُلـوكُ مُصَفَّدينا
تَقَيَّـدَ في التُـرابِ بِغَيـرِ قَيدٍ ... وَحَـلَّ عَلـى جَوانِبِـهِ رَهينـا
تَعالـى اللهُ كانَ السِـحرُ فيهِم ... أَلَيسـوا لِلحِجـارَةِ مُنطِقينـا
غَدَوا يَبنونَ ما يَبقـى وَراحوا ... وَراءَ الآبِـداتِ مُخَلَّدينـا
إِذا عَمِـدوا لِمَأثُـرَةٍ أَعَـدّوا ... لَها الإِتقـانَ وَالخُلـقَ المَتينا
وَلَيـسَ الخُلـدُ مَرتَبَـةً تلَقّى ... وَتُؤخَذُ مِـن شِـفاهِ الجاهِلينا
وَلَكِـن مُنتَهـى هِمَـمٍ كِبـارٍ ... إِذا ذَهَبَـت مَصادِرُهـا بَقينـا
وَسِـرُّ العَبقَرِيَّةِ حينَ يَسـري ... فَيَنتَظِـمُ الصَنائِـعَ وَالفُنونـا
وَآثـارُ الرِجـالِ إِذا تَناهَـت ... إِلى التاريـخِ خَيـرُ الحاكِمينا
وَأَخـذُكَ مِن فَـمِ الدُنيـا ثَناءً ... وَتَركُكَ فـي مَسـامِعِها طَنينا
فَغالي في بَنيـك الصيد غالي ... فَقَد حُـبَّ الغُلُـوُّ إِلـى بَنينا

إلى أن قال:

وَتاجٍ مِـن فَرائِدِهِ اِبنُ سـيتى ... وَمِـن خَرَزاتِـهِ خوفـو وَمينا
عَـلا خَـدّاً بِـهِ صَعَـرٌ وَأَنفاً ... تَرَفَّـعَ في الحَـوادِثِ أَن يَدينا
وَلَسـتُ بِقائِلٍ ظَلَموا وَجاروا ... عَلى الأُجَراءِ أَو جَلَدوا القَطينا[1]

فانظر كيف يغالي في مدح هـؤلاء الجبارين وينفي عنهم الظلم والجور مع أن الله تعالـى قال: ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ٩٧ يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ٩٨ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾ [هود: ٩٧ ـ ٩٩]، وقـال تعالى: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي

(١) ديوان شوقي «الشـوقيات» ص ٦٣٥ ـ ٦٣٦، تعليق د. يحيى شـامي، دا الفكر العربي، مؤسسة ثقافية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٤]، وقال: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴾ [القصص: ٣٨ ـ ٤٢]، وقال: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾ [غافر: ٣٦ ـ ٣٧]، وقال: ﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٥ ـ ٤٦].

فليت شعري؛ أين يدع هذه الآيات عندما يثني على هؤلاء الطغاة هذا الثناء ويدافع عن ظلمهم وطغيانهم، على أنه لم يقف به الأمر عند هذا الحد، بل تجاوزه إلى أن يخاطب أحد الفراعنة بما لا يجوز أن يخاطب به نبي مرسل ولا ملك مقرب لأنه خطاب يدل على تأليه المخاطب، وذلك قوله:

جَلَّ رَمسيسُ فِطرَةً وَتَعالى ... شيعَةً أَن يَقودَهُ السُفَهاءُ

وَسَما لِلعُلا فَنالَ مَكانًا ... لَم يَنَلهُ الأَمثالُ وَالنُظَراءُ

وَجُيوشٌ يَنهَضنَ بِالأَرضِ مَلكًا ... وَلِواءٌ مِن تَحتِهِ الأَحياءُ

وَوُجودٌ يُساسُ وَالقَولُ فيهِ ... ما يَقولُ القُضاةُ وَالحُكَماءُ

وَبِنـــاءٌ إِلى بِنـــاءٍ يَـــوَدُّ الخُلـ ـــدُ لَـــو نـــالَ عُمـــرَهُ وَالبَقاءُ
وَعُلـــومٌ تُحـــيِ البِـــلادَ وَبِنتـــا هـــورُ فَخرُ البِـــلادِ وَالشُـــعَراءُ
إيهِ سيزوســـتَريسَ ماذا يَنالُ الـ ـوَصفُ يَومًـــا أَو يَبلُغُ الإِطراءُ
كَبُرَت ذاتُـــكَ العَلِيَّـــةُ أَن تُحـ ـصي ثَناها الأَلقابُ وَالأَســـماءُ
لَـــكَ آمـــونُ وَالهِـــلالُ إِذا يَكـ ـبُـــرُ وَالشَـــمسُ وَالضُحى آباءُ
وَلَكَ الريـــفُ وَالصَعيدُ وَتاجا مِصـــرَ وَالعَرشُ عالِيًـــا وَالرِداءُ
وَلَكَ المُنشَـــآتُ فـــي كُلِّ بَحرٍ وَلَكَ البَـــرُّ أَرضُهُ وَالسَـــماءُ[1]

وهذا كلام غني عن التعليق، فليت شـــعري ما الذي تركه لله من صفات الكمال بعد ما جمع هذه الأوصاف للفرعون الذي مجده وتغنى بعلاه، وما الذي أبقاه لله في هذا الكون بعدما جعل الأرض والســـماء وما حوتا لذلك الفرعون؟؟!! وإن من أعجب العجب أن يمر هذا الكلام بســـلام بين رجال العلم والفكر ودعاة الخير والإصلاح في الأمة، ولا نجد من بينهم من ينبس ببنت شفة أو يســـطر حرفا اســـتنكارا لما جاء فيه، فهل هذه كلها غفلة عما احتواه من الفظائع التي تقشـــعر منها الجلود، وتجـــف منها القلوب، وتنهد منها الجبال، وتميد بهـــا الأرض وتنفطر منها الســـماء، أو أن ذلك إنما هو راجع إلى ما وقر في النفوس من تعظيم الجبابـــرة وتوقيرهم، من عهد بني أمية فمن بعدهم، فسرى منه هذا التوقير والتعظيم لمن كان قبلهم؟!!

إن كل مـــن تأمل هذا الأمر بإمعـــان يدرك بداهة، أن مـــا كان من تلك التربية التي ربـــي بها فكر الأمة في العهد الأموي فمـــا بعده؛ هو الذي جر هذه الضلالات إلـــى الأمة فألفتها وهانـــت عليها، فلم تجد اســـتنكارا ولا اســـتهجانا، وما ذلـــك إلا لأن التربية القرآنيـــة والنبوية عطلـــت بقوة نفوذ

(١) المرجع السابق، ص ١٩ ـ ٢٠.

الجبارين حتى غدت صورا محنطة في متاحف التأريخ، ولو أن الأمة جعلت القرآن والهدي النبوي نصب أعينها ودرستهما دراسة اليقظ الواعي، من أجل الاستبصار بنورهما والاستهداء بهما في مسالك الحياة الفكرية والعملية، لكان لها شأن غير ما نراها عليه.

وإني لأرجو من قادة الفكر ورواد الإصلاح في هذه الأمة أن يعودوا بها إلى هذا المنهج الرشيد، ويرتفعوا بها عن هذا الحضيض الذي تدنت إليه من المقامات العالية التي ارتقت إليها في عهد النبوة الهادية والخلافة الراشدة.

رِجَالُ الإِصْلاح يُنادون هذه الأمّة بما يُحرِّر تفكيرَها من هذه القُيُودِ والأغلال

إن دعاة الإصلاح، ورادة التفكير السليم في أمتنا، هدتهم الفطرة السليمة إلى دعوة أمتهم أن تتحرر من ربقة أفكار تلك الحقبة، التي امتدت في الأمة ردحا من الزمن، منذ نكبت بالقضاء على الخلافة الراشدة، وقد سبق ذكر نماذج من أفكارهم في أول هذا الكتاب وأضم إلى ما ذكرته عنهم هنالك، ما نادى به من قبلهم المفكر المصلح عبدالرحمن الكواكبي الذي توفي في عام ١٣٢٠هـ، فقد فند في كتابه القيم «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» الأفكار العقيمة التي نكبت بها الأمة، فأعمتها عن الحق وصدتها عن الرشد، وكان مما قاله:

«وقد عدّد الفقهاء من لا تُقبَل شهادتهم لسقوط عدالتهم، فذكروا حتّى من يأكل ماشياً في الأسواق؛ ولكنّ شيطان الاستبداد أنساهم أن يُفسِّقوا الأمراء الظالمين فيردّوا شهادتهم»[١].

---

(١) **طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد**، عبدالرحمن بن أحمد بن مسعود الكَوَاكِبي يلقب بالسيد الفراتي (ت: ١٣٢٠هـ) ص٣٧، المطبعة العصرية، حلب، الطبعة: طبعة جديدة منقحة ومضافة بقلم المؤلف..

وقال بعد ذلك: «وكلُّ هذه المسميات المثبطات تهون عند ذلك السمّ القاتل، الذي يحوّل الأذهان عن التماس معرفة سبب الشقاء، فيرفع المسؤولية عن المستبدّين، ويلقيها على عاتق القضاء والقدر، بل على عاتق الأُسراء المساكين أنفسهم. وأعني بهذا السمّ، فهم العوام، وبله الخواص، لما ورد في التوراة من نحو: «اخضعوا للسلطان، ولا سلطة إلا من الله»، و«الحاكم لا يتقلّد السيف جزافاً، إنه مقام للانتقام من أهل الشر»، وقد صاغ وعّاظ المسلمين ومحدِّثوهم من ذلك قولهم: «السلطان ظلُّ الله في الأرض»، و«الظالم سيف الله ينتقم به، ثمَّ ينتقم منه»، و«الملوك ملهمون». هذا وكلُّ ما ورد في هذا المعنى إنْ صحَّ فهو مقيّد بالعدالة أو محتمل للتأويل بما يعقل، وبما ينطبق على حكم الآية الكريمة التي فيها فصل الخطاب، وهي: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨]، وآية ﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

وقال أيضا: التربية علمٌ وعمل. وليس من شأن الأمم المملوكة شؤونها، أنْ يوجد فيها من يَعْلَمُ التربية ولا من يُعَلِّمُها. حتى أنَّ الباحث لا يرى عند الأسراء علماً في التربية مدفوناً في الكتب فضلاً عن الأذهان. أمّا العمل، فكيف يُتصوَّر وجوده بلا سبق عزم، وهو بلا سبق يقين، وهو بلا سبق علم. وقد ورد في الأثر «النيّة سابقة العمل». وورد في الحديث: «إنّما الأعمال بالنيّات»[1]. بناءً عليه؛ ما أبعد الناس المغصوبة إرادتهم، المغلولة أيديهم،

(١) أخرجه الربيع من طريق ابن عباس (ص٢٣، رقم ١) وأخرجه مالك في رواية محمد بن الحسن من طريق ابن عمر (ص٣٣٨، رقم ٩٨٣ طبعة دار ابن خلدون)، وأحمد (٢٥/١، رقم ١٦٨)، والبخاري (٣/١، رقم ١)، ومسلم (١٥١٥/٣، رقم ١٩٠٧)، والترمذي (١٧٩/٤، رقم ١٦٤٧)، وأبو داود (٢٦٢/٢، رقم ٢٢٠١)، والنسائي (١٥٨/٦، رقم ٣٤٣٧)، وابن ماجه (١٤١٣/٢، رقم ٤٢٢٧). وابن المبارك (٦٢/١، رقم ١٨٨)، والحميدي (١٦/١، رقم ٢٨)، والبيهقي (٤١/١، رقم ١٨١)، والطحاوي (٩٦/٣)، =

عن توجيه الفكر إلى مقصد مفيد كالتربية، أو توجيه الجسم إلى عملٍ نافع كتمرين الوجه على الحياء والقلب على الشفقة.

ثم قال: «أيها المسلمون: إني نشأت وشبت وأنا أفكِّر في شأننا الاجتماعي، عسى أهتدي لتشخيص دائنا، فكنتُ أتقصّى السبب بعد السبب، حتى إذا وقعتُ على ما أظنُّه عاماً، أقول: لعلَّ هذا هو جرثومة الدّاء، فأتعمَّق فيه تمحيصاً وأحلِّله تحليلاً، فينكشف التحقيق عن أنَّ ما قام في الفكر هو سبب من جملة الأسباب، أو هو سبب فرعي لا أصلي، فأخيب وأعود إلى البحث والتنقيب. وطالما أمسيتُ وأصبحتُ أجهد الفكر في الاستقصاء، وكثيراً ما سعيتُ وسافرتُ لأستطلع آراء ذوي الآراء، عسى أن أهتدي إلى ما يشفي صدري من آلام بحث أتعبني به ربِّي. وآخر ما استقرَّت عليه سفينة فكري هو:

أنَّ جرثومة دائنا هي خروج ديننا عن كونه دين الفطرة والحكمة، دين

= والطبراني في الأوسط (١٧/١، رقم ٤٠)، والخطيب (٢٤٤/٤)، وابن عساكر (١٦٦/٣٢)، وابن منده في الإيمان (٣٦٣/١، رقم ٢٠١)، وتمام في الفوائد (٢٠٥/١، رقم ٤٨٣)، والصيداوي في معجم الشيوخ (١١٧/١)، وابن خزيمة (٧٣/١، رقم ١٤٢)، والدارقطني (٥٠/١)، وأبو عوانة (٤٨٧/٤، رقم ٧٤٣٨)، والبزار (٣٨٠/١، رقم ٢٥٧)، وهناد (٤٤٠/٢، رقم ٨٧١)، والبيهقي في الزهد (١٣١/٢، رقم ٢٤١)، والحسن بن سفيان في الأربعين (٥٦/١، رقم ١٣)، وابن منده في مسند إبراهيم بن أدهم (ص٢٤، رقم ١٣)، وأبو أحمد الحاكم في شعار أصحاب الحديث (ص٣٥، رقم ٢٠)، والحسن بن على العامرى في الأمالى والقراءة (ص٣٤، رقم ٢٦)، والسلفى في مشيخة ابن الحطاب (ص١٠٢ رقم ١٥)، والهروي في الأربعين في دلائل التوحيد (٣٩/١، رقم ١)، والديلمي (١١٨/١، رقم ٤٠١)، والقضاعي (٣٥/١، رقم ١)، وابن حبان (١١٣/٢، رقم ٣٨٨). ومن طريق أبي سعيد الخدري: أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١٩٦/٢، رقم ١١٧٣) وابن عساكر (٢٣٥/٦٢)، وعن أنس أخرجه ابن عساكر (٢١٩/٧)، وللحديث أطراف أخرى منها: "يا أيها الناس إنما الأعمال بالنيات" وفي مسند عمر من عدة طرق..

النظام والنشاط، دين القرآن الصريح البيان، إلى صيغة أنَّا جعلناه دين الخيال والخبال، دين الخلل والتشويش، دين البِدَع والتشديد، دين الإجهاد. وقد دبَّ فينا هذا المرض منذ ألف عام، فتمكَّن فينا وأثَّر في كلِّ شؤوننا، حتى بلغ فينا استحكام الخلل في الفكر والعمل أننا لا نرى في الخالق ـ جلَّ شأنه ـ نظاماً فيما اتَّصف، نظاماً فيما قضى، نظاماً فيما أمر، ولا نطالب أنفسنا فضلاً عن آمرنا أو مأمورنا بنظامٍ وترتيبٍ واطِّراد ومثابرة.

وهكذا أصبحنا واعتقادنا مشوَّش، وفكرنا مشوَّش، وسياستنا مشوَّشة، ومعيشتنا مشوَّشة. فأين منا والحالة هذه؛ الحياة الفكرية، الحياة العملية، الحياة العائلية، الحياة الاجتماعية، الحياة السياسية؟!».

«يا قومُ: قد ضيَّع دينكم ودنياكم ساستكم الأولون وعلماؤكم المنافقون، وإنّي أرشدكم إلى عملٍ إفرادي لا حرج فيه علماً ولا عملاً: أليس بين جنبي كلِّ فردٍ منكم وجدان يميز الخير من الشرّ، والمعروف من المنكر ولو تمييزاً إجمالياً؟ أما بلغكم قول معلِّم الخير نبيكم الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم: «لتأمرنَّ بالمعروف، ولتنهونَّ عن المنكر، أو ليسلِّطنَّ الله عليكم شراركم، فيدعوا خياركم فلا يستجاب لهم»[(١)]، وقوله: «من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده، وإن لم يستطع فبلسانه، وإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[(٢)]؟!

«وأنتم تعلمون إجماع أئمة مذاهبكم كلِّها على أنَّ أنكر المنكرات بعد الكفر هو الظُّلم الذي فشا فيكم، ثمَّ قتل النَّفس، ثمَّ، وثمَّ،... وقد أوضح العلماء أنَّ تغيير المنكر بالقلب هو بغض المتلبِّس فيه بغضاً في الله. بناءً

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

عليه؛ فمن يعامل الظالم أو الفاسق غير مضطر، أو يجامله ولو بالسلام، يكون قد خسر أضعف الإيمان والعياذ بالله».

«ولا أظنكم تجهلون أنَّ كلمة الشهادة، والصوم والصلاة، والحج والزكاة كلّها لا تغني شيئاً مع فقد الإيمان، إنما يكون القيام حينئذٍ بهذه الشّعائر، قياماً بعاداتٍ وتقليدات وهوسات تضيع بها الأموال والأوقات».

«بناءً عليه؛ فالدين يكلِّفكم إن كنتم مسلمين، والحكمة تُلزِمكم إن كنتم عاقلين: أن تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر جهدكم، ولا أقلّ في هذا الباب من إبطانكم البغضاء للظالمين والفاسقين، وأظنّكم إذا تأمَّلتم قليلاً ترون هذا الدواء السهل المقدور لكلِّ إنسانٍ منكم يكفي لإنقاذكم مما تشكون. والقيام بهذا الواجب متعيّن على كلِّ فرد منكم بنفسه، ولو أهمله كافّة المسلمين. ولو أنَّ أجدادكم الأولين قاموا به لما وصلتم إلى ما أنتم عليه من الهوان. فهذا دينكم، والدّين ما يدين به الفرد لا ما يدين به الجمع، والدين يقينٌ وعمل، لا علمٌ وحِفظٌ في الأذهان. أليس من قواعد دينكم فرض الكفاية وهو أن يعمل المسلم ما عليه غير منتظرٍ غيره؟!».

«فأناشدكم الله يا مسلمين: أن لا يغرَّكم دين لا تعملون به وإن كان خير دين، ولا تغرنَّكم أنفسكم بأنَّكم أمّة خير أو خير أمّة، وأنتم المتواكلون المقتصرون على شعار: لا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم. ونِعْمَ الشِّعار شعار المؤمنين، ولكن؛ أين هم؟ إني لا أرى أمامي أمَّةً تعرف حقاً معنى لا إله إلا الله، بل أرى أمَّةً خبلتها عبادة الظالمين!». اهـ[1].

وهو كلام طب ماهر خبير، عرك الأحداث وعركته، وسبر الناس فعرف طبائعهم، لذلك وضع في كلامه المقصل على المفصل، وإن كان لم يخل

(١) المصدر السابق، ص١٤٦ - ١٤٨.

من مبالغة عندما شدد في السلام على الفاسق، مع أن السلام شعار أمة الإسلام يشترك فيه البر والفاجر، وقد كانت كلماته هذه نفثة مصدور من صدر تزاحمت فيه الأفكار، وتراكمت عليه الهموم من النظر في حال الأمة، والتطلع إلى مآل لها تنجلي فيه الغمة، وتتقشع فيه الغيوم حتى تغدو الحقيقة نصب عيني كل فرد من أفرادها، ولكن مع دويها الهادر خفت صوتها وسط ضجيج أصوات الباطل الصاخبة، التي أبت إلا أن تروِّج للباطل الذي تنصره وتطمر الحق الذي تحاربه، فلذلك لم يستجب لهذه الدعوة إلا من يعد بين الناس من الشواذ الغرباء، الذين يصدق عليهم قول النبي ﷺ: «طوبى للغرباء، طوبى للغرباء، قيل: من الغرباء؟ قال: ناس صالحون قليل، في ناس سوء كثير، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم»[1].

(١) أخرجه الطبراني كما في مجمع الزوائد (٢٥٩/١٠). وأخرجه أيضًا: أحمد (٢٢٢/٢، رقم ٧٠٧٢)، والبيهقي في الزهد الكبير (١١٦/٢، رقم ٢٠٣) قال الهيثمي (٢٥٩/١٠): رواه أحمد والطبراني في الأوسط والكبير... وله في الكبير أسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح.

خَاتِمَة الكِتَاب

بعد هذه الجولة المُضْنِيَة التي قضيتَها معي ـ أخي القارئ الكريم ـ وقد عرجت بنا على منحنيات هذه القضايا المهمة بين أحداث الحاضر وتأريخ الماضي، وغاصت بنا في خضم مسائل تعاركت فيها الألباب واختصمت فيها الفهوم، وتنازعت الحق والحقيقة فيها أطراف كل يدعي أنه استأثر بهما عمن سواه.

وكُلٌّ يَدَّعِي وَصْلاً بلَيْلَى ... وليلى لا تُقِرُّ لَهُم بِذَاكَا

بعد هذا كله، أدعك لراحة البال، وأستودعك الله تعالى، راجيا أن نلتقي في جولة أخرى، أدعى إلى السلم والوفاق والألفة والتصافي، بعد أن يتضح الصبح لكل ذي عينين، وتنكشف الحقيقة، وقد توارت عنها أغشية اللبس وحجب التدليس.

وقبل أن أدع القلم، لا بد لي أن أسجل، بأن ما بثثته في هذه الدراسة لم يكن لي فيه هدف إلا إرضاء الله تعالى، والحرص على أن تصل الحقيقة إلى الأمة بوجهها الوضاء وجلالها المهيب وصورتها الناصعة المشرقة، فلست منحازا إلى فئة من الأمة، وإنما أحمل هم الأمة كلها، ولا أدعو أحدا إلى رأي طائفة من الناس، وإنما أدعو إلى كتاب الله تعالى، والصحيح الثابت من سنة رسوله ﷺ، والاستهداء بهدي السلف الصالح من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ونبذ العصبية إلا للحق، وعدم الكراهية إلا للباطل ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣١ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ

مُّبِينٍ ﴾ [الأحقاف: ٣١-٣٢]، وما أعظم فرحتي عندما تجتمع الأمة على كلمة سواء، تُحَكِّمُ كتاب ربها وسنة نبيها عليه أفضل الصلاة والسلام، عملا بقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].

كما أدعو الجميع إلى التفاني في نصرة الحق ودفع الباطل، فإن الحق أحق أن يتبع، ولو جاء به أبغض الناس، والباطل أولى أن يدفع ويزهق، ولو تلبس به أقرب الناس، وأن يعرف الرجال بالحق لا الحق بالرجال.

ولا يظنن ظان أن ما قلته ناشئ عن حقد على طائفة بعينها من الناس، سواء بنو أمية أو بنو العباس أو غيرهما، فنحن إنما مشكلتنا مع الجور والظلم والفساد في الأرض، لا مع هؤلاء ولا هؤلاء، فمن حكام بني أمية عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه، وقد توليناه وواليناه عندما حكم فعدل، وقسم فساوى، واتقى الله في سره وعلانيته، فكان مثالا للحاكم المسلم الذي يخشى الله ويتقيه، ويحمل هم عباده.

أما بنو العباس، فإنهم ينحدرون نسبا من حبر الأمة وترجمان القرآن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، الذي نعده نجما من ألمع نجوم الهداية في الأمة، وقد أخذ أسلافنا عنه الفكر والفقه وتربى أئمتهم على يديه فاستبصروا ببصيرته واهتدوا بهداه، ومن قبله أبوه عم رسول الله ﷺ العباس ابن عبدالمطلب رضي الله عنه، الذي عده رسول الله ﷺ بمثابة الأب، وقال: «أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه»[1] فلم نقف منهم موقفا سلبيا لأنهم بنو العباس، ولكن بما قارفوه من

(١) أخرجه أحمد (٢/٣٢٢، رقم ٨٢٦٧)، والبخاري (٢/٥٣٤، رقم ١٣٩٩)، ومسلم (٢/٦٧٦، رقم ٩٨٣)، وأبو داود (٢/١١٥، رقم ١٦٢٣)، والنسائي (٥/٣٣، رقم ٢٤٦٤). وأخرجه أيضًا: عبدالرزاق (٤/١٨، رقم ٦٨٢٦)، والدارقطني (٢/١٢٣)، وابن حبان (٨/٦٧، رقم ٣٢٧٣)، والبيهقي (٤/١١١، رقم ٧١٦٠).

الجور ورزأوا به الأمة من الظلم، ولا يشفع لهم أنهم ينحدرون من تلك السلالة الطيبة الطاهرة، فقد قيل لنوح ﷺ في ابنه: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ [هود: ٤٦]، «ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»[1].

وأخيرا أعتذر إلى القارئ الكريم إذ لم أجعل خطة كتابي هذا شارحة لجميع دقائق موضوعاته التي أتناولها في البحث، فإني لم يكن في مخيلتي أنه سيتسع إلى حد ما وصل إليه، وإنما شرعت فيه على أنه بحث محدود في قضية معينة وقتية، غير أن اليراع استرسل حتى أتى على قضايا عدة غابرة وحاضرة جر بعضها بعضا، ولم أرد أن أكبح نشاطه أو أقيد سيره وإنما أطلقت له العنان، فطاف في هذه الأرجاء، وأرجو أن لا يكون في أمر ما تجاوز حدود الحق إلى الباطل، وما أردت بهذا كله إلا أن أجلي الحقيقة المغيبة وأنصر الحق المهضوم، ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

وأسأل الله تعالى أن يوفقني وجميع المسلمين، للاعتصام بحبل الله المتين، واتباع نوره المبين، وسلوك صراطه المستقيم، وأن يهيئ الله لنا من أمرنا رشدا.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وسلام على عباد الله الصالحين

تونس الخضراء

٥ صفر الخير ١٤٣٤هـ

أحمد بن حمد الخليلي

(١) حديث شريف، أخرجه أحمد (٢/٢٥٢، رقم ٧٤٢١)، ومسلم (٤/٢٠٧٤، رقم ٢٦٩٩)، وأبو داود (٤/٢٨٧، رقم ٤٩٤٦)، والترمذي (٥/١٩٥، رقم ٢٩٤٥)، وابن ماجه (١/٨٢، رقم ٢٢٥)، وابن حبان (٢/٢٩٢، رقم ٥٣٤).

المصادر والمراجع

١ ـ **الإباضية في موكب التاريخ؛** الحلقة الأولى «نشأة المذهب الإباضي»، علي يحيى معمر، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع سلطنة عُمان السيب، الطبعة الثالثة، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

٢ ـ **الإبهاج في شرح المنهاج على منهاج الوصول إلى علم الأصول؛** للبيضاوي، علي بن عبد الكافي السبكي الوفاة: ٧٥٦هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٤هـ، الطبعة: الأولى.

٣ ـ **إجمال الإصابة في أقوال الصحابة،** خليل بن كيكلدي العلائي، جمعية إحياء التراث الإسلامي، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧، تحقيق: د. محمد سليمان الأشقر.

٤ ـ **أحكام القرآن،** أبو بكر محمد بن عبد الله ابن العربي، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان، تحقيق: محمد عبد القادر عطا.

٥ ـ **أحكام القرآن،** أحمد بن علي الرازي الجصاص أبو بكر الوفاة: ٣٧٠هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي.

٦ ـ **أحكام أهل الذمة،** أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي الوفاة: ٧٥١هـ، رمادى للنشر، دار ابن حزم، الدمام، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، الطبعة: الأولى، تحقيق: يوسف أحمد البكري، شاكر توفيق العاروري.

٧ ـ **أخبار الأئمة الرســتميين لابن الصغير**، تحقيق وتعليق د. محمد ناصر، أ. إبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي.

٨ ـ **الأخبار الطوال**، أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري الوفاة: ٢٨٢هـ، دار الكتــب العلميــة، بيروت/لبنــان، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. عصام محمد الحاج علي.

٩ ـ **إرشاد العقل الســليم إلى مزايا القرآن الكريم**، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٠ ـ **الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى**، أبو العباس أحمد بن خالد بن محمــد الناصــري الوفــاة: ١٣١٥هـ، دار الكتــاب، الــدار البيضاء، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، تحقيق: جعفر الناصري/ محمد الناصري.

١١ ـ **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، عز الدين بن الأثير أبي الحسن علي بن محمد الجزري الوفــاة: ٦٣٠هـ، دار إحياء التــراث العربي، بيروت / لبنان، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عادل أحمد الرفاعي، فتح الباري، ج١٣، ص٢٠٧.

١٢ ـ **إســعاف الأعيان في أنســاب أهل عُمان**، ســالم بن حمود الســيابي، منشورات المكتب الإسلامي، ١٣٨٤هـ.

١٣ ـ **أســماء الخلفاء والولاة وذكــر مددهم**، أبو محمــد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلســي الوفاة: ٤٥٦هـ، المؤسسة العربية للدراسات والنشــر، بيروت / لبنان، ١٩٨٧م، الطبعة: الثانية، تحقيق: د. إحســان عباس.

١٤ ـ **أصول السرخســي**، محمد بن أحمد بن أبي ســهل السرخسي أبو بكر الوفاة: ٤٩٠هـ، دار المعرفة، بيروت.

١٥ ـ **الاعتصام**، أبو إسحاق الشاطبي الوفاة: ٧٩٠هـ، المكتبة التجارية الكبرى، مصر.

١٦ ـ **الأغاني**، أبو الفرج الأصبهاني، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان، تحقيق: علي مهنا وسمير جابر.

١٧ ـ **الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء**، أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي الوفاة: ٦٣٤هـ، عالم الكتب، بيروت، ١٤١٧هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. محمد كمال الدين عز الدين علي.

١٨ ـ **الإمامة والسياسة**، أبو محمد عبدالله بن مسلم ابن قتيبة الدينوري الوفاة: ٢٧٦هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.، تحقيق: خليل المنصور.

١٩ ـ **أنساب الأشراف**، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري الوفاة: ٢٧٩.

٢٠ ـ **دستور أمة الإسلام**، دراسة في أصول الحكم وطبيعته وغايته عند المسلمين، حسين مؤنس، دار الرشاد.

٢١ ـ **انهيار الدولة العثمانية**، المكتبة الشاملة.

٢٢ ـ **الأوائل** للعسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفي: نحو ٣٩٥هـ).

٢٣ ـ **البدء والتاريخ**، المطهر بن طاهر المقدسي الوفاة: ٥٠٧هـ، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد.

٢٤ ـ **البداية والنهاية**، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء الوفاة: ٧٧٤هـ، مكتبة المعارف، بيروت.

٢٥ ـ **بدائع السلك**، إبن الأزرق، الوفاة: ٨٩٦هـ، وزارة الإعلام، العراق، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. علي سامي النشار.

٢٦ ـ **البرهان في أصول الفقه**، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني أبو المعالي الوفاة: ٤٧٨هـ، الوفاء، المنصورة، مصر، ١٤١٨هـ، الطبعة: الرابعة، تحقيق: د. عبد العظيم محمود الديب.

٢٧ ـ **البصائر والذخائر**، أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي الوفاة: ٤١٤هـ، دار صادر، بيروت/لبنان، ١٤١٩هـ/٩٩٩م، الطبعة: الراجعة، تحقيق: د. وداد القاضي

٢٨ ـ **بغية الطلب في تاريخ حلب**، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة الوفاة: ٦٦٠هـ، ج٧، ص٣٠٨٥، دار الفكر، تحقيق: د. سهيل زكار.

٢٩ ـ **تاريخ ابن الوردي**، زين الدين عمر بن مظفر الشهير بابن الوردي الوفاة: ٧٤٩هـ، دار الكتب العلمية، لبنان / بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، الطبعة: الأولى.

٣٠ ـ **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي الوفاة: ٧٤٨هـ، دار الكتاب العربي، لبنان/ بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمرى.

٣١ ـ **تاريخ الخلفاء**، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي الوفاة: ٩١١هـ، ص٢٠٩، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد.

٣٢ ـ **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، فريد بك المحامي، المكتبة الشاملة.

٣٣ ـ **تاريخ الطبري**، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري الوفاة: ٣١٠هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٤ ـ **تاريخ المدينة المنورة**، أبو زيد عمر بن شبة النميري البصري الوفاة: ٢٦٢هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، تحقيق: علي محمد دندل وياسين سعد الدين بيان

٣٥ ـ **تاريخ اليعقوبي**، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي الوفاة: ٢٩٢هـ، دار صادر، بيروت.

٣٦ ـ **تاريخ خليفة بن خياط**، خليفة بن خياط الليثي العصفري أبو عمر الوفاة: ٢٤٠هـ، دار القلم ، مؤسسة الرسالة، دمشق، بيروت، ١٣٩٧هـ، الطبعة: الثانية، تحقيق: د. أكرم ضياء العمري،

٣٧ ـ **البيان والتبيين**، الجاحظ الوفاة: ٢٥٥هـ، دار صعب، بيروت، تحقيق: فوزي عطوي.

٣٨ ـ **تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، عبدالرحمن بن حسن الجبرتي، ١٢٣٧هـ، دار الجيل، بيروت.

٣٩ ـ **تاريخ مختصر الدول**، غريغوريوس بن اهرون الملطي، المعروف بابن العبري المتوفى: ٦٨٥هـ،.

٤٠ ـ **تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل**، أبي القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله بن عبدالله الشافعي الوفاة: ٥٧١هـ، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م، تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري،

٤١ ـ **التحبير شرح التحرير في أصول الفقه**، علاء الدين أبي الحسن علي بن سليمان المرداوي الحنبلي الوفاة: ٨٨٥هـ، مكتبة الرشد، السعودية / الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. عبدالرحمن الجبرين، د. عوض القرني، د. أحمد السراح.

٤٢ ـ **تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان**، نور الدين عبدالله بن حميد السالمي، مكتبة الإمام نور الدين السالمي، السيب، الحيل. ٢٠٠٠م.

٤٣ ـ **تحفة التحصيل في ذكر رواة المراسيل**، ولي الدين أحمد بن عبدالرحيم بن الحسين أبي زرعة العراقي، مكتبة الرشد، الرياض، ١٩٩٩م، تحقيق: عبدالله نوارة.

٤٤ ـ **تحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك**، إبراهيم بن علي بن أحمد بن عبدالواحد ابن عبدالمنعم الطرسوسي، نجم الدين الوفاة: ٧٥٨هـ.

٤٥ ـ **تحفة الحبيب على شرح الخطيب** (البجيرمي على الخطيب)، سليمان بن محمد بن عمر البجيرمي الشافعي الوفاة: ١٢٢١هـ، دار الكتب العلمية، بيروت/ لبنان، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، الطبعة: الأولى.

٤٦ ـ **التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة**، الإمام السخاوي الوفاة: ٩٠٢هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، الطبعة: الأولى.

٤٧ ـ **تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي**، عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي الوفاة: ٩١١هـ، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف.

٤٨ ـ **التذكرة الحمدونية**، ابن حمدون محمد بن الحسن بن محمد بن علي الوفاة: ٦٠٨هـ، دار صادر، بيروت/لبنان، ١٩٩٦م، الطبعة: الأولى، تحقيق: إحسان عباس، بكر عباس.

٤٩ ـ **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي الأندلسي الوفاة: ٥٤٤هـ، دار

الكتب العلميــة، بيروت / لبنــان، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، الطبعة: الاولي، تحقيق: محمد سالم هاشم.

٥٠ ـ **تصحيح أثر تأريخي حول الوهابية**، محمد بن ســعد الشويعر، الطبعة الثالثة ١٤١٩هـ.

٥١ ـ **تطبيق مبادئ الشريعة الإســلامية في المواقف العسكرية**، بحث مقدم إلى نــدوة الاحتفال بالإمــام المختار أبي حمزة الشــارى رَحِمَهُ ٱللَّهُ، التي أقامتهــا دار الإفتــاء ورعاية الشــباب ســنة ١٤١٠ه، بســلطنة عُمان، عبدالمعز عبدالستار، دار الطباعة والنشر الإسلامية، مدينة نصر القاهرة ٢٠٠١م.

٥٢ ـ **تطور الفكر السياســي الســني نحو خلافة ديمقراطية**، أحمد الكاتب، مؤسسة الانتشار العربية.

٥٣ ـ **التعديل والتجريــح**، لمن خرج لــه البخاري في الجامــع الصحيح، ســليمان بن خلف بــن ســعد أبو الوليد الباجــي، دار اللواء للنشــر والتوزيع، الريــاض، ١٤٠٦، ١٩٨٦، الطبعة: الأولــى، تحقيق: د. أبو لبابة حسين.

٥٤ ـ **تفســير البحر المحيط**، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، دار الكتب العلمية، لبنان/ بيروت، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، الطبعة: الأولى، تحقيق: الشــيخ عادل أحمد عبدالموجود، الشيخ علي محمد معوض، شــارك في التحقيق: د. زكريا عبدالمجيد النوقــي/ د. أحمد النجولي الجمل.

٥٥ ـ **تفسير البغوي**، البغوي، دار المعرفة، بيروت، تحقيق: خالد عبدالرحمن العك.

٥٦ ـ **تفسير السراج المنير**، محمد بن أحمد الشربيني، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٥٧ ـ **تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم**، نصر بن محمد بن أحمد أبو الليث السمرقندي، دار الفكر، بيروت، تحقيق: د. محمود مطرجي.

٥٨ ـ **تفسير القرآن الحكيم** (**تفسير المنار**)، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (المتوفى: ١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

٥٩ ـ **تفسير القشيري المسمى لطائف الإشارات**، أبو القاسم عبدالكريم بن هوازن بن عبدالملك القشيري النيسابوري الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت /لبنان، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبداللطيف حسن عبدالرحمن تفسير السمعاني.

٦٠ ـ **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب**، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي الوفاة: ٦٠٤هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، الطبعة: الأولى.

٦١ ـ **تفسير النسفي**، أبي البركات عبدالله ابن أحمد بن محمود النسفى. الجامع الكبير الإلكتروني.

٦٢ ـ **تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان**، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت / لبنان، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، الطبعة: الأولى، تحقيق: الشيخ زكريا عميران.

٦٣ ـ **تقريب التهذيب**، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار الرشيد، سوريا، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد عوامة.

٦٤ ـ **التقريـر والتحرير في علم الأصول**، ابن أمير الحـاج. الوفاة: ٨٧٩هـ، دار الفكر، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

٦٥ ـ **تلخيص الحبير في أحاديث الرافعي الكبيـر**، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضـل العسـقلاني الوفـاة: ٨٥٢هـ، المدينـة المنـورة، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م، تحقيق: السيد عبدالله هاشم اليماني المدني.

٦٦ ـ **التمهيد في تخريـج الفروع علـى الأصول**، عبدالرحيم بن الحسـن الأسنوي أبو محمد الوفاة: ٧٧٢هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٠، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. محمد حسن هيتو.

٦٧ ـ **تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسـول الله من الأخبار**، أبي جعفر محمد بن جرير بن يزيـد الطبري الوفـاة: ٣١٠هـ، مطبعـة المدني، القاهرة، تحقيق: محمود محمد شاكر.

٦٨ ـ **تهذيب التهذيـب**، أحمد بن علي بـن حجر أبو الفضل العسـقلاني الشافعي، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، الطبعة: الأولى.

٦٩ ـ **تهذيب الكمال**، يوسـف بن الزكي عبدالرحمـن أبو الحجاج المزي الوفاة: ٧٤٢هـ، مؤسسـة الرسـالة، بيروت، ١٤٠٠، ١٩٨٠م، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. بشار عواد معروف.

٧٠ ـ **تهذيب اللغـة**، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهـري الوفاة: ٣٧٠هـ، دار إحيـاء التراث العربي، بيـروت، ٢٠٠١م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد عوض مرعب.

٧١ ـ **توضيح الأفـكار لمعاني تنقيـح الأنظار**، محمد بن إسـماعيل الأمير الحسني الصنعاني الوفاة: ١١٨٢هـ، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد.

٧٢ ـ **تيسير التحرير**، محمد أمين المعروف بأمير بادشاه الوفاة: ٩٧٢هـ، دار الفكر، بيروت.

٧٣ ـ **الثقات**، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، دار الفكر، ١٣٩٥، ١٩٧٥، الطبعة: الأولى، تحقيق: السيد شرف الدين أحمد.

٧٤ ـ **جامع الاحاديث** (ويشتمل على جمع الجوامع للسيوطى والجامع الأزهر وكنوز الحقائق للمناوى، والفتح الكبير للنبهانى)، الحافظ جلال الدين عبدالرحمن السيوطي، الوفاة: ١٩/جمادى الاولى / ٩١١هـ، دار الفكر، ١٩٩٤، ١٤١٤هـ، ضبط نصوصه وخرج أحاديثه: فريق من الباحثين بإشراف د. على جمعة (مفتي الديار المصرية)، طبع على نفقة: الأستاذ الدكتور حسن عباس زكى. الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م. جميع تخريجات الأحاديث بناء على تخريجات هذا الكتاب.

٧٥ ـ **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري أبو جعفر الوفاة: ٣١٠هـ، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥.

٧٦ ـ **الجامع الصحيح مسند الإمام الربيع بن حبيب**، الربيع بن حبيب بن عمر الأزدي البصري، دار الحكمة، مكتبة الاستقامة، بيروت، سلطنة عُمان، ١٤١٥هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد إدريس، عاشور بن يوسف.

٧٧ ـ **الجامع الكبير لكتب التراث الإسلامي والعربي**، ١٤٢٨هـ، ١٤٢٩هـ الإصدار الرابع، المراجع بحسب ترتيب هذا الجامع، الذي يزيد في بعض الأحيان بصفحة عن المطبوع.

٧٨ ـ **الجامع لأحكام القرآن**، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الشعب، القاهرة.

٧٩ ـ **الجماهر في معرفة الجواهر**، أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني الوفاة: ٤٤٠هـ.

٨٠ ـ **جمهرة أنساب العرب**، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي الوفاة: ٤٥٦هـ، دار الكتب العلمية، بيروت / لبنان، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، الطبعة: الثالثة.

٨١ ـ **جمهرة خطب العرب**، أحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية، بيروت.

٨٢ ـ **جمهرة نسب قريش وأخبارها**، الزبير بن بكار بن عبد الله (المتوفي: ٢٥٦هـ).

٨٣ ـ **جوامع السيرة**، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي الوفاة: ٤٥٦هـ.

٨٤ ـ **الجواهر الحسان في تفسير القرآن**، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

٨٥ ـ **جوهر النظام في علمي الأديان والأحكام**، نور الدين أبي محمد عبد الله بن حميد بن سلوم السالمي العُماني، تحقيق أبو إسحاق إبراهيم اطفيش، دار الفاروق للطباعة والنشر والتوزيع.

٨٦ ـ **الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة**، محمد بن أبي بكر الأنصاري التلمساني المعروف بالبري (المتوفي: ٦٤٤هـ).

٨٧ ـ **حاشية الشيخ سليمان الجمل على شرح المنهج** (لزكريا الأنصاري)، سليمان الجمل، دار الفكر، بيروت.

٨٨ ـ **حاشية الصاوي على الجلالين**، طبع بمطبعة دار إحياء الكتب العربية لأصحابها عيسى البابي الحلبي وشركاءه.

٨٩ ـ **حاشية العطار**، حسن بن محمد العطار، المتوفى: ١٢٥٠هـ.

٩٠ ـ **حاشية رد المحتار على الدر المختار** شرح تنوير الأبصار في فقه أبي حنيفة، ابن عابدين. الوفاة: ١٢٥٢هـ، دار الفكر للطباعة والنشر.، بيروت.، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

٩١ ـ **الحاوي للفتاوي** في الفقه وعلوم التفسير والحديث والأصول والنحو والإعراب وسائر الفنون، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي الوفاة: ٩١١هـ، دار الكتب العلمية، بيروت / لبنان، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبداللطيف حسن عبدالرحمن.

٩٢ ـ **الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السُّنَّة**، أبو القاسم اسماعيل ابن محمد بن الفضل التيمي الأصبهاني، دار الراية، السعودية / الرياض، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، الطبعة: الثانية، تحقيق: محمد بن ربيع بن هادي عمير المدخلي.

٩٣ ـ **الحركة الإباضية في المشرق العربي**، مهدي طالب هاشم، دار الحكمة، لندن.

٩٤ ـ **الحرية أو الطوفان**، دراسة موضوعية للخطاب السياسي الشرعي ومراحله التأريخية، بقلم د. حاكم المطيري، سنة النشر ٢٠٠٣م.

٩٥ ـ **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، أبو نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني الوفاة: ٤٣٠هـ، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٥، الطبعة: الرابعة.

٩٦ ـ **حواشي الشرواني على تحفة المحتاج بشرح المنهاج**، عبدالحميد الشرواني دار الفكر، بيروت.

٩٧ ـ **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**، عبدالقادر بن عمر البغدادي الوفاة: ١٠٩٣هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد نبيل طريفي/إميل بديع اليعقوب.

٩٨ ـ **الخصائص الكبرى**، أبو الفضل جلال الدين عبدالرحمن أبي بكر السيوطي الوفاة: ٩١١هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٩٩ ـ **الخوارج والحقيقة الغائبة**، لناصر بن سليمان السابعي، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

١٠٠ ـ **الدرر السنية في الأجوبة النجدية**، علماء نجد الأعلام، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ط٦.

١٠١ ـ **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، الحافظ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني الوفاة: ٨٥٢هـ/ ١٤٤٩م، مجلس دائرة المعارف العثمانية، صيدر اباد/ الهند، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، الطبعة: الثانية، تحقيق: مراقبة / محمد عبدالمعيد ضان.

١٠٢ ـ **دلائل الإعجاز**، الإمام عبدالقاهر الجرجاني الوفاة: ٤٧١هـ، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. التنجي.

١٠٣ ـ **دلائل النبوة**، للبيهقي الوفاة: ٤٥٨هـ. باقي البيانات لا يوجد (الجامع الكبير، القرص الصلب الإلكتروني).

١٠٤ ـ **دولة الخلافة العثمانية** (عصر الفاتحين، السقوط والانهيار، الإسلاميون الجدد)، رضا الطيب، المكتبة الشاملة.

١٠٥ ـ **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**، إبراهيم بن

علي بن محمد بن فرحــون اليعمــري المالكي الوفــاة: ٧٩٩هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٠٦ ـ **ديوان أبي مسلم،** ناصر بن ســالم بن عديم الرواحي، دار المختار، ١٩٨٦م.

١٠٧ ـ **ديوان شوقي «الشوقيات»** تعليق د. يحي شــامي، دار الفكر العربي، مؤسسة ثقافية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

١٠٨ ـ **ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى،** محب الدين أحمد بن عبدالله الطبري الوفاة: جمادى الآخرة / ٦٩٤هـ، دار الكتب المصرية، مصر.

١٠٩ ـ **ربيع الأبرار،** أبو القاســم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشــري جار الله، الوفاة: ٥٣٨هـ.

١١٠ ـ **رفع الحاجب عــن مختصر ابن الحاجــب،** تاج الديــن أبي النصر عبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي الســبكي الوفــاة: ٦٤٦هـ، عالم الكتب، لبنــان، بيروت، ١٩٩٩م، ١٤١٩هـ، الطبعــة: الأولى، تحقيق: علي محمد معوض، عادل أحمد عبدالموجود.

١١١ ـ **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني،** لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوســي البغدادي الوفاة: ١٢٧٠هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١١٢ ـ **زاد المسير في علم التفسير،** عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي الوفاة: ٥٩٧هـ، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٤، الطبعة: الثالثة.

١١٣ ـ **السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي،** محمد سعيد رمضان البوطي. دار الفكر/ دمشق.

١١٤ ـ **السلوك في طبقات العلماء والملوك**، بهاء الدين محمد بن يوسف بن يعقوب الجندي الكندي الوفاة: قبل سنة ٧٣٢هـ، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ١٩٩٥م، الطبعة: الثانية، تحقيق: محمد بن علي بن الحسين الأكوع الحوالي.

١١٥ ـ **سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي**، عبدالملك بن حسين بن عبدالملك الشافعي العاصمي المكي الوفاة: ١١١١هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، علي محمد معوض.

١١٦ ـ **السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية**، أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني الوفاة: ٧٢٨هـ، دار المعرفة.

١١٧ ـ **سير أعلام النبلاء**، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبدالله الوفاة: ٧٤٨هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٣، الطبعة: التاسعة، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ، محمد نعيم العرقسوسي.

١١٨ ـ **السير**، لأحمد بن سعيد الشماخي، سلطنة عُمان وزارة التراث القومي والثقافة، ١٤٠٧هـ، تحقيق أحمد بن سعود السيابي.

١١٩ ـ **السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون**، علي بن برهان الدين الحلبي الوفاة: ١٠٤٤هـ، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٠.

١٢٠ ـ **السيرة النبوية**، العلامة الداعية الحكيم أبو الحسن علي الحسني الندوي (ت١٤٢٠هـ)، دار القلم، دمشق.

١٢١ ـ **سيرة عمر بن عبدالعزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه**، لأبي محمد عبدالله بن عبدالحكم الوفاة: رمضان ٢١٤هـ، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، الطبعة: السادسة، تحقيق: أحمد عبيد.

١٢٢ ـ **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي الوفاة: ١٠٨٩هـ، دار بن كثير، دمشق، ١٤٠٦هـ، الطبعة: ط١، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، محمود الأرناؤوط.

١٢٣ ـ **شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة**، محمد حسن عبد الغفار، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية. الدرس٦١، المكتبة الشاملة.

١٢٤ ـ **شرح تفسير ابن كثير**، عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن الراجحي، الدرس٢٦، المكتبة الشاملة.

١٢٥ ـ **شرح سنن أبي داود**، عبد المحسن بن حمد بن عبد المحسن بن عبد الله بن حمد العباد البدر، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية، درس ٤٨٦.

١٢٦ ـ **شرح صحيح البخاري**، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال البكري القرطبي الوفاة: ٤٤٩هـ، مكتبة الرشد، السعودية / الرياض، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، الطبعة: الثانية، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم.

١٢٧ ـ **شرح علل الترمذي**، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ) مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، الدكتور همام عبد الرحيم سعيد.

١٢٨ ـ **شرح فتح القدير**، كمال الدين محمد بن عبد الواحد السيواسي الوفاة: ٦٨١هـ، دار الفكر، بيروت، الطبعة: الثانية.

١٢٩ ـ **شرح معاني الآثار**، أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة أبو جعفر الطحاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٩، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد زهري النجار.

١٣٠ ـ **الشعر والشعراء**، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ).

١٣١ ـ **صحيح مسلم بشرح النووي**، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي الوفاة: ٦٧٦هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٩٢، الطبعة الثانية.

١٣٢ ـ **الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية**، عبدالعزيز المجدوب، الدار التونسية، الحركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٧٥/١٣٩٥م.

١٣٣ ـ **صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار**، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن عبدالمنعم الحميري الوفاة: بعد ٨٦٦هـ، دار الجيل، بيروت / لبنان، ١٤٠٨ ه، ١٩٨٨م، الطبعة: الثانية، تحقيق: إ. لافي بروفنصال.

١٣٤ ـ **صفوة الصفوة**، عبدالرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج، الوفاة: ٥٩٧هـ، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٩، ١٩٧٩، الطبعة: الثانية، تحقيق: محمود فاخوري، د. محمد رواس قلعه جي.

١٣٥ ـ **الصواعق الإلهية في الرد على الوهابية**، سليمان بن عبدالوهاب النجدي، الطبعة الثالثة، المكتبة التخصصية في الرد على الوهابية.

١٣٦ ـ **الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة**، أبو العباس أحمد بن محمد بن علي ابن حجر الهيثمي الوفاة: ٩٧٣هـ، مؤسسة الرسالة، لبنان، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبدالرحمن بن عبدالله التركي، كامل محمد الخراط

١٣٧ ـ **كتاب الضعفاء والمتروكين**، أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب

النسائي، دار الوعي، حلب، ١٣٩٦هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمود إبراهيم زايد.

١٣٨ ـ **كتـاب الضعفاء والمتروكيـن**، عبدالرحمن بـن علي بن محمد بن الجوزي أبو الفـرج، دار الكتب العلمية، بيـروت، ١٤٠٦هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبدالله القاضي.

١٣٩ ـ **طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد**، عبدالرحمن بن أحمد بن مسعود الكَوَاكِبِي يلقب بالسيد الفراتي (المتوفى: ١٣٢٠هـ)، المطبعة العصرية، حلب، الطبعة: طبعة جديدة منقحة ومضافة بقلم المؤلف.

١٤٠ ـ **الطبقـات الكبـرى**، محمد بن سـعد بن منيع أبو عبـدالله البصري الزهري الوفاة: ٢٣٠، دار صادر، بيروت.

١٤١ ـ **طبقات المشايخ**، للدرجيني...

١٤٢ ـ **طلعة الشمس**، عبدالله بن حميد بن سلوم السالمي.

١٤٣ ـ **العدالة الاجتماعية في الإسـلام**، سـيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ط١٣.

١٤٤ ـ **العقد الفريد**، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي الوفاة: ٣٢٨هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت /لبنان، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، الطبعة: الثالثة.

١٤٥ ـ **العلل المتناهيـة في الأحاديـث الواهيـة**، عبدالرحمن بن علي بن الجوزي الوفـاة: ٥٩٧هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣، الطبعة: الأولى، تحقيق: خليل الميس.

١٤٦ ـ **عُمـان الديمقراطية الإسـلامية**، تقاليـد الإمامة والتاريخ السياسـي الحديث (١٥٠٠، ١٩٧٠). د. حسين غباش.

١٤٧ ـ **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**، بدر الدين محمود بن أحمد العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٤٨ ـ **عنوان المجد في تأريخ نجد**، عثمان بن عبدالله بن بشر النجدي الحنبلي، ج١، ص٤٦، مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز، الطبعة الرابعة، الرياض ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

١٤٩ ـ **عيون الأخبار**، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفي: ٢٧٦هـ).

١٥٠ ـ **غاية البيان شرح زبد ابن رسلان**، محمد بن أحمد الرملي الأنصاري الوفاة: ١٠٠٤هـ، دار المعرفة، بيروت.

١٥١ ـ **غرر الخصائص الواضحة**، أبو إسحق برهان الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى بن علي المعروف بالوطواط (المتوفي: ٧١٨هـ).

١٥٢ ـ **غياث الأمم والتياث الظلم**، عبدالملك بن عبدالله بن يوسف الجويني أبو المعالي الوفاة: ٤٧٨هـ، دار الدعوة، الاسكندرية، ١٩٧٩، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم، د. مصطفى حلمي.

١٥٣ ـ **الفتاوى الحديثية**، أحمد شهاب الدين ابن حجر الهيتمي المكي الوفاة: ٩٧٣هـ، دار الفكر.

١٥٤ ـ **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي الوفاة: ٨٥٢هـ، دار المعرفة، بيروت، تحقيق: محب الدين الخطيب.

١٥٥ ـ **الفتح الجليل من أجوبة الإمام أبي خليل**، جمع وترتيب سالم بن حمد الحارثي، طبع بإشراف عز الدين التنوخي، مجمع العلمي العربي بدمشق ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م، الطبعة العمومية بدمشق.

١٥٦ ـ **الفتنة ووقعة الجمل**، سيف بن عمر الضبي الأسدي الوفاة: ٢٠٠هـ، دار النفائس، بيروت، ١٣٩١هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: أحمد راتب عرموش.

١٥٧ ـ **فتوح البلدان**، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري الوفاة: ٢٧٩هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣، تحقيق: رضوان محمد رضوان.

١٥٨ ـ **فتوح مصر وأخبارها**، أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله عبدالحكم بن أعين القرشي المصري الوفاة: ٢٥٧هـ/ ٨٧١م، دار الفكر، بيروت، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد الحجيري.

١٥٩ ـ **الفتوحات المكية في معرفة الأسرار الملكية**، محيي الدين بن علي بن محمد الطائي الخاتمي الوفاة: ٦٣٨/٤/٢٢هـ، دار إحياء التراث العربي، لبنان، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، الطبعة: الأولى.

١٦٠ ـ **الفرق بين الإباضية والخوارج**، تأليف الشيخ العلامة إبي إسحاق إبراهيم إطفيش، ص١٢، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عُمان، السيب.

١٦١ ـ **الفروق أو أنوار البروق في أنواء الفروق**، أبو العباس أحمد بن إدريس الصنهاجي القرافي الوفاة: ٦٨٤هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، الطبعة: الأولى، تحقيق: خليل المنصور.

١٦٢ ـ **السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي**، محمد سعيد رمضان البوطي، ص٤٧، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان.

١٦٣ ـ **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري أبو محمد الوفاة: ٥٤٨هـ، مكتبة الخانجي، القاهرة.

١٦٤ ـ **فضائل الصحابة،** أبو الحســن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي الدارقطني (المتوفى: ٣٨٥هـ).

١٦٥ ـ **الفقيــه والمتفقه؛** الحافــظ أبو بكر الخطيب البغــدادي؛ دار الكتب العلمية، بيروت.

١٦٦ ـ **الفكر والمجتمــع في حضرمــوت،** كرامة مبارك ســليمان بامؤمن، الجمهورية اليمنية، الطبعة الأولى.

١٦٧ ـ **فوات الوفيات،** محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي الوفاة: ٧٦٤هـ، دار الكتــب العلمية، بيــروت، ٢٠٠٠م، الطبعــة: الأولــى، تحقيق: علي محمد بن يعوض الله/عادل أحمد عبدالموجود.

١٦٨ ـ **الفواكــه الدواني على رســالة ابن أبــي زيد القيروانــي،** أحمد بن غنيم بن سالم النفراوي المالكي الوفاة: ١١٢٥هـ، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥.

١٦٩ ـ **في ظلال القرآن،** تفسير سيد قطب، دار الشروق.

١٧٠ ـ **فيض القدير شــرح الجامع الصغيــر،** عبدالرؤوف المنــاوي الوفاة: ١٠٣١هـ، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١٣٥٦هـ، الطبعة: الأولى.

١٧١ ـ **قواعد التحديث من فنــون مصطلح الحديث،** محمــد جمال الدين القاســمي الوفــاة: ١٣٣٢هـ، دار الكتــب العلميــة، بيــروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، الطبعة: الأولى.

١٧٢ ـ **الكامل فــي التاريــخ،** أبو الحســن علي بن أبي الكــرم محمد بن محمد بن عبدالكريم الشــيباني، الوفاة: ٦٣٠هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ، الطبعة: ط٢، تحقيق: عبدالله القاضي.

١٧٣ ـ **كتاب الأموال**، أبو عبيد القاسم بن سلام الوفاة: ٢٢٤هـ، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.، تحقيق: خليل محمد هراس.

١٧٤ ـ **كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية**، أحمد عبدالحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، مكتبة ابن تيمية، الطبعة: الثانية، تحقيق: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي.

١٧٥ ـ **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي الوفاة: ٥٣٨هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق: عبدالرزاق المهدي.

١٧٦ ـ **كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي**، علاء الدين عبدالعزيز بن أحمد البخاري الوفاة: ٧٣٠هـ.، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.، تحقيق: عبدالله محمود محمد عمر.

١٧٧ ـ **كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة**، سرحان بن سعيد الأزكوي، تحقيق وتقديم أ. د. محمد حبيب صالح، د. محمود بن مبارك السليمي، ط١، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م.

١٧٨ ـ **الكشف والبيان (تفسير الثعلبي)**، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري الوفاة: ٤٢٧هـ/١٠٣٥م، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، الطبعة: الأولى، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق الأستاذ نظير الساعدي.

١٧٩ ـ **الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفومي الوفاة: ١٠٩٤هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري.

١٨٠ ـ **الكوكب الدري فيما يتخرج على الأصول النحوية من الفروع الفقهية**،

عبدالرحيم بن الحسن الأسـنوي أبو محمد الوفاة: ٧٧٢هـ، دار عمار، عُمان، الأردن، ١٤٠٥، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. محمد حسن عواد.

١٨١ ـ **لسـان العرب،** محمد بن مكرم بن منظور الأفريقـي المصري، دار صادر، بيروت، الطبعة: الأولى.

١٨٢ ـ **لسان الميزان،** أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي الوفـاة: ٨٥٢هـ، مؤسسـة الأعلمـي للمطبوعات، بيـروت، ١٤٠٦، ١٩٨٦، الطبعة: الثالثة، تحقيق: دائرة المعرف النظامية، الهند.

١٨٣ ـ **مآثر الإنافة في معالم الخلافة،** أحمد بن عبدالله القلقشـندي الوفاة: ٨٢١هـ، مطبعة حكومـة الكويت، الكويـت، ١٩٨٥، الطبعة: الثانية، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج.

١٨٤ ـ **ماذا خسـر العالم بانحطاط المسـلمين،** أبو الحسـن النـدوي، دار الكتاب العربي، بيروت.

١٨٥ ـ **كتاب المتوارين الذين اختفوا خوفا من الحجاج بن يوسف الثقفي،** عبدالغني بن سعيد الأزدي أبو محمد الوفاة: ٤٠٩هـ، دار القلم ، الدار الشـامية، دمشـق، بيروت، ١٤١٠هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: مشهور حسن محمود سلمان.

١٨٦ ـ **المجاهـد أبو حمزة الشـاري،** مجموعة بحوث، نـدوة من أعلامنا الثانية، عن المجاهد أبو حمزة الشاري، المطابع العالمية، سلطنة عُمان، روي، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.

١٨٧ ـ **المحاسن والمساوئ،** إبراهيم بن محمد البيهقي الوفاة: بعد ٣٢٠هـ، دار الكتب العلمية، بيروت/ لبنان، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عدنان علي.

١٨٨ ـ **محاضرات الأدباء، ومحاورات الشعرء والبلغاء**، أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني الوفاة: ٥٠٢هـ، دار القلم، بيروت، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، تحقيق: عمر الطباع.

١٨٩ ـ **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، الطبعة: الاولى، تحقيق: عبدالسلام عبدالشافي محمد.

١٩٠ ـ **المحصول في علم الأصول**، محمد بن عمر بن الحسين الرازي الوفاة: ٦٠٦هـ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٠٠، الطبعة: الأولى، تحقيق: طه جابر فياض العلواني.

١٩١ ـ **المحكم والمحيط الأعظم**، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي الوفاة: ٤٥٨هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبدالحميد هنداوي.

١٩٢ ـ **المحن**، أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم بن تمام التميمي الوفاة: ٣٣٣هـ / ٩٤٤م، دار العلوم، الرياض، السعودية، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، الطبعة: الأولى، تحقيق: د عمر سليمان العقيلي.

١٩٣ ـ **المحيط في اللغة**، الصاحب الكافي الكفاة أب القاسم إسماعيل ابن عباد بن العباس بن أحمد بن إدريس الطالقاني الوفاة: ٣٨٥هـ، عالم الكتب، بيروت / لبنان، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، الطبعة: الأولى، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين.

١٩٤ ـ **مختصر تاريخ دمشق**، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري الوفاة: ٧١١هـ.

١٩٥ ـ **المختصر في أخبار البشر**، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي (المتوفي: ٧٣٢هـ).

١٩٦ ـ **مخطوطة لأبي نبهان** يحذر فيها من الحكم على أهل القبلة بأحكام المشركين.

١٩٧ ـ **مراتــب الإجماع في العبــادات والمعاملات والاعتقــادات**، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري أبو محمد الوفاة: ٤٥٦هـ، ص١٧٨، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٩٨ ـ **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**، علي بن سلطان محمد القاري الوفاة: ١٠١٤هـ، دار الكتب العلمية، لبنان/ بيروت، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، الطبعة: الأولى، تحقيق: جمال عيتاني.

١٩٩ ـ **مروج الذهب**، أبو الحســن على بن الحســين بن على المســعودي الوفاة: ٣٤٦هـ.

٢٠٠ ـ **المســتصفى في علم الأصول**، محمد بن محمــد الغزالي أبو حامد الوفاة: ٥٠٥هـ، دار الكتب العلميــة، بيروت، ١٤١٣، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد عبدالسلام عبدالشافي.

٢٠١ ـ **المصنف**، أبو بكــر عبدالرزاق بن همام الصنعانــي الوفاة: ٢١١هـ، المكتب الإســلامي، بيروت، ١٤٠٣، الطبعة: الثانيــة، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي.

٢٠٢ ـ **معاملة غير المســلمين، الحوار والتسامح في الإســلام، شواهد من التأريخ**، للدكتور محمد علي البار، دار القلم دمشــق، الدار الشــامية بيروت.

٢٠٣ ـ **معجم مقاييس اللغة**، أبي الحســين أحمد بن فارس بن زكريا الوفاة: ٣٩٥هـ، دار النشــر: دار الجيــل، بيروت، لبنــان، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، الطبعة: الثانية، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون.

٢٠٤ ـ **معرفة الثقات من رجـال أهل العلم والحديث ومـن الضعفاء وذكر مذاهبهم وأخبارهم**، لأبي الحسـن أحمد بن عبد الله بن صالح العجلي الكوفي نزيل طرابلس الغـرب الوفاة: ٢٦١هـ، مكتبـة الدار، المدينة المنورة، السعودية، ١٤٠٥، ١٩٨٥، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبد العليم عبد العظيم البستوي.

٢٠٥ ـ **المعرفة والتاريخ**، أبو يوسـف يعقوب بن سـفيان الفسـوي الوفاة: ٢٧٧هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، تحقيق: خليل المنصور.

٢٠٦ ـ **مغاني الأخيار**، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسـى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفي بدر الدين العينى (المتوفي: ٨٥٥هـ).

٢٠٧ ـ **المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني**، عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي أبو محمد الوفاة: ٦٢٠هـ، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥، الطبعة: الأولى.

٢٠٨ ـ **مفتاح السـعادة إلى صحيح العبادة**، (أنوار العقـول، مدارج الكمال، كشـف الحقيقة)، نور الدين عبد الله بن حميد السالمي، السيب، الحيل الجنوبية، محافظة مسقط، الطبعة الأولى.

٢٠٩ ـ **المفردات في غريب القرآن**، أبو القاسـم الحسـين بن محمد الوفاة: ٥٠٢هـ، دار المعرفة، لبنان، تحقيق: محمد سيد كيلاني.

٢١٠ ـ **المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم**، المكتبة الشاملة.

٢١١ ـ **مقاتل الطالبيين**، أبو الفرج الاصفهاني، علي بن الحسين (المتوفي: ٣٥٦هـ)

٢١٢ ـ **المنة الكبرى شرح وتخريج السـنن الصغرى**، محمد ضياء الرحمن الأعظمي، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٢٢هـ.

٢١٣ ـ **المنتخـــب من ذيل المذيـــل**، محمد بن جرير بـــن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفي: ٣١٠هـ).

٢١٤ ـ **المنتظـــم في تاريـــخ الملوك والأمـــم**، عبدالرحمن بن علي بـــن محمد بن الجوزي أبو الفرج الوفاة: ٥٩٧هـ، دار صادر، بيروت، ١٣٥٨، الطبعة: الأولى.

٢١٥ ـ **المنتقى من منهاج الاعتدال في نقـــض كلام أهل الرفض والاعتزال**، أبو عبدالله محمد بن عثمـــان الذهبي الوفـــاة: ٧٤٨هـ، تحقيق: محب الدين الخطيب.

٢١٦ ـ **منح الجليل شـــرح على مختصر ســـيد خليل**، محمد عليش. الوفاة: ١٢٩٩هـ، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

٢١٧ ـ **المنخول في تعليقات الأصـــول**، محمد بن محمد بن محمد الغزالي أبو حامد الوفاة: ٥٠٥هـ، دار الفكر، دمشـــق، ١٤٠٠، الطبعة: الثانية، تحقيق: د. محمد حسن هيتو.

٢١٨ ـ **المنمق في أخبار قريش**، محمد بن حبيب البغدادي الوفاة: ٢٤٥هـ، عالم الكتـــب، بيـــروت / لبنـــان، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، الطبعة: الأولى، تحقيق: خورشيد أحمد فارق.

٢١٩ ـ **منهـــاج السُّـــنَّة النبويّـــة**، أحمد بـــن عبدالحليم بن تيميـــة الحراني أبو العباس الوفاة: ٧٢٨هـ، مؤسســـة قرطبـــة، ١٤٠٦، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. محمد رشاد سالم.

٢٢٠ ـ **منهج الدعوة عند الإباضية**، محمد صالح ناصر، مكتبة الاســـتقامة، مسقط، سلطنة عُمان، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

٢٢١ ـ **موجز تاريـــخ تجديد الديـــن وإحيائه**، طبع دار الســـعودية للنشـــر والتوزيع.

٢٢٢ ـ **نثر الدر في المحاضرات،** أبو سعد منصور بن الحسين الأبي الوفاة: ٤٢١هـ، دار الكتب العلمية، بيروت /لبنان، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م، الطبعة: الأولى، تحقيق: خالد عبدالغني محفوط.

٢٢٣ ـ **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،** جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردى الأتابكي الوفاة: ٨٧٤هـ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر.

٢٢٤ ـ **نسب قريش،** أبو عبدالله المصعب بن عبدالله بن المصعب الزبيري الوفاة: ٢٣٦هـ، دار المعارف، القاهرة، تحقيق: ليفي بروفسال.

٢٢٥ ـ **نشأة الحركة الأباضية،** عوض خليفات، دار الحكمة لندن، ط١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

٢٢٦ ـ **نهاية الأرب في فنون الأدب،** شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويري الوفاة: ٧٣٣هـ، دار الكتب العلمية، بيروت / لبنان، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م، الطبعة: الأولى، تحقيق: مفيد قمحية وجماعة.

٢٢٧ ـ **النهاية في غريب الحديث والأثر،** أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري الوفاة: ٦٠٦هـ، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى، محمود محمد الطناحي.

٢٢٨ ـ **نهضة الأعيان بحرية عُمان،** ابن حميد، عبدالله بن حميد بن سلوم السالمي، دار الجيل، بيروت.

٢٢٩ ـ **نور القبس،** أبو المحاسن يوسف بن أحمد بن محمود اليغموري (المتوفى: ٦٧٣هـ).

٢٣٠ ـ نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار، محمد بن علي بن محمد الشوكاني الوفاة: ١٢٥٥هـ، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣.

٢٣١ ـ **وحي العبقرية**، عبدالله بن علي الخليلي، ط٢، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

٢٣٢ ـ **وقعة صفين**، نصر بن مزاحم بن سيار المنقري الوفاة: ٢١٢هـ.

٢٣٣ ـ **يا شيعة العالم استيقظوا**، موسى الموسوي.

فهرس العناوين

القسم الثاني: مواجهة الاستبداد